التيسير في التفسير

تأليف الإمام

أبي حفص النسفي

نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد النسفي الحنفي

٤٦١ ـ ٥٣٧ هـ

يُطبع أول مرة محققاً على ثلاث نسخ خطية

تحقيق وتعليق

سارية فايز عجلوني

المجلد الثالث عشر

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم

التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ

(١٣)

الطبعَة الأولىٰ
١٤٤٠هـ-٢٠١٩م

9 786052 279311

دار اللُّباب
للدِّراساتِ وتحقِيق التُّراثِ

DAR-ALLOBAB
Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

اسطنبول - تركيا
00905454729850
00902125255551
info@allobab.com

بيروت - لبنان
009615813966
0096170112990
Www.allobab.com

İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

سُورَةُ الزُّمَرِ

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الذي خلَقَنا في بطون أمهاتنا خَلْقاً مِن بعد خَلْق في ظلُمات ثلاث، الرحمنِ الذي عليه يتوكَّل المتوكلون وهو المُسْتعان والمُسْتغاث، الرحيمِ الذي يورث المؤمنَ أرضَ الجنة يتبوَّأ منها حيث يشاء فهي خير ميراث.

وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة الزُّمَر لم يَقْطَعِ الله رجاءه، وأعطاه ثواب الخائفين الذين يخافون الله تعالى»[1].

وهذه السورة مكِّيَّةٌ إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة في وَحْشِيٍّ ابن حَرْب: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

وآياتُها: خمس وسبعون. وقيل: ثلاث. وقيل: اثنتان.

الاختلافُ في سبع آيات: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿مِنْ هَادٍ﴾، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وكلماتُها: ألف ومئة وتسع وستون.

وحروفُها: أربعة آلاف وسبع مئة وثلاثة وسبعون.

وانتظامُ أول هذه السورة بآخر تلك السورة: أنَّهما في ذِكْر القرآن.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٢٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٦٩)، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور، تقدم الكلام عليه مراراً.

وانتظامُ السورتين: أنَّهما في مُحاجَّة المشركين، ووعد المؤمنين، ووعيد الكافرين.

* * *

(١ ـ ٢) ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أي: إنزال القرآن شيئاً فشيئاً على محمد ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: في انتقامه ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: في أحكامه.

وقيل: فيه تقديم وتأخير، تقديرُه: تنزيل الكتاب العزيز الحكيم مِن الله، فهُما مِن صفات القرآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يس: ١ ـ ٢].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ببيان الحق؛ أي: وبما يحِقُّ الأخذ به.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾: أي: وحِّدْه وأَطِعْه ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: مُصفِّياً له الاعتقاد والعمل.

* * *

(٣) ـ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾: أي: المُسْتحِقُّ للطاعة الخالصة التي لا يشوبُها شرك هو الله تعالى؛ إذ هو الخالق الرازق المالك المنفرد بالألوهية.

وقيل: معناه: إنَّ التوحيد الخالص هو الذي يُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، دون غيره مِن الأديان التي يشوبُها الشرك.

وقال الإمام القُشيري في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾: العبادة مُعانقة الأمر على غاية الخشوع[1]، ويكون بالنفس والقلب والروح، فالتي بالنفس الإخلاصُ فيها بالتباعد عن الانتقاص، والتي بالقلب الإخلاصُ فيها بالعَمى عن رؤية الأشخاص، والتي بالروح الإخلاصُ فيها بالتَّنَقِّي عن طلب الاختصاص[2].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾: أي: والمشركون الذين اتَّخذوا مِن دون الله أصناماً يتولَّوْنهم ويجعلونهم يلُونهم بالحفظ والإحاطة[3] والحيَاطة من المكاره.

وقولُه تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾: أي: يقولون: ما نعبد هؤلاء الأصنام ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾: بالشفاعة لنا إليه.

وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ يوم القيامة[4] ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: أي: إنَّ الله عالم بهذا القول منهم، وسيرجعون إليه فيحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، بأنْ يُمَيِّزَ بين المُحِقِّ منهم والمُبْطِل بالثواب والعقاب، ويكون على هذا قولُه: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ كنايةً عن المشركين والموحِّدين جميعاً، وثبَتَ ذِكْر المشركين في الآية صريحاً، وذكرُ الموحِّدين دلالة قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ وأهلُه الموحِّدون.

فإن كان قولُه: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ مُقتصِراً على المشركين، فالحُكْمُ بينهم فيما هم فيه

---

(١) في (ف) و(أ): «الخضوع»، والمثبت موافق لما في «اللطائف».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٦٧).

(٣) «والإحاطة» ليس من (أ) و(ف).

(٤) «يوم القيامة» زيادة من (ف).

يختلفون مِن اختلاف معبوديهم: فمنهم عابدُ صنَمٍ، ومنهم عابدُ عِجْلٍ، ومنهم عابدُ شمسٍ، ومنهم عابدُ الملائكةِ، ومنهم عابدُ الجنِّ، فيحكم بينهم جميعاً بما ذُكِر في آيات: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦]، ونظائرها.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾: أي: لا يُرشد إلى الحقِّ، ولا يخلُقُ صفة الاهتداء ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ على الله أو على رسوله ﴿كَفَّارٌ﴾: كافر بالله ما دام مُصِرًّا على ذلك.

وقيل: هذا الكذب هو قولهم: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

* * *

(٤) ـ ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾:

قال الإمام أبو منصور: أي: لو جاز واحتمل أنْ يتَّخِذ الله ولداً ـ على ما يتوهَّمون ـ لاختار مما يشاء مَن شاء، لا على ما تختارون أنتم وتشاؤون أنَّ الملائكة بنات الله؛ إذ العُرْفُ في الخَلْق أنَّ مَن اتَّخذ لنفسه شيئاً إنما يتَّخذ مِن أعز الأشياء وأرفعها وأعظمها قَدْراً، لا مِن أخس الأشياء وأذلِّها، وأنتم تختارون البنين على البنات، فكيف اختار هو البنات على البنين[1]؟!

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي: تنزيهاً لله تعالى عن هذا ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾: الذي لا إله غيره ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: أي: القهار عبادَه.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦٥٦).

والولدُ في الشاهد إنما يُتَّخذُ لأحد وجوه:

إما لوحشة أصابَته فيستأنِس به.

وإما لحاجة مسَّتْه[1]، فيدفع الولدُ ذلك عنه.

وإما لغلبة شَهْوة فيقضيها، فيتولد منه الولد.

وإما لوراثة مُلْكِه بعد موته.

والله تعالى قهَّار دائم باقٍ واحد، فلا يجوز ذلك عليه.

* * *

(٥) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: بالحق الذي له على الخَلْق.

وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي: للحق، وهو البعث؛ لأن الخَلْق للفناء عبَثٌ.

وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أي: بالحكمة؛ إذ جعل في كل شيء آيةً على ربوبيَّته ووحدانيَّته.

وقولُه تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾: أي: يلُفُّه، وهو مِن كَوْر العِمامة، قاله قُطْرُب[2].

وقال أبو عبيدة: أي: يُدْخِل نُقْصان الليل في زيادة النهار[3].

---

(١) في (ر) و(ف): «تمسه».

(٢) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ٦٥٨) من قول أبي عوسجة والقتبي.

(٣) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٨٨).

﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾: أي: يُدْخل نُقْصان النهار في زيادة الليل؛ كقولهم: «الحَوْر بعد الكَوْر»[١]، أي: النُّقْصان بعد الزيادة، وهو في معنى قوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، وهو تعريف اختلاف فصول السنة من ربيعٍ وصيفٍ وخريفٍ وشتاءٍ تعديلاً للطبائع والأزمنة.

وحاصلُه: أنَّ التكوير له ثلاثُ مَعانٍ:

الإيلاج: وهو أنْ يُزاد مِن هذا في هذا، ومِن هذا في هذا.

والتَّغْطية: فإذا جاء الليل غطَّى على النهار؛ كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، وكذا كَوْر العمامة.

والإدارة: كما في كَوْر العمامة[٢]، وهو مجيء أحدهما على إِثْر الآخر مُتعاقبين.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: أي: ذلَّلَهما وجعلهما يجريان ويَطْلعان ويَغْرُبان لمنافع العباد.

﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: كلُّ واحد مِن الشمس والقمر يجري في الفُلْك إلى أنْ تنقضيَ الدنيا للأجل المسمى عنده، فيَنتقِض هذا النَّظْم حينئذ.

وقيل: الأجل المسمى: هو الوقت الذي ينتهي فيه سَيْر الشمس والقمر إلى منازلهما المرتَّبة لغروبهما وطلوعهما على ما مرَّ في سورة يس.

---

(١) انظر: «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (١/ ٣١٥).

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يستعيذ من الحور بعد الكور، رواه مسلم في «صحيحه» (٢/ ٩٧٩) من حديث عبد الله بن سَرْجِس رضي الله عنه.

(٢) «كما في كور العمامة» ليس في (أ).

وقولُه تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: المنيع الذي لا يُمنع ممَّا[١] يُجريه على المُسيء ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾: لِمَن تاب وأناب بعد الإساءة.

* * *

(٦) ـ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: وهو آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: وهي حَوَّاء.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: أي: وخلق لمنافعكم مِن البهائم ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾: وهي الإبل، والبقر، والغنم، والمَعْزُ.

والأزواجُ: الأصناف، والزوجان: ذكر وأنثى، كلُّ فردٍ زوجٌ، وهي المذكورة في قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

ثم قولُه: ﴿وَأَنزَلَ﴾ له وجوه:

أحدُها: أنَّ أصلها مِن الجنة، وأُنزلت على آدم.

والثاني: أنَّ معناه: أعطى، والنُّزولُ: العَطِيَّةُ.

والثالث: أنَّ السؤال رَفْعُ الحاجة، والإجابةَ إنزالٌ.

والرابع: أنَّ قِوام الأنعام بالنبات، وهو مِن المطر، وذاك مُنزل مِن السماء،

---

(١) في (ف): «عما».

وعلى هذا قولُه: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: ٢٦]، ولأنَّ الوصول بأمر الله تعالى، والمُبَلِّغون(١) أَمْرَ الله ينزلون مِن السماء.

وعلى هذا: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥] له هذه الوجوه.

وقولُه تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾: أي: تقديراً بعد تقدير، وتارةً بعد تارة، وهي ما ذُكِر في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣] الآيات.

﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾: قال أكثر المفسرين: هي ظُلْمة الـمَشيمة، وهي الجِلْدة التي يكون فيها الولد، وهي كالغشاء، وظُلْمةُ الرَّحِم، وظُلْمةُ البطن يُصوِّرُ الله الخَلْق فيها، لا يخفى عليه ذلك كما لا يخفى على مَن أراد تصوير شيء لو كان في شيء يسترُه، نبَّهَ على أنه بصير بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، ولا يَستُرُ شيئاً عنه شيءٌ(٢).

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾: أي: كيف ومِن أين ينصرفون عن تدبُّر هذه الآيات، وعن إخلاص العبادة لله إلى الشرك به وإلى عبادة ما سواه.

* * *

(٧) ـ ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾: أي: إنْ تجحَدوا نِعَم الله، وتتركوا

---

(١) في (ف): «والمتلقون».

(٢) في (ف): «ولا يُستر شيء عنه».

الشكر له عليها، فإنه لا يضرُّه كفركم؛ إذ لم يأمرْكم بالشكر لنَفْعٍ يجرُّه إلى نفْسه، وضُرٍّ يدفعه عن نفْسه، بل هو غني عنكم وعن عبادتكم.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾: وهو وإنْ كان غنيًّا عنكم، فإنه لا يرضى أنْ يفعل العباد الكفر، فإنه قبيح في نفْسه.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾: أي: الشكرَ، فإنه حسَنٌ في نفْسه، فيقبله منكم ويُثيبكم عليه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي: ولا تحمل نفْسٌ حاملةٌ حِمْلَ نفْسٍ أخرى.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾: أي: ثم في القيامة إلى جزاء ربكم رجوعُكم.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي: فيُخبركم بأعمالكم، ويُجازيكم عليها.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بخَفِيَّات القلوب.

وقال السُّدِّي: ﴿إن تشكروا﴾: تطيعوا[١].

وقال الخليل: الشكر: عِرْفانُ الإحسان ونَشْرُه[٢].

* * *

(٨) ـ ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾: أي: وإذا نال أحداً مِن هؤلاء المشركين بلاءٌ وشِدَّةٌ في أبدانهم وأموالهم وأسبابهم، فزِعَ إلى الدعاء والتضرُّع

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٦٩).

(٢) انظر: «العين» للخليل (٥/ ٢٩٢).

إلى الله تعالى، راجعاً إليه دون الأصنام الذي اتخذوها أولياء؛ لعِلْمه الضروري أنَّ الصنم لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يجرُّ ولا يدفع.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾: أي: ملَّكه وأعطاه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾: وهي خلاف الضُّرِّ الذي كان مسَّه مِن الصحة والعافية والثَّرْوة والأُلْفة.

﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾: أي: ترَكَ الدعاء الذي كان يدعو به من قبل نَيْلِ هذه النعمة تَرْكَ الناسي للشيء الذي لا يخطُرُ بباله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ﴾ له معنيان:

أحدُهما: ﴿يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾؛ أي: يدعو الله مُنيباً إليه، فتكون الهاء كنايةً عن الله.

والثاني: يدعو الله إليه، أي: إلى كَشْفه، فتكون الكناية عن ذلك الشيء الذي يَسأل كشفَه،

وعلى هذا قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾.

ووجهٌ آخر: نسِيَ ما كان يدعو الناسَ إلى الله؛ أي: إلى الإيمان بالله تعالى، والاعتصام به في هذه الحالة.

ووجهٌ آخر: نسِيَ ما كان يَستشفع به[1] بالناس إلى الله تعالى؛ أي: يستعين بهم في دعاء الله لحاجته[2].

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: أي: قل يا محمد لهذا الكافر: إنَّ تمتُّعَك بكفركَ في الدنيا مِن نَيْل الرياسة والأغراض الدنيوية قليلٌ زائلٌ، ثم إنك صائرٌ إلى النار، باقٍ فيه خالداً مُخلَّداً.

---

(١) «به» زيادة من (أ).

(٢) في (أ): «بحاجته»، وهذا الوجه الأخير غير واضح.

وقولُه تعالى: ﴿تَمَتَّعْ﴾: صيغة أمر، ومعناه خبر؛ كما قيل: «إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئتَ»[(١)]، أي: صنَعْتَ ما شئتَ.

وقيل: هو تهديد؛ كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

* * *

(٩) ـ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: ليس مَن هو مصلِّي أوقاتِ ليلِه[(٢)] في أوله وأوسطه وآخره، مواظبٌ على الصلوات لربه، يقوم في صلاته إعظاماً، ويسجد تارةً تذلُّلاً، ويخاف الحساب في الآخرة لإيمانه بالبعث، ويرجو رحمة ربه، فيتردَّدُ بين الخوف والرجاء، كمَن ليس هكذا، بل هو مشرك يتَّخذ مِن دون الله أنداداً، ويكفر نعمة ربه.

وحذَفَ ذِكْر الفريق الثاني اختصاراً؛ لوضوح المراد، فأشار إليه أيضاً فيما ذَكَر بعده:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: وهو للنفي أيضاً، فكذا الأول، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فإذا لم يستَوِ العالم وغيرُ العالم لم يستَوِ الخاشي وغيرُ الخاشي.

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٧٠٩٨) من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه، وهو من الأمثال التي سارت بها الركبان. انظر: «المثل السائر» (١/ ٦٤) لابن الأثير.

(٢) في (ف): «يصلي أوقات ليله» وفي (ر): «يصلي أو قانت ليله».

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: إنما ينتفع بهذه المواعظ والأمثال مَن كان له عقل، فيتدبَّرُ به.

وقرأ حمزة ونافع: ﴿أَمَن﴾ بالتخفيف[١]، وله وجهان:

أحدُهما: أنه استفهام بالألف.

والثاني: أنه نداء بالألف؛ أي: يا مَنْ هو قانت وكذا أبشِرْ بالثواب والنجاة مِن النار.

وقال ابن عباس ومقاتل: نزلت في عمار بن ياسر[٢].

وقال الضحاك والسُّدِّي: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه[٣].

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾: يعني: عماراً وعثمان، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يعني: أبا حذيفة بن المغيرة، وكذا الأول: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾: هي فيه[٤].

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٦١)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٩)، وهي قراءة ابن كثير أيضاً من السبعة.

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٥٠) عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وذكر الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٢٤) عن مقاتل أنها نزلت في عمار بن ياسر، وأبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي.

(٣) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢١٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما.
وفي «تفسير السمعاني» (٤/ ٤٦١)، و«تفسير البغوي» (٧/ ١١٠)، عن الضحاك أنها نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٣٧٥)، وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١١٠).

(١٠) ـ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾: أي: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد عني: ﴿يَٰعِبَادِ ﴾؛ أي: خواصِّي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾، فأطيعوه ولا تعصوه.

وقولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾: له وجهان:

أحدُهما: الذين أحسنوا في الدنيا لهم حسنةٌ في الآخرة، وهي الجنة، ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾؛ أي: أرض الجنة؛ كما قال: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١]، واسم الأرض يقع عليها، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ على الإحسان في الدنيا ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾: ثواباً لا يدخل في حساب الخَلْق لكثرته.

والثاني: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾: وهي النصر؛ كما قال: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]؛ أي: النُّصْرةَ أو الشهادةَ، وقولُه تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾؛ أي: وأرض الدنيا مُتَّسعة لِمَن ضعُفَ عن الصبر على فتنة المشركين، وتعذيبهم على الدين، فهاجِروا فيها إلى أرضٍ تأمنون بها على أنفسكم وأديانكم، ولا ترجعوا إلى دين الكفار بإكراههم، واصبروا على الحق وأذى الخَلْق، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم ﴾ على ذلك ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

* * *

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾:

أي: قل يا محمد للكفار ـ بعدما قلتَ للمسلمين ـ: أمرَني الله أنْ أعبدَه مُخلصاً له الطاعة والانقياد، بخلافِ ما أنتم عليه، وأمرَني أنْ أسبق الأمة إلى الإسلام، لا أنتظر به إسلام أحد منهم؛ ليكونَ لي شرَف السَّبْق، وثوابُ الكل بسبب السَّبْق.

وقولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾: جمَعَ بين صِلَتين، وهما اللام و(أنْ)، ويجوز ذِكْر الأمر على ثلاثة أوجه: وأُمِرْتُ أنْ أفعل، و: أُمِرْتُ لِأفعل؛ قال تعالى: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، و: أُمِرْتُ لِأنْ أفعل.

وقيل: معناه هاهنا: أُمِرْتُ أنْ أعبد الله تعالى، وأُمِرْتُ بذلك لأنْ أكون أول المسلمين، فأنالَ شرف ذلك وثوابه.

***

(١٣ ـ ١٥) ـ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أي: عظيم الأحوال، كثير الأهوال.

قولُه تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾: كما أمرني به.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾: وهذا أمرُ تهديدٍ؛ أي: اختاروا لأنفسكم ما شئتُم، فقد اخترتُ[1] لنفْسي ما أمرَني به ربي، ودليلُ أنه للتهديد: ما سبَقَ مِن ذِكْر العذاب العظيم على خلاف هذا الأمر، وكذا ما ذُكِر بعده مِن الخُسْر[2].

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أي: الذين عبدوا غيرَ الله هم الهالكون، أهلكوا أنفسهم وأهليهم.

---

(١) في (أ): «أجزت».

(٢) في (ر): «الحشر».

قال مجاهد وابن زيد: خُسْران النَّفْس: هلاكُها بالعذاب، وخُسْران أهليهم: ألَّا يكون لهم في النار أهل وقد كان لهم في الدنيا أهل[١].

وقال الحسن: ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: الحورُ العِين في الجنة خسِروها حيث حُرِموها بكفرهم[٢].

وقيل: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: حيث لا يكون لهم نفوس صحيحة ينتفعون[٣] بها بشيء من المَلاذِّ، ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾: فإنهم إنْ كانوا كفاراً وكانوا معهم في النار، كان ذلك زيادةَ حَسْرةٍ ووَحْشةٍ لا سببَ أُنسٍ وراحةٍ.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾: أي: الظاهر الواضح.

* * *

(١٦) ـ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: أي: كهيئة الظُّلَل[٤] المبنيَّة فوقهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾: أي: تُحيط بهم نار جهنم مِن كل الجهات، وهو كقوله: ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، وكقوله: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٨١)، وذكره عنهما الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١١٩).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١١٩) عن الحسن وقتادة.

(٣) في (ر): «يرتفقون».

(٤) في (أ): «الظلمة».

ثم جعَل ما تحتهم ظُلَّةً وإن كانت ظِلال[١] الدنيا عاليةً؛ لأنَّ جهنم أَدْراكٌ، فالظُّلَّة التي تكون تحت قوم تكون ظُلَّةً عاليةً على قوم.

وقيل: جعل ما تحتهم ظُلَّةً؛ لأن ذِكْرها في مقابلة ما فوقَهم، والمُتَقابلان يُسمَّيان باسم واحد؛ كـ(العصرين) في أول النهار وآخره.

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾: يعني: بما ذكَرَ مِن عذاب النار.

﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾: حذَّرَهم النار، ثم حذَّرَهم نفْسه، فهو المعذِّب بالنار مَن عذَّبه بها.

***

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾: أي: مَن أخلص العبادة لله، وتباعَد عن عبادة الشياطين، ومن طاعاتهم في الإشراك به، وكان منهم على جانب لا يُلاقيهم، هذا حقيقة الاجتناب؛ كالانحراف الذي حقيقتُه أنْ يكون على حَرْف، والاعتراض[٢] الذي حقيقته أن يكون على عُرْض.

﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: وأقبلوا إلى الله بطاعتهم وعبادتهم مُخلصين له الدِّين.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾: أي: بالجِنان، بدلٌ عمَّا لأولئك الخاسرين مِن النار.

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾[٣]: قيل: عمومُه يتناول كلَّ قول؛ أي:

(١) في (أ): «ظلة».

(٢) في (ف) و(أ): «والإعراض».

(٣) في (ف): «فبشر عبادي..»، وهي رواية السوسي ـ بخلف عنه ـ عن أبي عمرو، حيث قرأها بإثبات =

قولَ الله، وقولَ رسوله، وقولَ مَن سلَف مِن المؤمنين والكفار.

وقولُه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾: أي: أحسَنَه عاقبةً، وهو طاعة الله تعالى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: اهتدَوا بهُداه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أي: المُنتفعون بعقولهم.

قيل: نزلت الآية في ثلاثة نفَرٍ كانوا يقولون: (لا إله إلا الله) في الجاهلية: زيد ابن عمرو بن نُفيل، وسلمان، وعمار[1].

و﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ قيل: هو الشيطان. وقيل: هُمُ الشياطين.

وقيل: هو ما عُبِد مِن دون الله.

وقيل: هو الكاهن.

وقد يكون واحداً مُذكَّراً، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[2] [النساء: ٦٠]، ويكون مؤنثاً كما في هذه الآية، وهو قوله: ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾، ويكون جَمْعاً، قال تعالى: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقيل: الطواغيت خمسة: كعب بن الأشرف بالمدينة، وأبو بُرْدة بالشام، وعوف ابن عامر في أَسْلَمَ، وأبو السَّوداء في بني أسد، وعبد الله بن قيس في بني خُزاعة[3].

وعبادة الطواغيت هي طاعتهم لهم فيما أَمروا به ونهَوا عنه؛ كما قال:

= الياء وفتحها وصلاً. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٦١)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٩).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٨٥) عن ابن زيد، وثالثهم فيه هو أبو ذر الغفاري لا عمار.

(٢) في النسخ: «يؤمنون بالجبت والطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به»، والصواب المثبت.

(٣) ذكره نحوه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ٨٩)، والبغوي في «تفسيره» (١/ ٦٧).

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال الإمام القُشَيري: طاغوتُ كل أحد نفْسُه، وعبادتُه له: اتِّباع هواه في مخالفة مولاه[١].

وقال في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ ﴾: أي: يستمعون كلَّ قول، ثم يتَّبعون الأحسن، وهو ما كان لله دون غيره.

وقيل: هو ذِكْر الله خالصاً.

وقيل: مَن عرف الله لا يسمع مِن غير الله.

وقيل: للعبد دَواعٍ مِن باطنه، منها: هواجس النَّفْس، ومنها: وساوس الشيطان، ومنها: خواطر الملَك، ومنها: خطاب الحق، فوساوس الشيطان تدعو إلى المعاصي، وهواجس النَّفْس إلى مُتابعة الشهوات، وخواطر الملَك تدعو إلى الطاعات، وخطاب الحق إلى حقائق التوحيد[٢].

وقيل: مَن أحسَنَ أنْ يستمِعَ[٣] مِن الله، أحسَنَ أنْ يسمعَ عباد الله.

* * *

(١٩) ـ ﴿ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ ﴾: أي: وعيدُ الله به بقوله: ﴿ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾: فعبَدَ الطاغوت، واتخذ مِن دون الله أولياء.

---

(١) عبارة «اللطائف»: طاغوت كل إنسان نفسه، وإنما يجتنب الطاغوت من خالف هواه، وعانق رضا مولاه.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥).

(٣) في (ف): «يسمع».

﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: أي: تُخَلِّص منها.

وقيل: جواب الأول محذوف: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ تهديه.

وقيل: الإضمار في الكلام الثاني: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ منهم؛ أي: لا تجهَدْ في حق هؤلاء كلَّ هذا الجَهْد، فأنت غير قادر على ذلك، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾، فهو استفهام في معنى النفي.

فأما تكرير الاستفهام في الآية فللتأكيد؛ كما في قوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢].

وقال الفراء: إنَّ هذا مما يُراد به الاستفهام الواحد، لكنْ سبق الاستفهامُ موضعَه، فأُعيد في موضعه الذي هو له، وإنما المعنى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وهو ممَّن حقَّتْ عليه كلمة العذاب، وكذلك قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ الآية، ونظيره مِن غير الاستفهام: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، فذكر «أنَّكم» مرتين، وإنما المعنى: أيَعِدُكم أنَّكم مُخرجون إذا مِتُّم، وكذلك قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨][1].

***

(٢٠) - ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾: أي: في الجنة،

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤١٨).

على مُقابلةِ ما قال لأهل النار قبله، وهو قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ﴾: أي: وعداً حقاً مِن الله ذلك ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾؛ أي: الوعد في الفريقين جميعاً.

* * *

(٢١) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: أي: مطراً.

﴿فَسَلَكَهُ﴾: أي: أدخَلَه ﴿يَنَابِيعَ﴾؛ أي: عيوناً وأنهاراً ينبع الماء منها؛ أي: يفور.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾: فصارت فيها.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾: أي: بالماء ﴿زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: قيل: أي: أصنافه؛ كقولك: هذا لون مِن الثياب، ولون مِن الطعام، يعني: مِن حِنْطة وشعير وأَرُزٍّ وغير ذلك مِن الحُبوب.

وقيل: هي الألوان حقيقةً، فإنَّ الزرع مختلِف ألوانه، فإنَّ لون الأَرُزِّ غيرُ لون الحِنْطة، ونحو ذلك.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾: ثم يَيْبَس هذا الزرع ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾: مُتناثراً مُتساقطاً مُتكسِّراً.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾: أي: فيما ذكَرْنا مِن إحياء الأرض بعد موتها دِلالةً على إحياء الخَلْق بعد موتهم، وهذا وعد مِن الله تعالى لا يُخْلِفُه.

* * *

(٢٢) ـ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾: هو نعتُ ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾؛ أي: أَفَمَن فتح الله قلبه فاتَّسعَ للتدبر والعلم والإيمان ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ أي: على هداية ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾: فهو يمضي على استبصارٍ في طريق الحقِّ[1]؛ أي: هو أفضل وأهدى سبيلاً، أمْ مَن هو مُخالف له ممن قد قسا قلبه عن ذكر الله تعالى، فهو مُتحيِّرٌ مُتردِّدٌ في الظلمات ليس بخارج منها؟! وحذف هذا اختصاراً؛ لوضوح المراد بما تقدم وما تأخر.

وقولُه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾: والقاسي القلب: هو الذي أَلِفَ الكفر والإعراضَ عن استماع ذِكْر الله، فرانَ على قلبه سوءُ كَسْبه، فقسا قلبه؛ أي: صلُبَ، فصار كالشيء المُصْمَت الذي لا يتخلَّله شيء، ولا ينفُذُ إليه شيء.

﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: هو ما ذكَرَ الله ورسوله مِن الترغيب والترهيب وضَرْب الأمثال.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي: غِواية ظاهرة.

وقال مقاتل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾: يعني: النبيَّ ﷺ، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾: يعني: أبا جهل وذَوِيه[2].

ورُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل النورُ القلبَ انفسحَ وانشرحَ»، قيل: يا رسول الله! وهل لذلك مِن علامة؟ فقال: «نعم، التَّجافي عن دار الغُرور،

(١) في (ر) و(ف): «الجنة».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٢٩)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٧٧).

والإنابةُ إلى دار الخُلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[١].

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: النور الذي هو من عند الله: نورُ اللَّوائح بنجوم العلم، ثم نور اللوامع ببيان الفَهم، ثم نور المحاضرة بزوائد اليقين، ثم نور المُكاشفة بتجلِّي الصفات، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، ثم أنوار الصَّمَدية بحقائق التوحيد، فعند ذلك يتحقَّقُ الاصطلام، فلا وَجْدَ ولا قَصْد، ولا قُرْبَ ولا بُعْد، كلَّا بل هو الله الواحد القهار[٢].

* * *

(٢٣) ـ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾: أي: أوحى إلى محمد لِيُلَيِّنَ القلوب القاسية بذكر الله، ولِيُطَيِّبَ قلوب الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾؛ أي: أحسنَ ما يُتَحَدَّثُ به؛ لأنه مُشتمل على مصالح أمور الدين والدنيا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٣١٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣/ ١٣٣)، والحاكم في «مستدركه» (٤/ ٣٤٦) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً، وفي إسناده عدي بن الفضل، متروك الحديث. كما في «تقريب التهذيب».

ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٢٦) من حديث عبد الله بن المسور مرسلا.

قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٢١٧): مرسل ضعيف، وهو الصواب في رواية هذا الحديث،

وقال الدارقطني في «علله» (٥/ ١٨٩) بعد أن ذكر رواياته: وكلها وهم، والصواب عن عمرو بن مرة، عن أبي جعفر عبد الله بن المسور مرسلا، عن النبي ﷺ، وعبد الله بن المسور هذا متروك.

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٧٧).

﴿كِتَٰبًا﴾: أي: كلاماً مجموعاً يُكتب، وقيل: كتاباً مِن الله تعالى إلى عباده.

﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: أي: يُشبه بعضه بعضاً، فلا يختلف ولا يتناقض.

ولفظٌ آخر: يُصدِّقُ بعضُه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض.

وقيل: أي: كلُّه فاضلٌ مُعْجزٌ خارج عن صفات كلام الآدميِّين الذي لا يخلو عن تفاوت.

﴿مَّثَانِيَ﴾: أي: ثنَّى فيه الأنباءَ والقصص والآياتِ المُكرَّرةَ في الوعد والوعيد للتقرير(١) والتأكيد.

وقيل: المثاني: خواتم الآيات؛ وذلك أنَّ القرآن بايَنَ سائر الكلام بخروجه عن طرق أصناف الكلام التي كانت العرب تتعاطاها نظماً ونثراً، فالمنظوم عندهم يُسمَّى: شِعْراً، والمنثور يُسمَّى: خُطْبَةً، والقرآن خارجٌ عما عليه هذان النوعان.

وكذلك أسماؤُه مُباينةٌ لأسمائها، فليس يُسمَّى: شعراً، ولا: خُطْبَةً، بل هو: قرآن، و: كتاب، وسمَّى كل قِطْعة منه: سورةً؛ كما سمَّت العرب كل قِطْعة مِن الشعر: قصيدةً وأُرْجُوزةً، وسمَّى كل فَصْل مِن السورة: آيةً؛ كما سمَّت العرب مثل ذلك مِن الشِّعر: بيتاً؛ أي: رجَزاً، وسمَّت العرب الأبيات لاتفاق أواخرها: قوافيَ، وسمى الله القرآن لاتفاق خواتم الآي: مثانيَ.

وقولُه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: أي: تنقبِضُ.

وقيل: هو اليَبَس والخُشونة، وذلك عند الخوف بوعيده.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: وذلك عند الرجاء بوعده.

---

(١) في (ر): «والتقرير».

ومعنى ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: تَلين وتطمئنُّ إلى ذكر الله.

وقال قُطْرُب: أي: مائلةً إلى ذكر الله.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾: أي: ذلك القرآن إرشاد للخَلْق مِن[1] الله.

﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾: أي: يخلُق فعلَ الاهتداء بسبب القرآن.

﴿مَن يَشَآءُ﴾: وهو مَن علِمَ منه اختيار الاهتداء.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾: أي: مَن يخلُقْ فيه صفة الضلال ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: إلى الحق.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَّثَانِىَ﴾: ثنَّى فيه الأنباء والقصص[2].

وقال مجاهد: الحلال والحرام، والأمر والنهي، والوعد والوعيد.

وقال الكلبي: أي: آيات الرَّحمة والعذاب، وصفة الجنة والنار، وصفة المؤمن والكافر وما ضاهاها.

وقال عبد الله بن الزُّبير: سألتُ أمي أسماءَ: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قُرئ القرآن بين أيديهم؟ قالت: كانت عيونهم تدمع، وقلوبهم تقشعِرُّ، قلت: فإن قوماً إذا قُرئ عليهم القرآن يخِرُّون مَغْشيًّا عليهم، فقالت: اللهم إني أعوذ بك مِن الشيطان الرجيم[3].

---

(١) في (ر): «من عند».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٩٢) بلفظ: ثنى فيه الأمر مراراً، وذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٣٥١)، ولفظ المصنف أورده البغوي في «تفسيره» (٣/ ٦٥)، وابن قتيبة في «غريب القرآن» (ص: ٣٨٣) من غير نسبة.

(٣) رواه سعيد بن منصور في «سننه» (٩٥ ـ تفسير)، وابن المبارك في «الزهد» (١٠١٦)، والبيهقي في =

أي: هذا التكلُّف والإِراءة منهم ببَعْث الشيطان إياهم عليه.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ملَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله! حدِّثْنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، فقالوا: يا رسول الله! فاقصص علينا، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ السورةَ، قالوا: يا رسول الله! فذكِّرْنا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[1].

* * *

(٢٤) - ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: وهو الذي يُضلُّه الله تعالى فما له مِن هادٍ، استفهام بمعنى النفي، وفي آخره مُضمر، أي: أفمَن يُلقى في النار يوم القيامة مغلولَ اليد لا يُمكنه أنْ يَتوقى العذاب إلا بوجهه، والوجه لا يُتوقَّى به، فهو إذاً لا يَتوقى العذاب الذي يُلقى فيه، فيحرِقُ بدنه كله، ولا يمكنه أنْ يرُدَّه عن وجهه الذي هو أعز شيء وأجلُّه في بدنه، أفهذا كمَن يدخل الجنة ويتنعَّم بها؟!

= «شعب الإيمان» (١٩٠٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣١)، والسائل هو عبد الله بن عروة بن الزبير، سأل جدته أسماء، لا عبد الله بن الزبير كما ذكر المؤلف.

(١) رواه ابنُ مردويه كما في «الدر المنثور» (٤/ ٤٩٧).

ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٣٢٥) عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٨) عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وليس فيه قوله: (فذكرنا...) إلخ، لكنه أتبعه بحديث آخر من طريق مصعب بن سعد عن سعد فذكره بتمامه.

وحديث سعد رضي الله عنه رواه أيضا ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٧٤٠)، والضياء في «المختارة» (١٠٦٩).

وحذف أحد الطرفين للاختصار عند وضوح المراد؛ كما مرَّ في هذه السورة مرات.

ونظير قولِه: ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ﴾: قولُه: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقيل: إذا كان التَّوَقي بسائر الأعضاء لوقاية الوجه، فإذا كان الاتِّقاء بالوجه لم يكن اتِّقاءً، فصار الحاصل أنه لا يتَّقي العذاب[1]، وهو كقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾، وهذا لا يقع به الإغاثة، فحصل المعنى: وإنْ يستغيثوا لا يُغاثوا، وقريب مِن هذا قول الشاعر:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم ... بهنَّ فلولٌ مِن قِراع الكتائب[2]

أي: لا عيبَ فيهم إلا هذا، وليس هو بعيب، فلا عيبَ فيهم إذاً بوجه.

وقولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: لهذه الطَّبَقة مِن الظالمين: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؛ أي: جزاء ذلك، وهو الذي أنتم فيه.

وقولُه: ﴿وَقِيلَ﴾: ماضٍ بمعنى المستقبل؛ لأنه مِن أمور الآخرة، فأُلحق بالكائن لتحقُّقه.

***

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) في (أ): «يبقى» بدل من «يتقي العذاب».

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في «ديوانه» (ص: ١١).

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: أي: كـذَّبَ الأمـمُ الذيـن مِن قَبْل هؤلاء المشـركين رسلَهم.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾: أي: مِن حيث لم يكونوا يعلمون أنْ يأتيَهم منه، وفي وقت لم يتوهَّموا نزولَه بهم فيه.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ﴾: أي: الفَضيحة ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾: مِن عذاب الدنيا ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: لو كان عند هؤلاء المشركين مِن العلم ما يتدبَّرون به ويعلمون لصدَّقوا بهذا الوعيد ولآمنوا به، لكنهم لا يتدبرونه، فلا يعلمونه[1].

* * *

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾: أي: ولقد وصَفْنا في هذا القرآن مِن كلِّ ما بالناس إليه حاجةٌ في أمور دينهم ومصالح دنياهم مثلاً، وهذا العموم كما في قوله: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ أي: مِن شيء يُحتاج إليه في الدِّين.

وقولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: لِيتَّعظوا به.

وقولُه: ﴿قُرۡءَانًا﴾: نصبٌ على القطع؛ لأنه نكرة نُعِت به معرفة، أو نُصِب بإضمار فعل واقع عليه: أنزلناه أو جعلناه.

---

(١) في (ر) و(ف): «فلا يعلمون به».

﴿عَرَبِيًّا﴾: نعتٌ، أي: بلسان العرب ليفهموه ويعلموا حُسْن نَظْمه وصواب معانيه؛ لأنه بلسانهم.

وقولُه تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾: أي: لا يوجد فيه اختلاف ولا خطأ يخرُج به عن الحكمة والصحة لفظاً ومعنًى، وفي ذلك ما يدل على أنه مِن عند الله تعالى، فوجب التذكُّر به، ولزِم تقوى الله في أنْ يوقِع بهم ما توعَّدَهم به مِن العذاب.

***

(٢٩) - ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾: أي: وصَفَ الله شبَهاً للمشركين والموحِّدين، ولم يقل: مثلين، وإنْ ذكَر بعده رجلين؛ لأن ذِكْرهما جملةً مثَلٌ واحد، وهو كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، ثم وصَفَ المثَل فقال:

﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾: أي: رجلاً يخدِم جماعةً هم في خدمته لهم شُركاءُ مُتعاسرون مُتشاحُّون، كل واحد منهم يحب أنْ ينفرد به، ولا يُعجبه خِدمتُه لغيره، ولا إشراكه مَن سواه في طاعته وتعظيمه.

وقد شكِسَ شَكاسةً فهو شكِسٌ مِن حدِّ علِمَ، وهو صعب الخُلُق.

فهذا مثَلُ مَن عبد آلهة، فلا شكَّ أنَّ تلك آلهة لو كانت أحياءً، فرأى كل واحد منها حُسْن طاعة هذا العابد له، لأَحبَّ أنْ يُخلص خدمته له، وأنْ ينقطع بها وحده إليه[1]، فإذا لم يجد هذا منه نبَتْ نفْسُه عنه، فلم يصْفُ له قلبه، ولا شك أنه لو أفرد واحداً منهم بالخدمة كان أَرْوَحَ له، وأرضى لمخدومه عنه، خصوصاً إذا كان في

---

(١) أي: إليه وحده.

الجماعة الذين يخدمهم رئيس يعترف الباقون برئاسته، وأنهم دونه في منزلته، وأنَّ سبيلهم أن يتشفَّعوا[١] لمن يخدمهم عند هذا الرئيس، فكلُّ عاقل يعلم أنه لا معنى في إتْعاب هذا الخادم بدنَه في قسمة خدمته بينهم، وأنَّ الألْزَم له[٢] والأَرْوَحَ لبدنه أن يُفرد ذلك الرئيس بالخدمة، لا سيما إذا كان ذلك يدعوه إلى نفْسِه، ويضمن له بلوغ الأمل إذا أفرده لخدمته.

ثم ضرَبَ مثَل المُخْلِص الموحِّد، فقال:

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿سالِماً﴾، وقرأ الباقون: ﴿سَلَمًا﴾[٣].

و«السَّلَم»: الاستسلام، مصدر أُريد به النعت.

أي: رجلاً قد خلَصَ لرجل، فصار له بحيث لا يَشوب بخدمته خدمةَ غيره[٤]، ولا يوجِّه أمله إلى سواه، فقد تكامل حقُّه عليه، واجتمعت محبته وخدمته وعبوديته كلها له، ففي العقول السليمة أنَّ هذا المخدوم قد لزمه ذِمامُه، ووجب عليه حقُّه، وأنَّ هذا الخادم يفوز بكلِّ ما يؤمِّله مِن خدمته، خصوصاً إذا كان المخدوم كريماً واسعاً لحقوق خدَمه، مع ما يُريح هذا الخادم مِن مُؤْنة كثرة التَّعَب في الخدمة، وتشعُّبِ الفكر في إرضائهم.

وقولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾: أي: هل يستوي هذان الرجلان في الوصف؟!

---

(١) في (ر): «يشفعوا».

(٢) في (ر): «الإكرام له»، وفي (أ): «الألزم»، بدل: «الألزم له».

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٩).

(٤) في (ر): «لا يشوب بخدمته غيره»، وفي (ف): «لا يشرك بخدمته خدمة غيره».

وكلُّ مَن تدبر بعقله علِمَ أنَّ المنفرد بالخدمة أحسنُ حالاً وأحمدُ عاقبةً مِن الذي يخدم جماعة.

وقولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أي: على إيضاح الحُجَّة.

وقيل: على التَّخْصيص بالتوحيد.

وقيل: على جعله سالماً خالصاً لله تعالى.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: لا يستعملون عقولهم في النَّظر في الدلائل ليعلموا.

وقيل: أي: لا ينتفعون بعلومهم.

قال مُقاتل: إن المشركين دعوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائه وعبادة الأصنام، فضرب الله لهم ولآلهتهم مثلاً، فقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية، أي: هل يستوي عبدٌ يَشترك فيه نفرٌ مُختلفون يملكونه جميعاً مع عبدٍ لا شِرْكة لأحد فيه؟! فخصَمَهم الله بهذا، فقال: قل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيدَ ربهم(١).

وقال الإمام القُشَيري: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾: الذي يتجاذبه شُغُل الدنيا، وشُغُل الولد، وشُغُل العيال، وغير ذلك مِن الأشغال المختلفة والخواطر المُشتَّتة، والمؤمن خالصٌ لله ليس لأحد فيه نصيب(٢).

* * *

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: نفى التَّسْوية بينه وبينهم، ووعد النُّصْرة

---

(١) ذكره عن مقاتل: الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٨٠).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٨٠).

له في الدنيا والآخرة عليهم، فقال في الدنيا: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، وقال في الآخرة: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: أي: إنَّك يا محمد تموت ويموت هؤلاء المشركون؛ لأنَّ آجال الجميع مُنقضيةٌ مُنقطعة.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾: أي: ثم يُحييكم الله ويَبعثكم للحساب والجزاء والفَصْل بين المختلفين، فيختصم أهل الحق وأهل الباطل بحضرة الملائكة والمرسلين والصِّدِّيقين، ويَفْصِل الله الخُصومة بينهم بالتمييز بين الفريقين، وذلك قولُه تعالى:

* * *

(٣٢) ـ ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾: فزعم أنَّ له شُركاء وأولاداً ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾؛ أي: بالقرآن لَمَّا جاءه، فهؤلاء فريق.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾: استفهام بمعنى التَّقْرير، وهو جزاء هؤلاء الفريق.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: قيل: أي: بالصدق في اعتقاده ودينه فأخلَصَ لله ووحَّدَه.

﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: أي: حقَّقَ ذلك الصدق بالطاعة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: لم يظلموا أنفسهم كما ظلَم الأولون.

* * *

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أي: ما يشتهونه في الجِنان التي أعدَّها لهم مِن أنواع النِّعَم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: في اعتقادهم وأعمالهم.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾: أي: يجزيهم هذا الجزاءَ ليكون كفارة ـ أي: سِتارةً ـ لِمَا سلَف منهم حالَ كفرهم.

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: بطاعتهم في الإسلام.

ثم قولُه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: واحد، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: جمع؛ لأنه واحدٌ في لفظه جمعٌ في معناه؛ لأنه جنس، فصار كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فاستثنى، ولا يكون ذلك إلا مِن الجَمْع.

وقيل: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: هو رسول الله عليه السلام، و(الصدق): هو القرآن ـ وقيل: هو التوحيد ـ و﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: هو أيضاً قبِلَه وحقَّقَه، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: وهو مَن اتَّبعه.

وقيل: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: أي: ومَن صدَّق به، وهو أبو بكر الصديق، قاله الكلبي وأبو العالية[1]، وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: أي: هو وأتباعه.

وقيل: ومَن صدَّقَ به: هم المؤمنون، جميعاً مع النبي ومع الصِّدِّيق.

---

(١) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٢٠)، وزاد الثعلبي: عن علي.

وقال السُّدِّي: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾: جبريل ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾: محمد، يعني: تلقَّاه بالقَبول[١].

وقال مجاهد: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾: أهل القرآن[٢].

وقال الشَّعبي: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾: بـ(لا إله إلا الله)، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾: أقام على (لا إله إلا الله)[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾: هذا في بعض المواضع دون بعض[٤].

وقال أبو العالية: قوله: ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾: نزولُها في حق أهل القبلة، والتي في سورة (ق) قال: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾: هم أهل الشرك[٥].

وقال عكرمة: ﴿تَخۡتَصِمُونَ﴾؛ أي: محمد ومشركو قريش.

وقال أبو سعيد الخُدْريُّ: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبيُّنا واحد، فما

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٣٩٣)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣٦).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٦).

(٣) لم أقف عليه، وذكر عنه النحاس في «إعراب القرآن» (٤/ ١٢) قوله: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ ﴾: محمد ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم.

وروى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٣٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنه: أن الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ الذي جاء بـ(لا إله إلا الله).

(٤) روى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠١) أن ابن عباس قال: يخاصم الصادق الكاذب، والمظلوم الظالم، والمهتدي الضال، والضعيف المستكبر. وهكذا ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ١٢٥).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٤٢).

هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صَفِّين، وشدَّ بعضنا على بعض بالسيف قلنا: هي هذا[١].

وقال إبراهيم النَّخَعي: إنَّ الصحابة قالوا: ما خصومتُنا ونحن إخوان؟! فلما قُتل عثمان قالوا: هذه خصومتنا[٢].

***

(٣٦) ـ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾: أي: أليس الله كافياً عبدَه ورسولَه المصطفى أنْ يضُروه بما يوهن له حُجة، أو يصلوا إليه بمكروه؟! وهو استفهام على معنى التقرير؛ لأن جوابه: بلى.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿عِباده﴾ على الجمع[٣]، قيل: أراد به الأنبياء، وقيل: أراد به المؤمنين.

وأما التوحيد[٤]، فهو على النبي ﷺ.

وقال مقاتل: قالوا: يا محمد! إنا نخاف أنْ تخبِلك آلهتنا لأنك لا تزال تَعيبُها بسوء، وذلك قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[٥].

---

(١) رواه سعيد بن منصور كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٢٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣٥)، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧/ ١١٩).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٢٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٠٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣٥).

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٦٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٩).

(٤) أي: قراءة الإفراد في «عبده»، وهي قراءة الجمهور.

(٥) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣٧)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٢٨) من غير نسبة.

وقال الضحاك: قالوا له: لتكُفَّنَّ عن ذِكْر آلهتنا أو لتَخْبِلَنَّكَ(١).

ورُوِي أنَّ النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد لِيكسِرَ العُزَّى، فقال له قيِّمُها: اتَّقِها، فإنَّ لها شِدةً لا تقوم لها الرجال، فضربها خالد ضَرْبةً أبان عنها رأسها، ويقال: هشَمَ أنفها(٢).

وقولُه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: قد بيَّنا في قولٍ أنه الأصنام.

وقيل: كانوا يُخوِّفونه بكثرة جموعهم، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، والكفاية في حق ذلك ما قال: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، وقال: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

فإذا حُمل على الأنبياء فقد كانوا يُخوِّفونهم بالأصنام أيضاً، قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ [الأنعام: ٨١]، وقال في قصة هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤].

وإنْ كان التخويف بالجُموع، فقد كان ذلك في حق الأنبياء، حتى قال نوح: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، وقال هود: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥].

وإنْ كان هذا في حق المؤمنين، فهو كقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: أي: هؤلاء الذين يُخوِّفونك قد أضلَّهم الله؛ لعِلْمه باختيارهم الضلالة.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٤) عن قتادة، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧/ ١٢٠) من غير نسبة.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٠)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٣٩٤) عن قتادة.

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾: كالنبيِّ والمؤمنين.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾: استفهام بمعنى التقرير، وهو وعد للنبي ﷺ أنه مُنتقم له مِن أعدائه.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾: فكيف يطمعون في خوفك مِن آلهتهم التي هي مخلوقة لله تعالى وأنت رسولُ مَن خَلَقها وخلَق السماوات والأرض؟!

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي: تدْعونه آلهةً.

وقيل: أي: تعبدونه.

وقيل: أي: تدْعونه بحوائجكم، وهي الأصنام.

﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾: أي: بسوء وبلاءٍ ومكروه مما تُخوِّفونني به ﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾.

﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾: أي: بنعمة ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: هل هنَّ قادراتٌ على شيء مِن ذلك، والتأنيث على الجَمْع في هذا؛ لِمَا أنَّ الأصنام إناث في اللفظ عندهم، فإنهم سمَّوها: اللاَّت والعُزَّى ومَناة، وكانوا يقولون في الملائكة أيضاً: هنَّ بنات الله.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾: أي: فإنهم لا يدَّعون لأصنامهم شيئاً مِن هذا، بل

يُقِرُّون أنَّ الله لا يُعارَض ولا يُمانَع ولا يُغالَب ولا يُنازَع، فإذا قالوا: لا تَقْدِر أصنامنا على مُعارضة الله في ذلك، فقل لهم: حسبي الله إذاً، عليه توكلتُ و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي: ومَن أراد أنْ يتوكَّل على مَن يَكفيه ويُحقِّقُ توكُّله عليه فإنما يتوكَّلُ على الله.

***

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾(١): أي اُثْبُتوا على ما أنتم عليه بما اخترتُموه لأنفسكم.

وقال مجاهد: على ناحيتكم(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: منازلكم(٣).

وقيل: على رَسْمكم وعادتكم.

وقال مُقاتل: على وتيرتكم؛ أي: على طريقتكم(٤).

وقيل: على تمكُّنكم.

---

(١) في (أ): «مكاناتكم»، بدل: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾، وهي رواية أبي بكر عن عاصم. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (٢٦٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٠٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٣)، ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٩٠٩) عن ابن عباس، وقال: وروي عن مجاهد والضحاك نحو ذلك.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١١٣٠٨) عن قتادة، وذكره الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥٥٨) عن بعض أهل التأويل، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٩٣)، والواحدي في «تفسيره» (٨/ ٤٥٠)، عن الكلبي.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٩٣)، والواحدي في «البسيط» (٨/ ٤٥٠)، عن مجاهد.

وقيل: على دِيانتكم، وهو تهديد.

وقولُه تعالى: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: أي: ثابت على ما أنا عليه مما قد اخترتُه لنفْسي، ينتظر كلٌّ منا ما يَؤول إليه أمره ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي: يفضَحُه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾؛ أي: يحِقُّ عليه ويجب عليه ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي: دائم.

ثم في قوله: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ وجهان:

أحدُهما: أنْ تكون مَفْعَلةً مِن الكون؛ أي: على موضع كونكم، والمكانةُ بمعنى المكان؛ كالمَقامة تكون بمعنى المقام.

والثاني: أنْ تكون فَعَالةً مِن التَّمكين[1]، ومعناه: اعملوا مُتمكِّنين.

وقال أبو العالية: ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ في هلاكي إنْ قدِرْتُم عليه ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على هلاككم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَن الغالبُ منا ومنكم.

* * *

(٤١) - ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾: أي: ببيان الحق.

وقولُه تعالى: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾: أي: فنَفْعُه له ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ أي: ضررُه عليه.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾: أي: بمُسَلَّط على إكراههم على الإسلام، فإنه ليس ذلك بيدكَ، وإنما عليك البلاغ، وهو كقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢].

---

(١) في (ف) و(أ): «المكين».

وقيل: الوكيل: مَن يُجعل إليه الشيء لعَجْزِ مُوَكِّله عنه بنفْسِه.

يقول: لسنا بعاجِزين عن حَمْلهم على الإيمان فنكِلَ ذلك إليكَ، بل نحن قادرون على ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقيل: نسَخَتْ هذه الآيةُ آيةَ الأمر بالقتال.

* * *

(٤٢) ـ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾: أي: يقبِضُها ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾؛ أي: ويقبِضُ الأنفس التي لم تمُتْ ﴿فِى مَنَامِهَا﴾؛ أي: حالَ نومها.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾: فلا يرسلها في أبدانها.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾: أي: الأنفسَ الأخرى في أجسادها.

﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: الموت.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: لَعلامات دالَّة على قدرة الله على البعث بعد الموت.

والآية في مُحاجَّة المشركين في إثبات البعث بعد الموت؛ أي: مَن قدِرَ على هذا قدِرَ[1] على ذلك.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: قال سعيد بن جُبير رحمه الله: يُجمع بين

---

(١) في (ف): «يقدر».

أرواح الأحياء وبين أرواح الموتى، يتعارفُ منها ما شاء الله أنْ يتعارف، ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ إلى أجسادها[1].

قال: وبهذا لم يُفْهَمْ شيءٌ مِن تأويل الآية.

قال: وقال الكلبي: النائم مُتوفًّى حتى يرُدَّ الله إليه نفْسَه، وأما التي يتوفاها حين موتها فإنه يقبِض الرُّوح والنَّفْس معاً، ويُرسل التي يتوفاها في منامها حتى تبلغ أجلَها المُسمَّى، وهو الموت.

ويقول: إنما يقبِض الله مِن النائم النَّفْس لا الرُّوح.

قال: وهذا الذي ذكره الكلبي أقربُ إلى تأويل الآية مِن الذي ذكرَه سعيدٌ، وأصلُه: أنَّ الله تعالى جعل في الأجساد أنفُساً دَرَّاكةً بها تُدرِك الأجسادَ الأشياءَ، وأرواحاً بها تَحيا الأجساد؛ لأنك ترى الأجساد في حال نومها على الهيئة التي كانت مِن قَبْل، ليس بها أثَر الموت، لكنها لا تُدرِك شيئاً، فلا تَسمع، ولا تُبصر، ولا تَعقل شيئاً، وليس بها آثار الأحياء، فدلَّنا هذا على أنها في حال النوم قد ذهب منها وخرَجَ ما به تُدرَك الأشياء، وبقِيَ فيها ما به تَحيا، وهو الرُّوح، فإذا خرج الرُّوح منها ماتت، ألا تراها عند ذلك تتغيَّرُ؟! وكان قبل خروج الرُّوح منها وإنْ كانت لا تُدرِك شيئاً، فهي على الهيئة التي كانت مِن قَبْل، دلَّ ذلك على أنَّ الذي به تُدرَك الأشياء غيرُ الذي به تَحيا، والله أعلم[2].

* * *

(٤٣) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٥).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦٨٦ ـ ٦٨٧).

وقولُه تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾: وهذه في مُحاجَّة المشركين أيضاً، وكانوا يقولون: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾.

و﴿أَمِ﴾ بمعنى ألفِ الاستفهام، أو أُضمِر كلامٌ فيه ألفُ الاستفهام، ثم عُطف هذا عليه بـ﴿أَمِ﴾، وتقديرُه على الانتظام: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أفلا يتفكرون فيعلموا وحدانية الله تعالى فلا يُشركون به الأصنام، أم اتخذوها[١] شُفعاء.

ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾: أي: أَتشفعُ لهم[٢] وهي لا تملك شيئاً، ولا تعقل، ولا تسمع، فلا يشفع مَن لا يعقل ولا يملك.

* * *

(٤٤) ـ ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم بيَّنَ وجهاً آخر لإبطال ذلك، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: عرِّفْهم أنَّ الشفاعة إنما يملكها[٣] مَن يملك السماوات والأرض.

أي: كلها لله تعالى؛ أي: لا يُقْدِم عليها أحد إلا بإذنه، وأنتم معاشرَ المشركين مُقِرُّون بذلك، فإياه فأفرِدوا بالعبادة، ودَعوا الإشراك به، وأخلِصوا له، فإنه لا تنفع عنده الشفاعة لِمَن أشرك به.

وقولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي: إلى جزائه تَصيرون، وهذا ترغيب وترهيب.

---

(١) في (ف): «اتخذوا هؤلاء».

(٢) «لهم» ليس من (ف).

(٣) في (ر): «لا يملكها إلا» بدل: «إنما يملكها».

(٤٥) ـ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾: أي: وإذا ذُكِر عندهم التوحيد ووجوبُه، وعرفوا أنَّ الله واحد لا شريك له، اشمأزَّتْ قلوبهم؛ أي: انقبضت واعترَتها الوَحْشة، فصاروا إلى النِّفار عن التدبر لانقباضها وضِيقها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾: أي: انقبضت(١).

وقال قتادة: كفرت واستكبرت(٢).

وقال الضحاك: نفرت(٣).

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾: أي: وإذا ذُكِر ما يعبدونه مِن دون الله ظهَرَ في وجوههم البِشْرُ، وهو أَثَر السُّرور.

***

(٤٦) ـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾: أي: يا خالقَ السماوات والأرض.

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٨٤) عن ابن عباس ومجاهد، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٩) عن مجاهد، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١٨٠) عن مقاتل.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٦).

(٣) ذكره عن الضحاك الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٣٩)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢١٩) عن السدي.

﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: أي: يا عالمَ السرِّ والعلانية.

﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: أي: قد علِمْتَ حالي وحالَ قومي هؤلاء، وإني قد بلَّغْتُهم واجتهدتُّ في النُّصْح لهم، وأوضحتُ بينهم دلائلكَ، فأعرضوا واشمأزُّوا، فاحْكُمْ بيني وبينهم، فإنكَ أنتَ تحكم بين جميع عبادكَ فيما كانوا فيه يختلفون مِن أديانهم.

وهذا الحُكْم: قد يكون في الدنيا بإنجاز وعده في دُعائه[1] على قومه، وهو كدعاء نوح عليه السلام: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ١٠].

وقد يكون في الآخرة بأنْ يجزيَ كُلًّا على عمله، وتحت هذا الأمر بشارةٌ له بذلك كلِّه.

ويجوز أنْ يكون قوله: ﴿أَنتَ﴾ لا على وجه الدعاء، بل إظهار الثقة مِن نفْسه على الانتقام له منهم في الدنيا، والتمييزِ بين الكل بالجزاء في العُقْبى.

ويجوز أنْ يكون هذا وعداً[2] له بالشهادة بالبعث، وأنه حق، وأنَّ الله يُحاسب عباده فيه، ويحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وهو بإدخال الكفار النار، وإدخال المؤمنين الجنة، وقد مرَّ في السورة الأمران جميعاً.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «إعلائه».

(٢) في (ر) و(ف): «أمراً».

وقولُـه تعالـى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾: أي: كفـروا، فوضعـوا العبـادة غيـرَ موضعهـا، وظلمـوا أنفسـهم بذلـك، ونقصوهـا[1] حقَّها.

وقولُه تعالى: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: مِن الأموال ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾: وعلِموا أنَّ الفدية تُغني عنه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ليتخلَّصوا منه، ولكنَّ الفدية لا تُغني، كما أنَّ الشفاعة لا تُغني.

﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾: أي: وظهر لهم مِن أمر الله ما لم يكونوا يظنونه ولا يَعُدُّونه[2] في جملة ما يجري عليهم؛ لأنهم كانوا مُنكِرين لهذا اليوم.

وقيل: أبطل الله عليهم أعمالاً كانوا عمِلوها في الدنيا يحسبون أنها تنفعهم، وأنها حسنات، فبدا لهم أنها سيئات.

* * *

(٤٨) ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾: أي: وظهرت لهم يوم القيامة أعمالهم السيئة مِن أمور الكفر.

وقيل: معناه: بدا لهم جزاء ذلك، وهو كقوله: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]؛ أي: جزاء ما كنزتم[3].

وقيل: ظهرتْ أعمالهم لهم مُثْبَتَةً في كتبهم.

وقيل: ظهر لهم سوء عملهم بعذابٍ كان خفِيَ عليهم لتقادُمه.

---

(١) في (ف): «ونقصوا».

(٢) في (ف) و(أ): «يعتدونه».

(٣) «أي: جزاء ما كنزتم» ليس من (أ) و(ف).

وقيل: بدا لهم بشهادة جوارحهم عليهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: فنزل بهم عذابُ استهزائِهم في الدنيا بآيات الله وأنبيائه.

وقيل: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: أحاط بهم.

وقال السُّدِّي: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾: ظنوا أنها حسنات، فبدت لهم سيئات(١).

وقال سفيان حين قرأ هذه الآية: ويل لأهل الرِّياء، ويل لأهل الرِّياء(٢).

ونظيره: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

***

(٤٩) ـ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾: قال مقاتل: يعني: أبا حذيفة بن المغيرة(٣).

وقيل: هو عامٌّ، ومعناه: إذا نال المشركَ بلاءٌ في بدنه وأمرٌ كان يخافه دعانا؛ أي: التجأَ إلينا، وأخلصَ الاستغاثة بنا.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ﴾: أي: ملَّكْناه وموَّلْناه ووسَّعْنا عليه ﴿نِعْمَةً مِّنَّا﴾:

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٤٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٢٤).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٤٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٣٣).

(٣) ذكره عن مقاتل البغوي في «تفسيره» (٧/ ١٠٩) لكن في تفسير قوله تعالى بداية سورة الزمر: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، وذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ١٣٠) هنا لكن من غير نسبة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: إذا بدَّلْناه بالسَّقَم الصحةَ، وبالفقر الغنى[١].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾: أي: لِفَضْلي.

وقيل: أي: لم ير ذلك مِن عندنا، ولم يعُدَّه مِن عطائنا، ويقول[٢]: إنما أُعطيتُه على علمٍ علِمَه الله مني، فأعطاني ما أعطاني لاستحقاقي ذلك بفضلي.

وقيل: على علم مني بجَمْعه واكتسابه، فأُعطيته بجُهْدي وتصرُّفي واكتسابي، لا مِنَّةَ لأحد عليَّ فيه يستحق فيها شكري.

وقيل: على علم مني قبل أنْ أُعطاه[٣] أني أُعطاه لاستحقاقي ذلك بعقلي وكفايتي.

فردَّ الله تعالى عليه ذلك، فقال: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾: أي: عَطِيَّةٌ مِن الله امتحنه بالشكر له عليها، والاستعانة على إقامة الدين بها، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقال الحسين بن الفَضْل رحمه الله: أي: كلِمَتُه هذه التي قالها فتنةٌ له[٤].

وقيل: إن هذه النعمة بَلِيَّةٌ ابتليتُه بها.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي: لا عِلْمَ لهم ولا تمييز لهم، يقولون ذلك بجهل، ولو تدبروا لعلموا أن الله تعالى لو أراد لسلَبَهم قوة الاكتساب، فلم يُمكِنْهم جمع شيء، ولو أراد أتلَفَها، ولعلموا أن كثيراً ممن يُخالفهم في دينهم أوتوا أكثر منهم، وأنَّ كثيراً مِن الناس أكثرُ اجتهاداً منهم في الاكتساب ولا شيء لهم.

---

(١) ذكره الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٠) من غير نسبة، ولم أقف عليه بلفظه عن ابن عباس.

(٢) في (ف): «وقيل».

(٣) في (ف): «قبل إعطائه».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٤٠).

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: هذه المقالةَ بهذه الجهالة.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾: أي: فما نفعَهم شيئاً ما جمعوه مِن الأموال، وظنوا ذلك لفَضْل فيهم، وأنه يعصِمهم مِن عذاب الله تعالى، وما دضفع العذابَ عنهم.

ويجوز أنْ تكون (ما) للاستفهام، ويجوز أنْ تكون للنفي.

قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾: أي: فنالَهم جزاءُ سيئاتِ أموالهم التي كسبوها، وتلك السيئات هي ما استعانوا به في إماتة دِين الله، وأنفقوه في معاصي الله، وقوَّوا بها أعداء الله.

وقيل: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾: مِن الآثام.

وقيل: السيئات: هي عقوبات ما كسَبوه مِن المعاصي؛ سُمِّي بذلك للمقابلة؛ كما في قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، أو لأنها تسوؤهم، أو هم يكرهونها، فوُصِفت بالسوء لذلك.

وحاصلُه: أنَّ أموالهم لم تنفعهم، بل عُذِّبوا بها وانتُقِمَ منهم كما فُعِل بقارون، فخُسِف به وبداره الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾: كما أصاب الأولين ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: أي: بفائتين.

* * *

(٥٢) ـ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾: أي: يُوسِّع ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يُضيِّق.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: فيما ذكرناه علاماتٌ لِمَن كان همُّه التصديقَ بالحق على أنَّ التفاوُت في النِّعَم مِن عند الله مِن غير علةٍ بفضل أو اجتهاد في كَسْب.

وقال مُقاتل: إنَّ أهل مكة قُحِطوا سنين، ثم مُطِروا بعدها سبع سنين، فأنزل الله تعالى إظهاراً لقُدرته: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾[١].

* * *

(٥٣) ـ ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: فجاوَزوا حدودها ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تيأسوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

قال القَفَّال: أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين عني: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾؛ أي: يا خَلْقاً أنا مالكُهم، أُصرِّفهم في حُكْمي كيف أشاء ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فجاوَزوا حدود ما أُمروا به، وتعدَّوا إلى ما نُهوا عنه، واستكثروا[٢] في ذلك، وانهمكوا فيه، وركِبوا العظائم منهم؛ لأن الإسراف يشتمل على ذلك كله، ولا إسرافَ أشنَعُ مِن الكفر بالله،

---

(١) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٨٦) عن مقاتل، وهو في «الكشاف» (٤/ ١٣٥) من غير نسبة.

(٢) في (ر) و(ف): «واستكبروا».

وتكذيبِ رسله، والصدِّ عن دينه، وقَتْلِ المؤمنين ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا يحمِلنَّكم إسرافُكم على أنفسكم على أنْ تظنُّوا أنَّ رحمة الله تَضيق عنكم، حتى لو تُبْتُم لم تُقبل توبتكم، ولم يزُلِ الوعيد عنكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾؛ أي: يسترُها كلَّها على العباد إذا تابوا منها كفراً كان أو ما دونه، فرحمتُه واسعةٌ، فلا تقنطوا منها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: دعا اللهُ تعالى إلى مغفرته مَن قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ومَن قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ومَن قال: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ومَن قال: الملائكة بنات الله، بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وبقوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية[1].

وقال مقاتل: يعني: الذين أسرفوا بالدماء والأموال، وذلك هُمُ المشركون ظنوا أنْ لا يُتابَ عليهم، منهم: وَحْشِيٌّ قاتلُ حمزة، وذلك أنَّ الله أنزل فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى قوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣]، فأسلم وَحْشِي، فقال المشركون: قُبِلت توبته، وأُنزِلت فيه آية، ولم ينزل فينا شيء، فأنزل الله هذه الآية[2].

وقال قتادة: ذُكِر لنا أنَّ أناساً أصابوا ذنوباً عِظاماً في الجاهلية، وظنوا[3] أنهم مأخوذون بها لا توبةَ لهم فيها، فأنزل الله هذه الآية[4].

---

(١) رواه بنحوه الطبري وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٣٨)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية من رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. ولم أقف عليه في «تفسير الطبري».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٨٣).

(٣) في (ف) و(أ): «وأيقنوا».

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٣٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٢٥).

وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً لِمَن يشاء)(١).

وروت أسماء بنت يزيد: أنَّ النبي ﷺ قرأ: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ ولا يبالي، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾»(٢).

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: التَّسميةُ بـ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ مدحٌ، والوصفُ بأنهم أسرفوا ذمٌّ، فلما قال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ طمِع المطيعون أنْ يكونوا هم المقصودين بالخطاب، فرفعوا رؤوسهم، ونكَّسَ العاصي رأسه، وقال: مَن أنا حتى يقول لي هذا؟! فقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾، فانقلبت القصة، فالذين نكَّسوا رؤوسهم انتعشوا، وزالت ذِلَّتهم، والذين رفعوا رؤوسهم أطرقوا وزالت صَوْلتهم، ثم أزال الأُعْجُوبة عن القصة بما قوَّى رجاءهم بقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، يعني: إنْ أسرفْتَ فعلى نفْسِكَ أسرفْتَ، ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾: أي: بعدما قطَعْتَ اختلافَكَ إلى بابنا، فلا ترفعْ قلبَكَ عنا.

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾: الألف واللام للاستغراق والعموم، و﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ جمع، و﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد، فكأنه قال: أغفِرُ ولا أتركُ، وأعفو ولا أُبقي(٣).

* * *

(٥٤) ـ ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾: أي: ارجعوا بالانقطاع إليه بالعبادة.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٢٢٦)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٣)، و«الكشاف» (٤/ ١٣٥) وزاد نسبتها لابن عباس.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٣٧)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢٧٥٦٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٤٣)، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث ثابت، عن شهر بن حوشب.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٨٧).

وذِكْرُ الربِّ على معنى التنبيه على وجوب الإنابة إليه؛ إذ كان هو المالكَ والمدبِّرَ والمُربِّيَ، فهو الأحقُّ بالانقطاع إليه بالعبادة والتعظيم مِن جماد لا يضُرُّ ولا ينفع.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾: أي: انقادوا له، واجعلوا أنفسكم سالمةً له؛ أي: خالصةً مُسْلِمةً إليه لا ممنوعة، مسالِـمةً له لا مُنازِعة.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: في الدنيا والآخرة بعد الموت.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: أي: وإذا أتاكم[1] العذاب لم ينصُرْكم ناصر، ولم يمنعْكم مِن عذاب الله مانع.

وقال الإمام القُشَيري: الإنابة: الرجوع بالكُلِّيَّة، والفَرْق بين الإنابة والتوبة: أنَّ التائب يرجع مِن خوف العقوبة، والمُنيبَ يرجع استحياءً لكرَمه، ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾؛ أي: أخلِصوا، والإخلاصُ بعد الإنابة أنْ يعلَم أنَّ نجاته بفضله لا بإنابته، فبفضله وصلَ إلى إنابته، لا بإنابته وصلَ إلى فضله[2].

* * *

(٥٥) ـ ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾: أي: اتَّبعوا طاعة الله فيما أَمر ونهى مِن أصل الإيمان وفروعه، فإنه أحسن ما أنزل الله في الكتاب؛ لموافقتها دلائلَ العقول، ولحُسْن عاقبتها، والثوابِ الجزيل عليها، ويُقابلها الكفر والمعاصي؛ لقُبْحها في دلائل العقول، ولسوء عاقبتها، والعذابِ الأليم عليها.

---

(١) في (ف): «أذقناكم».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٨٨).

وقيل: ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ مِن أخبار الأمم الماضية، فإنما[١] ذكَرْنا لكم أفعالَها: محاسنَها ومساوئَها، فاتَّبعوا محاسنها.

وقيل: أي: اتَّبِعوا القرآن، فإن الله أنزلَ على رسوله القرآنَ وغيرَه، والقرآنُ أحسن ما أنزل، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾؛ أي: المُحْكَمات، وكِلُوا عِلْمَ المتشابهات إلى عالِمها[٢].

وقيل: معناه: إنَّ العدلَ حسَنٌ، والفضلُ أحسنُ منه، وطلبَ الحق حسَنٌ، والعفوُ أحسنُ منه، والبدايةَ بالنَّفْس حسَنٌ، والإيثارُ أحسنُ منه.

وقولُه تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: أي: فجأةً مِن حيثُ لا عِلْمَ لكم أنه يجيئُكم.

وقيل: العذابُ المذكور في الآية الأولى عذابُ الدنيا، والمذكورُ في هذه الآية عذابُ الآخرة بدليل ما بعدها.

* * *

(٥٦) ـ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾: أي: لئلَّا تقولَ نفْس؛ كما في قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]؛ أي: لئلَّا تميدَ بكم.

وقيل: حذَراً.

---

(١) في (أ): «فإذا»، وفي (ف): «فإنا».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٤٦).

وقولُه: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾: كلمةُ تأسُّفٍ وتلهُّفٍ، والألف في آخرها للنُّدْبة، وقد يُقال: يا حسرتاه، وكذلك: (يا ويلا ويا ويلاه)، و: (يا ويلتا ويا ويلتاه).

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾: ﴿مَا﴾ مع الفعل مصدرٌ؛ أي: على تفريطي، وهو التقصير.

﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: قال ابن عباس والحسن وأبو عُبيدة وقُطْرُب: أي: في ذات الله[١].

وقال أبو عُبيدة في قول: في دِين الله.

وقال الضحاك: في نعمة الله[٢].

وقال ثعلب: في أمر الله، وأنشدَ:

خليليَّ كُفَّا واذكرا الله في جَنْبي ... فقد لمتُما[٣] في غير شيء ولا ذَنْبِ[٤]

وقال القَفَّال: أي: فيما يتَّصِل بطاعة الله ورضاه، ومجازُ الكلمة: في جَنْبٍ يُمال إلى الله تعالى، وكذلك الجانب والجَنْبة والجَناب.

وقيل: هي صلة زائدة، ومعناه: في الله، وأنشدوا لكُثَيِّر:

---

(١) ذكره الماوردي في «تفسيره» (٥/ ١٣٢) عن الحسن، وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٣/ ٦٨٤)، وذكره الماتريدي في «تفسيره» (٨/ ٦٩٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٢٩) من غير نسبة، وانظر قول أبي عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ١٩٠).

(٢) لم أقف عليه، ذكر مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١٠/ ٦٣٦٤) عن الضحاك أنه فسرها بقوله: في ذكر الله.

(٣) في (ف): «نلتما».

(٤) أنشد صدره الليثُ بن المظفر، كما في «تهذيب اللغة» للأزهري (١١/ ٨١)، وابن الأعرابي كما في «المحكم» (٧/ ٤٦٠) لابن سيده، وذكره الميداني في «مجمع الأمثال» (١/ ١٤١) من غير نسبة.

ألا تَتَّقِــينَ اللهَ في جَنْــبِ عاشــقٍ   لــه كبِــدٌ حــرَّى عليــك تَقَطَّــعُ(١)

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾: له وجهان: وما كنتُ إلَّا مِن الساخِرين، وقد كنتُ مِن الساخِرين؛ أي: في لعِبٍ مِن أمري في الدنيا وباطلٍ.

وقيل: أي: مع تفريطي في أمر الله كنتُ أسخَرُ ممَّن لا يُفرِّط في أمر الله، ونظيرُه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩] الآيات، ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ أي: الشرك والمعاصي.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: هذا الكافر أعرَفُ بهداية الله مِن المعتزلة، وكذا ما قال أولئك الكفرةُ لأتباعهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١]، يقولون: لو وفَّقَنا الله للهداية وأعطانا الهدى لدعوناكم إليه، ولكنْ علِمَ منا اختيار الضلالة والغِواية، وتَرْكَ الرَّغْبة في الهدى، والاستخفافَ به، فأضلَّنا وخذَلَنا ولم يُوفِّقْنا، والمعتزلة يقولون: بل هداهم وأعطاهم التوفيق لكنهم لم يهتدوا(٢).

* * *

(٥٨) ـ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقولُـه تعالـى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾: أي: رَجْعـةً إلى الدنيا.

﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: نصبٌ بالفاء في جواب التَّمنِّي.

---

(١) انظر: «ديوان كثير» (ص: ١٧٧)، و«الحماسة البصرية» (٢/ ١٢٢)، وفي الديوان: «حب» بدل: «جنب»، و(تصدَّع) بدل: «تقطَّع»، ونسب لجميل بثينة، كما في «ديوانه» (ص: ٢٩) من قصيدة مطلعها: أهاجك أم لا بالمداخل مربع.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦٩٧).

قال قتادة: وهذه مقالاتٌ ذكرَت أنَّ الكافر يقول ذلك يوم القيامة، ويحتمل أنْ يكون كلُّ قول لكلِّ صنف[1].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ويجوز أنْ يكون كلُّ كلام مِن كلِّ كافر[2].

***

(٥٩) ـ ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾: ﴿ بَلَىٰ ﴾ لِرَدِّ ما قبلها، وإثباتِ ما بعدها.

وفي هذه الآيات إشارات[3] إلى أنهم أضافوا التَّفريط، وذهاب العُمُر على اللَّهْو، وعدمَ هداية الله، وتمنيَ الرجوع ليُحسنوا باختيارهم، أضافوا ذلك إلى عدم إتيان البيان على الإيضاح والإعلان، فردَّ الله عليهم بهذا.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: أي: بلى، بيَّنَتْ لكَ الآياتُ الهدايةَ مِن الغِواية، والحقَّ مِن الباطل، والخيرَ مِن الشر، والصدقَ مِن الكذب، ومكِّنْتَ مِن اختيار الهداية على الغواية، والحقِّ على الباطل، والصدقِ على الكذب، لكنْ تركْتَ ذلك وضيَّعْتَ واستخفَفْتَ به واشتغَلْتَ بضده، فإنما جاء التضييع مِن قِبَلِكَ[4].

وأكثرُ القراء على التذكير في قوله: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ ﴾: على إرادة خطاب الإنسان، وقرأ بعضهم بتأنيثِ كلِّها؛ لسبق ذِكْر النَّفْس[5].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦٩٧).

(٣) في (ف): «إشارة».

(٤) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٦٩٨).

(٥) نسبها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٣٢) للنبي ﷺ وأبي بكر، والثعلبي في =

(٦٠) ـ ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾: ويُقرأ: «وجوهَهم مسودةً» بالنصب على الترجمة والبدل[1].

وكذِبُهم على الله بوصفه بما لا يليق به، وسوادُ الوجوه قد يكون قبل دخول النار علامةً لهم، وقد يكون في النار بتغيير النار، وقد يكون عبارةً عن الخَيْبة والذِّلَّة والفضيحة.

وإسفارُ الوجه على خلافه، وعلى هذا قوله: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

= «تفسيره» (٨/ ٢٤٨) لعائشة، ونقل عن المروزي أنها رواية السريجي عن الكسائي، وجعلها مكي في «الهداية» (١٠/ ٦٣٦٧) قراءة الجحدري.

وقد وردت في حديث مرفوع رواه أبو داود في «سننه» (٣٩٩٠) من طريق الربيع بن أنس عن أم سلمة رضي الله عنها. قال أبو داود: هذا مرسل، الربيع لم يدرك أم سلمة. وعنى بقوله: مرسل، أنه منقطع، وإطلاق المرسل على المنقطع شائع عند الأئمة المتقدمين، وفيه علة أخر وهي أبو جعفر الرازي فإنه ضعيف.

وقد جاء في رواية الحاكم في «مستدركه» (٢٩٣١)، والطبراني في «الكبير» (٩٤٣)، تعيين الواسطة بينهما، وهو أبو العالية، فإن صح ذكر الواسطة يبقي ضعفُ أبي جعفر الرازي.

ورواه البزار في «مسنده» (٣٦٧٢) عن عاصم الجحدري، عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعا، قال أبو زرعة: هذا الحديث منكر. انظر: «علل الحديث» لابن أبي حاتم (٦/ ٦٣٥).

وقد أشار الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٣٨) إلى المرفوع، لكنه عقب ذلك بقوله: والقراءة التي لا أستجيز خلافها ما جاءت به قراء الأمصار مجمعة عليه، نقلاً عن رسول الله ﷺ، وهو الفتح في جميع ذلك.

(١) وهي قراءة شاذة. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ٤٢٤)، و«غرائب التفسير» للكرماني (٢/ ١٠١٨)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (١٨/ ٣٦٢).

[آل عمران: ١٠٦]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨] الآيات، ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]، ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: استفهام بمعنى التقرير؛ أي: هذا جزاء وقَعَ لهم باستحقاقهم، يُقيمون فيها خالدين.

وقولُه: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: إشارةٌ إلى ما سبق، وهو قوله: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾.

والتَّكبُّر والاستكبار واحد؛ كالتعجُّل والاستعجال، والتَّيَقُّن والاستيقان، ومِثْلُه في قصة إبليس: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣].

* * *

(٦١) ـ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾: وهم على خلاف هؤلاء.

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿بمفازاتهم﴾ على الجَمْع، والباقون: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ على التوحيد[1].

والمفازةُ: سبب الفوز؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «الولد مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ»[2]؛ أي: سببُ البُخْلِ والجُبْنِ والجهل.

والمفازةُ على التوحيد: يُراد بها التقوى، وعلى الجمع: يُراد بها الطاعات.

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٦٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٠).

(٢) رواه بهذا اللفظ الطبراني في «الكبير» (٦١٤) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها، والحاكم في «مستدركه» (٥٢٨٤) من حديث الأسود بن خلف، وأصله في السنن. قال العراقي: إسناده صحيح. انظر: «تخريج الإحياء» (ص: ١١٦٨).

أي: ويُنجِّي الله المتقين بتقواهم الشرك والمعاصي، أو بطاعاتهم.

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾: أي: المكروه وما يسوؤهم، أي: يُحزنهم، وهو كقوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾: بفَوْتِ محبوبٍ، وحاصلُه: لا يُصيبهم مكروه، ولا يفوتهم محبوب.

* * *

(٦٢ ـ ٦٣) ـ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾: أي: هو مُنشئ الأشياء كلِّها.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾: أي: وهو القائم على كلِّ شيء بحفظه وتصريفه[1] على ما يحب، وهو في معنى القيوم والقائمِ على كل شيء[2].

وقولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: وهو المالك لمفاتيح خزائن السماوات والأرض، يحفظُها ويفتح على عباده منها ما يشاء.

وذِكْرُ المفاتيح مَثَلٌ، وكذلك ذِكْر الخزائن في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١].

ومعناه: وهو المكوِّن ما يريد كونَه، والحافظُ ما هو كائن منه والمُدبِّر له، والموصِل إلى عباده ما يشاء منه، وإذا كان هو المالكَ والمُصرِّفَ كلَّ شيء، فهو المستحِقُّ للعبادة دون غيره مِن الأصنام، وهو في مُحاجَّة المشركين، وهذه

---

(١) في (أ): «يحفظه ويصرفه».

(٢) في (أ): «نفس».

الكلمة مُسْتعملة مفهومةُ المراد؛ يُقال: ألقى إليَّ فلان مقاليد الأمور، ومفاتيح الأمور، وأَزِمَّة الأمور.

وقال الحُطَيئة يُخاطب عمر رضي الله عنه:

أنتَ الأمينُ لها مِن بعد صاحبها ... ألقى إليك مقاليدَ الهدى البشَرُ[١]

فالمقاليد: جمع إِقْليد، على خلاف لفظ الواحد؛ كالمحاسن والمذاكير. قاله نِفْطَوَيْهِ والقُتَبِيُّ[٢].

والإقليد أصلُه بالفارسية: كليد[٣]، فعرَّبَته العرب، وتُكُلِّم به فصار عربياً.

وقال المبرد: واحدها مِقْليد.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾: قيل: المغبونون.

وقيل: الهالكون.

وغَبْنَهُم: ذهابُ عبادتهم الأصنامَ هَدراً لا نَفْعَ له، وهلاكُهم: عقوبتُهم في النار عليها.

* * *

(٦٤) ـ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾.

---

(١) انظر: «ديوان الحطيئة» (ص: ١٠٨)، ولفظه فيه:

أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ... ألقت إليك مقاليد النهى البشر

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (١/ ٣٩١).

(٣) انظر: المصدر السابق (١/ ٣٨٤)، و«تفسير السمرقندي» (٣/ ١٩٣)، وفيهما أنه بالفارسية: «إكليد».

وقولُه تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾: أي: ﴿ قُلۡ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يَستميلونك بالإطماع في الأموال والنساء والرِّياسة والسَّناء إلى ما هُم فيه: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو خالقُ كل شيء، وهو على كلِّ شيء وكيل، له مقاليد السماوات والأرض ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ أنْ أعبُدَ؟!

وهذا توبيخٌ وتقريعٌ، وقطعٌ للأطماع، وإنكارٌ عليهم، وتجهيلٌ لهم.

أي: فما أنا بفاعل ذلك، فإنكم جاهلون بموضع اختيار العبادة؛ إذ لا يجوز أنْ يُعْبَد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا ينفع ولا يَضُرُّ.

و﴿أَعۡبُدُ﴾: رُفِعَ حيث حُذِف الناصب، و﴿ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾: هم الكفار، كما أنَّ أولي العلم هم المسلمون في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

* * *

(٦٥) ـ ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾: أي: مِن الأنبياء ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ولم يقل: أشركتُم.

قال أبو عُبيدة والأخفش: فيه تقديم وتأخير، وتقديرُه: ولقد أُوحي إليك لئن أشركْتَ ـ إلى آخره ـ وإلى الذين مِن قبلك[1].

وقيل: أُوحي إليك وإلى كل واحد مِن الأنبياء: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾؛ أي: كلُّهم مأمورون بالتوحيد والإخلاص، منهيُّون عن الكفر والإشراك، ودينُ الكل في هذا واحد، وهذا مما لا يجوز عليه النَّسْخ والتبديل.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ١٩١).

﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: أي: لَيَتلاشَيَنَّ ولَيَبطُلَنَّ ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: تفسيرُه وتقديرُه؛ لأنَّ عملَه إذا بطَلَ أثرُه وفات ثمرُه بقِيَ عناؤُه وخُسْرُه.

وقيل: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: إشارةٌ إلى ما سبق ذِكْرُه مِن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾.

* * *

(٦٦) ـ ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾: أي: فاعْبُده ووحِّدْه ولا تُشركْ به غيرَه.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾: فإنه المُنعم بالحقيقة، وشكرُ المنعم واجب بتعظيمه وإخلاص العبادة له.

ثم هذا الوعيد مع تحقُّق العصمة؛ لِما مرَّ مرات أنَّ العِصْمة هي الحفظ عن فعلِ ما عليه الوعيد، ولو زال النهي وارتفع الوعيد لبطَلت العِصْمة.

* * *

(٦٧) ـ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: قيل: أي: وما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه.

وقيل: وما اعتقدوا في الله ما يجب أنْ يُعتقَد فيه.

وقيل: أي: وما وصفوا الله بما يستحِقُّ أنْ يوصف به، يعني: المشركين، فإنهم وصفوا الله بما لا يليق به، وعجَّزُوه عن البعث والجزاء، وجوَّزوا عليه بعث رسول ظنوا فيه أنه يُطابقهم على مُرادهم بما استمالوه به مِن الأموال وغيرها، وهو ظنُّ السَّفَهِ[1] بالله، تعالى الله عنه عُلُوًّا كبيراً.

---

(١) في (ف): «السفيه».

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: أي: مع أنه قادر على قَبْض الأرض كلها بسعَتها وطُولها وعَرْضها وعِظَم جُرْمها، وعلى تبديلها، وعلى طَيِّ السماوات بأَسْرها، ومَن قَدِر على ذلك كلِّه قَدِر على إحياء الموتى، ولم يَجُزْ عليه غيرُ الحكمة والصواب.

وذِكْرُ القَبْضة[1] واليمين مِن المُتشابه.

ولا يُفهَمُ مِن ذلك ما يُفهَم مِن أيدي الخَلْق وقَبْضتهم؛ لأنه تشبيه، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، بل يُفهَم منه التصرُّف فيها والقُدرة على تغييرها، وهو مُستعمل في كلام الناس على هذا المراد، يُقال: هذه الولاية في يد السلطان وفي قبضته، ويُراد به: الاستيلاءُ والقدرةُ، دون حقيقة إثبات اليد عليها وإدخالها في قبضتها.

وقيل: معنى قوله: ﴿قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أنه تَزول دعاوى المُدَّعين عنها، وهو كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقيل: ذِكْرُ اليمين تحقيقُ المُلك؛ كقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال الكلبي مِن المفسرين، وقُطْرُب مِن أئمة الأدب: ﴿بِيَمِينِهِ﴾: أي: بقُوَّته[2]. وأنشد الشَّمَّاخُ:

---

(١) في (أ) و(ف): «القبض».

(٢) كذا ذكره عن ابن عباس رضي الله عنه، ولم أقف عليه، والمشهور عن الصحابة والسلف عدم التأويل في أمثال هذه النصوص، وإن كان الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٢) قد ذكر عنه تأويل اليمين بمعنى القدرة والقوة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ والله أعلم بصحته.
والقول أنها بمعنى القدرة ذكره الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٥٣) عن بعض النحويين البصريين، وهو قول المبرد أيضاً كما في «الهداية» لمكي (١٠/ ٦٣٧٦).

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ تلقَّاها عَرَابةُ باليمين[١]

أي: بالقوة.

وقيل في قوله: ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: أي: يقبِضها ويبسُطها.

وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «يأخذ الله السماوات والأرض فيقبِضُها ويبسُطها، ثم يقول: أنا الجبَّار، أين الجبَّارون؟ أنا المتكبِّر، أين المتكبِّرون؟»[٢].

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «أين الملوك؟ لِمَن المُلْك اليوم؟»[٣].

وقيل: ليس الإِدْراج على الطَّيِّ فقط[٤]، بل له معانٍ في اللغة:

منها: الإخفاء، تقول العرب: طويتُ فلاناً عن أعين الناس، و: اطوِ هذا الحديثَ عني؛ أي: استُره.

ومنها: الإعراض، يقول الرجل[٥]: طوى فلان عني كَشْحاً؛ أي: أعرضَ عني.

ومنها: الإفناء، تقول العرب: طويتُ فلاناً بسيفي؛ أي: أَفْنَيتُه، فيَحتمِل أنْ يكون معناه: ﴿مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾؛ أي: مَفْنِيَّاتٌ بقسَمه؛ لأنه أقسمَ أنْ يفنيَها[٦].

---

(١) انظر: «ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني» (ص: ٣١٩) من قصيدة يمدح بها عَرابة بن أوس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم في «صحيحه» (٢٧٨٨).

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» (٤٨١٢)، ومسلم في «صحيحه» (٢٧٨٧).

(٤) يعني: من معاني الطي الإدراج كطي القرطاس والثوب، لكن ليس معنى الطي مقتصراً على الإدراج. انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٥١).

(٥) في (ر): «تقول الأعراب»، وفي (ف): «تقول: طويت الرجل».

(٦) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٥١).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: جاء رجل مِن أهل الكتاب إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد! إنَّ الله يُمسك السماوات على إِصْبَع، والأرَضين على إِصْبَع، والجبالَ على إِصْبَع، والبحارَ على إِصْبَع، والأشجار على إِصْبَع، فضحك رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية(١).

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ أي: ما عرَفوه حقَّ معرفته، ولا عظَّموه حقَّ تعظيمه مما لا يحتمله وُسْعُ الخَلْق، فهو لم يُكلِّفْهم ذلك، وإنما كلَّفَهم ما احتمله وُسْعُهم، والمُشَبِّهةُ ـ خذَلهم الله ـ حيث وصَفوه بما يوصف به الخَلْق، فلم يعرِفوه المعرفة التي يحتملها وُسْعُ الخَلْق، ولا عظَّموه التعظيم الذي يحتمله وُسْعُهم(٢).

* * *

(٦٨) ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: أي: وقد كان نُفِخ في الصُّور قبل قَبض الأرض وطَيِّ السماوات.

﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي: فمات.

قال السُّدِّي: أي: إلا جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ وملكَ الموت، وهو في حديث مرفوع(٣).

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٧٤١٤)، ومسلم في «صحيحه» (٢٧٨٦).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٧٠٤).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٥٤) عن السدي، ثم رواه عقبه مرفوعاً مطولًا من حديث أنس رضي الله عنه. وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.

وقال سعيد ابن جُبير رضي الله عنه: أي: إلا الشُّهَداء، فإنهم أحياءٌ عند ربهم[١].

وقيل: إلا مَن سبَق موتُهم النَّفخةَ الأولى؛ لأنهم كانوا في السماوات والأرض أيضاً، فصحَّ استثناؤُهم منهم.

وقيل: هم حملة العرش.

وقيل: الحُور العِين، والغِلْمان، والوِلْدان، وخزَنة الجنة في الجنة[٢]، وخزنة النار في النار.

ومنهم مَن أبهَمَه لإبهام النَّصِّ.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾: أي: في الصُّور نَفْخة أخرى، وهي نَفْخة البعث، ودلَّت هذه الآية على نَفْختين.

وقيل: هي ثلاث نفَخات: نَفْخة الفَزَع؛ كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [النمل: ٨٧]، ثم نَفْخة الصَّعْق وهو الموت، ثم نَفْخة البعث، وكذا في حديث مرفوع[٣].

وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾: يعني: فإذا الأموات قِيام مِن قبورهم وهُم ينظرون.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٤٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٥٥)، بلفظ: (هم الشهداء ثنيَّة الله حول العرش، متقلدين السيوف). و(ثنية الله)؛ أي: الذين استثناهم الله من الصعق.

(٢) في (أ) و(ف): «والخزنة في الجنة».

(٣) رواه مطولاً إسحاق بن راهويه في «مسنده» (١٠)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٦٢١)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال ابن حجر في «فتح الباري» (١١/ ٣٦٩): (سنده ضعيف مضطرب، وقد ثبت في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو أنهما نفختان)، انتهى. قلت: رواه مسلم (٢٩٤٠).

قيل: هو نظَر العَين.

وقيل: هو الانتظار؛ أي: ينتظرون بماذا يُؤمرون، وأين يُحشرون، وبماذا يُعاملون.

* * *

(٦٩) - ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾: أي: أضاءت أرض القيامة ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ أي: بعَدْل ربها وقضائه بالحق بين عباده، وهي كلمة مُستعمَلة في هذا المعنى.

قال العباس بن عبد المطلب في رسول الله ﷺ:

وأنـتَ لَمَّـا وُلِـدتَ أشـرقَتِ الأر ... ضُ وضـاءَتْ بنـورك الأُفُـقُ
فنحـن فـي ذلـك الضيـاء وفـي النـْ ... ـنُور وسُـبْلِ الرَّشـاد نَخْتـرِقُ[1]

وقـال الإمـام أبـو منصـور رحمه الله: يجـوز أن يخلـق الله نوراً فتنـوَّر به أرض الموقف[2].

والإضافة إلى الله إضافةُ تخصيصٍ؛ كبيت الله، وناقة الله، وشهر الله، ورُوح الله، لا أنْ يُفهمَ منه نور هو صفة قائمة بذات الله تعالى.

---

(١) في (أ) و(ف): «نحترق»، وفي (ر): «تخترق»، والمثبت موافق لمصادر التخريج.
الأبيات رواها ابن قتيبة في «غريب الحديث» (١/ ٣٥٩)، والطبراني في «الكبير» (٤١٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (٥٤١٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٦٨)، من حديث خريم بن أوس رضي الله عنه. قال الحاكم: هذا حديث تفرد به رواته الأعراب عن آبائهم، وأمثالهم من الرواة لا يضعون. فتعقبه الذهبي في «السير» (٢/ ١٠٣) بقوله: قلت: لكنهم لا يُعرفون.

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٧٠٨ - ٧٠٩).

وقولُه تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾: اسمُ جنسٍ بمعنى الجَمْع؛ أي: ووُضِعَت الكتب في أيدي الناس ليقرؤوها، وهي صحائف الأعمال المكتوبة عليهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: أي: وأُحْضِر موقفَ الحساب النبيون لِيُسألوا عما أجابتهم به أممُهم.

و﴿الشهداء﴾: هم المؤمنون يشهدون على الكفار.

وقيل: هُم هذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقيل: هُم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١]، أي: ملَكٌ يسوقه إلى الموقف، ويشهد عليه بما عمل، وهُم الحَفَظة.

وقيل: هُم الشُّهداء في سبيل الله.

ويجوز أنْ يكون الجميع مُراداً به.

وقولُه تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: وتفسيرُه ما قال بعده: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ أي: مِن خير وشر، فلا يُزاد في شرٍّ، ولا يُنقَصُ مِن خير.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: أي: واللهُ أعلمُ بما كانوا يعملون مِن غير كتاب ولا شاهد.

* * *

(٧١) ـ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾: وهذا تفصيلُ ما أُجمِلَ في قوله: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾.

والسَّوْقُ: الحَثُّ على السَّير، والزُّمَرُ: الجماعات، والواحدة: زُمْرة.

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾: وهي سبعة.

﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾: أي: حفَظةُ جهنم، وهم الملائكة الموكَّلون بتعذيب أهلها:

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾: وهذا توبيخ وتقريع، وفيه زيادةُ إيلامٍ وتوجيع.

يقولون: أوَ ليس قد جاءكم مِن عند الله رسُلٌ آدميُّون مثلُكم، تعرفونهم وتألفونهم، وتعرفون شفقتهم عليكم، وصيانتهم فيما بين يديكم[1]، فقرَؤوا عليكم كتابَ ربكم الذي كان علَماً[2] على درَكِ الحق، وأنذروكم ما تَلْقَون في يومكم هذا، وخوَّفوكم المصير إليه؟!

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾: أي: قد أَتَوْنا وأنذرُونا ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: تحقَّقَ وعيدُ الله، وهو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

وقولُه: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: أي: على مَن كفر به منا ومِن سائر أهل جهنم.

* * *

(٧٢) ـ ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾: أي: فتقول لهم الخزَنة: فادخلوا إذاً أبوابَ جهنم

(١) في (ر) و(ف): «فيما بينكم».

(٢) في (أ): «عالماً».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لاستحقاقكم ذلك بكُفركم على ما قُسِمَ لكم مِن درَكاتها، فهي مَثْواكم، وبئس المَثْوى، وهو قولُه:

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: الذين لم ينقادوا لرُسُل الله، فلم يؤمنوا.

* * *

(٧٣) - ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾: أي: ويُسرَعُ بالمؤمنين أيضاً إلى الجنة، وبيَّنَ اختلافهما في هذه الحالة في آية أخرى، فقال: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥ - ٨٦]، فالمُتَّقون يجيئون إليها مُكْرَمين رُكْباناً، والمجرمون يُدَعُّون إليها دعًّا.

و(سِيق): ظاهرُه ماضٍ، ومعناه مستقبل؛ لأنه أمرٌ كائنٌ لا محالةَ، فأُلْحِق بالموجود.

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾: قيل: الواو: مُقْحَمةٌ زائدة(١)؛ كما في قوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، وفي قوله: ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥].

وقيل: هي عاطفة، وجواب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ مُضْمَر في آخرها.

قال الزجاج: قال المبرد: جوابُه المُضْمَر في آخر الآية: سُعِدوا، ونحو ذلك.

قال: وقيل: معناه: حتى إذا جاؤوها وقد فُتِحَت أبوابها.

---

(١) «زائدة» ليس من (ف).

قال: وعندي: الجوابُ عند قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ دَخَلوها[١].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾: أي: حفَظة الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يتلقَّونهم بتحيَّةٍ مِن عند الله.

وقيل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: سلامةٌ لكم مِن كلِّ مكروه.

﴿طِبْتُمْ﴾: أي: كنتم في الدنيا طيِّبين غير خبيثين؛ أي: مؤمنين مُطيعين غير كافرين عاصين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال: ﴿كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

أي: صلُحتم لهذه الدار بذلك الطِّيب.

وقيل: هو دعاءٌ لهم منهم للحال؛ أي: لا زِلتم طيبين، وهو تمامُ قولهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ومعناه: لا زال يحسُنُ على الأسماع ذِكْرُكم، وعلى الأبصار مناظرُكم، ويدومُ لكم الثناء والذِّكْر الجميل مِن ربكم.

وقيل: هو دعاءٌ بطِيب العَيش؛ أي: طاب لكم دخولُها والعيشُ فيها.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: إذا جازوا[٢] الصراط أُتي بهم إلى باب الجنة، فإذا هُم بشجرة تحتها عَينان مِن الماء، فيشربون مِن إحداهما، فتطهُرُ قلوبهم مِن الغِلِّ والغِشِّ والآفات، ثم يغتسلون مِن الأخرى، فتطهُر أبشارُهم، فحينئذ تقول لهم خزَنة الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾[٣].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣).

(٢) في (أ) و(ف): «جاوزوا».

(٣) رواه مطولًا عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٤٦)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٠٠٤)، والطبري في =

وقال قتادة: رُوِي أنهم إذا ورَدوا النار حُبِسوا على قَنْطَرة، فيَقْتَصُّ بعضهم مِن بعض، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا قيل لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾[(١)].

❋ ❋ ❋

(٧٤) ـ ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾: بإدخال الجنة ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾: لِسَعتها وكثرتها نتمكَّن منها[(٢)] ونتقلَّبُ فيها حيث نشاء، لا نُمنَع مِن ذلك، ولا يضيقُ عنا ذلك.

﴿فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾: بالطاعة.

وقال الإمام القُشَيري: قيل لقوم: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾، وقيل لقوم: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥]، وقيل لقوم: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، وفَرْقٌ بين مَن يُساق إلى الجنة، وبين مَن تُقَرَّبُ إليه[(٣)] الجنة، فالأول للظالمين، والأوسط للمُقتصِدين، والآخِر للسابقين[(٤)].

= «تفسيره» (٢٠/ ٢٦٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٤١٣). قال ابن حجر في «المطالب العالية» (١٨/ ٦٤٧): حديث صحيح، وحكمه حكم المرفوع، إذ لا مجال للرأي في مثل هذه الأمور.

(١) ذكره عن قتادة الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٥٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٣٣). ورواه البخاري (٢٤٤٠) من طريق قتادة عن أبي المتوكل عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة».

(٢) في (ف) و(أ): «فيها».

(٣) في (أ): «يقرب إلى» بدل: «تقرب إليه». وفي «اللطائف»: (تقرب منه).

(٤) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٩٣).

(٧٥) ـ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾: أي: ﴿وَتَرَى﴾ يا محمد يوم القيامة عند فَصْل القضاء ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾؛ أي: مُحْدِقين بالجوانب.

وقد حفَّ به القومُ: إذا صاروا في حِفافه؛ أي: جانبه مِن حول العرش.

﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾: ﴿مِنْ﴾ صِلةٌ زائدةٌ؛ كقولكَ: جئتُ مِن قَبْل فلان؛ أي: قَبْله.

والعرشُ يحضُرُ عرصَةَ القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وقولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: يُنزِّهون الله تعالى ويحمدونه.

وقيل: معنى الباء في قولِه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: أي: بتوفيق الله تعالى يُسبِّحونه، وله الحمد.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾: أي: بين الخَلْق.

﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: ويقول أهل الموقِف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقيل: يقولُه أهل الجنة إذا دخلوها؛ كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقال قتادة: بدأ الله تعالى خَلْق العالَم بالحَمْد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآيةَ [الأنعام: ١]، وختَمَ القضاء بينهم بالحَمْد، فقال: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٥٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٠).

سُورَةُ غَافِرٍ

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله غافر الذَّنْب وقابل التَّوْب شديد العِقاب، الرَّحمنِ الذي يُدخِل المؤمنين الجنة يُرزَقون فيها بغير حساب، الرَّحيمِ الذي أنزل الكتاب هُدى وذكرى لأولي الألباب.

وروى أبـيُّ بـن كعـب رضي الله عنـه عن النبي ﷺ أنـه قال: «مَـن قرأ ﴿حمٓ ﴾ المؤمـن لـم يبـقَ رُوح نبـي ولا صِدِّيـق ولا شـهيد ولا مؤمـن إلا صلَّـوا عليـه واسـتغفروا لـه»(١).

وهذه السورة مكية، وهي خمس وثمانون آيةً، وقيل: أربع.

وكلماتُها: ألف ومئتان وسبع عشرة.

وحروفُها: خمسة آلاف وسبعة.

وانتظامُ خَتْمِ تلك السورة وافتتاحِ هذه السورة: أنهما في ذِكْر أسماء الله تعالى.

وانتظامُ السورتين: أنهما في ذِكْر المشركين، والاحتجاج عليهم في إبطال شِرْكهم، وفي إثبات البعث والحساب، وفيهما الترغيبُ والترهيبُ، وتسليةُ النبي ﷺ والمؤمنين.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٥٨)، وهو قطعة من حديث أبي بن كعب الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٧٢).

وقال النبي ﷺ: «لكلِّ شيء ثمَرةٌ، وإنَّ ثمَرةَ القرآن ذواتُ ﴿حمٓ﴾، هُنَّ روضاتٌ حسناتٍ مُخَصِباتٌ مُتجاورات، فمَن أحبَّ أنْ يرتَعَ في رياض الجنة فليقرأ الحواميمَ»(١).

وقال: «مثَلُ الحواميم في القرآن مثَلُ الحِبَرات في الثياب»(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا وقعتُ في آل ﴿حمٓ﴾ وقعتُ في رياضٍ دَمِثاتٍ أتأنَّقُ فيهن(٣).

وقال مجاهد: آلُ ﴿حمٓ﴾ دِيباج القرآن(٤).

---

(١) رواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٢٣) عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة: (بلغنا أن رسول الله ﷺ قال...) فذكره، وفيه: «هن روضات مخصبات معشبات متجاورات». وهو مرسل.
وروى الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣) من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه مرفوعاً: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم في صلاة الليل». وفي إسناده محمد بن مروان السدي، وهو كذاب.

(٢) ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٣٦٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ٥) من غير إسناد. الحِبَرات: جمع حِبَرة كعِنَبَة، وهو ضرب من برود اليمن مُنَمَّر. انظر: «المحكم» لابن سيده (٣/ ٣١٦).
وجاء في هامش (ف): «الحبر: مبالغة في نهاية الزينة».

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٥٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٢٨٥)، وذكره محمد بن نصر المروزي في «مختصر قيام الليل» (ص: ١٧٥).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٥٥)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٣٠٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٢٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٤٣) من طريق مجاهد عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً.
ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٦٠٣١)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (٨٨٦) عن مجاهد.
الدَّمِثُ: المكانُ اللَّيِّنُ السهلُ الذي لا يَتْعبُ فيه الماشي، (أتأنَّقُ فيهنَّ)؛ أي: أَتَتَبَّعُ محاسنهنَّ، من =

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كنا نُسمِّي الحواميمَ العرائسَ[١].

وقال محمد بن سيرين رحمه الله: رأى رجل في المنام سبعَ جَوارٍ حِسانٍ في مكان واحد لم يرَ أحسن منهن، فقال لهن: لِمَن أنتنَّ؟ قلن: لِمَن قرأ آل ﴿حمٓ﴾[٢].

وقال الحسن رحمه الله: الحواميم رياض الجنة[٣].

وقال محمد بن الحنفية وابن عباس رضي الله عنهم: الحواميم كلُّها مكية[٤].

***

(١) ـ ﴿حمٓ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حمٓ﴾: قال مجاهد: ﴿حمٓ﴾: فواتح السُّوَر[٥].

= قولهم: مَنْظَرٌ أَنِيْقٌ: إذا كان حَسَناً مُعْجِباً. انظر: «مجمع الغرائب» للفارسي (مادة: دمث).

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٢٨٤)، والدارمي في «سننه» (٣٤٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦١) عن سعد بن إبراهيم.
ورواه الشجري في «ترتيب الأمالي» (١/ ١٥٣)، وابن الحمامي (٢٧٨) (مصنفات ابن الحمامي)، من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) ذكره عن ابن سيرين الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٢)، ورواه المستغفري في «فضائل القرآن» (٨٨٤) عن محمد بن قيس.

(٣) رواه المستغفري في «فضائل القرآن» (٨٨٨) من طريق مجاعة بن الزبير، عن أبان، عن سعيد بن أبي الحسن، عن عن سمرة بن جندب مرفوعاً، ولفظه: «الحواميم روضة من رياض الجنة»، وهذا إسناد ضعيف جداً؛ أبان هو ابن أبي عياش، وهو متروك، ومجاعة بن الزبير؛ فيه ضعف. أما سعيد بن أبي الحسن فهو أخو الحسن البصري، وهو ثقة.

(٤) ذكره عنهما السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١٨٩)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٤٨)، ورواه عن ابن عباس النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٤٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٤٤).

(٥) رواه سفيان الثوري في «تفسيره» (ص: ١٩٢)، والطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٩)، وذكره الثعلبي =

وقال قتادة: اسم القرآن[١].

وقال محمد بن كعب: هذا قسَمٌ أقسمَ الله بحِلْمه[٢] ومُلْكه أنْ لا يُعذِّبَ أحداً عاد إليه بقول: لا إله إلا الله، مُخلِصاً مِن قلبه[٣].

وقال عكرمة وسعيد بن جُبير رضي الله عنهما: ﴿الٓر﴾ ﴿حمٓ﴾ ﴿نٓ﴾ هي الرحمن[٤].

وقال السُّدِّي رحمه الله: الحواميم أسماء الله تعالى[٥].

وقال الشَّعْبي رحمه الله: شِعار السورة[٦].

وقال الضحاك رحمه الله: ﴿حمٓ﴾: أي: قضى ما هو كائن، وقال الكسائي كذلك[٧]، وأنشد[٨]:

وليس لأمرٍ حمَّهُ اللهُ دافِعُ[٩]

= في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٤١).

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٣٩)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧٥).

(٢) في (ر): «بحكمه»، وفي (ف): «بحكمته».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٠٣) عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه أيضاً (١٢/ ١٠٤) عن ابن جبير.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما والسدي.

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣).

(٧) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٣٥)، وذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤) عن ابن عباس من رواية عطاء والكلبي.

(٨) في (ر): «وقال الشاعر».

(٩) عجز بيت منسوب إلى كعب بن مالك رضي الله عنه، كما في «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٣٤) عن ابن =

وقال آخر:

ألا ليتنــي حُمَّــتْ لنفْســي مَنِيَّتــي ولــم تتعلَّقْنــي لحِيــنٍ عَلُوقُهــا(١)

وقال أنس رضي الله عنه: سأل أعرابي رسول الله ﷺ: ما ﴿حمٓ﴾؟ فإنا لا نعرفها في لغتنا، فقال عليه السلام: «بَدْءُ أسماء، وفواتحُ سورة»(٢).

وقال عطاءٌ الخُراساني رحمه الله: الحاء: افتتاحُ اسمه حليم، حميد، حي، حنَّان، حكيم، والميم: افتتاح أسمائه: ملك، مجيد، منَّان، ونحوها(٣).

* * *

(٢) ـ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وقولُـه تعالـى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾: قيـل: ﴿تَنزِيلُ﴾: مبتـدأ، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: خبـره، وعلـى هـذا هـو مصـدرٌ، ولا إضمـارَ فيـه.

وقيل: ﴿حمٓ﴾ اسم للسورة أو القرآن، وهو مبتدأ، و﴿تَنزِيلُ﴾ إلى آخره: خبرُه،

= إسحاق، وصدره:

فلمـا تلاقيناهـمُ ودارت بنـا الرحـى

ونسب إلى عباس بن مرداس رضي الله عنه، كما في «سيرة ابن هشام» أيضاً (٢/ ٤٦٤) وصدره:

أقـام بـه بعـد الضلالـة أمرنـا

ونسب إلى غيرهما. انظر: «المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء» للآمدي (ص: ١١٨)، و«أنساب الأشراف» للبلاذري (٥/ ٣٨١).

(١) البيت لأبي عدي عامر بن سعد النمري، كما في «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٠/ ٥٧٧).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٥٤٥) من غير إسناد.

(٣) «ونحوها» ليست من (أ) و(ف). والأثر ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٣٥) ونسبه أيضاً إلى سعيد بن جبير.

وهو مصدر بمعنى المفعول؛ أي: مُنَزَّلٌ مِن الله العزيز العليم؛ أي: المنيع سلطانُه عن أنْ يتقوَّلَ عليه مُتَقَوِّل، العليم بمَن صدَّقَ به وكذَّبَ، وهي تبرئةٌ للنبي ﷺ، وتهديدٌ للمشركين، وبِشارةٌ للمؤمنين.

* * *

(٣) ـ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: نعته ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾: نعتٌ آخر.

والتَّوْبُ مصدر كالتوبة، وهي الرجوع إلى الله عن المعصية.

وقال أبو عبيدة: التَّوْبُ: جمع التوبة، ووصْلُ النعت بالنعت بالواو وبدون الواو جائزٌ[١].

﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾: لِمَن يُصِرُّ ولا يتوب.

وقولُه تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾: أي: ذي الفَضْل على كلِّ عباده بالخَلْق والرِّزْق والبَيان وكلِّ وجوه الإحسان.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: أي: إلى جزائه رجوعُ الخَلْق.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾: لِمَن قال: لا إله إلا الله، ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾: لِمَن لا يقول: لا إله إلا الله[٢].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٠٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
ورواه الطبراني في «الدعاء» (١٥٥٩) عن الكلبي، وفي «الأوسط» (٩/ ١٨١) عن ابن عمر رضي الله عنهما.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٢) عن رواية ابن عمر: فيه يحيى بن عبد الحميد الحماني، وهو ضعيف.

=

وقال أيضاً: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾: للمؤمنين، ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾: للكافرين.

وقال أيضاً[١]: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾: أي: ذي الغِنى عمَّن لا يُوَحِّدُه[٢].

وقال الضحاك: ذي المَنِّ[٣].

وقال قتادة رحمه الله: ذي النِّعَم[٤].

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾: للظالمين، ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾: للمُقْتَصِدين، ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾: للمشركين، ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِۖ﴾: للسابقين[٥].

* * *

(٤) ـ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: أي: ما يُخاصِمُ في كتاب الله الذي هو تنزيلُ الكتاب مِن الله العزيز العليم لِيدفعَه بالأباطيل، فيقول مرَّةً: هو سِحْر، ومرَّةً: هو قول الكَهَنة، ومرَّةً: هو أساطير الأولين، ومرَّةً: يُعَلِّمُه بشَر، وأشباه ذلك= إلَّا الذين كفروا نِعَمَ الله مِن سلامة البُنْية وتمام العقل، فلا يُقابلونه بالشكر.

= قلت: وفيه أيضاً عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف كما في «التقريب».

(١) في (ف) و(أ): «ابن عباس».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧٨) بلفظ: ذي السعة والغنى.

(٣) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٤٢) عن عكرمة، وعزاه ـ يعني خبر عكرمة ـ السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٧٢) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٧٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٤) عنه، وابن فورك في «تفسيره» (٢/ ٣٤١) عن ابن عباس وقتادة.

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٩٥).

وقولُه: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾: أي: فلا تغترَّنَّ بإمهالي إياهم سالِمين في أموالهم وأبدانهم، يتصرَّفون في البلاد كيف يشاؤون للتِّجارات والمَعاش، فتتوهَّمَ أنَّ ذلك لخفاء أحوالهم عليَّ أو لرِضايَ بكفرهم، فإني وإنْ أمهلتُهم سآخذُهم وأنتقِمُ لكَ منهم، كما فعلتُ بأشكالهم مِن الأولين.

* * *

(٥) ـ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: أي: نبيَّهم ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: أي: والأمم المُتحزِّبة على الكفر؛ أي: المجتمِعة؛ كقوم عاد وثمود وغيرهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ﴾: أي: وعزَمَتْ ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾: وقيل: لِيحبِسوه ولِيُعذِّبوه. وقيل: لِيقتلوه.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: أي: خاصموا رسلهم بما لا حقيقةَ له، وبما لا فائدةَ فيه.

﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾: أي: لِيُبطلوا به الحق، ويُزيلوه عن موضعه، وهو ما يَحِقُّ اعتقادُه واستعمالُه، وما له ثَباتٌ في العقول.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾: بالعذاب المستأصِل ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: أليس كان فظيعاً في الذِّكْر، واقعاً موقع الاعتبار لأولي الفِكْر؟! فأنا أفعلُ بقومكَ كذلك إنْ أصرُّوا على خِلافكَ وإيذائك.

* * *

(٦) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: أي: وجبَ وتحقَّقَ وعيدُ ربك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: أي: على هؤلاء الذين كفروا بك بمِثْل ذلك العذاب المستأصِل الذي كان لمَن قبلهم.

وقولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي: لأنهم أصحاب النار كأولئك.

وقيل: معناه: كذلك تحقَّقَ وعيد ربكَ على الذين كفروا مِن المُتقدِّمين والمُتأخِّرين أنهم جميعاً يدخلون جهنم بعد الهلاك في الدنيا.

وقيل: نزل قولُه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: في الحارث بن قيس السَّهْمِي(1).

وقال أبو العالية: ﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: ثلاث قبائل مِن قريش: بنو أمية، وبنو مَخْزوم، وبنو عبد الدار.

ثم ذكَرَ وعْدَ المؤمنين والتائبين مِن الكفر؛ تحريضاً لهؤلاء على الإسلام، فقال:

***

(٧) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾: أي: الملائكةُ الذين يحملونه ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾؛ أي: والملائكةُ الذين هم حول العرش يطوفون به ويُعظِّمونه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾؛ أي: يُنزِّهونه عما يُضِيف إليه هؤلاء المشركون المجادلون، فيحمَدونه بمحامده.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٧٣) عن أبي مالك، وذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٠٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٤٣).

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: أي: ويُصدِّقون به مُخْلِصين في ذلك.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: يسألون اللهَ لهم المغفرة: ﴿رَبَّنَا﴾؛ أي: يقولون: يا ربَّنا ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾؛ أي: ما مِن شيء إلَّا وقد نالَه رحمتُكَ، وأحاط به عِلْمُكَ.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: أمَّا في الدنيا، فالرحمةُ تسَعُ المؤمن والكافر، وأمَّا في الآخرة، فلا تنالُ إلا المؤمن، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٥٦][(١)].

قدَّموا الثَّناء على الله تعالى ثم اشتغلوا بالدعاء، فقالوا:

﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾: أي: عن الشرك ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾؛ أي: الإسلامَ، فهو الطريق المؤدِّي إلى رِضْوان الله ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾؛ أي: واحفظهم.

* * *

(٨) ـ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾: أي: إقامة ﴿ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾: أي: في القرآن.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾: أي: وأَتمِمْ سرورهم بأنْ تجمَعَ بينهم وبين آبائهم ونسائهم وأولادهم.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: المَنيعُ بسلطانكَ، فلا يُعترَضُ عليك فيما تُؤتيه عبادَكَ، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: المُصيبُ في أفعالكَ وأقوالكَ.

وإنما قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ لأن مَن أشركَ منهم لم يستحِقُّوا ذلك.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٩/ ٧).

ثم يجوز أنْ يكون ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ عطفاً على قوله: ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾، فإنه قال: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ويجوز أنْ يكون عطفاً على قوله: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾.

* * *

(٩) ـ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي: واصرِفْ عنهم العقوباتِ والمكارهَ التي تسوء صاحبَها.

وقيل: هي الأهوال قبلَ دخول النار.

وقيل: هي العقوبات في النار.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: بدؤوا بوصف الله تعالى بالرَّحمة، وختَموا بذلك؛ ليُعلِموا[1] أنَّ الأدب في الدعاء هو البدايةُ بالثناء والختمُ به، وأنَّ كل ذلك برحمة الله.

وقيل: لَمَّا اختار الملائكةُ هاروتَ وماروتَ، ووقع لهما ما وقع، أشفقوا على عُصاة البشَر، فالتزموا لهم هذا الدعاء[2].

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: لئن سلَّطَ الله عليكَ أراذل خَلْقه ـ وهم الشياطينُ ـ بالإغواء، فقد أمرَ بشفاعتكَ أفاضلَ خَلْقه ـ وهم الملائكةُ ـ بالدعاء[3].

وقال يحيى بن معاذ الرازيُّ رحمه الله: هذه الآية أرجى آيةٍ في كتاب الله للمذنبين.

---

(١) في (أ): «ليعلم».

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢/ ٣٤٢)، وابن أبي الدنيا في «العقوبات» (٢٢١) من حديث ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٩٧).

(١٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾: ثم عاد الكلام إلى وعيد الكافرين المُجادلين:

﴿يُنَادَوْنَ﴾؛ أي: تُناديهم الملائكة يوم القيامة إذا دخلوا النار فمقَتوها؛ أي: أبغَضوها أشدَّ بُغْضةٍ، فيقولون لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ وهو لام قسَمٍ؛ أي: بُغْضُ الله تعالى لكم على كفركم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في النار، فيكون فيه تقديم وتأخير.

وقيل: هو على ظاهر نَظْمِه[1]؛ أي: أكبر مِن بُغْضكم أنفسَكم في الدنيا، فإنكم بتَرْك الإيمان فعلتُم بأنفسكم فِعْلَ الأعداء، وكان مَقْتُ الله لكم وقتَ كفركم أكبرَ مِن بُغْضكم أنفسَكم حينئذ.

وقيل: أي: بُغْض الله لكم في الدنيا حالةَ الكفر أكبرُ مِن بُغْض بعضكم لبعض الآن، وهو مِن قوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وطريقُه طريقُ قولِه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: لا يفعلْ ذلك بعضكم ببعض.

* * *

(١١) ـ ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ

---

(١) في (أ): «على ظاهره».

﴿مِّن سَبِيلٍ﴾: كانوا مُنكِرين البعثَ بعد الموت، فاعترفوا به، وقالوا: أمتَّنا مرَّتين، وأحيَيْتَنا مرَّتين.

قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة ومقاتل والسُّدِّي في رواية: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله تعالى في الدنيا، ثم أماتهم عند انقضاء أعمارهم، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهُما حياتان وموتتان، وهو كقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨][(١)].

وروى أَسْباطٌ عن السُّدِّي رحمهما الله: أنَّ إحدى الموتتَين هي التي تنقضي فيها آجالُهم، ثم يُحييهم في القبر، ثم يُميتهم، ثم يُحييهم للبعث يوم القيامة[(٢)]، فهما موتتان وحياتان، ويدل هذا على عذاب القبر.

قال الإمام أبو منصور رحمه الله: وهو الأشبه والأقرب؛ لأنهم وإنْ كانوا أمواتاً حيث كانوا نُطَفاً، ففي الغالب لا يُسمَّى ذلك ميِّتاً، ولا يقال فيه: ﴿أَمَتَّنَا﴾[(٣)].

وقال محمد بن كعب القُرَظِيُّ رحمه الله: أحدُ مَوْتَيِ الكافر: حياتُه في الدنيا على الكفر، والثاني: موتُه عند انقضاء عمره، فهما موتتان، وإحدى الحَياتين: حياتُه في قبره بعد موته للمُسائلة، والثانية: حياتُه للبعث[(٤)].

وقولُه تعالى: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾: في إنكار البعث بعد الموت ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ أي: فهل يَجعَلُ الله لنا سبيلاً إلى الخروج مِن النار، والرجوعِ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ٤٤٣) عن ابن عباس وابن مسعود والسدي وأبي مالك ومجاهد وأبي العالية وقتادة، واللفظ له.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٩٢).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٩/ ١٠).

(٤) ذكر نحوه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٤٦) عن السدي.

إلى الدنيا؟ كما قال في آية أخرى: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

وقيل: أي: فهل لنا بتوبتنا خروجٌ مِن النار، ودخولٌ في الجنة؟

* * *

(١٢) ـ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾: أي: لا تُجابون إلى الخروج، ويُقال لهم: ذلك الخُلودُ في النار بأنكم كنتم إذا دُعِيَ اللهُ وحده جحدتُم وحدانيَّةَ الله تعالى.

﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾: أي: فإذا أُضيفَ إلى الله الشُّرَكاءُ قلتُم: إنه الحقُّ، وصدَّقْتُم قائله، فكان هذا دينكم في دار الدنيا، وهي دار العمَل، فأما اليوم فأنتم في دار الجزاء ﴿فَٱلْحُكْمُ﴾ فيه ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾: وهو الذي يتعالى عن الشُّرَكاء ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾: وهو الذي كل شيء يتصرَّفُ على حُكْمه، وهو لا يتصرَّفُ على حُكْم أحد، فالحُكْمُ له.

ومِن حُكْمه: تخليدُ الكفار في النار، وتخليدُ المؤمنين في الجنة، فلا يُنازعه في هذا الحُكْم أحد، وفيه بيان أنَّه لا سبيلَ لهم إلى الخروج.

* * *

(١٣) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي: علاماتِه الدالَّةَ على وحدانيته لإقامة الأديان.

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾: لإقامة الأبدان، وبهما يُتمكَّنُ مِن التأمُّل في البرهان.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾: أي: وقد جعلتُ لكم عقولاً تُعرِّفُكم هذه الدلائلَ لِمَن تفكَّرَ وتذكَّرَ، وما يتذكَّرُ إلا مَن يرجع إلى الله؛ أي: يتدبَّر بعقله، فيُدرك الآيات، ويعلم أنَّ الله واحد لا شريك له، فيرجع إليه وحده.

* * *

(١٤ ـ ١٥) ـ ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: أي: الطاعة والانقياد والعبادة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: أي: وإنْ كرِهَه مَن خالف هذا مِن الجُهَّال الذين لا يتذكَّرون.

وقولُه تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: أي: هو عالي الصفات.

وقيل: أي: هو رافعُ درجاتِ عباده المُطيعين له على حسب مساعيهم.

وقولُه تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: أي: ذو المُلْك والسُّلْطان.

وقيل: مالك السَّريرِ الأعظم الذي هو فوق السماوات.

وقولُه تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾: أي: يُنزِّلُ الوحي. قاله قتادة والضحاك وابن زيد رحمهم الله[1]؛ سُمِّيَ به لأنه يَحيا به القلبُ بخروجه عن الحَيْرة إلى المعرفة.

وقيل: أي: يُنزِّلُ جبريل؛ كما قال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٩٥) عن قتادة، وروى عن الضحاك وابن زيد أن المقصود بالروح: القرآن، والمعنى متقارب.

وقولُه تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾: أي: بأمره.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾: فيختاره للرسالة.

﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: أي: لِيُخوِّفَ هذا المبعوثُ بالرسالة الخَلْقَ بيوم القيامة الذي هو يوم اجتماع أهل السماوات وأهل الأرض، واجتماع الأوَّلِين والآخِرين، ويوم يَلقى الإنسانُ عملَه وجزاء عمله، ويَلقى ملائكة البِشارة وملائكة العذاب.

* * *

(١٦) - ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم﴾: أي: الخَلْقُ ﴿بَٰرِزُونَ﴾: أي: خارجون مِن قبورهم، ظاهرون لا يسترُهم شيء؛ لأن الأرض يومئذ قاعٌ صَفْصَفٌ، لا عِوَجَ فيه ولا أَمْتَ. والبُروز: الخروج.

وقولُه تعالى: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞ﴾: ممَّا عمِلوه على كثرتهم، قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾، وقال: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾: أي: فيُنادى فيهم ذلك اليوم: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾؟ فيُجيب العبادُ كلُّهم مؤمنهم وكافرهم:

﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾: لزوال الشُّكوك عنهم، ووقوع الضرورة بهم إلى المعرفة بوحدانيَّته.

وهو إخبار بأن المُلْك يوم القيامة لله وحده؛ لأنه لا تفلُّتَ يومئذ ولا توثُّبَ كما يكون في الدنيا، ولا يُفوَّضُ إلى أحد حُكْمٌ كما يكون في الدنيا، وهو كما قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، وقال: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [الانفطار: ١٩].

والقهار: هو الذي يُصَرِّفُ العباد على ما يريد، لا يمتنع عليه أحد مما أراد به.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يُخاطب أهل مكة إذا سافروا في الأرض، فرأوا آثار الأمم السالفة ومنازلهم.

وقال مقاتل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يعني: السماوات والأرض والشمس والقمر والجبال والرياح والسَّحاب والليل والنهار والفُلْك في البحار والنبات عاماً بعد عام[1].

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾: لأبدانكم: وهو توفيق المُجاهدات، ولقلوبكم: وهو تحقيق المُشاهدات، ولأسراركم: وهو فنون المواصلات، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾؛ أي: يرجع مِن العادة إلى العبادة، ومِن الشك إلى اليقين، ومِن الخَلْق إلى الحق[2].

وقولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: قال السُّدِّي: أي: رافعُ درجاتِ أهل الجنة[3]، قال تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

وقيل: درجات الغُزاة، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾ [النساء: ٩٥].

وقيل: درجات العلماء والمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقيل: درجات أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٠٨).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٢٩٩).

(٣) ذكر نحوه البغوي في «تفسيره» (٧/ ١٤٣) من غير نسبة.

وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾: قال ميمون بن مِهْران: يوم يلتقي الظالم والمظلوم[١].

وقيل: يوم يلتقي العابد والمعبود.

وقيل: تلتقي الخُصوم بين يدي الله تعالى.

قال قتادة: يوم لقاء الله تعالى[٢].

وقال مجاهد: يوم التقاء البَرِّ بالبَرِّ، والفاجر بالفاجر.

***

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: تفسيرها ظاهر.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾: أي: يوم القيامة التي هي قريبة، وقد أزِفَ أُزوفاً؛ أي: قرُبَ، وجعلَها قريبةً؛ لأنها آتية لا محالةَ ولو بعد حِينٍ.

وقولُه: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾: أي: الحلاقم؛ أي: ينتهي إليها لغلَبة الخوف.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٧٠)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٤٣). وميمون بن مِهران الجزَري الرَّقِّي، إمام تابعي جليل ثقة، حدث عن أبي هريرة، وعائشة، وابن عباس، وابن عمر وغيرهم، ولي قضاء الجزيرة، وكان من العابدين، توفي سنة سبع عشرة ومئة. انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٧١).

(٢) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٦٥)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٢٩٦)، ولفظ الطبري: يوم تلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق.

﴿كَٰظِمِينَ﴾: أي: ساكتين على امتلائهم مِن الغَمِّ، نصبٌ على الحال.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾: أي: قريب ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾؛ أي: ولا شافع يُجاب.

* * *

(١٩) - ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾: أي: يعلم يوم القيامة ما كان منهم مِن خيانة الأعين وإخفاء الصُّدور.

والخائنةُ بمعنى المصدر؛ كالكاذبةِ في قوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]، واللَّاغِيَةِ في قوله: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، وكقولهم: سمعتُ راغِيَةَ الإبل وثاغِيَةَ الغنم[1].

وخائنةُ الأعين: هي ما ينظر إليه الإنسان مُسارَقةً مِن حيث يرى مَن حضَرَه أنه ليس بناظر إليه.

وأصلُ الخيانة: الإخفاء لِمَا لا يحب الخائن إظهارَه.

وقيل: الخائنة: نعت للنَّظْرة، أو الإشارة، أو الغَمْزَة، ونحوِها.

وقيل في الجَمْع بين الكلامين: هو أنْ ينظر إلى أجنبية بشَهْوةٍ مُسارقةً، ثم يتفكَّرَ بقلبه في حالها وجمالها، ولا يعلمُ بنَظْرته وفِكْرته مَن بحضرته، والله تعالى عالمٌ بذلك كله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا رجل يكون في القوم، فتمُرُّ بهم المرأة،

---

(١) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٣/ ٧٢)، والرُّغاء والثُّغاء: اسما صوتهما.

فيلحَظُها إذا غفَلوا، ويغُضُّ بصره إذا نظروا[١]، ويُريهم أنه لا يلحَظُها[٢].

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: خائنةُ أعين المُحبين استحسانُهم شيئاً، ولذلك قالوا:

يا قُرَّةَ العين سَلْ عيني هل اكتحَلَتْ ... بمَنْظَرٍ حسَنٍ مذْ غِبْتَ عن عيني[٣]

وقال آخر:

فقلت إذا استحسنَتْ غيركم ... أمرتُ الدُّموعَ بتأديبها[٤]

ومنها[٥]: أنْ يأخذهم السُّبَات في أوقات المناجاة؛ وفي الخبر: كذبَ مَن ادَّعى محبَّتي، فإذا جنَّه الليلُ نام عني[٦].

---

(١) في (أ) و(ف): «نظروه».

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٢٢٨)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٨٢) إلى سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) كذا في النسخ، وفي «اللطائف»: عن بصري.

(٤) البيت أورده العسكري في «الصناعتين» (ص: ٤٤٦)، والتوحيدي في «البصائر والذخائر» (٨/ ١٧٩)، والثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» (ص: ٢١١) من غير نسبة، ونسبه السري الرفاء في «المحب والمحبوب» (ص: ١٢) لابن المعتز. وفي بعض المصادر: (فعيني) بدل «فقلت».

(٥) أي: ومن خائنة أعينهم.

(٦) ذكره أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٩١) بصيغة: روي، والغزالي في «الإحياء» (٤/ ٣٣٣) نقلاً عن الزبور مما أوحاه الله إلى داود. وقدم له القشيري في «لطائف الإشارات» بقوله: وقد جاء في قصة داود عليه السلام.

ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٩)، والدينوري في «المجالسة» (١٣٢) عن الفضيل بن عياض. ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٣٨)، وأبو الحسين الطيوري في «الطيوريات» (٣/ ١٠٣٤) عن أبي سليمان الداراني، ومثله يروى للاعتبار والعظة لا من حيث نسبته إلى الرب تبارك وتعالى.

ومنها: أنْ يكون لهم عِلْم بقلوبهم بما تقع عليه عيونهم، ينظرون ولكنْ لا يُبصرون.

ومنها: أن تخرج منها قَطْرَةُ دمعٍ تأسُّفاً على مخلوق يفوت في الدنيا والآخرة، وعلى أنفسهم(١).

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾: يُجازي العباد على العمل والنَّظْرة والفِكْرة في الخير والشر ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾؛ أي: والذين يعبدونهم مِن دون الله لا يَقْدِرون أنْ يَقْضوا بشيء.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾: أي: إنما يقوم بالجزاء على الأعمال مَن لا يخفى عليه شيء مِن المرئيَّات والمسموعات، واللهُ تعالى سامعٌ كلَّ مسموع، ومُبْصِرٌ كلَّ مُبْصَر، فهو القائم بذلك، والأصنام ليست لها هذه الصفة، فليس لها هذا الاستحقاق.

* * *

(٢١) ـ ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: وهذا استفهام بمعنى الإثبات؛ أي: قد ساروا في الأرض.

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٠٣).

ثم خوَّفَهم عقوبة الدنيا بعد أنْ خوَّفهم عقوبة العُقْبى، فقال:

﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ﴾: وذلك أنهم كانوا يمرُّون بديار[1] عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم في جِوار بلادهم، وكان شأن بعضهم معلوماً عندهم عِياناً وخَبَراً.

وقولُه تعالى: ﴿كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: في أبدانهم، وعلى أعدائهم بعُدَّتِهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: قيل: أي: وأكثرَ آثاراً مِن الأبنية ونحوها؛ كما قال في آية أخرى: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وجمَعَ بينهما بوصف واحد، وما قلناه مُضْمَر، وهو نظير قول الشاعر:

علَفْتُهـا تِبْنـاً ومـاءً بـارداً[2]

أي: وسقيتُها ماءً بارداً.

ويحتمِل الوصفَ بغير إضمار، ووصْفُ الآثار بالشِّدَّة لِمَا أنها كانت في الجبال ومِن الحجارة، ووحَّدَ القوَّةَ، وجمَعَ الآثار؛ لأنَّ القوةَ مصدرٌ، والأثرَ اسمٌ.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي: عاقبَهم وأهلكَهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾: أي: ولم يكن لهم شيء مِن الأشياء يَقيهم عذاب الله، وهو معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾.

أي: فهؤلاء المشركون الذين هُم دونهم، فهم أولى ألا يقِيَهم شيء.

---

(١) في (ف): «بديارهم ديار».

(٢) صدر بيت استشهدت به كتب اللغة والأدب، ولا يعرف له قائل. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ١٤) عن بعض بني أسد، و«الخصائص» لابن جني (٢/ ٤٣٣). وتقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١].

(٢٢) ـ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وقولُه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ ﴾: هذا العذاب الذي أحلَّه الله بهم؛ لأنهم كذَّبوا الرسل، وجحَدوا الآيات ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ ﴾: عزيزٌ قادرٌ على كل شيء ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾: إذا عاقب.

***

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾: أي: ومِن الذين مِن قبلهم هؤلاء، وكان تكذيبهم كتكذيب هؤلاء.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: بالعلامات الدالَّة على صدقه، وهي المعجزات.

وقولُه: ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾: قيل: هي المعجزات أيضاً، ووُصِفَت المعجزات بوصفين: أحدهما: أنها ظاهرات، والثاني: أنها قاهرات.

وقيل: البيِّنات[1] أمور الشرع.

وقيل: الآيات: آيات التوراة، والسلطان المبين: المُعجزة إلى فرعون وهامان وقارون، خصَّهم بالذِّكْر؛ لأن فرعون كان ملِكَهم، وهامانَ وزيرَه، وقارونَ صاحبَ الأموال والكنوز، وكان موسى مبعوثاً إلى كل القوم، لكنهم مُدبِّرو أمورِهم، فكان خطابُهم خطابَهم.

---

(١) لعله يريد: المبينات.

﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٌ﴾: أي: هو ساحر، موَّهوا بذلك على قومهم حين أتى بالمعجزات لئلَّا يتَّبِعوه، وقالوا أيضاً: ﴿كَذَّابٌ﴾: للتَّنْفير، يَعْنون: في دعوى الرسالة والدعاء إلى التوحيد.

* * *

(٢٥) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾: وهو التوحيد الذي يحِقُّ أنْ يُعتقَدَ.

وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالصدق فيما أَخبرَ عنه.

وقيل: أي: بالمعجزة.

﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾: لئلا يعتضِدوا بمَن ينشَأُ مِن ذُكْران[1] أولادهم.

﴿وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ﴾: أي: واستَبْقُوا بناتهم؛ إذ لا يقع بهن اعتِضادٌ، ولأنَّا ننتفِعُ[2] بخدمتهن.

وكان هذا قتلاً واستحياءً غيرَ الأول الذي كان قبل مجيء موسى.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾: أي: فأبطلَ الله كيدَهم، وما كيد الكافرين إلا في بُطْلان؛ أي: لم يحصل غرضهم بما دَبَّروا، بل حاق ذلك بهم ودُمِّروا.

* * *

(١) في (ر): «ذكور».

(٢) في (ر): «أو لا ينتفع».

(٢٦) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: أي: هـمَّ بقتل بموسى، فمنعَه مَن منعَه مِن ذلك، فقال: دعوني أُمْضِ رأيي في موسى بقتله.

أي: ولا يهولنَّكم ما يذكُره مِن أمر ربه، وأنه يستجيب دعاءه، ويَصْرِف البلاء عنه.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾؛ أي: وليفعل ما يقول، فإنه لا حقيقةَ له، وأنا الرب الأعلى.

وقولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾: إنْ لم أقتُلْه أنْ يكثُرَ مُستَجِيبوه بسِحْره وتمويهه، فيَغلبَ دينُه على دينكم.

﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم[١]: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾؛ أي: أخافُ أحد أمرين: إما غلبَتهم عليكم في الدين، فيُصيِّروا أهل الأرض كلِّها على دينه، وإما التعارض بين الفريقين والتَّحارُب والتَّقاتُل، وهو الفساد.

وقرأ الباقون: ﴿وأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[٢]: أي: وأخاف تبديل الدِّين، ووقوع الاختلاف بين الناس، وهو الفساد.

وقيل: هو فساد القلوبِ، وقطعِ الأرحام.

***

(١) في (ر): «وعاصم في رواية أبي بكر»، والصواب المثبت، إذ هي قراءة عاصم من روايتيه في المشهور عنه.

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٦٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩١).

(٢٧) - ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾: أي: ولمَّا سمع موسى قولَ فرعون هذا أو بلَغَه منه ذلك قال لقوم فرعون: إني استعذْتُ بالله الذي هو ربي وربكم، لا كما تقولون: إن فرعون ربكم.

وقولُه تعالى: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾: وفرعون كذلك، فأعوذ بالله منه.

وعمَّ بقوله: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ استعاذة منه، ومِن آلِه، ومِن كل عدوٍّ يكون في وقته أو بعده.

وفيه بيانُ أنَّ الواجب على العبد أنْ يستعيذَ بالله مِن كلِّ عدوٍّ، ويستعينَ به في دَرْك كل مَرْجُوٍّ.

***

(٢٨) - ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾: قال ابن إسحاق رحمه الله: اسمه حبيب[١]، وقيل: سمعان[٢].

وقال الضحاك: هو خربيل[٣].

---

(١) ذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٥٢)، وروى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣١١) عنه أن اسمه: خبرك.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (١٧/ ٣٦٣). ووقع في (ف) و(أ): «شمعان».

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٢٧)، وابن الأثير في «الكامل في التاريخ» (١/ ١٥٩) من غير =

وقال وهب: خربيال[1].

وكان خازنَ فرعون مئة سنة.

﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: قيل: مِن أهل بيته.

وقيل: ابن عمه، وهو قول مقاتل[2].

وقيل: هو مِن آل موسى.

فأما قوله: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، فهو مؤخَّر، معناه: يكتُمُ إيمانه مِن آل فرعون.

وقال وهب رحمه الله: امرأتُه ماشطةُ بناتِ فرعون أظهرت الإيمان فقتلَها فرعون، وذبحَ أولادها قبل قتلها على وجهها، فتكلَّمَتْ أوداجُهم: يا أماه[3]! أبشِري بجنة ربكِ، فاصبري إنكِ على الحق، واعلمي أنَّ عذاب ربك أشدُّ مِن عذاب فرعون وقومه[4].

ثم أظهرت آسيةُ إيمانها، فقتلَها بعدما[5] قتلَ الماشطة، وأظهر خربيل إيمانَه، وجادل فرعون وقومَه بعد كتمان إيمانه مدةً، وقتله فرعون مع السَّحَرة.

= نسبة، وقال الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣): هو قول ابن عباس وأكثر العلماء.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣)، وروى الطبري في «تاريخه» (١/ ٤٠٧) عن وهب أن اسمه: حبرك.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣١١) عن السدي، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٧٣)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٠) عنه وعن مقاتل.

(٣) في (أ): «بآية» وفي (ر): «يا أمة».

(٤) قصة الماشطة رواها الإمام أحمد في «مسنده» (٢٨٢١)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٩٠٤) وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وفيه أن المتكلم صبي لها مرضَع وتكلم قبل إلقائه في النار، فلذا جاء في آخر الخبر: قال ابنُ عباس: تَكَلَّم أربعةٌ صغارٌ: عيسى ابنُ مريمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، وصاحبُ جُرَيْجٍ، وشاهدُ يوسف، وابنُ ماشطَةِ ابنةِ فرعون.

(٥) في (أ) و(ف): «بعد».

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾: أي: بأنْ يقول، وهذا القول لا يُوجب القتل.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: بالحُجَج والمعجزات.

والحُجَج: ما ذُكِر في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] الآيات، وأما المعجزات: فهي اليد والعصا ونحو ذلك.

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾: أي: وَبالُ كذِبه.

قيل: أي: يُقتل إذا تبيَّنَ كذِبُه، فأما قبل التَّبيُّن فلا تقتلوه.

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾: قيل: أي: كلُّ الذي يعِدُكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]: أي: كلَّه، وهو كقول الشاعر:

قد يُدرِك المُتأنِّي بعضَ حاجتِه ... وقد يكون مِن المستعجِلِ الزَّلَلُ[1]

وقال لَبيد:

تَرَّاكُ أمكنةٍ إذا لم أَرْضَها ... أوْ يعتلِقْ بعضَ النُّفوس حِمامُها[2]

أي: كلَّ النُّفوس.

وقد جاء كلٌّ في إرادة البعض؛ كما في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾، وقال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾.

وقيل: كان موسى عليه السلام قال: إن العذاب على مَن كذَّب وتولَّى، وهذا

---

(١) البيت لعمير بن شييم القطامي يمدح عبد الواحد بن الحارث. انظر: «ديوانه» (ص: ١٩٣)، و«جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي (ص: ٧٤)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (١/ ٣١٠).

(٢) انظر: «ديوان لبيد بن ربيعة» (ص: ١١٣)، وهو من معلقته المشهورة.

عامٌّ، والذين خاطبهم خربيل ومَن آمن معه كانوا بعضَ الكل، فما يُصيبهم يكون بعضَ ما يُصيب الكل.

وقيل: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾: في الدنيا، وكمالُه في الآخرة، وهذا تخويفٌ لهم بالعاجل.

وقيل: كان يعِدُهم العذابَ إنْ كذَّبوه، والثوابَ إنْ صدَّقوه، فكان العذابُ بعضَ ما كان يعِدُهم، والوعدُ يقع على النوعين، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الحج: ٧٢].

وقيل: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾: عاجلاً إذا قتلتُموه، ثم يترادف عليكم العذاب حتى يُصيبَكم كلُّ ما يعِدُكم.

وقيل: هو ترقيق الكلام؛ أي: إذا أصابكم البعض مما يقول ففيه كِفايةٌ، فلا تقومون له.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: يتَّصِل بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾؛ أي: يتبيَّنُ كذِبُه بالامتحان، إنَّ الله لا يهدي إلى الصواب مَن هو مُسْرِفٌ مُتَعَدٍّ لحدوده بالافتراء عليه والكذبِ فيما يُضيفه إليه.

***

(٢٩) ـ ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا﴾: أي: أنتم اليوم ملوك هذه البلاد، لكم الغلَبةُ على أهلها، تُصَرِّفونهم على ما تريدون، ويُطيعونكم فيما تأمرونهم، فهل فيكم وفيمَن تملكونهم مِن الناس

مانـعٌ مِـن عـذاب الله إنْ جاءنـا؟! أي: إنْ كان موسـى صادقـاً، فأصابنـا مـا وعدَنا، وهـو قولُه:

﴿مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾: أي: فإذا لم يكن لكم ناصر، فلا معنى للتعرُّض لِمَا لا يُمكننا دَفْعُه.

هذا الرجلُ كتَمَ إيمانه مدةً حين خاف على نفْسه، فدلَّ ذلك على أنه يُباح إخفاءُ الإسلام وإظهارُ كلمة الكفر عند خوف الهلاك على نفْسِه(١).

وحين رأى قَصْدَهم قَتْلَ موسى أظهرَ الله ذلك وحاجَّهم؛ لأنه رجا أنْ يكون في ذلك نجاةُ موسى وإنْ كان فيه هلاكُ نفْسِه، وذاك واجب، وهو السَّعْي في دفع الهلاك عن الأنبياء.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾: أي: ما أُبَصِّرُكم(٢) صوابَ قَتْلِ موسى إلا وهو صوابٌ عندي في رأيي.

وقيل: أي: ما أختارُ لكم إلا ما أختارُ لنفْسي.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾: وهو ما أقول مِن قَتْل موسى، وكَذَبَ عدوُّ الله، فإنه لم يختَرْ لهم ما يختارُ لنفْسه، فإنه اختار لنفْسِه أنْ يكون معبوداً لهم، واختار لهم أنْ يكونوا عابدين له، وهداهم سبيلَ الضلال دون سبيل الرَّشاد، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩].

* * *

---

(١) في هذا الكلام نظر، فكتمان الإيمان لا يعني بالضرورة إظهار كلمة الكفر، بل حتى لا دليل على أن كتمانه كان خوفاً على نفسه، فلعله كتمه حكمةً ليكون نصحه مقبولاً عندهم على اعتبار أنه منهم.

(٢) في (ر): «ما أبصره لكم».

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: أي: يوماً ينزِلُ عليكم فيه العذابُ المستأصِل بتكذيبكم رسولَه، مثلَ يوم الكفار الذين تحزَّبوا على الأنبياء وتجمَّعوا عليهم بالتكذيب.

﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾: أي: مِثْلَ سُنَّة الله في هؤلاء بإنزال العذاب عليهم لَمَّا كذَّبوا رسلَه.

﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: مِثْلَ قوم لوطٍ وقوم شعيبٍ والأُمَم بعدهم.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾: أي: وما يريد الله أنْ يظلِمَ عباده، فيُعذِّبَهم بغير ذنب، وهذه الآية في عذاب الدنيا.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

ثم قال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾: أي: وأخاف عليكم ـ إنْ أصررتُم على الكفر ومتُّم عليه ـ عذابَ يوم الآخرة.

و﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾: يوم التَّنادي، وهو مِن النِّداء، وحُذِفَت الياء تخفيفاً؛ كما في ﴿ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] و﴿ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقرأ الحسن: ﴿يوم التنادي﴾: بالياء على الأصل(١).

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٣١٩)، وذكر ابن مجاهد في «السبعة» (ص: ٥٦٨)، والداني في «التيسير» (ص: ١٩٢) أنها قراءة ابن كثير وصلاً ووقفاً، ورواية ورش في الوصل، ولقالون الوجهان. وورش وقالون هما الراويان لقراءة نافع.

وقرأ ابن عباس والضحاك: ﴿يوم التَّنادِّ﴾ بالتشديد[(١)]، قال السُّدِّي: أي: يومَ التنافر[(٢)]، وقد ندَّ نُدوداً؛ أي: نفَرَ، وهو كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية [عبس: ٣٤].

وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندُّوا هِراباً[(٣)].

وقراءةُ العامة: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بغير تشديد، وهو مِن النِّداء، ولهذا النِّداء وجوه:

منها: الاستغاثة: كما في قوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ الآية [الأعراف: ٥٣]، وقولهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ الآية [فاطر: ٣٧]، ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] الآيات، ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية [الكهف: ٤٩].

ومنها: تَنادِي أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: ٤٨]، ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

ومنها: نداء الدُّعاء: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ﴾ [الإسراء: ٧١]، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨]، ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١]، ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٢].

* * *

(٣٣) ـ ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: قيل: يوم تلتمِسون الفِرارَ

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٧٣)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٧٥) ونسبها لابن عباس والضحاك، و«الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٦٣١)، وفيه: أنها قراءة الزعفراني وابن مقسم أيضاً.

(٢) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣١٦) عن الضحاك والسدي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣١٨)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٧٥) واللفظ له.

مما تُعايِنون مِن العذاب، فلا تجدون مِن عذاب الله مانعاً، وهو كقوله: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١٠]، ﴿فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

وقيل: يوم تنصرفون مِن الحساب مُدْبِرين عنه إلى النار، لا يعصِمُكم مِن عذابها عاصم.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾: قيل: مَن يُضلِلْه عن الدِّين فلا مُرْشِدَ له إليه.

وقيل: ومَن يُهْلِكْه فما له مِن مُخَلِّص.

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي: وقال هذا المؤمن: ولقد أتاكم يوسفُ النَّبيُّ عليه السلام مِن قَبْلِ موسى بالبينات؛ أي: بالآيات مِن عند الله الدالَّة على أنَّ دِين بني إسرائيل هو الحقُّ دون دين القِبْط.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو تعبير الرُّؤيا، وقدُّ القميص[1].

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾: أي: فبَقِيَ أسلافُكم طُولَ مدةِ يوسف في شك مما جاء به، يتوهَّمون أنَّ ذلك ليس مِن عند الله، مع علمهم بقُصور قوى البشر عنه؛ لعَجْزهم عن الإتيان بمثله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾: أي: فلما مات يوسف ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾؛ أي: مَن يدَّعي الرسالة؛ لأنه لا يأتي أحدٌ بمِثْل ما أتى به يوسفُ مِن

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٢٢١) عن ابن السائب الكلبي، فلعله مما روي من طريق الكلبي عن ابن عباس.

الشُّبَه والمخاريق، وقد استرحنا مِن مُدَّعي الرِّسالات[١]، فقد أعرضتُم عن الاستدلال وقبول الحق، وأسرفتُم في التَّمادي، وأصررتم على العِناد، فأدَّى ذلك منكم إلى قَصْد قتْلِ موسى الآن.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾: أي: يَخذُلُ مَن أسرف وارتاب، ولا يوفِّقُه إذا علِمَ منه اختيار الضلالة ولُزومَ الجَهالة.

وقيل: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾: كان تمنِّياً منهم بعثَ رسولٍ، وتأسُّفاً على فَوْت يوسف عليه السلام، يقول: فأنتم الآن كذلك تفعلون بموسى عليه السلام، ولعلكم تتمنَّونه بعد فَوْته.

ويؤكِّدُ هذا التأويلَ قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه: (قلتُم ألن يبعث الله) بألف الاستفهام[٢].

* * *

(٣٥) ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾: قيل: هو ترجمةٌ عن قوله: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، وهذا جَمْعٌ، وذاك واحدٌ، لكنه اسمُ جنسٍ، فصلَح للجَمْع معنًى.

وقيل: هو مبتدأ، وللابتداء وجهان:

أحدُهما: أنه كلام ذلك المؤمن.

---

(١) في (ر) و(ف): «النبوات».

(٢) انظر: «تفسير السمعاني» (٥/ ١٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٥٩)، ونسبت لأبيٍّ أيضاً.

وقيل: هو ابتداءٌ مِن كلام الله تعالى.

﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾: أي: بغير حُجَّةٍ أتتْهم مِن عند الله تعالى.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: مَن كان كذلك فهو مُبْغَضٌ عند الله وعند المؤمنين أشدَّ بُغْض.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: أي: كما فعَلَ بهؤلاء المجادلين يَفعلُ بقلبِ كلِّ مُتعظِّمٍ مُتَرفِّعٍ لا ينقاد للحق.

وتَرْكُ التنوين على الإضافة(١)، والنَّعتُ بالمتكبِّر والجبَّار لصاحب القلب، والتنوينُ على أنهما مِن نعت القلب، وهو نفورُ القلب عن اعتقاد الحق وقبوله وتصديقه.

والطَّبْع: هو الخَتْم على القلب بالإضلال، وهو مِن الله تعالى في حق مَن علِمَ منه اختياره(٢)، وعلى الكفر إصرارَه.

والتنوينُ قراءةُ أبي عمرو، وتَرْكُ التنوين قراءةُ الباقين(٣).

* * *

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «للإضافة».

(٢) في (ر): «اختياره الضلال».

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٧٠)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩١).

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾: أي: بِناءً عالياً طويلاً على هيئة القَصر؛ أي: قال فرعون ـ حين حاجَّه خربيل بهذه المحاجَّة، وخاف على القوم اتِّباعَه، وأراد تلبيس الأمر على الضَّعَفة ـ لوزيره هامان: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾: أي: قصراً عالياً.

﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: ترجمة عنه؛ أي: أبوابَ السماء وطرُقَها الموصِلةَ إليها.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: قرأ عاصم في رواية حفص: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾ بالنَّصْب بالفاء في جواب التمني، وقرأ الباقون بالرفع عَطْفاً على قوله: ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾[1]؛ أي: فأنظر إليه نظَرَ مُشْرِفٍ عليه توَهُّماً منه ـ أوْ إيهاماً ـ أنه جسم تحويه الأماكن، حتى تكونُ بعض الأماكن فوقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

إذ كان فرعون موصوفاً بهذا، ويدَّعي مع ذلك إلهيَّةَ نفْسِه، وكان أراد بما أضافه إلى الله تعالى تقريبَ معنى إلهيَّةِ نفْسِه مِن نفوس الجهَلة مِن قومه؛ أي: فإنْ وجدتُّه هناك نظَرْتُ في أمري وأمره، وهل هو كما يصِفُه موسى أم لا؟ وإنْ لم أجِدْه فهو معدوم ليس بموجود؛ لخُلُوِّ السماوات والأرض منه، وكفى خِزْياً للمُجسِّمة أنْ يكون اعتقادهم في الله كاعتقاد فرعون.

وقيل: كان هذا إيهاماً لضَعَفة قومه[2] الذين لا تمييزَ لهم أنه تمكَّنَ مِن صعود السماء ـ وإنْ كان عند نفْسِه عالماً بامتناع ذلك عليه ـ إرادةَ التَّسْكين منهم، فإنْ لم يكن هذا، فقد كان فرعون في غاية الجهل والغِواية والغَباوة.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾: أي: وإني لأتيقَّنُ بكون موسى كاذباً فيما يدَّعيه، ولكنْ أفعل هذا لإزالة الشُّبهة عمن لا يتيقَّنُ تيقُّني.

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٧٠)، و«التيسير» للداني (ص: ١٧٢).

(٢) في (ر) و(ف): «للضعفة».

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي: وكالذي ذكَرْناه ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: في الشرك والتكذيب والجدال في آيات الله.

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الصاد؛ أي: مُنِعَ، وقرأ الباقون بفتحها؛ أي: أعرَضَ(١).

والسَّبيلُ: هو الطريق الحق إذا أُطلِق؛ لأنه ما يُفْضي بسالكه إلى المقصود، فما لا يُفْضي بسالكه إلى الصواب فليس بسبيل.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾: قيل: في بُطلان. وقيل: في خَسار. وقيل: في هلاك. وقيل: في ضلال.

وقال وهب بن مُنبِّه رضي الله عنه: فجمَعَ هامان العمال والفَعَلَة، فلم يتركْ أحداً بيده مِهْنة مِن عمل البنيان إلا جمَعَ لذلك الصَّرْح، حتى اجتمع فيه خمسون ألف بنَّاء يبنون، سوى مَن يطبُخُ الآجُرَّ والجَصَّ، وينجُرُ الخشب، ويُصوِّر الأبواب، ويضرِبُ المسامير، فأولئك عِدَّةٌ لا يُحصيها إلا الله، فلم يزَلْ كذلك، ويرفع الله بُنيانه، ويُملي له ويستدرجه، حتى إذا ارتفع بُنيانه على ما أراد ارتفاعاً لم يبلُغْه بُنْيانُ أحدٍ منذُ يومِ خَلَق الله السماوات والأرض، لا يزداد بُنْيانه إلا شدةً وارتفاعاً في السماء(٢)، ولا يأمرُ فيه بأمر ولا يُشارُ عليه فيه بأمر إلا أمضاه الله تعالى له، يَكيدُه بذلك ويستدرجُه وهو لا يشعُرُ، وكلما همَّ موسى بجهاده أوحى الله تعالى إليه: أنْ دَعْه وما يريد، فإني أوشك أنْ أفجعَه في ساعة واحدة، وأُبطِلَ كل شيء عمِلَه، فكفَّ موسى ينتظر أمرَ الله ووحيَه، حتى إذا كان يومٌ مِن الأيام، وقد بلَغ الصَّرْح مبلغاً لم يبلُغْه بُنْيانٌ قطُّ، كان إذا

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٧١)، و«التيسير» للداني (ص: ١٣٣).

(٢) في (ر): «الهواء».

طلَع قَرْن الشمس ضرَبَ ظِلُّ ذلك الصَّرْح مَيْلاً نحو المغرب، وإذا غرَبت ضرَب ظِلُّه ميلاً نحو المشرق، وكان أساسه على جبل، فزلزل الله تعالى ذلك الجبل والصَّرْح مِن قواعده، والناس في أعلاه وأسفلِه وأوسطِه وحولَه، فانهدم بهم مِن غير وَهْن ولا ضَعْف في عمله، فدمر الله تعالى أهلَه، حتى لم يُبْقِ منهم أحداً إلا أهلكَه، فلم يَبْقَ أحد مِن خَلْق الله عمِلَ فيه عملاً بشيء مِن أرض مصر إلا أصابه موت أو حريق أو عاهة، فأما مَن كان مِن نجّار أو حدَّاد فيَبِست أيديهم، وأما الذين يطبُخون الآجُرَّ والجَصَّ فاحترقوا، وأما القَهارمة(١) والعُمَّال فماتوا، فدمر الله تعالى ذلك كله فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وكانوا يعملون فيه بالنهار، والليل بالسُّرُج لا يفتُرون، حتى أهلكهم الله تعالى على شرِّ حال(٢).

* * *

(٣٨ ـ ٣٩) ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾: أي: قال ذلك هذا الذي آمنَ مِن آل فرعون.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾: أي: لا يغُرَّنكم ما أنتم فيه مِن المُلْك في الدنيا، والظُّهور في الأرض، فيَشغلكم ذلك عن تدبر آيات الله، فإن الله تعالى خلَقَ الدنيا دار نُقْلة يُتمتَّع بها قليلاً ثم تنقضي.

---

(١) القهارمة: مفرده: قهرمان، وهو الحفيظ على من تحت يده، وأصله فارسي. انظر: «المحكم» لابن سيده (٤/ ٤٥٩).

(٢) ذكره مختصراً من سياق آخر: الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٠)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٠٨).

﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾: قال قتادة: استقرت الجنة بأهلها والنار بأهلها[1].

وقيل: أي: الدنيا لا ثباتَ لها، والآخرةُ دار الثبوت والخلود، مَن استقرَّ أمرُه فيها على شيء خُلِّدَ فيه ودام له.

* * *

(٤٠) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾: أي: بالسيئة، وقال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: وهذا واحد بظاهره.

ثم قال: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾: على الجَمْع؛ لأنه جنس، فصلَح للجَمْع معنىً.

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي: بلا تقديرٍ عليهم ولا تقتير، وله وجوهٌ أُخَر مرَّ بيانها مرات.

وقيل: يُجزى بالسيئة الواحدة مِثْلَها، وبالحسنة الكثيرَ الذي لا يحصرُه حساب.

* * *

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٣٠)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٢٨٩) إلى عبد بن حميد.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾: بقولي[١]: ﴿اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾.

﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾: وهو قول فرعون: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾، وكان ذلك دعاءً إلى الكفر.

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾: هو تفسير قوله: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وليس شيئاً آخر؛ لأنه لا عاطِفَ بينهما.

﴿وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾: أي: لا علم لي بأن له شريكاً، بل أنا عالم أنه لا شريك له.

﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾: أي: إلى دين الله ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: المنيع الذي لا يُغالَب إذا عاقب الكفار ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾: الذي يغفر للمؤمنين بالتوبة والاستغفار.

وقيل: ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: الغنيُّ بعِزَّته عن الشركاء والأنداد ﴿ٱلۡغَفَّٰرِ﴾: المُتفضِّلِ بعفوه ومغفرته على العباد.

* * *

(٤٣) - ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمة تحقيق، وقد مرَّ تفسيرها في سورة النحل بوجوهها.

﴿أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾: إلى عبادته مِن دون الله.

﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: أي: لا يُنتفع بها في الدنيا ولا في الآخرة،

---

(١) في (أ): «بقول».

فوجودها كعدمها، وهو كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [المائدة: ٦٨].

وقال السُّدِّي وقتادة: أي: الصَّنم لا يستجيب لأحد في الدنيا ولا في الآخرة[١].

وقال الزجَّاج: أي: ليس له استجابةُ دعوةٍ[٢].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: مَرْجِعَنا إلى جزائه.

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: المُجاوزين حدودَ الشرع[٣] بتكذيب الأنبياء، والجدال في آيات الله، ودعاءِ الناس إلى عبادة غير الله.

﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: الدائمون فيها.

* * *

(٤٤) ـ ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾: إذا رُدِدْنا إلى الله. وقيل: في الدنيا.

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: أُسَلِّمُ أموري كلَّها إلى الله[٤] الآن، إني توكَّلْتُ عليه، وقطعتُ الرَّجاء عمن دونه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: بما يُظهرونه وما يُضمرونه.

* * *

(٤٥) ـ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾: أي: حفِظَه الله تعالى عن مكاره

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٣٣) عن مجاهد وقتادة والسدي، واللفظ للسدي.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٧٦)، وفيه: أي: وجب بطلان دعوته.

(٣) في (ف): «الله».

(٤) في (ر) و(ف): «إليه».

مَكْرِ فرعون وقومه، فلم ينفُذْ عزمُهم في قتل أبناء الذين آمنوا معه واسترقاقِ بناتهم.

وظاهرُه يدلُّ على أنهم لم يَقْدِروا على قتل هذا المؤمن.

قال الضحاك: أرادوا قتله، فتراءى له جبل فصعِده، فكان مَن يأتيه مِن جنود فرعون تأكله السِّباع، أو يرجع عنه، حتى مات خربيل هناك[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بعَثَ في طلَبه قريباً مِن ألف، فمنهم مَن أكلَتْه السِّباع، ومنهم مَن رجع إلى فرعون فصلَبه[٢].

وقد رَوَيْنا عن وهْب أنهم قتلوه مع السَّحَرة، وعلى هذا يكون قوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ﴾ إشارةً إلى موسى عليه السلام، وهو تحقيق قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية [غافر: ٥١].

وقولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: أي: نزل وأحاط بأشياع فرعون مع فرعون مكروهُ عذابِ الله تعالى وشِدَّتُه، وما يَسوءُ منه.

* * *

(٤٦) ـ ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُعرَضُ أرواحُهم على النار[٣].

---

(١) ذكر نحوه السمعاني في «تفسيره» (٥/ ٢٣). وهو إلى الخرافة أقرب، فإن سنة الله في المؤمنين أمثاله هي المحن والابتلاء، وكلما كان الإيمان أقوى كان البلاء أشد، فلا حاجة لاجتلاب قصص لم ترد في قرآن ولا سنة.

(٢) ذكر نحوه عن ابن عباس: أبو حيان في «البحر المحيط» (١٨/ ٤٣٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٥٩) من غير نسبة.

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٠٨) عن ابن عباس وقتادة ومجاهد.

﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾: قَدْرَ الغُدُوِّ وقَدْرَ العَشِيِّ في الدنيا، وهذا في القبر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أرواحُهم في صُوَرِ طير سُودٍ يرَون منازلهم منها غُدْوةً وعَشِيَّةً[١].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: قُرِئ بقطع الألف، وهو مِن الإدخال؛ أي: يُقال للملائكة: أَدْخِلوا فرعونَ وآلَه أشدَّ العذاب.

وقُرِئ: ﴿اُدْخُلوا﴾: بضم الألف مِن الدخول[٢]؛ أي: ويُقال لفرعون وآله: اُدْخُلوا آلَ فرعون؛ أي: يا آلَ فرعون.

﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾: أي: أغلظَه وأشقَّه، وإنما استحقوا ذلك لشِدَّة عِنادهم ومُكابرتهم بعد ظهور الآيات الحِسِّيَّة، وزوال الشُّبَه بالكُلِّيَّة.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾: أي: يُقال لآل فرعون[٣] ذلك يوم القيامة، وحين يتخاصم أهل النار فيها.

---

(١) رواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٨٠)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٠٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٥٩)، ولفظ عبد الرزاق: (... في صدر طير...).

وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٣٧ـ٣٣٨) عن الهزيل بن شرحبيل والسدي والأوزاعي.

(٢) قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم بقطع الهمزة وفتحها مع كسر الخاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم بوصل الهمزة وضم الخاء. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٧٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٢).

(٣) في (أ): «يقال للذين هم آل فرعون».

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾: جمعُ تابع؛ كالخَدَمِ: جمعُ خادم، والسَّلَف: جمعُ سالف، والغَيَب: جمعُ غائب.

أي: كنَّا أتباعاً لكم فيما دعوتُمونا إليه مِن الشرك وتكذيب الأنبياء لاستضعافِكم إيانا.

وقولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: أي: مُتحمِّلون عنا مِقْداراً مِن النار التي نحن فيها، فيلحقَنا تخفيفٌ مِن جِهتكم؛ إذ لا أحدَ أحقُّ بالتحمُّل عنا منكم؛ لأنكم كنتم سببَ دخولنا النارَ بقولكم: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]، والغَناءُ: الكفايةُ.

* * *

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾: أي: إنَّا مَجموعون جميعاً في النار بحُكْم الله، لا يَجري لنا على أنفسنا ولا عليكم حُكْمٌ.

وقولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾: أي: إذا يئِسوا مِن كُبرائهم طلَبوا الفَرَجَ مِن عند خزَنَة جهنم؛ ظنًّا منهم أنهم يرقُّون لهم لِمَا يرون مِن قِلَّة صبرهم وشدة جزَعِهم، وقالوا لهم: سَلُوا ربكم أنْ يُخفِّفَ عنا؛ أي: يُزيلَ العذاب عنا مقدارَ يومٍ مِن أيام الدنيا لنستريحَ في مقدار هذه المدة.

* * *

(٥٠) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَـٰٓؤُاْ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾: اعترفوا بمجيئهم، وزاد في آية أخرى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ [الملك: ٩].

﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾: أي: فادْعوا أنتم إذاً، فقد لزِمَتْكم الحُجَّة، ووقَعَ الإعذار، وحقَّتْ كلمة العذاب، ولا تبديلَ لكلمات الله، ولن ندعوَ لكم؛ إذ لا سبيلَ لنا إلى الشفاعة إلا بإذن الله، واللهُ لا يأذَن لنا بالدعاء لكم، فادعوا أنتم لأنفسكم.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾: أي: وما دعاء الكافرين لأنفسهم في الآخرة بتخفيف العذاب عنهم إلا في بُطْلانٍ ومَيْلٍ عن الصواب، وهو في مُقابلة قولهم للأنبياء في الدنيا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٩].

وقولُه تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾: ليس بأمرٍ حقيقةً، لكن معناه: إنْ دعوتم لنْ ينفعَكم، وهو كقوله: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ [الطور: ١٦].

* * *

(٥١) ـ ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: ذَكَرَ نَصْرَ موسى عليه السلام ومؤمنِ آلِ فرعون على فرعون وآله، وأخبَرَ أنه ينصر أيضاً جميعَ رسُلِه، وجميعَ المؤمنين.

والنَّصْرُ: المَعونةُ على العدو بالاستعلاء عليه، وهو على وجوه:

نصرٌ بالحُجَّة[1]، ونصرٌ بالغلَبَة والمُحاربة، ونصرٌ بعِقاب العدو، ونصرٌ بإكرام الولي بالثواب.

---

(١) في (أ): «أحدها: الحجة» بدل: «نصر بالحجة».

وقد نصَرَ الله الأنبياء بإنجائهم وإهلاك أعدائهم(١)، وما جرى على زكريا ويحيى وبعضِ الأنبياء مِن القتل، فقد نصرَهم الله تعالى بعد قتلهم بالانتقام منهم على يد بُخْتَ نَصَّرَ، فهذا كله نصرٌ؛ لأنه إِعانةٌ(٢) وانتقامٌ ومعونةٌ.

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]؛ أي: فنحن ننتقم لكَ منهم إذا رجعوا إلينا، وقال: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ [الغاشية: ٢٢ ـ ٢٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: وهو جَمْع شهيد؛ كشريف وأشراف.

وقيل: جَمْعُ شاهد؛ كصاحب وأصحاب.

وقيل: هو جمعُ جمعٍ: شاهدٌ، وشُهَّدٌ، وأشهاد.

وقال مجاهد: هم الملائكة(٣).

وقال قتادة: هم الأنبياء(٤).

وقيل: هم الخوارج.

وقيل: هم أهل الموقف، شهِدوه قائمين لرب العالمين، ونصرتُهم يومئذ للمؤمنين بالتمييز بين المُحِقِّ والمُبْطل(٥) والوليِّ والعدوِّ بالثواب والعقاب.

---

(١) في (ر): «عدوهم».

(٢) في (ف): «إغاثة».

(٣) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٤٧)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص: ٣٨٦)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٦٨٣) عن قتادة.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٤٦) بلفظ: من ملائكة الله وأنبيائه والمؤمنين به، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ١٤٤)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ١٦٣) عن الضحاك.

(٥) في (أ): «الحق والباطل».

وقيل: يلعن أهلُ الموقف الكفارَ، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

* * *

(٥٢ ـ ٥٣) ـ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾: لأنها باطلة، ولأنه لا يُؤْذَنُ لهم فيعتذرون ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾: وهي جهنم.

وقولُـه تعالـى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾: وهـو مِـن النُّصْرة؛ أي: الرُّشْـد في كل أموره.

﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أي: التوراةَ، وجعلناهم يتوارثونها، فتنتقِلُ مِن سلَف إلى خلَف(١).

وقيل: ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: الإنجاءُ مِن البحر، قال خبراً عنهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

وقيل: وأورثناها: أي: بقَّيْناها لهم.

* * *

(٥٤ ـ ٥٥) ـ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾.

﴿هُدًى﴾: يهتدون به في أديانهم ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾: أي: ويتذكَّرون به وَعْدَ الله ووعيدَه.

---

(١) في (أ): «من خلف إلى خلف».

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾: يا محمَّدُ على الدعاء للدِّين، وعلى أذى المشركين.

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾: بنَصْرِ(١) الأنبياء والمؤمنين.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾: أي: وإنْ خطرَ بقلبك مِن وَسْواس الشيطان استبطاءُ النَّصْر(٢) لتأخُّره عنكَ، فاستغفرِ الله تعالى مِن ذلك.

وقيل: إذا أتاكَ النَّصْر وخطرَ بقلبكَ أنه بقوةٍ منكَ، فاستغفرْ مِن ذلك.

وقولُه تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: أي: ودُمْ على التسبيح لله في الصلوات وخارج الصلوات بالغَدَوات والعَشَايا، فتنقطِعَ وساوس الشيطان عنكَ.

والعَشِيُّ: مِن زوال الشمس إلى الليل، والإبكار: مِن طلوع الفجر؛ أي: إلى طلوع الشمس.

* * *

(٥٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾: أي: إنَّ هؤلاء المشركين الذين يُخاصِمون في آيات الله بالتكذيب والرَّدِّ بغير حُجَّة عندهم أتَتْهم مِن عند الله في عَقْل أو كتاب، ليس جدالُهم لأمرٍ وضَحَ عندهم يُجادلون لذلك، بل للحسَد والتَّعَظُّم الذي في صدورهم مِن التكبُّر عن الانقياد للحق، وما هُم ببالغي هذا الكِبْر الذي في صدورهم.

---

(١) في (أ): «بنصرة».

(٢) في (أ): «النصرة».

أي: إنَّ هذا لا يتِمُّ لهم على ما يُضمِرونه، بل أُعْلِيكَ عليهم، فينقادوا لكَ أو أبيدَهم بسيفكَ.

وقيل: أي: يتوهَّمون أنهم إذا أصرُّوا عليه نالوا به الرِّفْعة، واستداموا به الرِّياسة، وما هُم ببالغي ذلك، بل أُعْلِيكَ عليهم وأُصيِّرُهم إلى الهَوان في الدنيا والآخرة.

وقيل: أي: في قلوبهم حسَدٌ لكَ على نبوتكَ، وما هُم ببالغي النبوة، إنما يُؤتيها الله تعالى مَن يشاء، والكِبْرُ على هذا التأويل أمرٌ كبيرٌ؛ كما قال: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ [النور: ١١].

وقيل: (في صدورهم كِبْرٌ)؛ أي: أمر كبير، وهو قصدُهم قَتْلَكَ، ﴿مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾ بل لا يُميتُكَ الله[1].

وقيل: هو تمنِّيهم موتَكَ قَبْل أنْ يُكمِلَ الله بكَ الدِّين، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ﴿مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾، بل لا يُميتكَ الله حتى يُكمِلَ بكَ الدِّين، ويقمَعَ بكَ المشركين.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: أي: فاستعذ مِن شرِّهم بالله، إنه هو السميع بما يقولون، والبصير بما يعملون.

* * *

(٥٧) ـ ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾: أي: إنَّ المشركين مُقِرُّون بأن الله خلَقَ السماوات والأرض على كِبَرِهما وعِظَمِهما

---

(١) «بل لا يميتك الله» ليس من (أ) و(ف).

والعجائب التي فيهما، وذلك أعظم شأناً مِن خَلْق الناس، فكيف وصفوني بالقُدْرة على خَلْقهما وعجَّزُوني عن القُدْرة على خَلْق الناس بعد موتهم؟!

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يتدبَّرون، ولا يستدلُّون بالآيات فيعلموا ذلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: هُمُ اليهود يُخاصمون في القرآن بغير حُجَّة ولا عُذْر أتاهم مِن الله، ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾: أي: ما في صدورهم إلا الكبر ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ يعني: بِنائِلي ذلك الكِبْر الذي في قلوبهم، وهم اليهود قالوا: يخرُجُ الدجال، ويخوض في البحر، وتسير معه الأنهار، وتطلُعُ الشمس فوقه إلى مغربها، ويرُدُّ إلينا المُلْك، فردَّ الله عليهم فقال: ما هُم ببالغي ما قالوا، ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ مِن فتنة الدجال ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم، ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأعمالهم(١).

وقال مقاتل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: اليهود، قالوا للنبي ﷺ: إنَّ صاحبنا ـ يَعْنون: الدجال ـ يخرُجُ في آخر الزمان وله السلطان، ماءُ البحر إلى ركبته، والسَّحابُ دونه، وما هم ببالغي ذلك، ثم قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: الدجال(٢).

* * *

(١) لم أقف عليه عن ابن عباس، وقد عزاه السيوطي بمعناه في «الدر المنثور» (٧/ ٢٩٤) إلى عبد بن حميد وابن أبي حاتم ـ وصححه ـ عن أبي العالية، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢١٦) (ط: دار التفسير) عن المفسرين.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧١٧).

(٥٨) ـ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾: أي: مَن عمِيَ عن رؤية الآيات والاستدلالِ بها ومَن أبصرَها فاستدلَّ بها، ولا يستوي الذين آمنوا والذين كفروا.

والمسيءُ: هو الكافر؛ لأنَّ المؤمن مُحْسِنٌ، وهو واحد لفظاً وجمع معنًى، و(لا) زائدة في قوله: ﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾.

وقيل: معناه: ولا يُساوي المؤمنُ الكافرَ، ولا الكافرُ المؤمنَ، وقد شرحناه بأتمَّ مِن هذا في سورة الملائكة.

وقولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: لا تتذكَّرون أصلاً، وهو كقولك: فلانٌ قليلُ الحياء؛ أي: لا حياءَ له.

* * *

(٥٩) ـ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾: أي: إنَّ القيامة لَقائمة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾: أي: لا شكَّ في إتيانها، وله ثلاثةُ أوجهٍ ذكَرْناها في أول سورة البقرة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لا يُصدِّقون بكونها، وفيها تمييزٌ بين هذين الفريقين.

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾: قال الضحاك: أي: أُعبُدوني[1]؛ كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ويدلُّ عليه قوله: ﴿يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

وقال الكلبي: وحِّدوني[2].

وقال مقاتل: هو نفْسُ الدعاء[3].

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: في سؤال المغفرة؛ لأن الإيمان طلَبُ المغفرة.

فإذا حُمِل الدعاء على التوحيد، كانت الاستجابة مغفرةً وتحقيقاً لقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، وإنْ حُمِل على نفْس الدعاء، فالاستجابةُ هي الإجابة إلى ما سأَل.

والحاصل: أنَّ الآية إنْ حُمِلت على خطاب الكفار، فمعناها: وحِّدوني وأجيبوني في الدعاء إليه، أستجِبْ لكم في سؤالكم مغفرةَ ما قد سلَفَ.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٣٠١) للطبري وابن المنذر وأبي الشيخ في «العظمة» عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره عنه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٩)، ونقله الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٧٥) عن مجاهد، وهو اختيار الطبري كما في «تفسيره» (٢١/ ٤٠٦).
ورواه الحاكم في «مستدركه» (٣٠٨٦) عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

(٢) ذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢١١)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٥٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٦٧) من طريق آخر عنه.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٩٣).
وذكره الماتريدي في «تفسيره» (٤/ ٤٦١)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢١١)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٠) من غير نسبة.

وإنْ حُمِلت على العصاة، فمعناها: أُدْعُوني بالتوبة والاستغفار، أستجِبْ لكم في قَبول التوبة، والعَفْو عن الجِناية.

وإنْ حُمِلتْ على المُطيعين، فمعناها: سَلوني بحوائجكم أُعْطِكم ما سألتم.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾: أي: يتعظَّمون عن توحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾: للخُلود فيها ﴿دَاخِرِينَ﴾: صاغرين، هذا على الأول.

وعلى الثاني: إن الذين يمتنعون عن التوبة وعن دعاء الله ـ تفسُّقاً لا استحلالاً واستخفافاً ـ سيدخلون النار للتعذيب فيها مدةً إنْ لَمْ يَعْفُ الله عنهم بفضله.

ثم إجابةُ الدعوة؛ قيل: هي قولُ الله: لبَّيْكَ، لعبدِه إذا قال: يا ربِّ! وهذا لكل داعٍ، فأما إعطاء المراد فذاكَ مُعلَّق بالمشيئة، قال تعالى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وهو موعود أيضاً بشرائطَ مِن العبد:

منها: إجابتُه اللهَ تعالى فيما دعا إليه؛ قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومنها: أكلُ الحلال: قال النبي ﷺ: «إنَّ الرجل لَيرفع يديه، فيقول: يا ربِّ يا ربِّ! ومَطْعَمُه حرامٌ، ومَشْرَبُه حرامٌ، ومَلْبَسُه حرامٌ، فأنى يُستجاب لذلك»[(١)].

وفي الحديث: «إنَّ الداعي لا يخلو عن إحدى ثلاث: إما أنْ يُعَجَّل له ما سأل، وإما أنْ يُدَّخَرَ له في الجنة ما هو خير منه، وإما أنْ يُصْرَفَ عنه مِن السوء ما هو أعظمُ منه»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١١١٣٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧١٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، بلفظ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها».

وقيل: أُدْعُوني بلا غَفْلة، أستجِبْ لكم بلا مُهْلة.

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: أُدْعُوني بالسؤال، أستجِبْ لكم بالنَّوال، أُدْعُوني بالتنصُّل، أستجِبْ لكم بالتفضُّل، أُدْعُوني بحسب الطاقة، أستجِبْ لكم بكشفِ الفاقة[1].

* * *

(٦١) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: مرَّ تفسيرُها مرات، وهي مِن الآيات التي تدلُّ على وحدانية الله تعالى، ذكرَها بعد الأمر بالتوحيد، وهو مِن النِّعَم التي يجب الشكر عليها، فحثَّ على الشكر بعدها، وهو **قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

* * *

(٦٢ ـ ٦٣) ـ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾: الذي خلَقَ الليل والنهار لكم هو مُرَبِّيكم ومُصْلِحُ أموركم.

وقولُه تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا يستحِقُّ العبادةَ غيرُه.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: أي: فمِن أين تُصْرَفون عن توحيده؟!

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾: أي: كما انصرفتم عن الحقِّ

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣١٣).

مع وضوحه، صُرِفَ مَن قبلكم مِن الأمم الجاحدة عن ذلك، ولم يكن ذلك لقُصور الأدلة، بل لِمَا في صدورهم مِن الكِبْر الذي ليسوا ببالغيه.

* * *

(٦٤) ـ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾: أي: مُستقرًّا ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾؛ أي: مَبْنِيَّةً مرفوعةً فوقكم لمصالحكم وحوائجكم.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾: أي: الأغذيةِ الشَّهِيَّة مِن الأطعمة والأشربة.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: أي: جلَّ اللهُ، ودامَتْ بركاتُه، وتتابعتْ خيراتُه، وهو حَثٌّ على وصفه به.

* * *

(٦٥) ـ ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾: الذي لا يموت أبداً بحياةٍ أَزَلِيَّةٍ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ﴾: أي: فاعبُدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾؛ أي: العبادة والطاعة.

وقولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: أي: المُستحِقُّ للحمد هو.

ويجوز أنْ يكون حمِدَ نفْسَه تعليماً للخَلْق.

ويجوز أنْ يكون أمراً به، وقد شرَحْناه في أول الفاتحة.

* * *

(٦٦) - ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي: قل يا محمَّدُ للمشركين: نهاني اللهُ تعالى أنْ أعبُدَ الأصنام التي تعبدونها مِن دون الله لما جاءتني الدَّلائل[١] الواضحة على وحدانيَّة الله تعالى، وأمرني[٢] أنْ أنقادَ لأمره، وأُخْلِصَ له في عبادتي، وأُسْلِمَ إليه نفْسي وأموري؛ إذ هو ربُّ العالمين، فلن أوافقَكم على ما تدعونني إليه.

وقال مقاتل: دعا كفارُ مكةَ رسولَ الله إلى دينهم، وقالوا له: ما يحمِلُكَ على ما تتعاطاه مِن مُخالفة آبائك وأشراف قريش إلا الحاجةُ وقِلَّةُ المال، فنحن نجمَعُ لكَ ما يكفيكَ دهرَكَ، فأنزل الله هذه الآية[٣].

* * *

(٦٧) - ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾: أي: أطفالاً، وقد فسَّرْنا هذه الآية مرات.

---

(١) في (ف): «البينات».

(٢) في (أ): «وأمرت».

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٦٧٢)، وروى مقاتل أيضاً أن هذه الحادثة نزلت في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾. انظر: «تفسير مقاتل» (١/ ٥٥٢).

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ﴾: أي: ثم يُربِّيكم لتبلغوا تمامَ القوة، فتَصْلُحوا للتكليف والتعبُّد.

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾: ثم يُدرِجُكم إلى أنْ تصيروا شيوخاً.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾: أي: يُقبَضُ بالموت ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: قَبْلَ الشَّيْخُوخَة، وقبل[1] بلوغ الأشُدِّ، وقبل الخروج مِن بطن أمه طفلاً.

وقولُه تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ فَعَل ذلك، هذا مُضْمَرٌ في آخره؛ أي: ولِيَبْلُغَ كل منكم أجَلاً قد سماه الله تعالى له.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي: ولِتَعْقِلوا ذلك، وتستعملوا عقولكم في معرفة ذلك، والعملِ بما خلقتُكم لذلك.

* * *

(٦٨ ـ ٦٩) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾: أي: قدَّرَ شيئاً وأراد كونَه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ أي: كوَّنه سريعاً، فهو المُستحِقُّ للعبادة.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾: أي: كيف ومِن أين يُعدَلُ بهم عن الحق؟! أي: فهل يُصْرَفون إلى شيء أوضحَ دلالةً وأحسنَ عاقبةً منه؟!

* * *

---

(١) في (ر): «وقيل» هنا وفي الموضع الآتي.

(٧٠ ـ ٧٢) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾: هو صفة المُجادلين.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾: أي: فسيعلمون بُطْلانَ ما هم فيه وسُوءَ عاقبته إذا أُدخِلوا[1] النارَ، وغُلَّتْ أيديهم إلى أعناقهم، وجُعِلَتْ فيها السلاسِل.

﴿يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ﴾: أي: تجرُّهم خزَنة جهنم في الماء الذي تناهى حَرُّه.

وقال مقاتل: في حَرِّ النار[2].

﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾: أي: يُطْرَحون فيها، فيكونون وُقوداً لها.

وسجَرَ التَّنُّورَ: أحماه بإيقاد الوُقود.

والجَرُّ إلى الحميم: هو ترديدُهم بين النار والماء الحارِّ، وهو كقوله: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، وقوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩ ـ ٢٠]، وقوله: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٧].

* * *

(٧٣ ـ ٧٤) ـ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

---

(١) في (أ) و(ر): «دخلوا» بدل من «أدخلوا في».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٢٠)، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢١٣).

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يُوَبَّخون في هذه الحالة زيادةً في إيلامهم: أين الأصنامُ التي كنتم تُشركون بالله رَجاءَ شفاعتهم؟!

﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: أي: هلكوا وضاعوا.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾: أي: ما كنا نعبد شيئاً ينبغي أنْ يُعْبَدَ ويُدعى ويُرجى، بل كنا نرجو النَّفْع مما لا نَفْعَ فيه، وهو اعترافٌ منهم بأنهم لم يكونوا على شيء، وليس بإنكارٍ لعبادة الأصنام، بل اعترافٌ أنه لم يكن شيئاً يُعتبَر، وهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: كما أضلَّ هؤلاء المُجادلين يُضِلُّ سائر الكافرين الذين علِمَ منهم اختيار الضلالة عن الدِّين.

* * *

(٧٥ ـ ٧٦) ـ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: ذلك العذاب إنما نالَكم بسبب إظهاركم في الدنيا السُّرورَ بالشرك وبالباطل.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾: أي: بِمَرَحِكم؛ أي: بَطَرِكم وخُيَلائكم وتيهِكم.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾: أي: يُقال لهم يوم القيامة: اُدْخُلوا أبواب جهنم؛ أي: يدخُل كلُّ فريق البابَ الذي جُعِلَ له، قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: أي: في جهنم.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: الذين تعظَّموا عن قبول الحق، وجادلوا بالباطل.

(٧٧) ـ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾: يا محمَّدُ، على أذى الكفار وجِدالهم ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: بنَصْرِ الرسل والمؤمنين في الدنيا والآخرة.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: أي: أنتقِمُ لكَ منهم في الدنيا، وإنْ توفَّيْتُكَ قَبْل ذلك فإليَّ مَرْجِعُهم في الآخرة، فأُعذِّبُهم فيها وأُظْهِرُكَ عليهم به.

وظهر به[1] أنَّ النَّصْر المذكور في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] منه ما يقع في الدنيا بالإعلاء والإظهار، ومنه ما يقع في الآخرة بالانتقام والعذاب.

وقال مقاتل: كان النبي ﷺ أخبرَ كفار مكة أنَّ العذاب نازلٌ بهم فكذَّبوه، فأمرَه الله تعالى بالصبر؛ أي: اصبرْ على تكذيبهم، إنَّ العذاب نازل بهم؛ يعني: ببَدْرٍ[2].

* * *

(٧٨) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾: وإنَّ كلَّهم قد أتوا أُمَمَهم بآياتٍ أجراها الله على أيديهم حُجَجاً لهم على صدقهم.

---

(١) في (أ): «له»، وليست في (ر).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٢١).

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: أي: فلم يكن مِن أولئك الرسل أحدٌ أتى قومه بآية مِن قِبَل نفْسه، بل إنما أتى بما آتاه الله وأجراه على يده، فكذا أنتَ مع قومك إنما تأتيهم بالآيات مِن عند الله، ولا معنى لجدالهم إياكَ في الآيات التي تأتي بها أنْ يقولوا: هي سِحْرٌ، وهي كذا، و﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[1] [الإسراء: ٩٠]، وكذا وكذا، ويطلبون منكَ الآيات المُقترَحات.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: قيل: أي: جاء بما تسألونه اقتراحاً.

﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾: بينكَ وبينهم؛ أي: كان ذلك فَصْلاً لا بَقِيَّةَ بعده، إنْ[2] كذَّبوا به استُؤْصِلوا؛ لأنهم مُبْطِلون.

وقولُه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: قيل: معناه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وقد جئتَهم بما أذِنَ الله تعالى لكَ فيه بما فيه كفايةٌ ومَقْنَعٌ، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بإقامة القيامة قضى بالواجب فيها، فأَدخَلْتُكَ وأتباعَكَ الجنةَ، وأَدخلْتُ الكفارَ النَّارَ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ مَن كان على الباطل.

* * *

(٧٩) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾: أي: بعضها.

---

(١) في (أ): «لن نؤمن لرقيك» بدل من: «﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾».

(٢) في (ر): «وإن».

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾: غير الركوب والأكل؛ مِن صُوفٍ ووَبَرٍ وشَعْرٍ وجِلْدٍ ولَبَنٍ ونحو ذلك.

﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾: مِن قَطْعِ المسافات البعيدة؛ كما قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ ﴾ [النحل: ٧].

﴿وَعَلَيْهَا ﴾: في البرِّ.

﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾: في البحر ﴿تُحْمَلُونَ ﴾.

ويتَّصِلُ هذا بالآيات التي مرَّتْ في آيات الوَحْدانيَّة وأنواع النِّعَم مِن قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤]، و﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ ﴾ [غافر: ٦١]، و﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ الآية [غافر: ٦٧].

* * *

(٨١ ـ ٨٢) ـ ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾.

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾: أي: هذه الأشياءَ وغيرَها.

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾: مِن هذه الآيات، الاستفهامُ بمعنى التَّوبيخ.

وقولُه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾: فسَّرْناها في هذه السورة مرَّةً.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾: أي: فما نفعَهم ولا دَفَعَ عنهم العذابَ كَسْبُهم الأموالَ والرِّجالَ، ونَصْبُهم الآثارَ مِن القُصور والبُيوت والحُصون في الجبال وغيرها.

(٨٣) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

وقولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: أي: أُعجِبوا بما كان عندهم مِن تقليد آبائهم في الشرك، وقالوا في معجزات الأنبياء: هي تخابيل[1]، وذلك جهلٌ في الحقيقة توهَّموه عِلْماً، وتمسَّكوا به مُغْتَبِطين بذلك.

وقيل: بما عندهم مِن عِلْم أمور الدنيا مِن الصناعات، ولم يُقْبِلوا على علوم الدِّين.

وقيل: هو في أهل الكتاب، فرحوا بما عندهم في كتابهم، فلم يَقْبَلوا غيره مِن الكتاب المُنْزَل، وخبَر النبي المُرْسَل.

وقولُه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: يعني: ونزَلَ بهم ما كانوا يستهزئون به مِن العذاب الذي كان يتوعَّدُهم به.

وقيل: أي: نزَلَ بهم ضرَرُ استهزائِهم بالرسل والآيات.

* * *

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾: أي: عذابَنا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾: أي: تبرَّأنا مِن الشرك.

وقيل: أي: مِن الأوثان التي أشركناها بالله.

---

(١) في (ف): «تخاييل».

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾: أي: فكان حُكْمي فيهم ألَّا ينتفعوا بالإيمان حالةَ البَأْس؛ لأنه حالَ زَوالِ الغَيْب، وفواتِ الاختيار، وتحقُّقِ الاضطرار.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾: أي: كَسُنَّةِ الله تعالى في الكفار الذين مضَوا قبلهم أنَّ إيمانهم حالةَ البَأْس لم ينفعْهم، ولم يقبَلْه الله تعالى منهم؛ كما قال في حقِّ فرعون: ﴿إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية [يونس: ٩٠]، وغير ذلك.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: أي: هلَكوا حينئذ.

وقيل: ﴿لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾: أي: العذابَ في القبر.

وقال مقاتل: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾: في الأمم الخالية أنَّ الإيمان لا ينفعُهم عند مُعايَنة العذاب(١).

وقال الكلبي: سُنَّة الله أنَّ مَن كفَرَ بالله عذَّبَه الله.

نعوذُ بالله مِن الكُفْر والكُفْران، ومِن اكتساب الذُّنوب والعِصْيان، ومِن الفُرْقة والهِجْران، والغَفْلة والنِّسْيان، والذِّلَّة والهَوَان، والخِزْية والخُسْران، ونسألُه المغفرة والرِّضْوان، وعُلُوَّ الرُّتْبة والجِنان، والحُور والقُصور والوِلْدان والغِلْمان(٢).

* * *

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٢٣)، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢١٦).
وروى الطبري نحوه في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٤) عن قتادة.

(٢) في (أ): «والحمد لله» بدل قوله: «نعوذ بالله...» إلى هنا.

سُورَةُ فُصِّلَتْ

سُورَةُ فُصِّلَت[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باسم اللهِ مُفَصِّلِ الآيات، الرَّحمنِ مُقَدِّرِ الأقوات، الرَّحيمِ مُنَزِّلِ البِشارات.

روى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ: حم السجدة أُعْطِيَ بكلِّ حرف عشرَ حسناتٍ، ومُحي عنه عشرُ سيئات»[2].

وهذه السُّورة مكِّيَّةٌ، وهي أربعٌ وخمسون آيةً، وقيل: ثلاثٌ، والاختلافُ في قوله: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

وكلماتُها: سبعُ مئة وأربعٌ وتسعون.

وحروفُها: ثلاثةُ آلاف ومئتان وخمسةٌ وثمانون.

وانتظامُ أول هذه السورة بآخر تلك السورة: أنه ذُكِرَ في آخر تلك السورة خُسْرانُ الكافرين، وذُكِرَ في أول هذه السورة سببُ خُسْرانهم، وهو الإعراض عن تفهُّمِ الكتاب المبين.

وانتظامُ السورتين: أنهما في ذِكْر المؤمنين ومواعيدهم، والكفار ووَعيدهم.

---

(١) في (ف): «سورة حم السجدة».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٢٤٨) (ط: دار التفسير)، والواحدي في «تفسيره» (٤/ ٢٤)، وليس فيه قوله: «ومحي عنه عشر سيئات»، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٧٨). وقد تقدم الكلام عليه مراراً.

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿حمٓ﴾: ذكَرْنا الأقاويل فيه.

﴿تَنزِيلٌ﴾: مبتدأٌ ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: خبرُه.

وقيل: ﴿حمٓ﴾: مبتدأ، و﴿تَنزِيلٌ﴾: خبرُه؛ أي: هذه السورة مُنَزَّلةٌ مِن الله تعالى، مصدرٌ في معنى المفعول.

***

(٣) ـ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿كِتَٰبٌ﴾: أي: هو كتاب ﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ أي: بُيِّنَتْ.

وقيل: أي: جُعِلَتْ فُصولاً في معاني مُنْقَسِمةٍ؛ مِـن الأمر والنَّهي، والوَعْد والوَعيد، والحلال والحرام، ونحو ذلك.

وقيل: أي: فُرِّقَتْ في النُّزول، فلم تَنْزِلْ جُمْلةً؛ تثبيتاً في القلوب، وتمكيناً مِن تدبُّرها بالعقول.

وقولُه تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾: أي: مُنَزَّلاً بلسان العرب، ونصبُه مِن وجوه:

منها: فُصِّلَتْ قرآناً عربياً؛ أي: وقَعَ تفصيلُه بلسان عربي.

وقيل: نصبٌ على المدح.

وقيل: نصبٌ على القَطْع؛ لأنه نكرةٌ نُعِتَ به معرفةٌ.

وقولُه تعالى: ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾: لسانَ العرب، أو يُتَرْجَمُ لهم؛ أي: التَّفْصيل لهم.

يعني: لم يُكَلَّفْ فَهْمَه مَن لم يُعْطَ عِلْمَه.

***

(٤) ـ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾: نعتُ قولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾؛ أي: فيه بشارةُ المُطيعين، وإنذارُ العاصين.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾: عن قبوله وتدبُّره مع تفْصيله وعلمهم بوجوه فَهْمِه.

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾: أي: يَنفِرون عن سماعه؛ كما قال: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ، وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقيل: أي: لا يَقْبَلون.

وقيل: أي: لا يُطيعون.

وقيل: أي: يتصامُّون ولا يُفكِّرون فيه، كأنهم لم يسمعوه.

وقيل: لا يسمعون حقيقةً؛ لإعراضهم عن التالي(١).

* * *

(٥) ـ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾.

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾: قال مجاهد والسُّدِّي: أي: في أَغْطِيَةٍ(٢)، جَمْع: كِنان.

---

(١) في (ف): «التأني».

(٢) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٧)، وعن مجاهد عبدُ الرزاق في «تفسيره» (٢٦٨٨)، ولفظه فيهما: كالجَعْبة للنَّبْل.

قولُه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾: أي: صَمَمٌ، وقَرَه اللهُ؛ أي: أصَمَّه، مِن باب: ضرَبَ، ووَقِرَ يَوْقَرُ؛ أي: صُمَّ، مِن باب عَلِمَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾: فلا نُبْصِرُكَ.

وقيل: أي: ساتِرٌ مِن جهة اختلاف الدِّين والتَّباين في العبادة، فلا تَطْمَعَنَّ في استماعنا منكَ[1].

وقولُه تعالى: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾: أي: فاعمل عمَلَكَ، فإنا نعمَلُ عملَنا، قالوا ذلك لِيُؤَيِّسُوه عن إيمانهم به واتباعهم له.

وقيل: ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ في هلاكنا، ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ في هلاكِكَ. قاله الفراء[2].

وقيل: أي: دعْ دعاءَنا إلى دينكَ، فإنا قد تركْنا دعاءكَ إلى ديننا.

* * *

(٦ ـ ٧) ـ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾: أي: فلا تدْعُ لذلك دُعاءهم، وقل لهم: إني بشر مثلُكم مُناسبٌ لكم في الخِلْقَة، وذلك مما يُوجب الإشفاقَ، كأنه قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أُريدُ الخير بكم، ولستُ أدَّعِي أني ملَكٌ أو ملِكٌ لِتنفِروا مني لِتَعَظُّمي عليكم، يوحي إليَّ اللهُ ـ الذي تُقِرُّون أنه خالقُكم ـ أنَّه إله واحد لا شريك له.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: أي: وجِّهوا وجوهكم بالعبادة والدعاء

---

(١) في (أ) و(ف): «عنك».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ١٢).

والمسألة[1] والإخلاص إليه، ولا تَعْدِلوا عنه إلى غيره، وهو كقولك: استقِمْ إلى منزلك؛ أي: لا تُعَرِّجْ في طريقك على شيء غيرِ القَصْد والمُضِّيِّ إليه.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾: أي: سَلُوه أنْ يغفِرَ لكم ما سلف مِن ذنوبكم.

وقيل: أي: آمنوا به، فإن الله تعالى وعَدَ عليه مغفرةَ ما قد سلَفَ، فكان الإتيان به سؤالاً لِما وَعَدَ عليه.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي: لا يَقْبلونها.

وقيل: أي: لا يُعْطُون مِن أنفسهم الطَّهارةَ؛ فإن الزكاة هي الطهارةُ، قال تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكهف: ٨١]؛ وذلك بالتَّنَقِّي عن دَنَس[2] الكفر، قال تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾: أي: جاحدون.

* * *

(٨) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي: غيرُ مَقْطوع.

وقيل: غيرُ مَنْقوص، وهو ثواب الآخرة.

وقيل: غيرُ مَقْطوع عنهم في مرضهم وضعفهم وهرَمهم.

وقيل: أي: بعد موتهم أيضاً.

وقيل: أي: غيرُ ممنون عليهم به، فيتكدَّرَ بالمِنَّة.

---

(١) في (أ) و(ف): «والتأله».

(٢) في (ر): «دين».

وقال الأخفش: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾: (مِن) للتوكيد، وهي زائدةٌ[١].

وقال الحسن: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾: علَّمه التواضعَ[٢].

وقال السُّدِّي: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: يعني: بالتوحيد، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾: يعني: مِن الشرك[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أي: لا يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله[٤]، وهي زكاة الأَنْفُس.

وقال الضحاك: أي: لا يُنفقون في الطاعة[٥].

وقال ابن كيسان: لا يرون إيتاءها خيراً[٦].

❊ ❊ ❊

(٩) ـ ﴿۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾: استفهام بمعنى التَّوْبيخ؛ أي: أَتُنْكِرون وحدانية الله تعالى وقد خلَقَ الأرض؟!

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٠٤).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٦٤).

(٣) وقاله مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٣٦).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٧٩) ورجحه، والطبراني في «الدعاء» (١٥٣٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٦)، والواحدي في «تفسيره» (٤/ ٢٥)، وليس في المصادر قوله: «محمد رسول الله».

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٦٤) عن الضحاك ومقاتل.

(٦) ذكر نحوه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٦)، والواحدي في «تفسيره» (٤/ ٢٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٦٤) عن الحسن وقتادة، بلفظ: ولا يرون إتيانها واجباً.

أو: أتُنْكِرون قُدْرة الله على البعث وقد خلَقَ الله الأرض على سَعَتها وبُعْدِ أطرافها؟!

أو: أتكفرون بنِعَم الله وتتركون الشكرَ لله تعالى وقد أنعَمَ عليكم بخَلْق السماء والأرض، وتهيئة الأسباب بينهما؟!

﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ قيل: مِن أيام الدنيا.

وقيل: مِن أيام الآخرة، كلُّ يوم ألفُ سنة، وهو قول الكلبي رحمه الله(١).

وكذلك الأيام المذكورة بعدها على هذا الاختلاف.

وكان قادراً على أنْ يخلُقَ السماء والأرض وأضعافَ ذلك في لحظة، لكن علَّمَ الناسَ تَرْكَ الاستعجال، والتثبُّتَ في الأفعال.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾: أي: أَشْباهاً وأَشْكالاً، وهي الأصنام.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: الذي خلَقَ الأرض في يومين هو مالِكُ الخَلْق ومُرَبِّيهم ومُصْلِحُهم.

* * *

(١٠) ـ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾: أي: جبالاً ثوابتَ لاستقرارها.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾: قيل: في الرَّواسي بالمياه والأشجار والثِّمار والذهب والفضة وما يكون في الجبال.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٢٨) عن كعب والضحاك، ونقله ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ١٢٧) عن ابن عباس وكعب ومجاهد والضحاك.

وقيل: في الأرض بنباتها وأشجارها، وما يخرُجُ منها مِن الأغذية والمعادن وغيرها.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾: قال قتادة: أي: أرزاقَها[١]، ومعناه: الأرزاقَ التي فيها، أو: أرزاقَ أهلِها.

وقال مجاهد: أقواتَها مِن المطر[٢].

وقال عكرمة: في هذه الأرض ما ليس في هذه مِن معاشها.

وعنه أيضاً قال: كلُّ قريةٍ فيها عمَلٌ لا يصلُحُ في الأخرى[٣].

وقال حيَّان: قال الكلبي: قدَّرَ الخُبْز لأهل قُطْر، والتَّمْرَ لأهل قُطْر، والذُّرَة لأهل قُطْر، والسمك لأهل قُطْر، وكذلك أخواتُها[٤].

وعلى هذا معناه: أسبابَ أقواتِها.

وقولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾: أي: في يومين آخَرين مع اليومين الأوَّلَين، كان نَصْبُ الرَّاسِيات وتقديرُ الأقوات وإتمامُ العِمارات في يومين بعد خَلْق الأرض في يومين.

وفي الخبر: خلَقَ الله الأرضَ يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلَقَ الجبالَ يوم الثلاثاء، وخلَقَ الشَّجَرَ والماء والعِمْران والخَرابَ يوم الأربعاء، وخلَقَ يوم الخميس السماء، وخلَقَ يوم الجمعة النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ وآدمَ[٥].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦) عن الحسن وابن زيد، وروى عن قتادة أن معنى: أقواتها: صلاحها، أو جبالها ودوابها وأنهارها وبحارها.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٦)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص: ٥٨٥).

(٣) روى الأثرين عنه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٧).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٦٥).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾: قرأ يعقوبُ: ﴿سواءٍ﴾، بالخفض نعتاً لأربعة أيام؛ أي: مُستَوِياتٍ.

وقرأ أبو جعفر: ﴿سواءٌ﴾، بالرفع؛ أي: هن سواءٌ؛ أي: مُستوياتٌ.

وقراءةُ العامة: ﴿سَوَآءً﴾، بالنصب على المصدر، وتقديرُه: استوَتْ استواءً للسائلين(١).

قال قتادة والسُّدِّي: هو سؤالُ الاستخبار(٢).

وقال ابن زيد: هو سؤال الاستعطاء؛ أي: الخبر هكذا على الصِّدْق لِمَن سأل، والأقوات مَبذولةٌ على الوجه لِمَن استبدلَ(٣).

***

(١١) ـ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: هو مَجازٌ عن إيجاد الله تعالى السماءَ على ما أراد، مِن قول العرب: فعَلَ فلان كذا ثم استوى إلى عمَلٍ كذا، يُريدون به أنه أكمَلَ الأول، ثم ابتدأ الثاني، فقرَّرَ الله تعالى هذا في أفهام الخَلْق أنه أكملَ خَلْق الأرض ثم رتَّبَ عليه خَلْق السماء.

ولا يُفْهَم منه ما يُفْهَمُ مِن ترتيب فعل البشر أنَّ الأول ينقضي ثم الثاني يأتي؛ لأنَّ فِعْل الله تعالى أَزَلِيٌّ أبَدِيٌّ، لكنْ رتَّبَ ذِكْرَ الأشياء لترتُّبِ ظُهور الآثار في الأعيان.

---

(١) انظر: «النشر» لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

(٢) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٨٩)، ولفظه: من سأل عن ذلك وجده كما قال الله تعالى.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩٠) بلفظ: قدَّر ذلك على قدْر مسائلهم، يعلم ذلك أنه لا يكون من مسائلهم شيء إلا شيء قد علمه قبل أن يكون.

ويُفهَمُ مِن ظاهر هذه الآية أنَّ خَلْق السماء كان بعد خَلْق الأرض، وبه قال ابن عباس رضي الله عنه[١].

وقولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ يدلُّ على أنَّ خَلْق الأرض كان بعد خَلْق السماء، وبه قال قتادة والسُّدِّي[٢].

وقولُه تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾: يدلُّ على خَلْقهما معاً، وبه قال قوم.

وقد شرَحْنا الأقاويل الثلاثة بدلائلها في سورة البقرة.

﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾: قال ابن عباس: أوَّلُ ما خلَقَ الله تعالى جَوْهَرةً طولُها وعرضُها مَسِيرةَ ألف سنة في مَسيرة عشرة آلاف سنة، فنظَرَ إليها بالهَيْبة فذابَتْ واضطربَتْ، ثم ثارَ منها دُخان فارتفع، واجتمع زبَدٌ فقام فوق الماء، فجعَلَ الزَّبَدَ أرضاً والدُّخانَ سماءً[٣].

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: قال مجاهد: قال: يا سماءُ، أَبرِزي شمسَكِ وقمرَكِ ونجومَكِ، ويا أرضُ، أَخْرِجي نباتكِ، وكذا[٤].

---

(١) علقه البخاري جزماً قبل الحديث (٤٨١٦)، ووصله الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٩٢)، والطبراني في «الكبير» (١٠٥٩٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٠٩). ووقع في بعض نسخ البخاري ذكر سنده في آخر الرواية، فعلى هذا يكون موصولاً. انظر: «تغليق التعليق» (٤/ ٣٠٠ ـ ٣٠١)، و«فتح الباري» (٨/ ٥٥٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩/ ١٤٥)، و(١/ ٤٦٢) عن السدي.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ١٣٣) عن وهب، وأورده عن ابن عباس أبو البركات النسفي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٨)، ولعله لا يصح عن ابن عباس، وإنما هو مما أخذه وهب عن الإسرائيليات.

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٠) عن مجاهد، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩١) عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحاكم في «المستدرك» (٧٣) وصححه، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨١٤) عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: هو كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: أي: إذا أراد تكوينَ شيءٍ كوَّنَه، وهو عبارة عن سرعة الإيجاد ونُفوذِ الإرادة في المراد.

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾: أي: أتينا مع أهلنا، ولذلك جُمِعَ مع سَبْق ذِكْر التَّثْنية؛ لأن الأهل مُضْمَر فيه، فصار الكلُّ جَمْعاً.

وقيل: هو ظهورُهما على ما أراد مِن غير امتناع، لا على حقيقة القول، وهو كقول القائل:

امتلأَ الحوضُ وقال: قَطْني مَهْلاً رُوَيْداً قد ملَأْتَ بَطْني[1]

* * *

(١٢) ـ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾: أي: فأتمَّ خَلْقَهُنَّ سَبعاً طِباقاً بعضُها فوق بعضها في يومين بعد تلك الأربعة الأيام، فتمَّ في ستة أيام؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾: قال السُّدِّي: أي: فعَلَ فيها ما أرادَه مِن مَلَك وغيره[2].

وقال قتادة: أي: خلَقَ فيها شمسَها وقمرَها ونجومَها وصلاحَها[3].

---

(١) البيت ذكره ابن الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٣٢٣) من رجز أبي النجم العجلي، وهو دون نسبة في «إصلاح المنطق» (ص: ٥٠)، و«مجالس ثعلب» (ص: ٣٥)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٤٧).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩٣)، بلفظ: خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيه من البحار وجبال البرد وما لا يُعلم.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٣٩٣).

وقيل: أي: وأمرَ أهلَ كلِّ سماء بما أَمَرَ.

والأول على مجازِ قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ الآية [يس: ٨٢]، فذلك على التكوين، فكذا في هذه الآية.

وقيـل: الإيحـاءُ فـي الأصل: هـو الإلقاء، فـكان مَجازًا عـن إظهار مـا أرادَ في كل سماء.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: التي تدنو مِن أهل الأرض.

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: أي: بسُرُجٍ، وهي النجوم.

﴿وَحِفْظًا﴾: أي: وحفِظْناها عن السُّقوط، وقيل: عن استراق السمع بالرُّجوم.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾: أي: ما ذُكِرَ مِن خَلْق السموات والأرضين وغير ذلك تقديرٌ منه على ما عَلِمَ فيه اتِّصالَه بمصالح عباده ومنافعهم، أمضاه على ما أرادَ؛ لأنه عزيز مَنيع لا يُغالَبُ ولا يُنازَعُ، عليمٌ بالعواقب ومَقادير الأمور وحوائج الخَلْق.

وقال مقاتل بن حَيَّان: نزلت هذه الآيات في أبي جهل وأبي سفيان وعُتْبة وشَيْبة ابنَي ربيعةَ، اجتمعوا في دار أبي طالب، وخاصموا رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات[1].

* * *

(١٣) ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

وقولُـه تعالـى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾: أي: فـإنْ تولَّـوا عـن التوحيد مـع قيام هذه الأيـام فقل يـا محمـد: ﴿أَنذَرْتُكُمْ﴾؛ أي: خوَّفْتُكم ﴿صَٰعِقَةً﴾؛ أي: عذابـاً مُهلِـكاً هائِـلاً يُزيـلُ العقـول قبل زُهـوق الرُّوح.

﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾: أي: مِثْلَ عذابٍ على هذه الصفة حَلَّ بعاد وثمود.

---

(١) لم أقف عليه.

(١٤) ـ ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾: أي: جاء عاداً هودٌ النَّبيُّ، وثمودَ صالحٌ النبيُّ، عليهما السلام، وكلُّ رسول يُخبر بسائر الرسل، فمجيئُه مجيءُ الرسل معنًى، وكذلك قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وما جاءهم ظاهراً إلا نوحٌ عليه السلام وحدَه، وكذا قال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ [هود: ٥٩].

وقيل: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: جاءهم بيانُ حَقِّيَّةِ أمرِ[1] الرسل مِن كل جِهة حين أحاطَ بهم البَيانُ مِن كل جانب، فحيثما انصرفوا[2] وجدوا بيانَهم قائماً لهم.

وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: الرسل المبعوثون في آبائهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الذين بعد أولئك الرسل.

وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: مُنذِرين بعذاب الدنيا والآخرة، وهو كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقيل: أي: داعين إلى العمل في الدنيا، والإيمان بالآخرة.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أي: إذ جاءتهم الرسل بألا تعبدوا إلا الله تعالى وحده لا شريك له، ولا تشركوا به شيئاً.

وقولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: أي: لو أراد الله

---

(١) في (ر): «جاءهم بيان حقيقة»، وفي (ف): «جاءتهم حقيقة أمر».

(٢) في (أ) و(ف): «تصرفوا».

تعالى أنْ يُرسلَ رسولاً إلى عباده لَأنزلَ عليهم الملائكة رسلاً مِن عنده؛ إذ هم سُكَّان السماوات التي منها يَنزل الوحيُ، دون أنْ يجعلَهم مِن أهل الأرض، فإنا لهذا جاحدون لِمَا ادَّعيتم مِن الرسالة، وهذا جهل منهم بمواقع الحكمة على ما بيَّنَّاه في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾.

ثم بيَّنَ ما ذَكَرَ مِن صاعقة عاد وثمود، فقال:

* * *

(١٥) ـ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: أي: فتعظَّموا على نبيهم، وأفسدوا في بلادهم بغيرِ أنْ حُقَّ لهم ذلك.

﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾: استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أقوى منا في الأجسام والعدد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾: أي: أوَلمْ يعلموا عِلْماً يقوم مَقامَ العِيان أنَّ الله هو أوسعُ منهم قُدْرةً؛ لأنه قادرٌ على كل شيء بقُدْرة نفْسِه، وهم قادرون على بعض الأشياء بإِقْدار الله تعالى إياهم، ولو شاء لَسَلَبهم ذلك؟ وهو استفهام بمعنى التوبيخ.

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: يتَّصِلُ بقوله: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.

* * *

(١٦) ـ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾: أي: باردةً مُهْلِكةً ببَرْدِها.

وقيل: شديدةَ الهُبوب.

وقيل: شديدةَ الصَّوت.

وقولُه تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾: أي: مشؤومات. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿نَحْسات﴾: بتسكين الحاء، والباقون بكسرها[(١)]، وكلاهما نعت، وهي ما قال: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧].

ونُحوسَتُها: دوامُ تلك الريح فيها على حالة واحدة لا تفتُرُ.

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾: أي: الفضيحة ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾: أي: أشدُّ فضيحةً ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾: أي: لا يُدْفَعُ عنهم عذابُ الآخرة.

وعن محمد بن كعب القُرَظي: أنَّ عُتْبة بن ربيعة بن عبد شمس قال ذاتَ يومٍ وهو جالس في نادي قريش: ألا أقومُ إلى هذا الرجل فأكلِّمَه فأعرضَ عليه أموراً لعلَّه يقبلُ منها[(٢)] بعضَها، فنعطيَه أيَّها شاء ويكُفَّ عنا، وذلك حين رأوا أصحاب محمد رسول الله ﷺ يزيدون ويكثُرون، قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام عُتْبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنكَ مِنَّا حيث قد علِمْتَ مِن المكان في النَّسَب، وإنكَ قد أتيتَ قومكَ بأمر عظيم، فرَّقْتَ جماعتَهم، وعِبْتَ آلهتَهم ودِينَهم، وكفَّرْتَ مَن مضى مِن آبائهم، فإنْ كنتَ إنما تريد بما جئتَ به مالاً جمَعْنا لكَ مِن أموالنا حتى تكونَ أكثرَنا مالاً، وإنْ كنتَ تريد شرفاً شرَّفْناكَ علينا حتى لا نقطعَ أمراً دونكَ، وإنْ

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٧٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٣).

(٢) في (ر) و(ف): «منا».

كنتَ تريد به مُلْكاً ملَّكْناكَ علينا، وإنْ كان هذا الذي يأتيك رِئْياً تراه -يعني: جِنيًّا- لا تستطيع أنْ تُردَّه عن نفسِكَ طلَبْنا لكَ الطبَّ، وبذَلْنا فيه أموالَنا حتى نُبْرِئَكَ منه، فإنه ربما غلَبَ التابعُ على الرجل حتى يُداوى منه، فلما فرَغَ منه قال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ الآية، فقام عُتْبة إلى أصحابه[١]، فقال بعضهم لبعض: باللهِ لقد جاءكم أبو الوليد بغير وجهه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءَكَ؟ قال: سمعتُ قولاً ما سمِعْتُ بمِثْلِه قطُّ، واللهِ ما هو بشِعْرٍ ولا سِحْرٍ ولا كَهانةٍ، يا مَعْشَرَ قريش، أطيعوني وخَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فقالوا: واللهِ سحَرَكَ بلسانه، فقال: هذا رأيي لكم، فاصنعوا ما بدا لكم[٢].

وعن جابر بن عبد الله: أنَّ أبا جهل والملأَ مِن قريش بعثوا عُتْبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ، فقال له: أنتَ يا محمد خيرٌ أم هاشمٌ؟! أنتَ خيرٌ أم عبد المطلب؟! فبِمَ تَشْتِمُ آلهتنا وتُضَلِّلُ آباءنا؟! فإنْ كنتَ تريد الرياسة عقَدْنا لكَ فكنتَ رأساً ما بقِيتَ، وإنْ كنتَ تريد الباءةَ زوَّجْناكَ عشرَ نِسْوةٍ تختارها مِن أيِّ بنات قريش شئتَ، وإنْ كنتَ تريد المال جمعنا لكَ مِن أموالنا ما تستغني[٣] به أنتَ وعقِبُكَ مِن بعدكَ، فلما فرَغَ قال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم، حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةً﴾ الآية، فأمسَكَ عُتْبة على فيه وناشدَه بالرَّحِمِ أنْ يكُفَّ، فرجَعَ إلى أهله ولم يخرُجْ إلى قريش، واحتبَسَ عنهم، فقال أبو جهل: يا

---

(١) في (ر): «قومه».

(٢) رواه ابن إسحاق في «السيرة» (ص: ٢٠٨)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (١٨٥)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٠٥).

(٣) في (ف): «تستعين».

مَعْشَرَ قريش، واللهِ ما نرى عتبة إلا وقد صبأَ، فأتوه، فقال أبو جهل: واللهِ يا عُتْبةِ ما حبَسَكَ عنا إلا وأنَّكَ قد صَبَوْتَ إلى محمد وأعجبَكَ أمرُه، فغضِبَ وأقسَمَ ألا يُكلِّمَ محمداً أبداً، وقال: إني أتيتُه فقصَصْتُ عليه القصة، فأجابني واللهِ بقولٍ ليس بشِعْرٍ ولا بسِحْرٍ ولا كَهانةٍ، فأمسكْتُ على فيه وناشدتُه بالرَّحِمِ على أنْ يكُفَّ، وقد علِمْتُم أنَّ محمداً إذا قال شيئاً لم يكذبْ، فخِفْتُ أنْ يَنْزِلَ بكم العذاب(١).

وقال الكلبي: إنَّ قريشاً قالت لعُتْبة بن ربيعة ـ وكان مِن أحسن الناس حديثاً ـ: إئتِ محمداً فكلِّمْه، وانظرْ ماذا يردُّ عليكَ فأعلِمْنا به، فأتاه وهو في الحَطِيم، فلم يترُكْ شيئاً إلا قال له، ثم أجابه النبي ﷺ، وقرأ عليه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ الآية، فوثَبَ عُتْبة فَزِعاً مَخافةَ أنْ يُصَبَّ عليه العذابُ الذي خوَّفَه به، فأتى قومه مَذْعوراً، فأخبرَهم بما قال لمحمد ﷺ، وبما ردَّ عليه محمد، فقالوا له: فما فهِمْتَ منه كلمةً واحدة؟ قال: لا، ولم أَهْتَدِ لجوابه، قال عثمان بن مَظْعون: ذلك واللهِ لتعلَموا أنه مِن رب العالمين، فلا تستطيعون جوابَه، وتابعَه رجالٌ مِن المسلمين على ذلك حين عَلَتْ أصواتُهم، ثم تفرَّقوا يلعَنُ بعضهم بعضاً، فقال الحارث بنُ عَلْقمة بنِ عبد الدار بنِ قصي بنِ كِلاب عند ذلك: لقد أفسدَ هذا الرجل ـ يعني: محمداً ـ ذاتَ بينِنا، وفرَّقَ كلمتَنا، وايمُ اللهِ، لئِنْ بَقِيَ وبقِيتُم لَيكونَنَّ بطنُ الأرض خيراً لكم مِن ظَهْرها، وإنما يتبيَّنُ لكم ذلك إذا خرَجَ مِن عندكم فانتهى إلى غيركم، فعند ذلك تنقطِعُ سبيلُ غزاتكم(٢)، فذروه ما تركَكم.

***

---

(١) رواه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٢١)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٨٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٠٣).

(٢) في (ف): «غيراتكم».

(١٧) ـ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: أي: فبيَّنا لهم الرُّشْد ودلائله.

﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾: أي: فآثروا الضلال على الرَّشاد.

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾: أي: فنزَلَ بهم العذاب المُهْلِكُ المُهين بكَسْبهم، وهو شركُهم ومعاصيهم.

والهُوْن: الهَوان، وهو مصدر أُريدَ به النعت، أو هو بدل عن الأول؛ لأن العذابَ هو الهُون، والهُونُ هو العذاب، وتقديرُه: صاعقةُ العذابِ صاعقةُ الهُونِ.

وإضافةُ الصاعقة إلى العذاب إضافةُ النَّوع إلى الجنس على تقدير إضمار: مِن؛ أي: الصاعقة مِن العذاب.

* * *

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝١٨ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: الكفرَ والمعاصيَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[١]: قرأ نافع: ﴿نحشر﴾ بالنون، ﴿أعداءَ﴾ بالنصب، إخباراً مِن الله تعالى عن نفْسِه أنه يفعل ذلك، وقرأ الباقون: ﴿يُحْشَرُ﴾ بالياء مضمومةً وفَتْحِ الشين، ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ بالرفع على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[٢]، ذكَرَ عذابَهم في الدنيا، ثم عذابهم في الآخرة.

---

(١) في (ف): «ويوم نحشر...».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٧٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٣).

ونصَبَ ﴿يومَ﴾ على إضمار: واذكُرْ يومَ يُجْمَعُ[١] أعداءُ الله، وهم هؤلاء وسائرُ الكفار، ويُساقون إلى النار.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾: قال الكسائي[٢]: أي: يُدْفَعون[٣].

وقيل: أي: يُحبَسُ أوَّلُهم على آخرهم، وقد وَزَعْتُ الجيش.

وقيل: أصلُه الكَفُّ، قالت عائشة رضي الله عنها: ما يزَعُ السُّلطانُ أكثرُ مما يزَعُ القرآنُ[٤].

وفي الخبر: لا بُدَّ للناس مِن وَزَعةٍ[٥]؛ أي: وُلاةٍ يكُفُّونهم عن التَّظالُم[٦].

يعني: أنَّهم يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعًّا باستعجال، فينقطع أوَّلُهم عن آخرهم، فيُحْبَسُ الأوَّلون لِيلحقَ بهم الآخِرون.

* * *

---

(١) في (ف): «نجمع».

(٢) «قال الكسائي» ليست من (ف).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٨/ ١٢٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول أبي عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ١٩٧) له.

(٤) رواه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٨٨) من قول عثمان رضي الله عنه، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٥/ ١٧٢) من قول عمر رضي الله عنه، وذكره ابن السكيت في «إصلاح المنطق» (ص: ١٨٥)، وابن قتيبة في «أدب الكاتب» (ص: ٣٤٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ١٩٥) مرفوعًا من غير إسناد.

(٥) لم أقف عليه مسنداً، وقد ذكره أبو عبيد في «غريب الحديث» (٣/ ٢٢٨)، وابن قتيبة في «تأويل مختلف الحديث» (ص: ٢٣٢)، والمبرد في «الكامل في اللغة» (ص: ١/ ٢١٤) عن الحسن.

(٦) في (ر): «المظالم».

(٢٠) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

وقولُـه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾: أي: النـار ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾؛ أي: آذانُهم، ووحَّدَ لأنـه مصدر.

﴿وَأَبۡصَٰرُهُمۡ﴾: أي: عيونُهم ﴿وَجُلُودُهُم﴾؛ أي: التي على سائر الأعضاء بسائر المعاصي.

وقيل: هي كناية عن الفُرُوج؛ أي: تشهد فروجُهم بزِناهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بهذه الأعضاء، وذلك إذا جحَدوا بألسنتهم وقالوا: ﴿مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ [النحل: ٢٨].

* * *

(٢١) ـ ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ﴾: أي: الجُلود ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: بالشهادة عليكم ﴿ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: كلَّ شيءٍ ناطقٍ.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾: نُطْفةً ثم عَلَقةً ثم مُضْغةً ثم كذا وكذا حتى صِرْتُم ناساً ناطقين.

﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾: أي: ثم أنتم الآن راجعون إلى حُكْمه لا امتناعَ لكم منه، فمَن قدِرَ على هذا كلِّه قدِرَ على إنطاقنا.

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾: قيل: هو خطابُ اللهِ لهم حينئذٍ.

وقيل: هو مِن كلام الجوارح في خطابهم؛ أي: وما كنتم تتَّقون شهادةَ الجوارحِ عليكم.

وقيل: ما كنتم تَسْتَخْفون مِن أنفسكم حذَراً مِن أن تشهدَ عليكم الجوارح، أو لئلا تشهدَ عليكم الجوارحُ.

والاستخفاءُ مِن الأنفُس: هو تَرْكُ الذنوبِ أصلاً ؛كما يُقال: استَحْيِ مِن نفْسِك.

وقيل: معناه: ما كنتم لِتستتروا فتعملوا بغير مَشْهَد مِن جوارحكم؛ أي: هذا مما لا يُمكن، تستَّرْتُم عن الناس ولم[1] يمكنْكُمُ التستُّرُ عن الجوارح، فهي شهودٌ[2] عليكم لا يُمكنُكم تكذيبَها.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: كانت طائفةٌ مِن الكفار بلَغَ جهلُهم أنْ ظنُّوا أنَّ الله يعلم بعض الأمور ويخفَى عليه بعضُها.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: اجتمَعَ صَفْوانُ بن أمية وربيعةُ وعبدُ يَالِيلَ الثَّقَفيان في الحَطِيم، فقال أحدهم: أترى أنَّ الله يسمَعُ ما نقول؟ فقال الآخر: إذا رُفِعَتِ الأصواتُ سَمِعَ، وإذا خَفَضْنا لم يسمعْ، فقال الثالث: لئن كان يسمع النَّجْوى لقد يسمع السِّرَّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

---

(١) في (أ): «إذ لم»، وفي (ر): «ولا».

(٢) في (أ): «فهي شهد شهود».

(٣) رواه البخاري (٤٨١٦)، ومسلم (٢٧٧٥)، وليس فيهما أسماء المتحاورين، وهي زيادة رواها الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٠).

وقولُه تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كلَّ ما تعملون، وهو كقوله: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]؛ أي: كلُّه.

وقيل: معناه: ولكنْ عمِلْتُم الذنوب[١] عمَلَ مَن ظنَّ أنَّ الله لا يعلم ما يَعمل، وهو كقوله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]؛ أي: فما أعمَلَهم بعمَل مَن يصبر على النار.

***

(٢٣ ـ ٢٤) ـ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾: أي: أهلككم؛ يعني: سهَّلَ عليكم المعاصي فعمِلْتُموها وهلَكْتُم بها.

﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: ويجوز أنْ يكون نفسُ الظنِّ هو المُهْلِكَ، فإنَّ ظنَّه أنَّ الله لا يعلم ما عمِلَه كفرٌ منه، وهو مُهْلِكٌ.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾: أي: إنْ صبَروا أو لم يصبِروا فلا مَخْلَصَ لهم منها، فإن قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾: معناه: وإنْ لم يصبروا واستَعْتَبوا، وهو كقوله: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦].

وقيل: هو على قوله: ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦] ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾؛ أي: لو التَمَسوا الكَفَّ عنهم وإزالةَ ما هم فيه بمسألة العُتْبى ـ وهو إظهار الرِّضا بأنْ يضمَنوا أنْ لا يعودوا إلى ما كانوا عليه ـ لم يُعْتَبوا؛ أي: لم يُجابوا إلى ذلك، وقد استعتبتُه فأعتبَني؛ أي: استرضيتُه فأرضاني.

---

(١) في (أ): «للذنوب».

وقرأ عمرو بن عبيد: (وإنْ يُسْتَعْتَبوا) على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، (فما هم مِن المعتِبين): بكسر التاء[1]؛ أي: إنْ سُئِلوا بأنْ يعملوا بما يُرْضون به ربَّهم لم يفعلوا؛ أي: لم يُمكنهم ذلك ولم يَقْدِروا عليه؛ لأنهم فارَقوا دار المِحْنَة والعمل.

ويُقال: عتِبَ على فلان؛ أي: وجَدَ عليه مَوْجِدَةً، فعاتبَه؛ أي: خاطبَه بإظهار المَوْجِدَةِ، فاستعتبَه؛ أي: استرضاه، فأعتبَه؛ أي: أرضاه، والعُتْبى: الرِّضى إذا زال سببُ المَوْجِدَةِ.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾: وهذا قَبْل إنزالِ العذاب المستأصِلِ.

أي: قدَّرْنا. وقيل: هيَّأْنا. وقيل: سلَّطْنا. وقيل: أبدَلْنا.

﴿قُرَنَآءَ﴾: جَمْعُ قرين، وهم مِن الشياطين؛ كما قال: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ أي: اختاروا الضلالة فسلَّطْنا عليهم شياطين يُضِلُّونهم ويُزِلُّونهم.

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أي: زيَّنوا لهم ارتكابَ المعاصي والملاذِّ المحظورة، فهوَّنوا عليهم أمرَ الآخرة والحساب والجزاء، فقيل: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الآخرة؛ لأنهم يأتونها، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: الدنيا؛ لأنهم يتركونها.

وقيل: هو على القلب، ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: الدنيا؛ لأنها حاضِرةٌ لهم؛ كما يُقال: قدَّمْتُ المائدةَ بين يديه، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: الآخرة؛ لأنها مِن بَعد هذا تأتيهم.

---

(١) ذكرها ابن جني في «المحتسب» (٢/ ٢٤٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢) عن الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري.

وقيل: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: مِن أعمالٍ عمِلوها فصوَّبوها لهم، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما يترُكون مِن آثارهم بَعْدَهم.

وقيل: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: حسَّنوا إليهم[١] أعمالَ الذين كانوا مِن قبلهم، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أعمالَ الذين حدَثوا معهم أو بعدهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: قيل: هو ما قال إبليس: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] وسائرُ ما قال أنه يفعل ببني آدمَ.

وقيل: هو ما قال الله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]؛ أي: تحقَّقَ هذا الوعيدُ فيهم.

وقولُه تعالى: ﴿فِي أُمَمٍ﴾: أي: مع أُمَمٍ ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾: أي: عَمَّهم جميعاً في العقاب؛ لعُمومهم في الارتكاب، فهم جميعاً خاسرون، ترَكوا قُرناءَ الخير وهم الدُّعاة إلى الحق والدِّين، فعُوقبوا بالقُرَناء مِن الشياطين وذلك هو الخُسْران المُبين.

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: مِن طُول الأمَل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: مِن نسيان الزَّلَل[٢].

* * *

(٢٦) - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾: وذكَرَ بعد قَبائحِ أولئكَ قبائحَ مُشركي عصرِ النبي ﷺ فقال: وقال مُشْركو قريش: لا تُصْغَوا إلى ما يقرؤه عليكم محمد مِن الكتاب الذي يزعُمُ أنه مُنَزَّلٌ عليه مِن ربه.

---

(١) في (ر): «لهم».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٢٦).

﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾: أي: ائتوا فيه باللَّغْو مِن الكلام ـ وهو الباطل الذي ليس له معنًى مُفيدٌ ـ لِيختلِطَ عليه ما يقرأ، فلا يتمكَّنُ مِن قراءته، ولا يتمكَّنُ أصحابُه مِن سماعه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: أي: لِتغلِبوه على القراءة فيَتْرُكَ، أو يتشوَّشَ عليه فيعجِزَ، أو يخفى[١] على السامع فلا يظهر.

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾: كان يُوصي بعضهم إلى بعض: إذا رأيتم محمداً فعارِضوه بالرَّجَز والأشعار[٢].

وقال مقاتل: ارفعوا أصواتكم بالأشعار والكلام في وجهِه حتى تُلَبِّسوا عليه قوله فيسكُتَ[٣].

وقال مجاهد: بالمُكاء والصفير[٤].

وقال الضحاك: أكثِروا الكلامَ، فيختلِطَ عليه ما يقولُ[٥].

وقال السُّدِّي: صِيحُوا في وجهه[٦].

وقال أبو العالية: اطعَنوا فيه وعِيْبوه[٧].

---

(١) في (ف): «فيخفى» بدل: «فيعجز أو يخفى».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٢).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٣).

(٤) في (ر): «بالمكاء والتصدية»، وفي (ف): «بالمكاء والتصدية والصفير». والخبر رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤١٨)، وهو في «تفسير مجاهد» (ص: ٥٨٦)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٢).

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٣١).

(٦) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧١).

(٧) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٣).

وقال مقاتل: قاله أبو جهل لقريش(١).

وقرأ عيسى بن عمرو: (وَالْغُوْا فِيهِ) بضمِّ الغين مِن باب: دخَلَ(٢).

وقال الأخفش: مَن فتحَ الغين كان مِن باب: صنَعَ(٣).

وفي «ديوان الأدب» جعلَه مِن باب: علِمَ(٤).

* * *

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾: قيل: في الدنيا، وكان ذلك يومَ بدر.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: في الآخرة، فقد حبِطَ ما كان في صُورة الحسنات، وبقِيَت السيئات.

وقيل: كلاهما في الآخرة.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾: أي: ذلك الجزاءُ جزاءُ الكفار الذين هم أعداءُ الله.

﴿النَّارُ﴾: ترجمة عن قوله: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤١).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٦٢)، عن عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق، و«المحتسب» (٢/ ٢٤٦)، وذكر أنها قراءة بكر بن حبيب السهمي.

(٣) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥٠٦)، ولفظه: لأنها مِن: لَغَوْتُ يَلْغَى، مثل: مَحَوْتُ يَمْحَا. وانظر كذلك: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٩٢)، و«المحرر الوجيز» لابن عطية (٥/ ١٣).

(٤) انظر: «ديوان الأدب» للفارابي (٤/ ٩٤).

﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾: أي: لهم في النار مَسْكَنُ الخُلود.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: في الدنيا، وهي آيات القرآن التي لغَوا فيها.

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي: ويقول هؤلاء الكفار إذا صاروا في النار:

﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾: أي: كانا سبباً لضلالنا حتى وقَعْنا في هذا العذاب لذلك.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يعني: إبليسَ الأبالسة، وابنَ آدم الذي قتلَ أخاه[١]. وإنما خُصَّا بالذِّكْر لأنهما سَنَّا الضَّلال والقَتْل[٢].

وقولُه تعالى: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾: أي: في الدَّرْكِ الأسفلِ مِن النار الذي أهلُه أشدُّ[٣] عذاباً.

وقيل: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾: قرينٌ مِن الأنس، وقرينٌ مِن الجن، وهو ما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥]، يقولُ كلُّ كافرٍ ذلك، يُريد قرِينَيْه هذين.

والآثارُ على القول الأول.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٧٧٥٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٤٧) وصححه.

(٢) في (ر) و(ف): «لأنهما سببا الضلال والقتل».

(٣) في (أ): «الذي أهلها أشد أهلها» بدل من: «الذي أهله أشد».

(٣٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾: أي: نطَقوا بالتوحيد.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾: أي: أخلَصوا الإقرارَ لله بالرُّبوبية، ولم يعدِلوا عنه إلى غيره، ولا استبدَلوا به دِيناً سواه، ولا عمِلوا ما يخرجُ به عنه.

ذكرَ المؤمنين المُستقيمين وثوابَهم بعد ما ذكَرَ الكفارَ وعقابَهم.

وعن أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال لَمَّا نزلت هذه الآية: «أمَّتي وربِّ الكعبة، استقاموا وثبَتوا على: لا إله إلا الله»[١].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: استقاموا فِعْلاً كما استقاموا قَوْلاً[٢].

وعنه في رواية أخرى أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هذه الآية؟ قالوا: لم يُذنبوا، فقال: حمَلْتُم الأمر على أشَدِّه، قالوا له: فما تقول؟ قال معناه: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان[٣].

---

(١) ذكره التستري في «تفسيره» (ص: ١٣٧) مرفوعاً، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤) عن ثابت عن أنس يرفعه.

ورواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٢٠٧) عن الحسن مرسلاً.

وليس في جميع هذه الروايات قوله: «استقاموا وثبَتوا على: لا إله إلا الله».

(٢) ذكره عن أبي بكر رضي الله عنه الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٩٨). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٧٩) من غير نسبة.

(٣) رواه إسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» (٣٥٩٧)، واللالكائي في «اعتقاد أهل السنة» (١٩٩٩)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٣٢٢) إلى ابن راهويه وعبد بن حميد والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في «الحلية».

وروى زيد بن أسلم عن عمر رضي الله عنه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: لم يرُوغوا رَوَغانَ الثَّعالب[١]؛ يعني: لم يُنافقوا.

وقال عثمان رضي الله عنه: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: أخلَصوا العمل لله تعالى[٢].

وقال علي بن أبي طالب: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: أدَّوا الفرائضَ[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: على ما افترض الله عليهم[٤].

وقال مجاهد: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: لم يُشْركوا بعد الإيمان حتى ماتوا[٥].

وقال الحسن وابن سيرين: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: أي: لم يَعْوَجُّوا[٦].

وقال سفيان الثوري رحمه الله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: أي: عمِلوا على وِفاق ما قالوا.

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٢٥)، والإمام أحمد في «الزهد» (٦٠١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٥)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٢٠٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٣) عن الزهري عن عمر رضي الله عنه.

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٢)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٩٩).

(٣) انظر المصادر السابقة.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٢)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ١٩٩).

(٥) رواه عن مجاهد الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٤)، والطبراني في «الدعاء» (١٥٩٢).

وروى نحوه الطبري أيضا في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٢)، وأبو داود في «الزهد» (٣٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٣)، عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٦) في (ر): «يعرجوا». وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤) عن ابن سيرين.

وقال الفُضيل بن عياض رحمه الله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾: زهِدوا في الفانية، ورغِبوا في الباقية(١).

وقال مقاتل بن سليمان رحمه الله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾: على المعرفة ولم يرتدُّوا(٢).

وقال مقاتل بن حيان رحمه الله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾: على أنَّ اللهَ ربُّهم(٣).

وقال الرَّبيع بن أنس: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾: أي: أعرَضوا عما سوى الله مِن الأوثان وغيرها(٤).

وقال القُشَيري رحمه الله: ﴿ثُمَّ﴾: تقتضي التراخي؛ أي: أقرُّوا بوحدانية الله تعالى للحال، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَـٰمُواْ﴾: استداموا ذلك إلى المآل.

وقال أيضاً: لم يكتفوا بالمقالة دون صَفاء الحالة.

وقال: المُستقيمون قسمان:

مُستقيمٌ في أصل التوحيد والمعرفة، وهذه صفةُ جميعِ المؤمنين.

ومستقيمٌ في الفروع مِن غير معصية، وهو للأقلِّين.

ثم الاستقامة لهم على حسَبِ أحوالهم: فمُسْتقيمٌ في عَقْده، ومُستقيمٌ في

---

(١) ذكر الأثرين الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤٢)، وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٧٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٢) عنه، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤) عن مقاتل بن حيان.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤) عن مقاتل بن سليمان، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٧٩) عن أبي بكر رضي الله عنه ومجاهد، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٢) عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٥).

عَهْده، ومُستقيمٌ في جُهْده ومُراعاةِ حدِّه، ومُستقيمٌ في قَصْده، ومُستقيمٌ في وُدِّه.

وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: في تصفية العَقْد، ثم في تَوْفية العَهْد، ثم في صحَّة القَصْد.

وقال أيضاً: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: بأقوالهم، ثم بأعمالهم، ثم بأحوالهم.

وقال أيضاً: أقاموا على طاعته، فاستقاموا في معرفته، وهاموا في محبَّتِه، وقاموا بشرائط خِدْمَتِه.

وقال أيضاً: استقامةُ الزاهِدِ: أنْ لا يرجعَ إلى الدنيا، واستقامةُ العابِدِ: أنْ لا يعودَ إلى الفَتْرة واتِّباعِ الشَّهوة، ولا يتداخلَ عملَه رياءٌ وسُمْعةٌ، واستقامةُ العارفِ: أنْ لا يشوبَ معرفتَه حظٌّ في الدارين، فيحجِبَه عن مولاه، واستقامةُ المُحبِّ ألا يكونَ له أرَبٌ مِن محبوبه، يكتفي مِن جُوده بوجوده، ومِن عطائه ببقائه[1].

وقولُه تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾: أي: عند الموت بالبشارة مُترادِفين.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾: أي: بألَّا تخافوا؛ أي: ينزلون بهذه البشارة: لا تخافوا ما بين أيديكم مِن هَوْل المَطْلِع، والمُسائلةِ في القبر، والأَفْزاعِ يوم القيامة.

﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾: أي: ولا تهتمُّوا، فلا يفوتكم[2] ما أُمِّلْتُم[3].

وقيل: لا تخافوا ما أنتم قادمون عليه، فلن تروا مَكْروهاً، ولا تحزنوا على ما خلَّفْتُموه مِن أهلٍ وولدٍ، فإنَّ الله يخلُفُكم عليهم بخير.

وقيل: لا تخافوا ما أمامكم، فإنكم ستُكْفَون هَوْلَه، ولا تحزنوا على ما تركتموه

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

(٢) في (ر) و(ف): «يغرنكم».

(٣) بعدها في (أ): «وقيل: لا تخافوا ما أملتم».

وراءكم في الدنيا مِن نعيمٍ وأهلٍ وولدٍ، فإنَّ الله يُعطيكم في الجنة أكثرَ مِن ذلك وأحسنَ، ويجمَعُ الله بينكم وبين أهاليكم وأولادكم المسلمين في الجنة.

وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ولا تحزنوا على ذنوبكم، فإني أغفِرُها لكم(١).

وقيل: لا تخافوا الوقوعَ في العُقوبة، ولا تحزنوا فلن تفوتَكم المثُوبة.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: في الدنيا، فإنكم ستَصيرون إليها.

وقال حاتم الأَصَمُّ: إنما يُقال عند الموت: لا تخَفْ ولا تحزَنْ، للخائف الحَزين، فأما الفرِحُ الآمِنُ فإنه يُقال له: خَفْ واحزَنْ(٢).

وقال أبو بكر الوَرَّاق: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ ملائكةُ الرِّعاية: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ عَزْلَ الوِلاية، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما مضى مِن الجناية، ﴿وَأَبْشِرُواْ﴾ بصدق العِناية ﴿بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾: في البداية(٣).

وقال محمد بن علي التِّرْمِذيُّ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ ملائكةُ الرحمن عند مُفارقةِ الأرواحِ الأبدانَ، ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾: سَلْبَ الإيمان ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما كان مِن العِصْيان ﴿وَأَبْشِرُواْ﴾: بدُخول الجِنان ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في سالف الأزمان(٤).

وقال الإمام القُشَيريُّ رحمه الله: لا تخافوا مِن العذاب، ولا تحزنوا على ما خلَّفْتُم مِن الأسباب، وأبشروا بحُسْن المآب وجزيلِ الثَّواب.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٣).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٦) عن بعض المتأخرين.

(٣) ذكره القشيري في «لطائف الإشارات» (٣/ ٣٢٩) من غير نسبة.

(٤) ذكره أبو البركات النسفي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٥)، وابن عجيبة في «البحر المديد» (٥/ ١٧٦).

وقال أيضاً: لا تخافوا مِن الذِّلَّة، ولا تحزَنوا بالزَّلَّة، وأبشروا بدوام الوُصْلَة[١].

وقال وكيع بن الجراح: هذه البُشْرى تكون في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وفي البعث[٢].

وقال قتادة: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: إذا قاموا مِن قبورهم[٣].

وقال الحسن[٤]: تستقبلُهم إذا خرجوا مِن قبورهم في الموقف[٥].

وقال مقاتل: إنَّ المؤمن إذا خرج مِن قبره رأى ملَكاً قائماً على رأسه، فيقول له: أنا الذي كنتُ أرفعُ عملَكَ الصالح، فلا تخَفْ ولا تحزَنْ وأبشِرْ بالجنة[٦].

وهذا يدلُّ على أنَّ الملائكة المذكورين في الآية هم الحَفَظة، وبه قال جماعةٌ، منهم عكرمةُ[٧]، وذلك قولُه:

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٢٩).

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٣).
ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٢٥٦) عن وكيع عن سفيان عن زيد بن أسلم، وذكره السمعاني في «تفسيره» (٥/ ٥٠) عن أبي العالية الرياحي.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٣) عن قتادة ومقاتل.

(٤) في (ر) و(ف): «الحسن البصري».

(٥) ذكره الثمالي في «تفسيره» (ص: ٢٩٢)، والطوسي في «التبيان» (٩/ ١٢٣) وهو من مفسري الشيعة الإمامية.

(٦) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤٢).

(٧) هو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٣/ ٧٤٢)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٢٨) عن السدي، وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٨٠).

(٣١) - ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: نحفَظُ الأعمال.

وقيل: ملائكةُ قَبْضِ الأرواح يقولون لهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(١): أي: الآن إلى أنْ تخرُجوا مِن الدنيا نُعينُكم ونُقَوِّيكم، وندفعُ الشيطانَ عنكم.

وقيل: الملائكة أنواع، وهم مُوَكَّلون بالبشر مِن وقت تصوير الإنسان في الرَّحِم إلى الموت، وبعده إلى الجنة، وفيها إلى الأبَد يقومون بأمورهم، وهو قولهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾.

وقيل على تفسيرهم بالحفَظة: نحن أولياؤكم تولَّيْنا كتابةَ أعمالِكم، ونشهدُ بها في القيامة لكم.

ثم ذكْرُ الملائكةِ في هذه الآية بمقابلةِ ذِكْرِ الشياطين في الآية المتقدمة: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾، فالشياطينُ قُرناءُ الكفار في الدنيا والآخرة، والملائكةُ أولياءُ المؤمنين في الدنيا والآخرة.

وقيل: هذا خطاب الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾؛ كما قال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وهو في مُقابلة ما قال في الكفار: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾(٢) [فصلت: ١٩].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾: أي: في الجنة.

﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾: ما تنزِعُ إليه شهواتُكم مِن الطَّيِّبات والملاذِّ.

---

(١) بعدها في (ر): «أي نحفظ الأعمال».

(٢) في (ف): «ويوم نحشر...»، وهما قراءتان تقدم ذكرهما.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾: أي: ما دعوتُم به؛ أي: ما التمستُموه.

وقيل: أي: ما أضفتُموه إلى أنفسكم.

وقيل: أي: ما تمنَّيْتُموه بدَلاً عما خلَّفْتُم في الدنيا مِن القليل المُنْقَطِع الفاني.

* * *

(٣٢ ـ ٣٣) ـ ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقولُه: ﴿نُزُلًا﴾: أي: رِزْقاً أقامَه الله تعالى لكم لإنزالِكم[1] الجنةَ.

وقولُه: ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾: أي: ممَّن غفَرَ لكم ورحِمَكم.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي، وهو تعجيب مِن المشركين الذين لغَوا في قراءة النبي ﷺ وهو يدعو إلى الله تعالى ويعملُ صالحاً، ويقولُ: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

يقول: كيف يجوزُ لكم مَعاشِرَ قريشٍ مع ادِّعائِكم رَجاحةَ العُقول أنْ تتواصَوا باللَّغْو في قراءة النبي ﷺ؟! وأيُّ قولٍ أحسَنُ مِن قوله؟! وأيُّ قائلٍ أحسنُ قولاً منه وهو يدعو إلى الله تعالى ولا تُهْمةَ فيه؟! فإنه يعملُ بما يقول، ويُظهِرُ دينَ الإسلام الذي هو دينُ أبيكم إبراهيم عليه السلام.

وتتَّصِلُ هذه الآية أيضاً بقوله: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هو كقوله: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ هو كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «لإنزاله إياكم».

وقالت عائشة رضي الله عنها: ما أُراها إلَّا نزلَتْ في المؤذِّنين[١]. وبه قال مجاهد[٢].

وقال أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾: صلَّى السُّنَّةَ والتَّطوُّعَ بعد الأذان[٣].

وقال مقاتل: جميعُ الأئمة والدُّعاة إلى الله تعالى[٤]؛ نظيرُه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: الدَّاعي إلى الله هو الذي يدعو الناس إلى الاكتفاءِ بالله، وتَرْكِ طلَبِ العِوَض مِن الله، بأنْ يكِلَ أمرَه إلى الله، ويرضى مِن الله بقِسْمة الله.

وقولُه تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾: أي: كما يدعو إلى الله، فلا يتخلَّفُ هو عن الله.

ويُقال: هم الذين عرَفوا طريقَ الله، ثم سلكوا طريقَ الله، ثم دعوا الناسَ إلى الله[٥].

* * *

(٣٤) ـ ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾: أي: لا يستوي ما أنتَ عليه يا

---

(١) رواه عنها ابن وهب في «تفسيره» (١١٨)، والفضل بن دكين في «الصلاة» (١٩١) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٣٤٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٧).

(٢) ذكره عنه السمعاني في «تفسيره» (٥/ ٥١)، ونقله ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٥٢) عن عائشة ومجاهد وعكرمة.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٦).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٣١).

محمد مِن التوحيد والاستقامة والدعاء إلى الله تعالى، وما عليه المشركون مِن الشِّرْك بالله، والصَّدِّ عن سبيل الله، والتَّواصي بتَرْك الاستماع لكلام الله تعالى.

أي: فأنتَ على حقٍّ وهم على باطل، وأنتَ في حِكْمة وهم في سفَهٍ، فاعملْ بما يَليقُ بمحَلِّكَ، ودعْهم وما يليقُ بمحَلِّهم.

وتكرارُ: ﴿وَلَا﴾ ذكَرْنا معناه.

وقيل: لأن كل واحدة منها تصلُحُ أنْ يلِيَها (لا) لو ابتُدِئَ بها.

وقولُه تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: أي: اِدفَعْ بحقِّكَ باطِلَهم، وبحِلْمِكَ[1] سفهَهم.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾: أي: فإذا استعملْتَ هذا لانَتْ لكَ جوانبُ أعدائِكَ المشركين، ومالتْ قلوبُهم إليكَ بالمودَّة، فأقبَلوا على ما تدعوهم إليه، واستمعوا له، ورُجِيَ بذلك أنْ يستجيبوا لكَ، ويصيرَ مَن يُعاديكَ منهم بالكُفْر بإسلامه كالوليِّ القَريب.

وحميمُكَ: قريبُكَ الذي يهتَمُّ لأمرِكَ.

حثَّه على مُلاطفتِهم ومُجادلتِهم بالأحسن، ثمَّ ليس هذا بقَطْعِ القول على أنهم يؤمنون إذا فعَلَ ذلك بهم، فقد فعَلَ، لكنَّه تنبيهٌ على أنهم يَلينون له، فيستمعون ويتدبَّرون، ثم بعد ذلك يقعُ له الرَّجاءُ في إسلامهم، لكنْ يُنْصِفُ بعضٌ فيُسْلِمُ، ويُعانِدُ بعضٌ فيُصِرُّ على كفره، وهو إطماعٌ له كما في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]، هذا لإطماعِ موسى وهارون، لا لتحقيق وجودِ الإيمان مِن فرعون.

---

(١) في (ف) و(أ): «وبحكمتك».

(٣٥) ـ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾: أي: وما يُعطى هذه الخَصْلةَ، وهي دَفْعُ السيئة بالحسنة، وما يُوَفَّقُ لتلَقِّيها؛ أي: قبولِها واستقبالِها وأخْذِها.

وقيل: أي: الموعظة.

وقيل: أي: الكلمة.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: ووطَّنوا أنفسَهم على الصبر لله على المَكاره.

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: أي: ذو نصيبٍ وافرٍ مِن العقل والعلم.

قال قتادة: أي: ذو حَظٍّ عظيمٍ مِن ثواب الله(١).

وقيل: هي مِن قولهم: رجلٌ مُلَقًّى؛ إذا كان تكثُرُ عليه المكارهُ؛ أي: لا يَحْمِلُ هذا الحِمْلَ إلا كذا.

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾: (إنْ) شرطٌ، و(ما) صِلَةٌ، والنون توكيدٌ وقسَمٌ؛ أي: وإنْ يُخطِرِ الشيطانُ بقلبكَ وسوسةً، ويصدَّكَ بها عن تلَقِّي هذه الموعظة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: يسمعُ استعاذتَكَ، ويَعلمُ إرادةَ الشيطان استزلالَكَ، ويَعلمُ ما يربطُ به جأشَكَ.

والنَّزْغُ: الإفسادُ.

---

(١) روى عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧١٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٣٤) عن قتادة: أن الحظ العظيم هو الجنة.

وقيل: نزلت هذه الآيات في إيذاء أبي جهل ـ لعنَه الله ـ رسولَ الله ﷺ، أمرَه بمُداراته، ثم أمرَه بقِتاله[(١)].

وقال قتادة: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾: يعني: أبا سفيان بنَ حَرْب، صار وليًّا بعد ما كان عدوًّا[(٢)].

***

(٣٧) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾: أي: العلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّته.

﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾: خلقَها لمنافع خَلْقِه ومصالحِ عِبادِه.

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾: فإنهما مخلوقان.

﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾: أي: خلقَ النَّهارَ واللَّيلَ والشَّمسَ والقمرَ.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: لأنَّ شرطَ عبادةِ الله تعالى ألَّا نسجدَ لِمَن دونه، فمَن عبَدَ معه غيرَه لم يكن له عابداً.

قال السُّدِّي رحمه الله: ولما نزل هذا قال المشركون: لا نسجُدُ إلا للَّاتِ والعُزَّى[(٣)]، فنزلَ قولُه:

(٣٨) ـ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤٣)، ورواه عن مقاتل البيهقيُّ في «السنن الكبرى» (١٣٢٩٨)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٨٢) من غير نسبة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٤) عن مقاتل.

(٣) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٤٤).

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: أي: هؤلاء المشركون عن إخلاص العبادة لله، فليس ذلك بمُقَلِّلٍ عددَ مَن يُخْلِصُ لله العبادةَ.

وقولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: الملائكةُ الذين هم سُكَّان السماوات، ومُقرَّبون عند الله بالدَّرَجات والكرامات.

﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي: يُنزِّهونه.

وقيل: يسجدون[1] ويسبحون فيه.

وقيل: ﴿يُسَبِّحُونَ﴾: أي: يُصَلُّون، وفيها السجودُ وغيرُه.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾: أي: لا يمَلُّون ولا يفتُرون، وهم أكثرُ عدداً ممَّن في الأرض، فلا يُخْطِرَنَّ الشيطانُ بقلبكَ أنَّ في الموحدين لله قِلَّةً.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾: أي: ومِن علاماته الدَّالَّة على كمال قُدْرته.

﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: مَيِّتَةً[2].

وقال الضحاك: أي: ذَليلةً[3].

وقال قتادة: أي: غَبْراءَ مُتَفَتِّتَةً[4].

---

(١) «يسجدون» ليست في (أ).

(٢) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٨٥) دون عزو، وذكر الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٧) عن ابن عباس قوله: مقشعرة.

(٣) لم أقف عليه عن الضحاك.

(٤) في (ر): «متقشفة»، وفي (ف): «متشققة». والخبر رواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧١٥)، =

وقال مقاتل: غَبْراءَ مُتَهَشِّمَةً لا نباتَ بها[١].

وأصلُ الخشوعِ: السُّكونُ والخُضوعُ، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، وهذا كقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾: أي: تحرَّكَتْ بالنبات ﴿وَرَبَتْ﴾؛ أي: ازدادتْ وانتفخَتْ بنُمُوِّ النبات في جَوْفها إلى أنْ يخرُجَ منها بانصداعها عنه.

وقيل: اهتزازُها: تحرُّكُ نباتِها، وكذا رُبُوُّها: رُبُوُّ نباتِها.

وقيل: هو مِن قولكَ: اهتزَّ فلانٌ ببِشارةِ كذا؛ أي: استبشرَ، وهذا مجازٌ عن تزيُّنِ الأرض في الربيع، ولذلك يُقال: ضحِكَتِ الأرضُ ببُكاءِ السَّماء.

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾: لا فَرْقَ بين الموتين والحَياتين في التدبُّرِ.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: مِن هذا وغيرِه.

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله في الآيتين: إنَّ الشمسَ وإنْ علَتْ، والقمرَ وإنْ حسُنَ، فلأجلكم خلَقْناهما، فلا تسجدوا لهما واسجُدوا لنا.

وقال أيضاً: خلَقَ الملائكة وقرَّبَهم ورفعَ منزلتَهم، ثم أمرَهم بالسجود لأبيكم آدم، فامتنَعَ أحدُهم، فلُعِنَ على الأبد.

وقال لكم: يا أولادَ آدمَ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر والملائكةِ ولا لشيءٍ دُوني.

وقال: أمرَكَ بصِيانة وجهِكَ عن الشمس والقمر والملائكة والبَشَر، ثم تبذُلُ وجهَكَ لكل خسيسٍ لأجلِ حظٍّ خَسيسٍ؟!

= والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٣٨) بلفظ: غبراء متهشمة.

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤٤). وانظر التعليق السابق.

وقال في الآية الثانية: الأرضُ إذا صحِبَتْها جُدُوبةُ الشتاء، ففي وقت الربيع إذا أُنْزِلَ عليها المطرُ اهتزَّتْ بالنبات واخضَرَّتْ؛ كذلك القلوبُ إذا خشَعَتْ وتماوتَتْ بما ألمَّتْ به مِن الذُّنوب، ونظَرَ إليها الحقُّ سبحانه، فاهتزَّتْ وتحرَّكَتْ للنَّدَم، يُعْفى عنها ما قصَّرَتْ في صِدْق القَدَم، وكذلك إذا وقعَ للعبد فَتْرةٌ في مُعاملتِه، وغَيبةٌ عن بِساط خِدْمَتِه، فإذا تعهَّدَه الحقُّ سبحانه بما أدخَلَ عليه مِن التَّذَكُّر عادَ عُودُ رَشادِه غضًّا طَرِيًّا، وشجَرُ وِفاقِه بعد ما أَجْدَبَ بماء العِناية مَسْقِيًّا(١).

***

(٤٠) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾: أي: إنَّ الذين يَميلون عن الحق في آياتنا، فيقولون: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾، ويكفُرون بالقرآن، ويزعُمون أنه ليس مِن عند الله، وأنَّ محمداً تَقَوَّلَه على الله، وأنه أساطيرُ الأولين، ويُعرِضون عن تدبُّره.

وقيل: أي: الذين يُلحِدون في آيات وحدانيَّتِنا مما سبَقَ ذِكْرُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً ﴾ بتركِ تدبُّرِها والاستدلالِ بها على ما هي علامةٌ دالَّةٌ عليه.

﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾: بل نعلَمُ بهم، فنُجازيهم على وَفْقِ أعمالِهم، وهو تهديدٌ بليغٌ.

وقيل: إنَّ المُنجِّمين داخلين في هذا الوعيد؛ لأنهم يُلْحِدون في هذه الآيات، فإن الشمس والقمر والنجوم جعلَها الله تعالى دلائلَ على وحدانيَّته، وهم يجعلونها دلائلَ على السَّعادة والشَّقاء والغِنى والفقر ونحوِ ذلك.

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

وقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: قيل: هاهنا مُضْمَرٌ: فلا يخفون علينا وقد أعدَدْنا لهم الجزاءَ، وهو إلقاؤُهم في النار، أفهؤلاء خيرٌ أم مَن لم يُلْحِدْ في آياتنا، فيأتي آمناً يوم القيامة مِن هذا؟!

وهذا استفهامٌ بمعنى التَّوْبيخ؛ لأنَّ جوابَه: بل مَن يأتي آمناً يوم القيامة، فكان هذا تقريراً لهم على قُبْحِ أعمالِهم.

وقولُه تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: أي: فلْيختَرِ امرؤٌ لنفْسِه ما شاء مِن هذين، وهما الوُقوعُ في النار، والأمنُ منها، وليعمَلْ ما يراه، فإنه إنْ عمِلَ بعمَلِ أهلِ النار أُلقِيَ فيها، وإنْ عمِلَ غيرَ ذلك أَمِنَها.

وهي كلمةُ زَجْرٍ وتهديدٍ، وعُرِفَ بما بعده وما قَبْله أنه زَجْرٌ لا أَمْرٌ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فيَجزي كلَّ عاملٍ جزاءَ عمَلِه.

* * *

(٤١) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾: أي: بالقرآن؛ لأنَّ فيه ذِكْرَ جميعِ[1] ما يُحتاجُ إليه، وجوابُه محذوفٌ، وهو ثابتٌ تقديراً[2]: هلَكوا به وشَقُوا به.

وقيل: خبرُه: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾: أي: لا يَقْدِرُ أحدٌ مِن العِبَاد بمِثْلِه.

وقيل: أي: كريمٌ، مِن حَقِّه أنْ يُعَزَّ وأنْ يُجَلَّ، فلا يُلْغى فيه ولا يُعْرَضَ عنه ولا يُلْحَدَ في آياته.

---

(١) «جميع» ليست من (أ).

(٢) في (ر): «تقديره».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿عَزِيزٌ﴾: أي: كريم على الله[1].

وقيل: ﴿عَزِيزٌ﴾: لا يوجد مِثْلُه في نَظْمه وكثرة فوائدِه.

وقال مقاتل: مَنيعٌ أنْ يُبْطِلَه مُبْطِلٌ[2].

وقال السُّدِّي: أي: غيرُ مخلوق[3].

وقيل: أي: غالبٌ لِشُبَهِ المُبتدعين والكافرين، مِن قولهم: مَن عَزَّ بَزَّ[4].

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: ﴿عَزِيزٌ﴾: لأنه كلامُ ربٍّ عزيزٍ إلى رسولٍ عزيزٍ بسَفارةِ ملَكٍ عزيزٍ إلى أُمَّةٍ عَزيزةٍ.

وقيل: عزيزٌ على المؤمنين لأنه كتابُ حبيبِهم، وكتابُ الحبيبِ إلى الحبيبِ عزيزٌ[5].

❋ ❋ ❋

(٤٢) - ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾: أي: لا يعترِضُ عليه الباطلُ مِن شيء أُنْزِلَ مِن الكُتُبِ قبله، ولا ينزِلُ كتابٌ بَعْدَه، بل هو الحُجَّةُ إلى قيام الساعة.

وقيل: أي: لا يقع فيه الكذِبُ مِن أخبار ما كان، ولا مِن أخبار ما يكون.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٦) عن الكلبي عنه، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٨) عن الكلبي.

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤٤)، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٨)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٩).

(٤) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد (ص: ١١٣)، و«الكامل» للمبرد (٤/ ٣٤).

(٥) انظر: «لطائف الإشارات» (٣/ ٣٣٥).

وقيل: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾: أي: المُبْطِل، وأنشَدوا فيه:

كِلِينـي لهَـمٍّ يـا أُميمـةُ ناصـبِ ... وليـلٍ أُقاسـيه بَطِـيءِ الكواكـبِ[1]

أي: مُنْصِب.

وقيل ـ وهو قولُ الكلبي ومقاتل رحمهما الله ـ: لا يأتيه التَّكذيبُ مِن الكِتَاب الذي قَبْلَه، ولا يجيءُ مِن بعده كتابٌ يُكَذِّبُه[2].

وقال قتادة: أي لا يستطيع الشيطان أنْ يُبطِلَ منه حقًّا، أو يزيدَ فيه باطلاً[3].

ومجازُ هذا: أنَّ ما بين يدَيِ الشيء هو ما حضرَه، والحقُّ في القرآن كذلك، وما خَلْفَ الشيء ما ليس فيه، وكذلك الباطلُ ليس في القرآن.

ووجهٌ آخَرُ: أنَّ الحقَّ مِن حَقِّه أنْ يُقَدَّمَ، والباطلَ مِن حَقِّه أنْ يُخلَّفَ.

وقيل: مجازُه: أنَّه مُمتنِعٌ مِن أنْ يلحقَه تحريفٌ أو تبديلٌ أو زيادةٌ أو نُقْصانٌ أو إبطالٌ بجِهةٍ مِن الجهات.

وقولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ﴾: مصدر بمعنى المفعول؛ أي: هو مُنَزَّلٌ مِن ربٍّ حكيمٍ مُصيبٍ في أقواله وأفعاله.

﴿حَمِيدٍ﴾: محمودٍ بكل صفاته، مُستَحِقٍّ لحَمْد خَلْقِه.

---

(١) البيت للنابغة. انظر: «ديوان النابغة الذبياني» (ص: ٤٥)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٤٤)، و«تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٣٧).

(٢) ذكره عنهما السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٢٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٣٨).

(٣) رواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧١٩)، والمحاسبي في «فهم القرآن» (ص: ٢٨٤)، والدارمي في «الرد على الجهمية» (٣٢٢)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (١٢٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤٤).

(٤٣) ـ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾: أي: كفَرَ المشركون بهذا الكتاب، وألحَدوا في آياته، ونسَبُوكَ إلى افترائه، ولكنْ ما قالوا لكَ إلا وقد قالت الأممُ السَّالفةُ لأنبيائهم كذلك، فاصبِرْ كما صبَروا تَظْفَرْ كما ظَفِروا، وهو معنى قولِ قتادة والسُّدِّي[1].

وقيل: يعني: ما يُوحى إليك إلا ما أُوحِيَ إلى الرسل المُتقدِّمين مِن إخلاص العبادة لله.

وقيل: قولُه تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، وهو قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾: للمؤمنين، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾: للكافرين.

* * *

(٤٤) ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾: العَجَمِيُّ: المنسوبُ إلى العجَمِ، وهم غيرُ العرب، فصيحاً كان أو غير فصيح، والأعجميُّ المنسوبُ إلى الأَعْجَم، وهو الذي لا يُفْصِحُ عربيًّا كان أو غيرَ عربيٍّ.

وقولُه تعالى: ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾: أي: هلَّا بُيِّنَتْ[2] آياتُه: ﴿ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؟!

---

(١) رواه عن قتادة عبدُ الرزاق في «تفسيره» (٢٧٢٠)، وعنهما الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٤٦)، ولفظ قتادة: يعزي نبيه كما تسمعون، ولفظ السدي: ما يقولون إلا ما قد قال المشركون للرسل من قبلك.

(٢) في (ر): «تبينت».

أي: أيكونُ كتابٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ؟!

يقولُ: لو أنزَلْنا هذا الذِّكْرَ قرآناً؛ أي: كتاباً يُقرأ ﴿أَعْجَمِيًّا﴾؛ أي: بلُغةٍ غيرِ فَصيحةٍ مِن لُغات الأعاجم، ﴿لَقَالُوا﴾: أي: لقالَ هؤلاء المشركون: هلَّا بُيِّنَتْ آياتُه باللغة الفَصيحة، فيتحقَّقَ لنا فَهْمُها، ويقرُبَ مِن قلوبنا وعقولنا الوقوفُ على المراد بها.

﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾: أي: فكيف يكون هذا أنْ يكون كتابٌ أعجميٌّ ورسولٌ عربيٌّ وإنما أُرْسِلَ بالكِتاب ليكون بياناً لقومه وآيةً له على صِدْق دعواه؟!

وكيف يكون[1] آيةً على قوم وهو شيءٌ لا يعرِفونه ولا يقِفون[2] على جنسه لِيمتحِنوا قُواهم في مُعارضته، حتى إذا عجِزوا علِموا أنه سماويٌّ خارجٌ عن قوى البشر؟!

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى﴾: أي: مُرْشِدٌ مِن الضلالة ﴿وَشِفَاءٌ﴾؛ أي: شافٍ مِن الجَهالة.

وقولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾: أي: ثِقلٌ وصَمَمٌ عن سماعه وفَهْمه.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: أي: عمًى لقلوبهم لتركِهم تدبُّرَه.

﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: أي: هم كمن يُنادى مِن مسافةٍ بعيدةٍ، فينقطعُ صوتُ المُنادي عنه فلا يسمعُه.

وقال مجاهد: لبُعْدِه عن قلوبهم[3].

---

(١) في (ف): «يكون له».

(٢) في (ف): «يفقهون».

(٣) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٥١)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣١).

وقال الضحاك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾: في القيامة؛ أي: كما يُنادى المُبعَدون عن الكرامة بأقبح الأسماء(١).

وقرأ ابن عباس: (وهو عليهم عمٍ) بكسر الميم؛ أي: مُلْتَبِسٌ(٢).

***

(٤٥) - ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أي: التوراةَ؛ كما آتيناكَ القرآن.

﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾: أي: اختلَفوا في كتابه، فقالوا: سِحْرٌ، ونحوَ ذلك؛ كما اختلَفَ المشركون عليكَ في كتابكَ، فقالوا ما قالوا.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾: أي: وليس تأخيري العذابَ عنهم لعَجْزٍ، ولا لتَسْويةٍ بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ، ولا لإهمالِ الفريقين، ولكنْ سبَقَ قولي أنِّي لا أُعاجِلُ هذه الأمةَ بالعذاب المستأصِل؛ لِعِلْمِي بمَن يخرُجُ مِن المؤمنين مِن أصلابهم.

﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾: أي: وإنَّ الكفار لا يكفُرون به لتيقُّنِهم ببُطْلانه، لكن يشُكُّون فيه لتَرْكِهم التأمُّلَ في الدلائل.

﴿مُرِيبٖ﴾: مُوقِعٍ للرِّيبَة؛ أي: التُّهْمة.

---

(١) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٥١)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣١)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٨٧).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٥٠)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٩٩) ورواها عن ابن عباس ومعاوية وعمرو بن العاص.

(٤٦) ـ ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾: أي: فلنفْسِه نَفْعُه ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾: أي: فعليها ضرَرُ إساءتِه.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾: أي: لا يُعَذِّبُ أحداً بغير ذنب، ولا يُنْقِصُ أحداً ثوابَ طاعتِه، ولا يزيدُ في العذاب على معصيته.

أي: يقضي بين هؤلاء المُخْتلِفين في القيامة على هذا.

***

(٤٧) ـ ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾.

ولَمَّا سألوا عن وقت القيامة قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾: أي: لا يَعْلَمُ متى تقوم الساعةُ غيرُه، وكلُّ عبدٍ سُئِلَ عنها ردَّ عِلْمَها إليه؛ كما قال لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ١٨٧][(١)].

وقولُه تعالى: ﴿**وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ مِنْ أَكْمَامِهَا**﴾: جَمْعُ: كُمٍّ، وهو غِلافُ الثَّمَر.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ في رواية حفص: ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ ﴾: على الجمع، وقرأ الباقون: ﴿من ثَمَرَةٍ﴾: على التوحيد[(٢)].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ ﴾: ﴿مِن ﴾ للتأكيد.

﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾: أي: كلُّ ذلك بعِلْم الله وتقديرِه، يجري ذلك كلُّه على

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٤٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٩٩).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٧٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٤).

عِلْمِه وقُدْرتِه، وكذلك الساعةُ، وهو كقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [الرعد: ٦] إلى أن قال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾: أي: وفي هذا اليوم يُخاطِبُ الله هؤلاء، فيقول: أين الذين كنتم تُشْرِكونهم بي، ويقولون: هؤلاء شفعاؤُنا، وإنما نعبُدهم ليُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى.

وقولُه تعالى: ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾: قيل: أي: يقول المشركون: نُؤذِنُكَ ـ أي: نُعْلِمُكَ ـ ما مِنَّا مِن أحدٍ يشهَدُ[1] بأنَّ لك شَريكاً، أو بأنه كان لكَ شريكٌ.

ماضٍ بمعنى المستقبل؛ لأنه مِن أمور الآخرة، وهو كائنٌ لا محالةَ فأُلْحِقَ بالموجود.

ويَحتملُ أنَّهم كانوا قالوا ذلك قَبْل هذا الخطاب، فقد أخبَرَ أنهم يتبرَّؤون مِن ذلك يومَ القيامة، فيكون قوله: ﴿آذَنَّاكَ﴾: أي: قلنا قبل هذا: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

ثم هذا الإعلامُ لا يجوز أنْ يُفْهَمَ منه إيقاعُ العِلْم، لكنْ طريقُه طريقُ قولِه: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١]، وقد فسَّرْناه في تلك الآية.

وقال القُتَبيُّ: هذا قول المعبودين، يقولون: ما مِنَّا مِن شهيد للمشركين على ما قالوا[2].

***

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾.

---

(١) في (أ): «شهيد».

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٩٠).

وقولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: أي: بطَلَ ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: في الدنيا.

﴿وَظَنُّواْ﴾: أي: علِموا وأيقَنوا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: أي: مَعْدِلٍ مِن النار.

ويجوز أنْ يكون الظنُّ على غلَبة الظنِّ، فإنهم يطمَعون في الخروج، ولذلك يسألونه.

وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾: قال مقاتل: نزلت في أبي حُذيفة بن المُغيرة[1].

يقول: لا يمَلُّ هذا المشركُ الجاحدُ بالقيامة مِن مسألة الله الذي هو مُقِرٌّ بأنه خالقُه ورازقُه السَّعَةَ في المال، والسَّلامةَ في النَّفْس، والظَّفَرَ بكل محبوب.

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾: أي: نالَه المكروه.

﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾: أي: يَيْأَسُ مِن زوال ما به، ويظُنُّ أنْ يدومَ عليه، ويقنَطُ مِن رحمة الله.

* * *

(٥٠) ـ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾: أي: نِعْمةً.

---

(١) لم أقف عليه، وقد اختلف فيمن نزلت، فذكر السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٢) عن الضحاك أنها نزلت في النضر بن الحارث. وذكر مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١٠/ ٦٥٤٤) أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، أو: في عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف. وليس التعيين هنا بمهم، فإن الآية عامة في كل من هذه صفته.

﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾: أي: شِدَّةٍ أصابَتْه.

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾: أي: أنا أهلُه ومُسْتَحِقُّه.

وقيل: أي: بسببِ خيرٍ عندي.

وقيل: أي: بعملي[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾: أي: وما أحسَبُ القيامةَ كائنةً.

﴿وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾: أي: ولئن كان ما يقول محمد وأصحابُه حقًّا مِن قيام الساعة.

﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾: يعني: الجنَّةَ وكلَّ حالةٍ حسنةٍ، ولا يُعذِّبُني الله؛ لأنه إنما يُعَذِّبُ مَن يَهونُ عليه، لا مَن يَكْرُمُ عليه، وأنا كريم عليه، فقد أكرمَني بالنِّعَم في الدنيا.

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾: وأُجازيهم عليه، فيعلمون أنَّ الساعةَ قائمةٌ، وأنَّ الحُسْنى لغيرهم.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾: شديدٍ دائمٍ.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾: أي: على هذا الكافر.

﴿أَعۡرَضَ﴾: أي: عن ذِكْرنا والتدبُّرِ في آياتنا.

وقال مقاتل: أعرضَ عن الدعاء[2].

---

(١) في (ر): «بعلمي».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٤٨).

وقال الكلبي: عن الإيمان(١).

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: بعُدَ وولَّى جانِبَه.

وقال أبو عَوْسجَةَ: تباعدَ عما أُمِرَ به(٢)؛ أي: تكبَّرَ، وهو كتصعير الخَدِّ، وهو إمالتُه.

وقال نِفْطَوَيْهِ: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: امتنَعَ بقوَّتِه وحالِه(٣).

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾: أي: فهو ذو دُعاءٍ كثيرٍ.

والطُّولُ والعَرْضُ يُستعملُ في الكَثْرة والكِبَر مجازاً.

وقيل: العريضُ أبلَغُ مِن الطويل؛ إذ العَرْضُ يدلُّ على الطُّول، والطُّول لا يدلُّ على العَرْض؛ إذ قد يصِحُّ طويلٌ ولا عَرْضَ له، ولا يصِحُّ عريضٌ ولا طُولَ له؛ لأنَّ العَرْضَ انبساطٌ في خِلاف جِهة الطُّول، والطُّولَ امتدادٌ في أيِّ جِهةٍ كانت.

* * *

(٥٢) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾: أي: قل يا محمد: إنْ كان ما يُخبِرُ به محمد مِن الوَعْد والوَعيد صِدْقاً مِن عند الله ثم كذَّبْتُموه في ذلك، كنتم مُشاقِّين لله؛ أي: مُعادِين له مُخالِفين.

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٣)، وأورده الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٨٨) من غير نسبة.

(٢) في (أ): «أمرته». والخبر ذكره عنه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٩٧).

(٣) ذكره عنه أبو عبيد في «الغريبين» (ص: ٣٧٣)، وهو من غير نسبة في «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٢٥٢).

وقولُه تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾: أي: خِلافٍ بعيدٍ عن الوِفاق، ومُعاداةٍ بعيدةٍ عن الموالاة، استفهامٌ بمعنى النفي.

* * *

(٥٣) ـ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾: يعني: علاماتِ عذابِنا في البلاد، وهو ما كان نزَلَ بعادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ، وهم يَرون ذلك إذا سافروا.

وقولُه تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾: يُبْتَلون في أنفسهم بالبَلايا.

ويُقال: قَتْل أصحابِهم مِن الكفار في الحروب.

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾: الذي قلْتَ هو الحق[1]، فيُصَدِّقونك.

وقال مجاهد: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾: يعني: ما يفتَحُ اللهُ على محمد مِن القُرى، ﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾: فتحُ مكةَ[2].

وقال الضحاك: إنَّ أبا جهل ـ لعنَه الله ـ قال للنبي ﷺ: ائتنا بعلامة، فأشارَ إلى القمر، فانشَقَّ نِصْفَين، فقال أبو جهل: يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ، إنَّ محمداً قد سحَرَ القمر، وجِّهوا رسُلَكم في الآفاق: هل عايَنوا القمرَ كذلك؟ فإنْ عايَنوه كذلك فهو آيةٌ، وإلَّا

(١) في (ر): «الصدق».

(٢) رواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٢٣)، وروى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦١) عن السدي، وذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٧٩) عن مجاهد والسدي والحسن.

فهو سِحْرٌ، فوجَّهوا فإذا أهلُ الآفاق تحدَّثوا بانشقاق القمر، فقال أبو جهل لعنَه الله: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ٢]، فنزلَتِ هذه الآيةُ[١].

وقيل: معناه: ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ آياتِ وحدانيَّتِنا، ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾: مِن سَيْرِ النُّجوم وجَرَيان الشمس والقمر بحُسْنِ التَّدبير، وكذلك ما في الأرض، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: ما يُشاهدون فيها مِن آثار الحدَثِ والتَّنقُّلِ مِن حالٍ إلى حالٍ، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: يظهَرَ لهم البيانُ الذي ينقطِعُ به العُذْرُ.

وقولُه تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: أنَّ اللهَ هو المعبودُ الحقُّ الذي لا شريكَ له، وأنَّ البعثَ حقٌّ لا شُبْهةَ فيه، فإنَّ مَن قدِرَ على ذلك قدِرَ على إحياء الموتى.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾: أي: شاهدٌ، ويشهد أنَّ القرآنَ مِن عند الله، وأنَّكَ رسولُه.

وقيل: يشهدُ بهذا كلِّه.

قال الكلبي: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ﴾ أنه أخبرَهم بذلك وشهِدَ به لِيعلموا[٢] وإنْ لم يُسافروا في الآفاق[٣].

وقيل: أي: عالمٌ بفِعْلِكَ يا محمد وبأفعالهم، فيَجزي كُلًّا على وَفْق عمَلِه، وهو مِن قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

* * *

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٣).

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «أنه».

(٣) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٣).

(٥٤) ـ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ﴾: أي: شَكٍّ ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾: مِن مَجيء القيامة، وحسابِ اللهِ[1] الخَلْقَ، والجزاءِ.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾: أي: عالمٌ بالأشياء كلِّها، قاهرٌ لها، لا يُعجِزُه هاربٌ، ولا يفوتُه مطلوبٌ.

* * *

(١) لفظ الجلالة «الله» من (أ).

سُورَةُ الشُّورَىٰ

سُورَةُ الشُّورَى[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باسم الله الذي ليس كمِثْلِه شيءٌ وهو السميع البصير، الرَّحمنِ الذي وعَدَ المؤمنين روضاتِ الجَنَّات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفَضْل الكبير، الرَّحيمِ الذي لا يُؤاخذُنا إلا بما كسبنا[2] ويعفو عن كثير.

روى أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ كان ممن تُصَلِّي عليه الملائكةُ ويَسْتَرْحِمون له»[3].

وهذه السُّورة مكِّيَّةٌ.

وهي ثلاثٌ وخمسون آيةً، وقيل: خمسون، الاختلافُ في: ﴿حمٓ﴾ و﴿عٓسٓقٓ﴾، وفي: ﴿ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾.

وكلماتُها: ثماني مئةٍ وستون.

وحروفُها: ثلاثةُ آلافٍ وأربعُ مئةٍ وأربعون.

---

(١) في (ف): «حم عسق».

(٢) في (أ): «إلا بكسبنا».

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠١)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢)، وهو قطعة من حديث طويل موضوع، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٧٩).

وانتظامُ أوَّلِ هذه السُّورة بآخر تلك السُّورة: أنَّ خَتْمَ تلك السُّورة باسم مِن أسماء الله تعالى، وكذلك افتتاحُ هذه السُّورة.

وانتظامُ السُّورتين: أنهما في ذِكْر الكفار وشِرْكِهم، وإقامةِ الدَّلائل على جهلهم، وإبطالِ قولِهم، وما يتَّصِلُ بوعيدهم ووعيدِ غيرِهم.

* * *

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿حمٓ﴾: مرَّتِ الأقاويلُ فيه.

﴿عٓسٓقٓ﴾: هذه الحروف الخمسة اسمُ هذه السُّورة.

وقال الضحاك: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾؛ أي: قُضِيَ عذابٌ واقعٌ، وأرجو أنْ يكون قد مضى يوم بدر والسِّنونَ التي أصابَتْ أهلَ مكَّةَ[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السِّينُ في ﴿عٓسٓقٓ﴾ كلُّ فِرْقةٍ تكون، والقافُ كلُّ جماعةٍ تكون، وبها كان يَعْلَمُ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه حسابَ الفِتَنِ[2].

وعنه أنه قال: ليس مِن نبيٍّ صاحبِ شَرْعٍ أو صاحبِ كتابٍ إلا وقد أُوحِيَ إليه: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، يُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾[3].

وقال السُّدِّي: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾: يعني: العذابَ، أوحى الله تعالى إلى الرسل

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٥).

(٢) ذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٦٥)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ١٠٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٢)، ومكي في «الهداية» (١٠/ ٦٥٥٥). وعندهم جميعاً: (حم سق)، وأن ابن عباس قرأها كذلك دون عين.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٨٤).

أنَّ العذاب نازلٌ بأُمَمهم كما أوحى إلى النبي ﷺ شأنَ يومِ بدرٍ وغيرِه[١].

وقال عكرمة: سأل نافع بن الأزرقُ ابنَ عباس عن قوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، فقال: حاءٌ حِلْمُه، ميمٌ مَجْدُه، عَينٌ عِلْمُه، سينٌ سَناؤُه، قافٌ قُدْرَتُه، أقسمَ الله بها[٢].

وفي رواية أبي الجَوْزاء: أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما قال لنافع: عَينٌ عذابٌ، سينٌ مَسْخٌ، قافٌ قَذْفٌ[٣].

ورُوِي أنَّ النبي ﷺ لَمَّا نزلت هذه الآية عُرِفَتِ الكآبةُ في وجهه، فقيل له في ذلك، فقال: «أُخْبِرْتُ ببلاءٍ ينزلُ بأُمَّتي مِن مَسْخٍ وخَسْفٍ وقَذْفٍ، ونارٍ تحشُرُهم، وريحٍ تقذِفُ بهم في اليمِّ، وآياتٍ مُتتابعاتٍ مُتَّصِلةٍ بنزول عيسى وخروج الدَّجَّال»[٤].

وقال شَهْر بن حَوْشَب: حاءٌ: حربٌ يَعِزُّ فيها الذَّليل، ويَذِلُّ فيها العزيز في قريش، ثم تُفْضِي إلى العرب، ثم تُفْضِي إلى العجم، ثم تمتَدُّ إلى خروج الدَّجَّال[٥].

وقال عطاء بن أبي رباح: حاءٌ: حربٌ في أهل مكة تُجحِفُ بهم حتى يأكلوا

---

(١) ذكر نحوه مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٦٣).

وأما السدي فقد ذكر عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٥) أنه قال: الحاء حلمه، والميم ملكه، والعين عظمته، والسن سناؤه، والقاف قدرته، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٣) أنه قال: العين من العزيز، والسين من السلام، والقاف من القادر.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٢)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٨٠).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٢٧١).

(٤) ذكره بهذا السياق الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٢)، وأصل الحديث دون ذكر الآية ثابت بأسانيد صحيحة، فقد رواه مسلم (٢٩٠١)، والترمذي (٢١٨٣)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٦١٤٣) عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه.

(٥) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٣).

الجِيَفَ وعِظامَ الموتى، ميمٌ: مُلْكٌ يتحوَّلُ مِن قوم إلى قوم، عَينٌ: عدُوٌّ لقريش يقصِدُهم، سينٌ: سَبْيٌ يكون فيهم، قافٌ: قُدْرةُ اللهِ النَّافذةُ في خَلْقِه[1].

وقال بكرُ بن عبد الله المُزنيُّ: الحاءُ: حربٌ تكون بين قريش والموالي، فتكون الغلَبَةُ لقريش على الموالي، ميمٌ: مُلْكُ بني أُمَيَّةَ، عينٌ: عُلُوٌّ بني العباس، سينٌ: سَناءُ المهدي، قافٌ: قُدْرةُ عيسى حين ينزِلُ، فيقتُلُ النصارى، ويُخَرِّبُ البِيَعَ[2].

وقال محمد بن كعب: أقسَمَ الله تعالى بحِلْمِه[3] ومَجْدِه وعُلُوِّه وسَنائِه وقُدْرته ألَّا يُعذِّبَ مَن عاد إليه بلا إله إلا الله، مُخْلِصاً مِن قلبه[4].

وقال سعيد بن جُبير وجعفرٌ الصادقُ رضي الله عنهما: حاءٌ مِن رحمن، ميمٌ مِن مَجيد، عَينٌ مِن عالِم، سينٌ مِن قُدُّوس، قافٌ مِن قاهر[5].

***

(٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾: أي: كالذي أوحَى إليكَ في هذه السورة يُوحِي إليكَ في سائر السُّوَر، وكذلك أوحى إلى الأنبياء المُتقدِّمين.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي لا يحتاجُ إلى شريك يتعزَّزُ به.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: المُصيبُ في أقواله وأفعاله، المُحْكِمُ دلائلَه، المُتْقِنُ خَلْقَه.

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٣).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٣).

(٣) في (ف): «بحكمه».

(٤) ذكره عن محمد بن كعب الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٣)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٥) عن ابن عباس.

(٥) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٣).

(٤) ـ ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: مِلْكاً ومُلْكاً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ﴾: المُمْتَنِعُ بعُلُوِّه أنْ يُغالَبَ.

﴿ٱلْعَظِيمُ ﴾: الجليلُ سُلْطانُه أنْ يُعارَض.

وقيل: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾: أي: هي وجميعُ حروفِ التَّهَجِّي مما أوحى الله بها كُتُبَه إلى أنبيائِه؛ أي: بها كان نَظْمُها.

وقيل: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾: سِرٌّ لم يَطَّلِعْ عليه غيرُ محمد، وكذا كان وَحْيُ اللهِ تعالى إلى أنبيائه، كان في بعض الكتب[1] سِرٌّ تفرَّدَ به الرسول[2].

* * *

(٥) ـ ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾: قرأ أبو عمرو وعاصمٌ في رواية أبي بكر: ﴿ تَكَادُ ﴾ بتاء التأنيث، (يَنْفَطِرْن) بالنون مِن الانفطار، وهو الانشقاق.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وحمزةُ وعاصمٌ في رواية حفص: ﴿ تَكَادُ ﴾ بتاء التأنيث، ﴿يَتَفَطَّرْنَ ﴾ مِن التَّفَطُّر، وهو التَّشَقُّق.

وقرأ نافعٌ والكسائيُّ: ﴿يكاد﴾ بياء التذكير، ﴿يَتَفَطَّرْنَ ﴾: مِن التَّفَطُّر[3].

قيل: تكاد السماوات تتشقَّقْنَ لِعظمة الله وهَيْبَته.

---

(١) في (أ) و(ف): «الكتاب».

(٢) في (أ): «تفرد به رسول الله عليه السلام».

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٠)، و«التيسير» للداني (ص: ٥٨٠).

وقيل: معناه: تُقارِبُ السماوات أنْ تتشقَّقْنَ فوق الأرَضين.

وقيل: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾: أي: مِن أعلى سماءٍ منها[١]، فلا تبقى سماءٌ إلا وقد سقَطَتْ على الأخرى كالسَّقْفِ فوق السَّقْف؛ خَشْيةً لله لو كُنَّ يَعْقِلْنَ، وإجلالاً له، وانقطاعاً إليه بالرَّهْبة والرَّغْبة؛ كما قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقيل: تتشقَّقْنَ لِفَظاعةِ قولِ المشركين؛ كما قال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾[٢] [مريم: ٩٠ ـ ٩١].

وقيل: تتشقَّقْنَ لِكَثْرة ما على السماوات مِن الملائكة، قال النبي ﷺ: «أطَّتِ[٣] السماء وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ، ما فيها موضِعُ قدَمٍ إلا وعليه ملَكٌ قائمٌ أو راكعٌ أو ساجدٌ»[٤].

وقيل: تكاد السماوات يَنْفَطِرْنَ لقيام القيامة[٥] لِتعجيلِ عقابِ هؤلاء المشركين، فإنَّ انفطارَ السماء وانشِقاقَها لِقِيام يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

---

(١) في (أ) و(ف): «فيها».

(٢) في (أ) و(ف): «ينفطرن».

(٣) الأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها؛ أي: أن كثرة ما في السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت، وهذا مَثَل وإيذانٌ بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثَمَّ أطيط، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى. انظر: «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (مادة: أطط).

(٤) رواه الترمذي (٢٣١٢) وحسنه، وابن ماجه (٤١٩٠)، والإمام أحمد في «مسنده» (٢١٥١٦)، والحاكم في «مستدركه» (٨٧٢٦) وصححه، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
ورواه البزار في «مسنده» (٣٢٠٨) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٥٥) من حديث العلاء بن سعد رضي الله عنه، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه، واللفظ له.

(٥) في (ر): «الساعة».

وقيل: يَنْفَطِرْنَ للسُّقوط على الكفار؛ كما قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٩].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: يُنزِّهونه ويحمَدونه بمَحامِده.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾: مِن المؤمنين ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لهم.

وقيل: يستغفرون لكلِّ مَن في الأرض، يسألون تَرْكَ مُعاجلَتِهم بالعذاب؛ لِأجْل مَن فيها مِن أهل الإيمان.

* * *

(٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: أي: أصناماً يتولَّونها.

﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾: أي: يحفَظُ عليهم أعمالَهم وأقوالَهم وعقائدَهم، ويُوفِّيهم يوم القيامة.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾: أي: بمُسَلَّطٍ عليهم تُدخِلُهم في الإيمان جَبْراً، ولا بمَنْصوب عليهم بحفظ أعمالهم ومُجازاتهم عليها شَرًّا، إنما عليك البلاغُ فبَلِّغْ، ولا تضِقْ بنُفورهم صَدْراً.

* * *

(٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: بلسانِ قومِكَ؛ كما أرسَلْنا كلَّ رسول بلسان قومه.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: لِتُخَوِّفَ أهلَ مكَّةَ التي هي أصْلُ كلِّ بَلْدةٍ، فإنَّ الأرضَ منها دُحِيَتْ.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: مِن بلاد العرب؛ لِيكونوا أعواناً لكَ على غيرهم.

وقيل: سُمِّيَتْ أمَّ القرى لأنها أجلُّها شَأْناً؛ لِكون الكعبةِ فيها، ومناسكِ الحجِّ.

ويُقال للقصيدة المُختارة: هذه مِن أُمَّهاتِ قصائدِ فلانٍ، وعِظامُ المسائل تُدعى: أُمَّهاتِ المسائل؛ لكونها أصولاً لأحكامٍ مُرَتَّبةٍ عليها مُتَشعِّبَةٍ منها.

وقولُه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾: أي: ولِتُخَوِّفَ بيوم القيامة الذي هو يومُ جَمْعِ الخلائق مِن الأوَّلين والآخِرين للحساب والجزاء.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: لا شَكَّ في كونه ومجيئه.

﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾: أي: وإذا جُمِعوا ليوم الحساب، فمنهم فريقٌ يدخُلون الجنة، وهم الذين خافوا بتخويفِكَ فآمَنوا، ومنهم فريقٌ يدخُلون النار، وهم الذين لم يُجيبوكَ وكذَّبوكَ.

* * *

(٨) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: مُجْتَمعين على الإيمان، مُسْتَحِقِّين للجِنان.

وقيل: أي: فريقاً واحداً: إما ضالِّين مِن أهل السَّعِير، وإما مُهْتَدين مِن أهل الجنة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: أي: يهدي مَن عَلِمَ منه اختيارَ الهُدى، فيُدخلُه بذلك في الجنة.

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: أي: والواضعون الأمرَ غيرَ موضعِه، والظالمون أنفسَهم الذين علِمَ منهم اختيارَ الضَّلالِ، يُضِلُّهم ويجعلُهم بذلك مِن أهل النار، فما لهم أحدٌ يتولَّى أمورَهم فيُعينَهم، ولا مَن ينصرُهم فيدفعَ العذابَ عنهم.

* * *

(٩) ـ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾: قيل: ﴿أَمِ﴾ بمعنى ألف الاستفهام، وهو للتَّوْبيخ.

وقيل: ألفُ الاستفهام مُقَدَّرةٌ أوَّلاً، وهذا عطفٌ على ذلك بـ(أم)؛ كأنه قال: قد عرَّفْناهم أنَّ الظالمين لا وليَّ لهم، أفيؤمنون بهذا أم قد اتَّخذوا عند أنفسهم أولياءَ مِن دونه يمنعونهم مِن عذاب الله؟! وليس كذلك، فاللهُ هو الوليُّ يومئذٍ لا ولايةَ لغيره، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: يومَ القيامة للحساب والجَزاء.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: مِن التَّنْعيم والتَّعْذيب وغيرِ ذلك.

* * *

(١٠) ـ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾: أي: اليومَ مِن أَمْرِ الدِّين يا معاشرَ المسلمين والمشركين.

﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: يومَ الدِّين، فإنه يَفْصِلُ[1] بالجزاء بين المختلِفين.

---

(١) في (ر): «يقبل»، وفي (ف): «قائم يفصل».

وقيل: ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: إلى كتابِه اليومَ، وسنَّةِ نبيِّه، وإجماعِ الأُمَّة، والقياسِ، فإنها قوانينُ الشرع، ومأخذُها مِن كتاب الله، وقد قال الله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى﴾: أي: قل يا محمد: هذا الموصوف بهذه الصِّفاتِ ربِّي.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: اعتمدتُّ في أموري كلِّها.

﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: أي: أرجِعُ في أحوالي كلِّها[١].

قال مقاتل بن سليمان: نزل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ في خُزاعة، قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وعبَدوها مِن دون الله[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: مُشْرِكي العربِ، وعبدةَ الأصنامِ[٣].

وكذلك قولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾: على القولين.

* * *

(١١) - ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: ذلكم اللهُ ربي خالِقُ السماواتِ والأرضِ مُبْتدِئاً مِن غير شيء.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: أي: زوجاتٍ مِن الإنس، وهو مِن قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

---

(١) في (ر): «أي: أرجعُ إليه؛ أي: على ربِّي في أحوالي كلِّها». وسقطت الجملة من (ف).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٦٤).

(٣) لم أقف عليه.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾: أي: ذُكوراً وإناثاً لتتناسلَ[(١)] فتبقى، فيقومَ بها مصالحُ الخَلْقِ[(٢)] مِن الحَرْث والحَمْل والرُّكوب في الأَسْفار، والضَّرْب في الأمصار لمُخْتَلَف الأقطار.

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾: أي: يخلُقُكم مِن هذه الأزواج[(٣)] نَسْلاً بعد نَسْلٍ.

وقيل: أي: في زمان التَّزاوُج.

وقيل: أي: يذرؤُكم في العالَم.

وقال القُتَبيُّ: أي: في الرَّحِم[(٤)].

وقيل: في البَطْن.

وقيل: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾؛ أي: به؛ أي: بالتَّزاوج؛ كما يُقال: الزَّرْعُ ينمو في الغَيْث؛ أي: بالغَيْث.

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾: قال الزَّجَّاج: الكاف زائدةٌ مُؤَكِّدةٌ، وتقديرُه: ليس مِثْلَه شيءٌ[(٥)].

وهو كما قال أَوْسُ بنُ حُجْرٍ:

وقتلى كمِثْلِ جُذوع النَّخِيلِ ... تَغَشَّاهُمُ سَبَلٌ مُنْهَمِرْ[(٦)]

---

(١) في (ر): «أي: للتناسل»، بدل: «لتتناسل».

(٢) في (ر): «خلقه».

(٣) في (أ): «في هذا الأزواج»، وفي (ف): «في هذه الازدواج».

(٤) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٩١).

(٥) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٥).

(٦) انظر: «ديوان أوس بن حجر» (ص: ٣٠)، و«تفسير الطبري» (٢٠/ ٤٧٧)، وفيهما: «تغشاهم =

وقال آخر:

سـعدُ بـنُ زيـدٍ إذا أبـصَرْتَ فَضْلَهُـمُ ... مـا إنْ كمِثْلِهِـمُ في الناس مِـن أحدِ[١]

وقال القُتَبيُّ: المِثْلُ صِلَةٌ، معناه: ليس كهو، وهو كما يقول الرجل: لا يُقال هذا لِمِثْلي؛ أي: لي[٢].

وهو وجهٌ لا يجوزُ في العقل غيرُه؛ لأنه لو حُمِلَ هذا على ظاهرِه ونُفِيَ التَّشبيهُ عن مِثْله لا عنه، كان في تصحيحه إبطالُه؛ لأنه لو كان له مِثْلٌ لكان لِمِثْلِه مِثْلٌ، وهوَ هوَ، فلم يصِحَّ نَفْيُ التَّشبيه، فدلَّ على أنه لِحقيقةِ نَفْيِ المِثْلِ عنه جلَّ جلاله.

وهذه الآية أقوى عُدَّةٍ لأهل السُّنَّة والجماعة على أهل الأهواء والبِدَع؛ لأنه إذا نُفِيَ التَّشْبيهُ بطَلَ قولُ المُجَسِّمَةِ والمكانيَّةِ، والقائلين بالجوارحِ وحُلولِ الحوادث في الذَّاتِ، وكثيرٌ مِن قواعدهم الفاسدة، وبالله العِصْمَةُ.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾: كلَّ المسموعات بسَمْعٍ أزَليٍّ، لا بجارحةٍ.

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾: بكل المُبْصَراتِ ببَصَرٍ أزَليٍّ، لا بجارحةٍ[٣].

* * *

(١٢) ـ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

= مسبل»، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في «الأضداد» لابن الأنباري (ص: ٤١). وفي (أ) و(ر): «يغشاهم سيل».

(١) ذكره دون نسبة الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٧٧)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٩٥).

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٩١)، وهو قول الأخفش؛ كما في «معاني القرآن» له (١/ ١٩٧).

(٣) وقد تقدم مراراً بيان مذاهب السلف والخلف في آيات الصفات، وأنها تدور بين قولي التسليم والتأويل، وأن التسليم هو مذهب السلف، وهو الأسلم، كما قال الإمام النووي رحمه الله وغيره من جمهور علماء الأمة.

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾: أي: بيده مفاتيحُ الأرزاقِ التي تَنْزِلُ مِن السماء مِن المطر وغيرِه، وما يخرُجُ مِن الأرض مِن النبات، وهو المالكُ كلَّ ذلك، وهو عنده كالشيء المَخْزون.

﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾: أي: يُوَسِّعُ على مَن يشاء مِن عباده، ويُضَيِّقُ على مَن يشاء.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾: مِن المصالح والعَواقب وغيرِ ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل: المقاليدُ: المفاتيح(١). وقد فسَّرْناه وكشَفْنا عن حقيقته في سورة الزُّمَر.

وقال مقاتل بن حيان ومجاهد والسُّدِّي: يعني: خزائنَ السماوات والأرض(٢).

وقال الضحاك رحمه الله: أي: القضاء في ذلك كلِّه إلى الله تعالى(٣).

وروى عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «هي سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله العليِّ العظيمِ، فإنها مِن كنوز الجنة».

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٦٥)، ورواه عن ابن عباس الطبريُّ في «تفسيره» (٢٠/ ٢٤٢)، وابن أبي حاتم وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٧/ ٣٤٣).

(٢) رواه عن السدي الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٧٩)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٩٥).

أما مجاهد، فروى عنه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٧٨) أنها المفاتيح بالفارسية، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٩٥). ولم أقف عليه عن مقاتل.

(٣) لم أجده عن الضحاك، وذكر عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٩٥) أنه فسرها بالمفاتيح، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٥٩٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٢٥) عنه أنها الخزائن.

وفي رواية زاد في آخِره: «الأوَّلُ، الآخِرُ، الظاهِرُ، الباطِنُ، بيده الخيرُ، وهو على كلِّ شيء قديرٌ، مَن قالها حين أصبَحَ عشر مرات أُعْطِيَ ستَّ خِصالٍ، أُولاهنَّ: يُحرَسُ عن إبليسَ وجنودِه، والثانية: يُعطى قِنْطاراً مِن الأجر، والثالثة: تُرْفَعُ له درجةٌ في الجنة، والرابعة: يُزَوَّجُ مِن الحُور العِين، والخامسة: تستغفر له الملائكةُ، والسادسة: يُعطى مِن الأجر كمَن قرأ القرآنَ مِن أوَّلِه إلى آخره»(١).

***

(١٣) ـ ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾:

يقول: شرَعَ اللهُ لكم مِن الدِّين ما شرَعَ لقوم نوح وقوم إبراهيم وموسى وعيسى،

---

(١) رواه يوسف القاضي في «سننه» وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٢٤٤)، والعقيلي في «الضعفاء» (٤/ ٢٣١)، والدينوري في «المجالسة» (٢٩٢٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٧٣)، والطبراني في «الدعاء» (١٧٠٠)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٥٤) وغيرهم.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ١١٢): غريب جدًّا، وفي صحته نظر.

وقال البوصيري في «إتحاف الخيرة المهرة» (٦٠٨٨): رواه ابن أبي عاصم وابن السني ـ وهو أصلحهم إسناداً ـ وغيرهم، قال الحافظ المنذري: فيه نكارة، وقد قيل فيه: موضوع، وليس ببعيد.

ونقل ابن عراق عن ابن حجر في «تنزيه الشريعة» (١/ ١٩٢) قوله: عندي أنه منكر من جميع طرقه، وأما الجزم بكونه موضوعاً فأتوقف عنه؛ إذ لم أر في رواته من وصف بالكذب.

ووصَّاهم بلُزومه وإلزامِه قومَهم، وهو الذي أوحى إليكَ ووصَّاكَ به، وجُمْلتُه الثَّباتُ على الطاعة لله تعالى بالإخلاص، وبالانقياد له، والعملِ بما أمَرَ به، والتَّآلُفِ على هذا، وتَرْكِ التَّفَرُّقِ فيه، فإنَّ الأمر إذا انتظمَ على هذا زالَ الفسادُ، وظهَرَ العَدْلُ، وتَكافَّ الناس عن التَّظالُم، فتفرَّغوا لعِمارة دنياهم، وتبلَّغوا بها إلى إقامة دينهم، فاجتباهم اللهُ تعالى حينئذٍ إليه، واستخلَصَهم لعبوديته، وهداهم إلى الازدياد مما هم فيه.

ومعنى ﴿شَرَعَ﴾: بيَّنَ المَسْلَكَ، وفتَحَ الطريق إلى مرضاته.

و﴿ٱلدِّينِ﴾: هو الطاعة والانقياد.

وإقامةُ الدِّين: الدَّوامُ عليه بإحياء شروطه وحدوده.

وقيل: هو تقويمُه، وهو التوحيد والإخلاص.

وتخصيصُ نوح وإبراهيم وموسى وعيسى هاهنا بالذِّكْر؛ لِمَا أنهم أصحابُ الشرائع.

وقولُه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: شَقَّ عليهم دعاؤُك يا محمد إلى التوحيدِ، وتَرْكِ ما هم فيه مِن الشِّرْك.

والاجتباءُ: الاختيار، وأصلُه: الضمُّ، ومنه: جِبايةُ الخَرَاج، وجِبايةُ الماءِ في الحوض.

وقد وصلَه بـ(إلى)، فقال: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾، فدلَّ على إرادة هذا الأصل؛ أي: يضُمُّه ويُقَرِّبُه إلى كنَفِه، وكذلك قولُه: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، وهو كقول النبي ﷺ خبراً عن الله تعالى: «مَن تقرَّبَ إليَّ شِبْراً تقرَّبْتُ إليه ذراعاً» الحديث[1].

---

(١) رواه بتمامه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٤) ـ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾: أي: وما كان تَفَرُّقُ هؤلاء المشركين ـ وقيل: يعني: أهلَ الكتابِ ـ في الدِّين لِقُصور البيان وخَفاء الحق، فقد جاءهم البيانُ وحصَلَ به العلمُ، لكنهم حسَدوا محمداً وتطاولوا، فلم يُتابعوه ولم يُصَدِّقوه، فاستحقُّوا به العذابَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: أي: ولولا ما سبَقَ مِن حُكْمِه بتوقيت[1] عذابهم بأجلٍ مُسَمًّى، وهو قد يكون في الدنيا، وقد يكون يوم القيامة.

﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾: قيل: بالتمييز بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ بالثواب والعقاب.

وقيل: أي: لأُتِمَّ هَلاكُهم.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: أي: مِن بعد نوح وإبراهيم وقومهما، وهذا على تأويل مَن حمَلَ المُتَفَرِّقين على مُشْركي العرب.

ومَن قال: هم المُتَفَرِّقون مِن الأمم الماضية، فقولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: أي: مِن بَعْد الذين تفرَّقوا، و﴿ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هم اليهود والنصارى.

﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾: أي: ممَّا وصَّيْنا به نوحاً وإبراهيمَ. وكذا:

﴿مُرِيبٖ﴾: مُوقِعٍ في الرِّيبة؛ أي: التُّهمة.

وقيل: المُتَفَرِّقون هُمُ اليهود والنصارى، و﴿ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾: العربُ أُنْزِلَ القرآنُ على نبيِّهم.

---

(١) في (أ): «بتوقيف».

وقال أبو العالية: ﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾: يعني: شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا الله(١).

وقال قتادة: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾: قولُكم: لا إله إلا الله(٢).

وقيل: كبُرَ على المشركين أنَّكَ رسولُ الله.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾: أي: يختار لرسالته ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾: مَن علِمَ أنه يرجعُ إليه.

* * *

(١٥) ـ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾: أي: فإلى ما شرَعه الله لكم فادْعُ الخَلْقَ، واللامُ بمعنى إلى؛ كما في قوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥].

﴿وَٱسْتَقِمْ﴾: أنتَ عليه ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾: أي: ولا تنظُرْ إلى خِلافِ مَن خالفَ ذلك بهواه مِن أهل الكتاب والعرب.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾: على الأنبياء قَبْلي وعليَّ؛ لأنَّ كلَّه مِن عند الله، وكلَّه حقٌّ.

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٣٩) بلفظ: هو الإخلاص لله في عبادته، لا شريك له.

(٢) بعدها في (ر) و(ف): «وأنك رسول الله» والمثبت من (أ)، وهو الموافق للمصادر. والخبر رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٨٢)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ١٩٧)، وابن عطية في «تفسيره» (٥/ ٢٩).

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: أي: لأنْ أعدِلَ؛ كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]؛ أي: أنْ يُبَيِّنَ لكم.

أي: أُسَوِّيَ[١] بين شريفكم ووَضِيعكم، فلا أُحابيَ أحداً، ولا أُخُصَّ البعضَ بأمرٍ أو نهيٍ، فإنَّ الدَّعوةَ واحدةٌ، والدِّينَ واحدٌ.

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: ونحن كلُّنا عبيدُه.

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾: أي: يُؤاخَذُ كلٌّ منا بعمَل نفْسِه دون عمَلِ غيرِه.

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾: أي: لا مُحاجَّةَ؛ أي: لم تبقَ خُصومةٌ بَعْد ظُهور الحق، فالحُجَّةُ لنا عليكم لِظُهورها، وليست بيننا بالاشتباه والالتباس.

وقيل: المُحاجَّةُ إنما تنفعُ إذا كان قَصْدُ المتجادلِين طلَبَ[٢] الحق، فإذا كانت مخاصمَتُكم للحسَد والبَغْي لم تنجَعْ فيكم الحُجَّة، فلم يَبْقَ إلا انتظارُ أمرِ الله، وذلك إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾: في القيامة ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: إلى جزائِه المَرْجِعُ.

وقيل في قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾: أي: فلِمَا أوحيتُ إليكَ وعرَّفْتُكَ مِن اتِّفاقِ الشرائعِ فادعُ؛ أي: مِن أجْل ذلك.

وقيل: أي: مِن أجْل[٣] ما أعلمتُكَ مِن تفرُّقِ أهل الكتاب، فادْعُهم إلى الاستقامة، واستقِمْ أنتَ.

---

(١) في (ر): «أن أسوي»، وفي (ف): «أن أسوي بينكم».

(٢) في (ر) و(ف): «في طلب».

(٣) في (ف): «مما».

(١٦) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾: أي: يُخاصِمون في دين الله.

قيل: هم أهل الكتاب؛ كانوا يقولون: دينُنا أقدَمُ، ونحن أولادُ الأنبياء.

وقيل: هم المشركون؛ كما قال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾ [مريم: ٧٣].

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾: أي: يُحاجُّون مَن استجابَ لله[١]، فدخَل في الإسلام.

﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ﴾: أي: شُبْهَتُهم باطلةٌ، سمَّاها حُجَّةً لِزَعْمِهم أنها حُجَّةٌ.

والدَّاحِضَةُ: المُزالَةُ الزَّائِلة.

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: فإنه يُبيِّنُ بُطْلانَها؛ كما قال: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾[٢] الآية [البقرة: ١٤٠].

﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾: في الدنيا والآخرة.

وذِكْرُ الغَضَبِ في حقِّ اليهود والنصارى في القرآن كثيرٌ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾: أي: لِأُسَوِّيَ بينكم بـ(لا إله إلا الله)[٣]، قال تعالى: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) في (أ): «أي يخاصمون من استجابه الله».

(٢) في (ر): «يقولون»، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم في رواية أبي بكر. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ١٧١)، و«التيسير» للداني (ص: ٧٧).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٧) بلفظ: لأسوي بينكم في الدين، وأومن بكل كتاب وكل رسول. =

وقال أبو العالية في قوله: ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾: أي: لأومِنَ بكلِّ كتابٍ وكلِّ رسولٍ[١]، هذا هو العَدْلُ، والإيمانُ بالبعض والكفرُ بالبعض جَوْرٌ.

وقال ابن حيان: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾: نسخَتْها آيةُ القتال[٢].

وقال مجاهد: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾: يعني: مِن بَعْد ما أسلَمَ الناسُ[٣].

وقال الحسن[٤]: أي: مِن بعد ما أقرُّوا بالميثاق، وقبِلوا عهدَه على الطاعة، فأجابوا اللهَ فيما دعاهم إليه.

وقال الفراء: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾: يعني: النبيَّ ﷺ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى استجابَ له دعاءَه في أهل بدر فعذَّبَهم[٥].

***

(١٧) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾: أي: اللهُ هو الذي أنزلَ

= وذكر عنه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٨٨) قوله: أمرت أن لا أحيف عليكم بأكثر مما افترض الله عليكم في الأحكام.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٣/ ٣٣٨) (ط: دار التفسير) عن ابن عباس رضي الله عنهما وأبي العالية.

(٢) هو قول مقاتل بن سليمان كما في «تفسيره» (٣/ ٧٦٧)، ونقله ابن الجوزي في «ناسخ القرآن ومنسوخه» (ص: ١٩٠) عن الأكثرين، وذكره عن ابن عباس ومجاهد والسدي.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٨٨).

(٤) في (ف): «الحسين»، ولم أقف عليه.

(٥) لم أقف عليه عن الفراء، وذكره النحاس في «إعراب القرآن» (٤/ ٥٣)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢١٧).

هذه الكتبَ كلَّها بالحق؛ أي: ببيان[١] ما يجِبُ على الناس في دينهم، وأنزل الميزان؛ أي: العَدْلَ. قالَه مجاهد وقتادة[٢].

وهو في المُعاملات والأَخْذ والإِعْطاء أكثرُ ذلك في الكَيْلِيِّ والوَزْنِيِّ.

والوَزْنُ أصلٌ؛ لأنَّ المكاييلَ مُسَوَّاةٌ بالوَزْن، ثم اتَّسَعَ الكلام حتى سُمِّيَ كلُّ عَدْلٍ ميزاناً.

والمُقَدَّراتُ كلُّها موزونةٌ، قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وقال: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]، ومَرْجِعُ هذه الآية إلى قوله: ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: وهي[٣] يومُ الوَزْنِ، والجزاءُ على العَدْلِ والجَوْرِ في هذا الوَزْن.

* * *

(١٨) ـ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾: ويقولون: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الاعراف: ١٨٧]، ويقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس: ٤٨]، يقولون ذلك هُزُواً.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾: أي: خائفون؛ لِعِلْمِهم بما يكون فيها مِن الحساب والجزاء.

---

(١) في (أ): «ببيان الحق».

(٢) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٩٠)، ورواه عن قتادة عبدُ الرزاق في «تفسيره» (٢٧٣٤)، وذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٨٨) عن قتادة ومجاهد ومقاتل.

(٣) في (ف): «وهو».

﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾: أي: الصِّدْقُ الذي لا كَذِبَ فيه، والقضاءُ يقع فيها بالحق الذي لا باطلَ فيه.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ﴾: أي: يُجادلون فيها ﴿لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ عن الرَّشاد.

* * *

(١٩) - ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: أي: رحيمٌ بهم، حسَنُ النَّظَرِ لهم.

وقولُه تعالى: ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾: أي: بعباده المؤمنين.

﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾: أي: يُكَثِّرُ له الرِّزْقَ، ويُوَسِّعُ عليه في دنياه إذا رأى مَصْلَحَتَه فيه؛ قال النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: إنَّ مِن عبادي مَن لا يُصْلِحُه إلا الغِنى، ولو أفقرْتُه لأفسدَه ذلك، وإنَّ مِن عبادي مَن لا يُصْلِحُه إلا الفقرُ، ولو أغنيتُه لأفسدَه ذلك، أُدَبِّرُ أمورَ عبادي بعلمي فيهم»[1].

---

(١) رواه مطولًا ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (١)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٣٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٣١)، والديلمي في «الفردوس» (٨١٠٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٤)، وفي «شرح السنة» (١٢٤٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٩٥) من طريق الحسن بن يحيى الخشني، عن صدقة بن عبد الله الدمشقي، عن هشام الكناني، عن أنس رضي الله عنه يرفعه.

قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٣٣): الخشني وصدقة ضعيفان، وهشام لا يعرف.

ورواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٦/ ٥٠٣) - ومن طريقه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٢٦) -، والديلمي في «الفردوس» (٨٠٩٨) عن عمر رضي الله عنه. قال ابن الجوزي: لا يصح، فيه يحيى بن عيسى الرملي، قال يحيى: ما هو بشيء، وقال ابن حبان: ساء حفظه فكثر وهمه، فبطل الاحتجاج به.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الآية [الشورى: ٢٧].

وقيل: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾: أي: عالِمٌ بغوامض أمورهم التي تعودُ إليها عواقِبُ أحوالِهم، فلا يخفى عليه شيء مِن مصالحهم، فيُوَسِّعُ على مَن يشاء إذا رأى صلاحَه فيه.

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ﴾: القادرُ على أنْ يرزُقَ مَن يشاء ما يشاء؛ أي: يُكَثِّرَ له الرِّزْقَ.

﴿ٱلْعَزِيزُ ﴾: المنيعُ فلا يُغالَبُ فيما يُؤتيه عبادَه وفيما يمنعُهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾: أي: حَفِيٌّ بهم[1]؛ أي: بارٌّ بهم.

وقال مقاتل: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾: البَرِّ منهم والفاجر، حيث لم يقتُلْهم جُوعاً بمعاصيهم[2].

وقال محمد بن كعب القُرَظي: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾: في العَرْض والمُحاسبة[3]، وهو فيما رُوِيَ: «أنَّ الله تعالى يقول للعبد: سترتُها عليكَ في الدنيا، وأنا أغفِرُها لكَ اليوم»[4].

وقيل: اللَّطيفُ: هو الذي يُوَفِّقُ ويُثيبُ ويَقْبَلُ ثم يشكرُكَ عليه.

وقال جعفرٌ الصادق: ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾: في الرزق؛ مِن وَجْهَين:

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٤٢).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٦٨)، وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٨٩).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٨).

(٤) رواه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

أحدُهما: أنْ جعَلَ رِزْقَكَ مِن الطَّيِّبات، ورِزْقَ غيرِكَ بخِلافه.

والثاني: أنه لم يَدْفَعْ إليكَ رِزْقَكَ بمرَّة واحدة[١].

وقال ابنُ حَبيبٍ رحمه الله: الحِكْمةُ في ذلك مِن وجوه:

أحدُها: أنه لو دفَعَ إليكَ رزقكَ جُمْلةً لفسَدَ عملُكَ[٢].

والثاني: أنه لو كان كذلكَ فقد يسرِقُه سارقٌ، ويغصِبُه غاصب، فتبقى بلا شيء.

والآخر: حتى إذا احتجْتَ إليه رجعْتَ إليه فدعوتَه وسألتَه.

والآخر: أنه لو أجملَ رزقكَ لوقَفْتَ على مُدَّة عُمركَ، فيُنَغَّصُ عليكَ عيشُكَ[٣]، فاستأثَرَ اللهُ تعالى بهذا العِلْم دون خَلْقِه.

وقال الحُسين بن الفَضْل رحمه الله: ﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: في تيسير القرآن[٤].

وذلك مِن وجوه:

أحدُها: اختصارُه.

والثاني: سهولتُه في القراءة بخِلاف سائر الكتب.

والثالثُ: تيسيرُ الشرائع فيه.

وقال علي بن موسى الرضا: ﴿لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾: بأمة محمد في الإضعاف[٥].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٨٩).

(٢) في (ر) و(ف): «علمك».

(٣) في (ر) و(ف): «فيتنغض عليك حياتك وعيشك».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٨).

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٠٨)، وفيه: (وقيل: الرضا بالتضعيف)، ولعل صوابه: (وقال: الرضا...). فمعنى الإضعاف والله أعلم: تضعيف الحسنات.

وسُئِلَ جُنَيدٌ ـ رحِمَه الله ـ عن اللطيف، فقال: لطَفَ بأوليائه حتى عرَفوه فعبَدوه، ولو لطَفَ بأعدائه كما لطَفَ بأوليائه لَمَا جَحَدوه[١].

وقال ابن المبارك: اللطيف الذي لا تخفى عليه خافيةٌ[٢].

وقال محمد بن علي الكَتَّاني: معنى اللطيف: أنَّ العبد إذا أَيِسَ مِن خَلْقِه فلجأَ إليه قَبِلَه وأقبلَ عليه[٣].

وقيل: اللطيف: هو الذي يُعْطِي فوق الكِفاية، ويُكَلِّفُ العبدَ دونَ الطَّاقة.

وقيل: مِن لُطْفِه بالعبد عِلْمُ العبد بأنه لطيف، ولولا لُطْفُه لَمَا عرَفَ أنه لطيف.

وقيل: مِن لُطْفِه إبهامُ عاقبةِ العبد عليه؛ لأنه لو علِمَ سعادتَه لاتَّكَلَ عليه وتعطَّل، ولو علِمَ شقاوتَه لترَكَ العملَ وتبَطَّل.

وقيل: مِن لُطْفِه بالعبد خفاءُ أجَلِه عليه، لئلا يستوحِشَ مِن قُرْب أجلِه.

وقيل: مِن لُطْفِه بالعبد أنه يُنسيه في الجنة ما عمِلَه في الدنيا مِن الزَّلَّة؛ لئلَّا يتنغَّصَ عليه عَيْشُه.

* * *

(٢٠) ـ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾: قيل: يتَّصِلُ بقوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: مَن طلَبَ بما رزقناه مِن المال ووسَّعْنا عليه في الحال حَرْثاً

---

(١) رواه عنه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٨)، وذكره ابن عطية في «تفسيره» (٥/ ٣٢).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٠٨).

لآخرته؛ أي: تقديمَ ما يجعلُه ذُخْراً ليوم الجزاء، فيُؤدِّي حقوقَ الله تعالى مِن ماله، فإنا نُعطيه زيادةً على ما أعطاه مِن ماله، بأنْ نُضاعِفَ له نفقَتَه بالواحدة عشراً إلى سبع مئة وأكثرَ، كأنَّه حرَثَ شيئاً وحرَثَ له غيرُه أشياءَ زائدةً عليه، وقد مثَّل اللهُ النَّفَقَةَ في سبيله بمَن بذَرَ حبَّةً، فأنبتتْ سبعَ سنابل، في كلِّ سُنْبُلةٍ مئةُ حبَّةٍ، واللهُ يُضاعف لمَن يشاء.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾: أي: ومَن كان طلَبُه بما رُزِقَ مِن المال رياءَ الناس، والمُكاثرةَ به، والتَّوَسُّعَ في الملاذِّ المحظورة، فإنما نُؤْتِه منها؛ أي: لا نحرِمُه الرزقَ أصلاً، بل نُعطِيه ما قدَّرْناه له ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾، وهو كقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

وقيل: الآيةُ في قوم كانوا يُجاهدون مع رسول الله ﷺ، فبيَّنَ أنَّ مَن كان منهم يُريدُ الآخرةَ بذلك ونعيمَها يُعطى زيادةً على ما يستحِقُّه بعمَلِه، ومَن أراد به الدنيا ومَنافِعَها مِن الغنائم نُؤْتِه منها، ولكنْ لا نَصيبَ له في الآخرة.

وقيل: عُنِيَ به المنافقون.

وقال قتادة: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾: هم اليهود والنصارى، قالوا: أُنْزِلَ كتابنُا قَبْل كتابِكم، ونبيُّنا قَبْل نبيِّكم، فنحن أَولى بالله منكم، فنزَلَ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ الآية[1].

ومعناه: أنَّ المَنْزِلَةَ عند الله تعالى ليست بتقديمِ كتابٍ ولا نبيٍّ، إنما هي على الأعمال الصالحة، فمَن طلَبَ بما أُوتي مِن الكتابِ المُتقَدِّمِ والنبيِّ المُتقَدِّمِ رياسةَ

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٣٣)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٨٩)، وليس فيهما أن قوله هذا سبب لنزول قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾.

الدنيا، حتى أدَّاه ذلك إلى أكل السُّحْتِ وتحريف الكلِم، لم يكن له في الآخرة نصيبٌ، ومَن طلَبَ بذلك ما عند الله، وأقامَ شرائعَ الكتابِ، وبيَّنَ للناس أحكامَه، أجزَلَ اللهُ تعالى إكرامَه.

قال القُتَبيُّ: الحَرْثُ: هو الكَسْبُ(١).

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: احرِثْ لدُنياكَ كأنك تعيشُ أبداً، واعملْ(٢) لآخرتكَ كأنك تموت غداً(٣).

***

(٢١) ـ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾: ﴿أَمْ﴾ بمعنى ألف الاستفهام، وهي للتَّوبيخ.

أي: ألهؤلاء المشركين شركاءُ ـ أي: آلهةٌ ـ شرَعوا لهم الشرك الذي لم يأذنِ اللهُ تعالى به؟!

---

(١) انظر: «غريب القرآن» (ص: ٣٩٢)، و«غريب الحديث» (١/ ٢٨٦) كلاهما لابن قتيبة.

(٢) في (أ) و(ف): «واحرث».

(٣) رواه عنه بهذا اللفظ ابن قتيبة في «غريب الحديث» (ص: ٢٨٦)، و«عيون الأخبار» (١/ ٣٥١)، والحارث في «مسنده ـ زوائد الهيثمي» (١٠٩٣).

ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٠٣) وفي «السنن الكبرى» (٤٧٤٤) عن ابن عمرو رضي الله عنه، بلفظ: واعمل عمل امرئ يظن أن لا يموت إلا هرماً، واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غداً.

والأثر ضعفه السخاوي في «الأجوبة المرضية» (ص: ١٢)، والمناوي في «فيض القدير» (٢/ ١٢).

يعني: ليس كذلك، وإذا كان شركاؤُهم هؤلاء لا يعقلون فيَشْرَعوا، وكان الله تعالى لم يَشْرَعِ الشركَ، فمِن أين يَدينون به؟! وكيف جعلوه لأنفسهم شريعةً مِن غير أنْ يرجعوا في ذلك إلى مَن يجوز أنْ يكون حُجَّةً وعُذْراً في اعتقاده؟!

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾: أي: ولولا القولُ السابق مِن الله الذي قطَعَ الحُكْمَ به ـ وهو صِدْقٌ لا تبديلَ له ولا رجوع عنه ـ أنه لا ينزِلُ بهم العذاب الذي استحقُّوه بشركهم إلا في الآخرة لَقُضِيَ بينهم به في الدنيا.

والفَصْلُ: قَطْعُ الحُكْمِ، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

والفَصْلُ: القولُ الحقُّ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: المشركين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في الآخرة، وإنْ أُخِّرَ عنهم في الدنيا.

* * *

(٢٢) ـ ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: في الآخرة ﴿مُشْفِقِينَ﴾: خائفين ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾؛ أي: نازِلٌ بهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾: قال الكسائي: الرَّوْضةُ: العُشْبُ حولَ الغَدير(١).

وقيل: هي الأرض الخَضِرَةُ الحسَنةُ النبات.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٩/ ١٢٠).

وقولُه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: في الجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾: مِن الله تعالى لهم؛ إذ آتاهم على العملِ القليلِ المُنقطِعِ الجزاءَ الكثيرَ الدائمَ.

وقيل: ﴿فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ﴾: أي: في الرِّياض التي تحُفُّ بها البساتينُ، وذلك أحسَنُ ما يكون وأجْمَعُه للنُّزْهة؛ لأنه يجمَعُ الثِّمار والزَّهْر والرَّياحين، فيحصُلُ لصاحبه غِذاءُ البَدَن بالطُّعْم، وغِذاءُ الرُّوح بطِيب الرائحة، ونُزْهَةُ العَينِ بألوان الزَّهر.

* * *

(٢٣) ـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (يَبْشُر) بالتخفيف بضمِّ الشين، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ، والباقون بالتَّشديد[١].

قال أبو معاذ: بالتخفيف مِن قولكَ: بشَرْتُ الأديمَ أَبْشُرُه؛ معناه: يُنَوِّرُ اللهُ وجوهَهم، وبالتشديد مِن البُشْرى[٢].

وعن أبي عمرو أنه قال: إنما قرأتُ هاهنا بالتخفيف دون سائرِ المواضع؛ لأنه ليس فيه: يبشر الله به، ليكون مِن البِشارة[٣].

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٠٥)، و«التيسير» للداني (ص: ٨٧).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: بشر)، و«مقاييس اللغة» (١/ ٢٥١).

(٣) انظر: «المحكم» لابن سيده (٨/ ٦٠).

وقال غيره(١): (به) مُضْمَرٌ؛ كما في قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾: أي: تُؤمَرُ به؛ أي: ذلك الفَضْلُ الكبيرُ وما تقدَّمَ ذِكْرُه يُبَشِّرُ اللهُ به عبادَه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾: لِيتَعَجَّلوا السُّرورَ به.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾: قيل: على الدِّين.

وقيل: على الكتاب.

وقيل: على الفَضْل الكبير.

وقيل: على التَّبْشير.

وقيل: على التَّبْليغ.

وبعضُ ذلك مَذْكورٌ، وبعضُه مَدْلولٌ.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: قيل: أي: لا أطلُبُ منكم أجراً، لكنْ أَصِلُ أرحامَكم بدُعائكم إلى السَّعادة في الدَّارَين، وهو ردٌّ لِمَا قالوا: إنَّه جاء بقَطْع الأرحام، يُفَرِّقُ بين مَن آمنَ به وبين أرحامه.

وقيل: إلا أنْ تَوَدُّوني لِقَرابتي فيكم، فقد كان له في كلِّ قبيلة مِن قبائل العرب وُصْلَةُ نسبٍ بالأم أو الأب.

وقال الضَّحاك: أي: إلا أنْ تصِلُوا رَحِمي، وتنصُروني على عدوِّي(٢).

وقال الزجاج: هذا استثناءٌ مُنقطِعٌ بمعنى: (لكن)؛ أي: ولكنْ أُذكِّرُكم المودَّةَ في القربى(٣).

---

(١) كالزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢١٩)، والباقولي في «إعراب القرآن» (٢/ ٤٨٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٤٩٧).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٣٩٨).

وقيل: أي: إنْ لم تترُكوا إيذائي لنُبُوَّتي فاتركُوه لحَقِّ قَرابتي.

وقيل: أي: إلَّا أنْ تتوادُّوا فيما بينكم لِقَرابةِ بعضِكم مِن بعض، فتجتمعوا على الإيمان وتتواصلوا، فأنا أعتدُّ ذلك كالأجر تُعْطونني، وكالمال تَصِلُونني به.

وقال الحسن: أي: إلا أنْ تَتَوَدَّدُوا إلى الله[1] بما يُقَرِّبُكم منه[2].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: إلا أنْ تَوَدُّوا قرابتي وأهلَ بيتي[3].

وقال الضحاك: لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ وقَعَ في قلوب القوم منها شيء، فقال جبريل عليه السلام: يا رسولَ الله، إنَّ القومَ اتَّهموكَ، فأنزل الله قوله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٧]، فنزلَ قولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[4].

وقال مقاتل بن حيان: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾: إلا أنْ تُصدِّقوني وتمنعوني مِن العرب حتى أُبَلِّغَ رسالةَ ربي، فلما أَبوا ذلك، وقطَعوا رحِمَه، وهاجَرَ إلى المدينة، وآواه الأنصارُ ونصَروه، أنزلَ الله تعالى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾[5].

---

(١) في (أ): «الإيمان».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠١)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٤٢)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ٧٣).

(٣) رواه البخاري (٣٤٩٧)، والترمذي (٣٢٥١)، والنسائي (١١٤١٠)، ورواه أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٠/ ٤٩٥) بأسانيد وألفاظ مختلفة.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣١٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره ابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (٢/ ٥٦٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل.
ورواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٥٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣١٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩١) عن الضحاك والحسين بن الفضل.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾: أي: يكتسِبْ فِعْلةً جميلةً مَوَدَّةً في القُرْبى أو غيرَ ذلك.

﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾: التَّضعيفُ في الثواب عشراً، وسبعَ مئةٍ، وبغير حساب.

وقيل: التوفيقُ لمِثْلِها أو أكثرَ منها.

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾: هي مِن الوظائف، ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾: هي مِن اللَّطائف[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾: للذُّنوب الكثيرة ﴿شَكُورٌ﴾: للأعمال اليَسيرة.

***

(٢٤) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: أي: أَيَقْبلون ما تُبَلِّغُه إليهم ولا تسألُ[٢] عليه أجراً، أم يقولون: إن محمداً اختلَقَ على الله زُوراً بدعواه أنَّ ما يتلُوه هو مِمَّا أنزَلَ اللهُ عليه؟!

وقولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: قال قتادة: أي: يُنَسِّيكَ القرآن[٣]، فلا تُبَلِّغُه، فلا يُكذِّبونكَ.

وقال مقاتل: أي: يختِمْ بالصَّبر، حتى لا تجد غُصَّةَ التَّكذيب[٤].

---

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٥١).

(٢) في (ر) و(ف): «لا تسألهم» بدل: «ولا تسأل».

(٣) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٣٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠٤).

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣١٤)، والماوردي في «تفسيره» (٥/ ٢٠٢)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٤٥).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٦٩)، ولفظه: يربط على قلبك، فلا يدخل في قلبك المشقة من قولهم بأن محمدا كذاب مفتر. =

وقيل: أي: يُغْلِقْ قلبَكَ فلا تضبِطُ شيئاً، ولا تتكلَّمُ به، فيدُلُّ على افترائكَ لو كنتَ مُفْتَرِياً كما يقولون.

وقيل: الخَتْمُ على القلب هو الإماتةُ؛ لأنَّ القلبَ إذا انسَدَّ فلم يَتَخَلَّلْه شيءٌ مات صاحبُه، ويكون في معنى قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤].

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾: حُذِفَ الواوُ في المصاحف تخفيفاً؛ كما في قوله: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، لا للجَزْم؛ فإنه غيرُ مُعَلَّق بالشرط، بل هو مُطْلَق، ومعناه: أي: يُذْهِبُ اللهُ الباطلَ ويُزيلُه، فلا يدَعُه يَفتري.

﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾: أي: ويُبَيِّنُ حقيقةَ الحقِّ وصِحَّتَه بوحيه إلى أنبيائه.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: أي: بضمائر القلوب، ولو علِمَ مِن محمدٍ إضمارَ افتراءٍ لَعاجلَه بالعُقوبة، فكيف لو افترى؟!

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي عامَّةٌ للمؤمن والكافر، والوليِّ والعَدُوِّ، ومَن تاب منهم قَبِلَ اللهُ توبتَه[1].

فتتَّصِلُ مِن هذا الوجه بكل آيةٍ قَبْلَها في هذه السورة، وتكون دُعاءً لكلِّ فريقٍ منهم إلى الرُّجوع عن القَبيح الذي هو فيه.

= وذكر نحوه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٦٥) عن مقاتل والزجاج.

(١) لم أقف عليه. بل ذكر عنه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٣) عكسه، وهو قوله: يريد أولياءه، وأهل طاعته.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: بالتوبة.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾[1]: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ عن عاصم بتاء المُخاطبة، وقرأ الباقون بياء المُغَايَبة[2]، واختار أبو عبيد[3] هذه القراءة لأنها أوفقُ لما قبلها وما بعدها[4].

أي: ويعلمُ الصادقَ في التوبة فمنه يَقْبَلُ، والكاذبَ فيها فلا يقبَلُها منه.

وقيل: يعلَمُ مَن يثبُتُ عليها ومَن يعودُ إلى الذَّنْب، ومع ذلك يقبَلُ إذا كان حقيقةً للحال.

وقيل: هذا في حق الذي لا يتوبُ، وهو وعيدٌ، وما قبله وَعْدٌ للتائبين.

* * *

(٢٦) ـ ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: ويستجيب اللهُ منهم؛ أي: يقبَلُ طاعاتِهم؛ كما قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أي: اعبُدوني أَتقبَّلْها منكم.

وقيل: أي: يستجيبُ دعاءَهم، وقد تُذْكَرُ الاستجابةُ بدون اللام؛ كما قال الشاعر:

---

(١) في (أ): «يفعلون».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٠)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٥).

(٣) في (ر) و(ف): «أبو عبيدة».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣١٦)، ولفظه: وهي اختيار أبي عبيد، قال: لأنّه بين خبرين عن قوم؛ قال قبله: ﴿عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، وقال بعده: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾.

فلَـمْ يَسـتجِبْهُ عنـد ذاك مُجيـبُ[١]

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾: هذا فِعْلُ الذين آمنوا[٢]، وهو رفعٌ، ومعناه: والمؤمنون استجابوا لله حين دعاهم إلى دار الإسلام، وإلى الجنة والمغفرة والإيمان والطاعة.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾: بالإضعاف.

وقيل: هي رؤيةُ اللهِ؛ كما قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: في النار.

* * *

(٢٧) ـ ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: لَمَّا ذكَرَ: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ في حقِّ المؤمنين في الآخرة، ورأوا حِرْمانَ فَضْلِ المال في حقِّ بعضِهم في الدنيا، وخفِيَ عليهم وجْهُ الحِكْمة مِن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ﴾؛ أي: لتَظالموا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لطَغَوا[٣].

---

(١) عجز بيت لكعب بن سعد الغنوي، كما في «الأصمعيات» للأصمعي (ص: ٩٦)، و«التعازي» للمبرد (ص: ٥٩)، وصدره:

وداعٍ دعـا يـا مَـن يجيـبُ إلـى النَّـدى

(٢) ذكره عنه الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢٢٣).

(٣) لم أقف عليه عن ابن عباس بهذا اللفظ، وسيأتي قوله الآخر.

وقال شقيق: لو رزقَهم مِن غير كسْبٍ لتفرَّغوا، فتفاسَدوا، فشغلَهم بالكسْب[١].

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾: أي: بمِقْدار ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ﴾: عالِمٌ بمصالحهم ﴿بَصِيرٌ﴾: بأعمالهم.

وقال عمرو بن حُرَيث: نزلت هذه الآية في أصحاب الصُّفَّة؛ وذلك أنهم قالوا: لو أنَّ لنا، فتمنَّوا[٢].

وقال خَبَّاب بن الأَرَتِّ: فينا نزلَتْ، وذلك أنا نظَرْنا إلى أموال بني قُرَيْظَة وبني النَّضِير وبني قَيْنُقَاع، فتمنَّيْناها فنزلت[٣].

وقال ابن عباس: ﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: لطلَبوا مَنْزِلاً بعد مَنْزِل، ودابَّةً بعد دابَّةٍ، ومَلْبَساً بعد مَلْبَس[٤].

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾: أي: المطرَ بعد يأس الناس عنه لتأخُّرِ نزوله.

---

(١) رواه عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٤٤). وشقيق هو ابن إبراهيم البلخي كما صرح به السمرقندي، وهو الإمام الزاهد، شيخ خراسان، صحب إبراهيم بن أدهم، وكان قليل الرواية، قتل في إحدى المعارك سنة أربع وتسعين ومئة. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨/ ٥٨)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٩/ ٣١٣).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٥٥٤)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٠٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٤٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٠).

(٣) ذكره الثعلبي في «٨/ ٣١٧»، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٥٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٤).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣١٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٤).

وقولُه تعالى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾: أي: يعُمُّ خَلْقَه بنعمته التي تكون مِن الغيث، فمَن قَدِرَ على ذلك فهو قادر على أنْ يعُمَّ جميعَ عبادِه بسَعَة الرزق، فليس تضييقُه على بعض لِعَجْزِه، وكيف يَعْجِزُ عن ذلك مَن قَدِرَ على خَلْق السماوات والأرض وما بينهما ومَن فيهما مِن الخَلْق؟!

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾: أي: يلِي أمورَ خَلْقِه بما يعلَمُ ذلك صلاحاً لِمَن أراد به الصلاح.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: الذي يستحِقُّ الحمدَ على كل حال، وأنْ يُستسلَمَ له بالرضا كيف ما صرَّفَ بهم الأحوال مِن الإكثار والإقلال.

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: ومِن علامات قُدْرَتِه على كل شيء خَلْقُهما ﴿و﴾ خَلْقُ ﴿مَا بَثَّ فِيهِمَا﴾: أي: نشَرَ وفرَّقَ ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾: أي: حيوانٍ يَدِبُّ؛ أي: يتحرَّكُ بالحياة مِن الملائكة والجن والإنس والبَهائم والحَشَرات.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾: في القيامة ﴿إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾: أي: قادر.

* * *

(٣٠) ـ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾: أي: بَلِيَّةٍ ونُقْصانٍ في مال أو أهل أو ولد أو قريب أو صديق.

﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: أي: بشُؤْمِ ذنوبِكم، وأضاف الكَسْبَ إلى اليد لأنَّ أكثرَ أعمالِ الخَلْق بالأيدي.

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾: فلا يُعاقِبُ عليه في الدنيا.

وقال الحسن: لما نزلَتْ هذه الآية قال النبي ﷺ: «والذي نفْسُ محمدٍ بيده، ما مِن خَدْشِ عُودٍ، ولا عَثْرَةِ قَدَمٍ، ولا اختلاجِ عِرْقٍ، إلا بذنب، وما يعفو اللهُ عنه أكثر»[١].

وعن الحسن قال: هي الحدود في الدنيا[٢].

وقال الضحاك: أي: الشَّوْكةُ فما فوقها.

وقال السُّدِّي: الجَدْبُ وما تُصابون به في أنفسكم[٣].

وقال علي رضي الله عنه: هي أرجى آيةٍ في القرآن[٤].

ورُوِيَ عن النبي ﷺ ما رواه الحسن، وزاد عليه في آخره: «وما عاقبَ اللهُ عبدَه في الدنيا بذنب فاللهُ أرحمُ مِن أنْ يُثَنِّيَ عليه عُقوبتَه في الآخرة، وما عفا اللهُ تعالى عن

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٤٢)، وهناد في «الزهد» (٤٣١)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣١٩). وهو مرسل.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥١٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٥٨) عن قتادة عن النبي ﷺ، وهو مرسل أيضاً. رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٤١) من طريق قتادة عن الحسن قال: (بلغنا أنه ليس من أحد...) فذكره.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٤٠)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥١٤).

(٣) لم أقف عليهما عن الضحاك والسدي.

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٤٤)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢٢٦).

وروى الإمام أحمد في «مسنده» (٦٤٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٥٣)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٢/ ٥٧٤)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣١٩) ـ ومن طريقه البغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٥) ـ عن علي رضي الله عنه أنه قال: (ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله ﷺ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾...) الحديث. قال =

عبده في الدنيا مِن ذنب، فاللهُ تعالى أكرمُ مِن أنْ يعودَ فيما قد عفَى عنه»[١].

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: وقد تُصيب المصيبةُ مَن لا يستحِقُّ العقوبةَ: إمَّا لِيعلَمَ المصابُ أنَّ سلامتَه فَضْلٌ مِن الله، أو ليُعوِّضَه في الآخرة، ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾: ما مِن مصيبة إلا ويُحْتَمَلُ الزِّيادةُ عليها، فيعفو تلك الزِّيادةَ، وقد يعفو عن كثير مِن الذنوب، فلا يُعاقِبُ عليه[٢].

***

(٣١ ـ ٣٢) ـ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾.

﴿وَمَآ أَنتُم﴾: يا مَعْشَرَ الكفار ﴿بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: بفائتين أَخْذَ اللهِ، فليس تأخيرُ العذابِ عنكم لقوَّتِكم.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾: يتولَّى عَوْنَكم ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾: يدفعُ العذابَ عنكم إذا أنزله بكم.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾: أي: ومِن العلامات الدالَّةِ على قُدْرة الله تعالى على بَسْطِ الرزق وكلِّ شيءٍ السُّفُنُ الجاريةُ في البحر، جَمْعُ جاريةٍ، وهي السفينة، قال الله تعالى: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

= الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٣): فيه أزهر بن راشد، وهو ضعيف.

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢٦٠٦)، والإمام أحمد في «مسنده» (٧٧٥) من حديث علي رضي الله عنه.

قال ابن كثير: سئل الحافظ الدارقطني عن هذا الحديث فقال: روي مرفوعاً وموقوفاً، ورفعه صحيح. انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠١)، و«العلل» للدارقطني (٣/ ١٢٨).

(٢) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٩/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾: اسمُ جنسٍ يصلُحُ للواحد والجمع.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: قيل: كالجبال.

وقال قُطْرُب: وقد يكون العلَمُ القَصْرَ[1].

وقال الخليل: كلُّ مُرْتفِعٍ عند العرب فهو علَمٌ، قالت الخَنْساءُ:

وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهُداةُ بِه كأنه علَمٌ في رأسه نارُ[2]

شبَّهَ السُّفُنَ بالجبال أو بالقُصور في عِظَمها، خلَقَها الله تعالى لِمعايش العِباد ومصالحهم، يَقْطَعون بها البحار، ويضربون بها في الأمصار، ويَقْضون بها الأَوْطار، وسخَّرَ الرِّيحَ لإجرائها.

* * *

(٣٣) ـ ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾: أي: فيَبْقَينَ واقفاتٍ على ظَهْره؛ أي: ظَهْرِ البحر.

والرُّكودُ: السُّكونُ والوقوفُ، ومنه الخبر: نهى عن البول في الماء الراكد[3].

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: قيل: لكلِّ مؤمنٍ مُستكْمِلٍ في خِصال الإيمان؛ لأنَّ مَرْجِعَ كلِّها إلى الصبر والشكر.

وخصَّه بإضافة الآيات إليه لأنه هو المُنتفِعُ بها.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٢١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ١٩٦) عن مجاهد.

(٢) انظر: «ديوان الخنساء» (ص: ٤٦)، وذكر قول الخليل الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٢١)، والبغوي «تفسيره» (٧/ ١٩٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨١) من حديث جابر رضي الله عنه.

وقيل: التَّقييدُ بهذين الوَصْفين يُشيرُ إلى ما قلنا مِن حديث توسيع الرزق وتضييقه؛ يقول: مَن قدِرَ على هذا قدِرَ على توسيع الرزق على الكل، لكنْ يُوَسِّعُ على بعضٍ يمتحِنُه بالشكر، ويُضَيِّقُ على بعض يمتحِنُه بالصبر.

* * *

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾: أي: يُهْلِكْهُنَّ في البحر بذُنوبهم، جُزِمَ بالعطف على ﴿يُسْكِنِ﴾، وذلك جُزِمَ لأنه جزاءُ الشَّرْط.

وفي إهلاكِ السُّفُنِ إهلاكُ مَن فيها وما فيها.

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾: أي: لا يُهْلِكُ بعضَهم بالغرَق فَضْلاً منه.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾: نُصِبَ على الظَّرْف؛ لأنه غيرُ معطوف على المجزوم، فإنه على التَّحْقيق لا على التَّعْليق.

أي: وسيَعْلَمُ المشركون المُجادلون في آيات الله ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾: أي: مَعْدِلٍ عما أنزلَ اللهُ تعالى، فيُخْلِصون لله العبادةَ، ويَمحَضون[1] له الطاعةَ.

* * *

(٣٦) ـ ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾: أي: أُعطِيتُم مِن سَعَةٍ في الرزق ﴿فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ

---

(١) في (أ) و(ف): «ويمحصون».

﴿ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: شيءٌ قليلٌ يُتَمَتَّعُ به في الدنيا قليلاً ثم يزولُ، فما ينبغي له أنْ يُوثَقَ به ويُطْمَأَنَّ إليه.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: مِن نعيم الآخرة ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ مِن نعيم الدنيا.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: ذلك للمؤمنين ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ أي: يُفَوِّضون الأمورَ إليه[1]، ويَرْضَون بما قسَمَ لهم مِن الرزق.

* * *

(٣٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: أي: وذلك النَّعيم أيضاً للذين يَتَوَقَّوْنَ عن الذنوب الكثيرة والأعمال الفاحشة.

وقد ذكَرْنا الأقاويلَ في الكبائر في قوله: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ [النساء: ٣١].

وفسَّرْنا الفاحشةَ والفَحْشاءَ في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وظاهِرُ تفسيرِ الفاحشةِ: القبيحةُ.

وقيل: هي المُفْرِطةُ في القُبْح.

وفي الجَمْع بينهما هاهنا وجوه:

قيل: الفواحش فوق الكبائر.

وقيل: هما وَصْفان لعَظائم الذنوب، والعطفُ بالواو لِتَغايُرِ المعنيين والموصوفُ واحدٌ، كأنه قال: يجتنبون المعاصي وهي عظيمةٌ عند الله تعالى في الوِزْرِ، وقَبيحةٌ في العقل والشَّرْع.

---

(١) في (ر) و(ف): «لديه».

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾: أي: وإذا غضِبوا بإيذاء أحَدٍ إياهم غفَروا لِمَن أغضَبَهم، وكظَموا غَيْظَهم.

وزيادةُ ﴿هُمْ﴾ في هذا الفعل إشارةٌ إلى أنهم يَعْفُون عنهم مِن عند أنفسهم مِن غير أنْ يحمِلَهم عليه شَفيعٌ أو سائلٌ.

* * *

(٣٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾: وهذا مِن صفاتهم أيضاً؛ أي: أطاعوا اللهَ فيما أمرَهم به، وأجابوا إلى ما دَعاهم إليه.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أي: أداموا الصلاة في أوقاتها بشُروطها.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾: أي: يتآلفون على نَصْر الدِّين وإحياء الحقِّ، فيَتَّفِقون على التَّشاوُر في الأمور لِيَقعَ إمضاؤُها على اتِّفاقهم، فلا يختلفون ولا يتنازعون، وهو يرجِعُ إلى الآيات المتقدِّمة التي فيها الأمرُ بالتآلُفِ والنَّهْيُ عن التَّفَرُّقِ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: في وُجوه الحقِّ فَرْضاً ونَفْلاً.

* * *

(٣٩) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾: قيل: إذا نالَهُمُ البَغْيُ مِن الكفار ينتصِرون بالجهاد؛ كما قال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ الآية [الحج: ٣٩].

وقيل: هو في كلِّ ظالمٍ.

والانتصارُ: الانتِصافُ مِن غير مَزِيد، وهو مُطْلَقٌ.

وقيل: هو الأمرُ بالمعروف، والنَّهْيُ عن المنكر، وإقامةُ الحدود، والتَّعزيرُ على الجاني، وهو إقامةُ الدِّين كما أمَرَ بها في الآيات المُتقدِّمة.

وقيل: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾: أي: يَتناصرون فيما بينهم، فيَنْصُرُ بعضُهم بعضاً، يُقال: تناصَرَ القومُ وانتصروا؛ كما يُقال: تقاتلوا واقتتلوا.

* * *

(٤٠) ـ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾: قيل: الأوَّلُ ـ وهو قوله: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ ـ في جهاد الكفار، وهذا في مُعاملةِ أهلِ الإسلام؛ أي: وما جرى بينكم مَعاشِرَ المسلمين في عُدْوان بعضِكم على بعض في شيءٍ مِن نفْسٍ أو مال، فله أنْ يَجْزِيَه بمِثْلِ ذلك لا يَزيدُ عليها.

والأولى سَيِّئَةٌ؛ لأنها معصيةٌ، والجزاءُ ليس بمعصية؛ لأنه بإذن الله، لكنْ سمَّاه سَيِّئَةً للمُقابَلة، وكذلك قوله: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وتسميةُ الجزاءِ بالأول في القرآن كثيرٌ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٥]، ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقيل: معناه: مَن ساءَكم بجِناية في نفْسٍ أو مالٍ فسُوؤُوه بمِثْله اقتصاصاً.

ثم ندَبَ إلى الأَولى فقال:

﴿فَمَنۡ عَفَا﴾: أي: ترَكَ الانتصارَ والمُجازاةَ ﴿وَأَصۡلَحَ﴾؛ أي: الجزاءُ يُورِثُ العداوةَ بين الفريقين والوَحْشةَ، فمَن أصلحَ بينهم(١).

---

(١) في (ف): «فمن عفى وأصلح بينكم»، وفي (ر): «فمن عفى وأصلح بينهم».

وقيل: ﴿وَأَصْلَحَ﴾: أي: سألَ اللهَ تعالى أنْ يرضى عن الجاني كما رضِيَ هو، فإنه بجِنايته آذى اللهَ تعالى وآذى المؤمنَ، فإذا رضِيَ المؤمنُ بقِيَ حقُّ اللهِ تعالى، فإذا شفَعَ له عن صِدْقٍ رضي الله عنه، فصلَحَتْ حالَتُه.

﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي: فثوابُ ذلك عند الله تعالى، وقد وعَدَ بذلك وعداً مُؤَكَّداً، فهو ينالُه لا محالةَ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: قيل: يتَّصِلُ بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، والظالمُ مَن يَزيدُ على جزائها، أو يبتدئُ بها.

* * *

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾: أي: انتصَفَ بعد وُقوع[١] الظُّلْم عليه.

قيل: هو في الانتصار مِن الكفار، والذين أَخْرَجوا المسلمين عن الدِّيار.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾: بالمَلامة وغيرِ ذلك.

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾: أي: على المشركين الذين يَظْلِمون الناسَ بإخراجهم وأَخْذِ أموالِهم.

﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: بمَنْعِ المسلمين عن إخلاص العبادة لله، ومُجاوزة الحَدِّ في الفساد.

وقولُه تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بإظهار الكفر، وإيذاء المسلمين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: في الدنيا والآخرة.

---

(١) في (ر): «انتصر بعد» بدل: «انتصف بعد وقوع».

(٤٣) ـ ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾: أي: على ما نالَه مِن الظُّلْم مِن جِهَة أخيه المسلم ﴿وَغَفَرَ﴾ لِظالِمه ذنبَه.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: أي: مما ينبغي أنْ يُوجِبَه العاقلُ على نفْسِه، ولا يترَخَّصَ في تَرْكِه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: مِن حَزْم الأمور[1].

وقال الضحاك: أي: الجِدِّ[2].

وقال مقاتل بن حيان: أي: مِن البَصَر بالأمور كلِّها.

وقال ابن كيسان: يعني: التَّيَقُّنَ بالخَلَف والثواب.

وقال السُّدِّي: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أن رجلاً من المشركين أقبل عليه يشتمه وجعل أبو بكر لا يشتغل به إلى أن ضجر، فلما ضجر ردَّ عليه، فقام رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: فداك أبي وأمي يا رسول الله ما دام يشتمني لم تقم فلما رددتُ عليه قمتَ؟ فقال: «لأني رأيت بينك وبينه ملكاً يردُّ عليه ما قال، فلما رددتَ عليه قام الملك فذهب فقمت أنا أيضاً»[3].

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٣١٤)، وهو في «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٨/ ٣٠٧) من غير نسبة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٧١).

(٣) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٩٦٢٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٢١٠٩٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٣٥٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٣٦٩٨): رجال أحمد رجال الصحيح.

ولم أقف عليه عن السدي، ولا أن الحديث كان سبباً لنزول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أوذي وشُتم بمكة، فأغضى عنهم ولم يشتغل بهم[1].

* * *

(٤٤) - ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: أي: ومَن يُغْوِهِ اللهُ ويَخْلُقْ فيه فعلَ الضلال لعلمه باختياره ذلك، فليس له مَن يَلِي إرشادَه ومَعونَته ومَنْعَ العذابِ عنه.

وقولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾: أي: يوم القيامة ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾: يتمنَّون الرَّجْعةَ إلى الدنيا، ويقولون: هل لنا سبيلٌ إلى ذلك ووصولٌ، فنُؤمنَ ولا نُشركَ، ونُطيعَ ولا نَعصِيَ.

* * *

(٤٥) - ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾: أي: على النار، والعذابُ المذكورُ قَبْلَه كنايةٌ عنها.

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾: نصبٌ على الحال؛ أي: ساكتين مُنكَسِرين مِن الخِزْيِ والهَوان.

---

(١) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٧٧٢)، والواحدي في «البسيط» (١٩/ ٤٩٦) (ط: العبيكان)، كلاهما من غير نسبة.

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: ذليلٍ[1].

وقال الحسن وقتادة رحمهما الله: يُسارِقون النَّظْرة[2].

وقيل: لا يُمكِنُهم أنْ ينظروا إلى النار بجميع أبصارهم؛ لِمَا يرون مِن هَوْلِها.

وقيل: أي: لا يرفعون أبصارَهم للنَّظَر رفعاً تاماً؛ لأنهم ناكِسو رؤوسهم، وعلى هذه الوجوه تكاد عيونُهم[3] تخفى.

وقيل: ينظرون إلى النار بقلوبهم وهي خَفِيَّةٌ؛ لأنهم حُشِروا عُمْياً.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: أي: الخُسْرانُ في الحقيقة لهؤلاء الذين حُرِمُوا منافعَ أنفسِهم وأهليهم، أو أهلَكوها وأهاليَهم بالإغواء، أو حُرِموا الحُورَ العِين بترك الإيمان، يقولون ذلك بطريق الشكر على حالة أنفسهم.

وقولُه تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾: أي: إن المشركين في عذاب مقيم؛ أي: دائمٍ، ويجوز أنْ يكون هذا مِن قول المؤمنين، ويجوز أنْ يكون مِن الله تعالى.

* * *

(٤٦ ـ ٤٧) ـ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٣٢) عنه وعن مجاهد.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٣٣) عن قتادة والسدي، وزاد الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٢٤) عن مجاهد والقرظي.

(٣) في (ر): «وجوههم».

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾: أي: لهؤلاء الكفار ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: يتولَّون معونتَهم، ويدفعون عنهم العذابَ.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾: أي: وصولٍ إلى الخَلاص.

وقيل: أي: مِن حُجَّة.

وقيل: أي: مِن حِيلة.

وقولُه تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾: أي: أجيبوه إلى ما دعاكم، وهو الإيمان.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾: أي: قبل أنْ يأتِيَ مِن الله يومٌ لا مَدْفَعَ له، وهو يوم القيامة.

وقيل: أي: لا مَرَدَّ إلى الدنيا للكافر[1] فيه مِن الله تعالى إذا سأَل الرَّجْعة.

﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾: أي: حِصْنٍ[2] ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾؛ أي: قُدْرةٍ على تغيير، وهو كقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]، قال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]؛ أي: غيِّروه.

وقيل: أي: ما يجدون مَن يُنْكِرُ ما نزَلَ بهم؛ أي: يستنكِرُه؛ لأنَّ الخلائقَ علِموا أنه نزَلَ ذلك بهم عن استحقاق.

* * *

(٤٨) ـ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾.

---

(١) في (ر): «لا مرد للكافرين إلى الدنيا».

(٢) «أي: حصن» زيادة من (ر).

وقولُه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾: فلم يستجيبوا ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾؛ أي: حافظاً لأعمالهم حتى تكون أنت المُحاسِبَ لهم بها.

وقيل: أي: مُوَكَّلاً بهم لا تُفارِقُهم دون أنْ يؤمنوا.

وقولُه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾: أي: ما عليك إلا تبليغُ الرسالة.

﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾: عرَّفَهم أنَّ إعراضَهم عن الاستجابة لاغترارهم بما وسَّعَ اللهُ تعالى عليهم مِن الدنيا، وساقَ إليهم مِن النِّعْمة، ورزَقَهم مِن الأَتْباع والأولاد.

وقال: إنَّا إذا أنعَمْنا على الكافر بَطِرَ بالنِّعْمة وطغى وتكبَّرَ عن الانقياد للحق، وقدَّرَ أنَّ النِّعْمة إنما جاءته لفَضْلٍ له واستحقاقٍ منه، فلم يشكرْ لله تعالى، واستعانَ بنعمته على معصيته، وإذا أصابَتْه بَلِيَّةٌ ترَكَ الصَّبرَ والتَّسليمَ لله، وسخِطَ قضاءَ اللهِ، فكفَرَ به وبنعمته.

وقولُه تعالى: ﴿فَرِحَ بِهَا﴾: وُحِّدَ على اللفظ، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ﴾: جُمِعَ على المعنى.

* * *

(٤٩) ـ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ومَن ملَكَ ذلك لم يَعْجِزْ عن مُعاجَلةِ الكافر بالعقوبة.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا﴾: أي: بناتٍ؛ كما وهَبَ لِلُوطٍ.

﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾: أي: البنين؛ كما وهَبَ لإبراهيم.

(٥٠) - ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾: أو يقْرِنُ لهم بنين وبناتٍ؛ كما فعَلَ بمحمد ﷺ.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾: أي: لا يُولَدُ له ولدٌ؛ كما كان لعيسى ويحيى عليهما السلام.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ ﴾: بذات الصدور؛ أي: بكلِّ شيء[1].

﴿قَدِيرٌ ﴾: على كلِّ شيء، فكان إعطاءُ الأموالِ والأولادِ والأملاكِ والأَشْياع مِن الله تعالى لِمَن شاء كما شاء.

ثم قولُه: ﴿وَإِنَٰثًا ﴾ على التنكير، وقولُه: ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ على التعريف، وقولُه تعالى: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ على التنكير فيهما؛ لِمَا أنَّ[2] الجنسين معهودان معروفان في الجملة، فيجوز على هذا الحَذْفُ والإدخالُ جميعاً في كل واحد منهما، والإدخالُ لكونهما مَعْهُودَين، والحذفُ لكونهما غيرَ موجودَين، فلما كان المَعْنَيانِ مُتقاربَين جازَ كلُّ واحد منهما في الجنسين، وجازَ الجَمْعُ في آية واحدة[3] بين الوجهين؛ كالجمع بين اللغتين: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧]، ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم: ٣].

ولأنَّ المعنى: يهَبُ لِمَن يشاء أولاداً إناثاً، وهو كذِكْرِ النَّعْت وإضمارِ المنعوت، ونكَّرَ في الأول، ثم أعادَ ذلك ثانياً، فصار معرفةً، وصار تقديرُه:

---

(١) «بذات الصدور، أي: بكل شيء» ليس في (أ). ولعل قوله: «بذات الصدور» سهو، وإنما هو في آيات أخرى.

(٢) في (ف): «لأن» بدل: «لما أن».

(٣) في (ر) و(ف): «أخرى».

ويهب لِمَن يشاء الأولادَ الذُّكور، وهو كقوله: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥ ـ ١٦].

فأما قولُه: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا﴾: فلا يجوز فيه إلا التَّنْكير؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ ـ أي: يجمَعُ الأولادَ ـ ثم قولَه: ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا﴾ تفسيرٌ له، فلا يجوز إلا بالتنكير؛ كقولك: جمعتُهم رجالاً ونساءً، لا يجوز: الرجالَ والنساءَ، بعد ذِكْرِ الكِناية.

وقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾: ولم يقل: ويُزَوِّجُهم؛ لئلا يُوهِمَ أنه للمذكور أولاً، فإنَّ ذلك للإفراد، فلا يصِحُّ معه الجمع.

* * *

(٥١) ـ ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾: يتَّصِلُ بقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ﴾، فإنك رسولٌ، وإرسالُ الرسلِ كان بأحد هذه الوجوه.

﴿إِلَّا وَحْيًا﴾: أي: إيماءً وإشارةً يقع العلمُ بذلك؛ كالإلهام في القلب، والرُّؤيا في المنام:

والأوَّلُ: كما رُوِيَ: «نفَثَ في رُوعِي»[1].

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٣٣٢)، والشهاب القضاعي في «مسنده» (١١٥١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٨٩١)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٥٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

ورواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ٢٨٨)، والبزار في «مسنده» (٢٩١٤) عن حذيفة رضي الله عنه.

=

والثاني: ما كان مِن حال النبي ﷺ ستة أشهر قَبْل نزول جبريل صلوات الله عليه، وقال النبي ﷺ: «رؤيا الأنبياء وَحْيٌ»[(١)]، ومِن ذلك رؤيا إبراهيمَ عليه السلام الأمرَ بذَبْح الولد.

وقولُه تعالى: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾: أي: يسمع كلاماً مِن الله تعالى؛ كما سمِعَ موسى مِن وراء حِجاب.

ليس المرادُ به حِجابَ الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يجوزُ عليه ما يجوزُ على الأجسام مِن الحِجاب، بل المرادُ به أنَّ السامعَ محجوبٌ عن الرُّؤية في الدنيا.

وقيل: إنَّ المرادَ به أنَّ الرسول يختَصُّ بالسَّماع، ولا يسمَعُ معه غيرُه، فيُحْجَبون عنه.

وقولُه تعالى: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾: قرأ ابنُ عامرٍ ونافعٌ: ﴿أو يرسلُ﴾ رفعاً؛ أي: أو هو يرسلُ، وقرأ الباقون: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾، أي: أو أنْ يُرسِلَ[(٢)]، فتكون (أنْ) مع الفعل

= ورواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٦) عن أبي أمامة رضي الله عنه.
ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٢٧) عن المطلب بن حنطب.
والرُّوع: النَّفْس، يقال: وقع كذا في رُوعي؛ أي: في خلدي ونفسي. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٣١٣).

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٠٤) إلى ابن أبي حاتم مرفوعاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١٢٣٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦١٣) وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً.
ورواه البخاري (٨٥٩)، والطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٨٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٢٠)، من قول عبيد بن عمير.

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٥).

مصدراً، ويكون تقديرُه: إلَّا وَحْياً، أو إِسْماعاً وراءَ حِجاب، أو إرسالاً إليه رسولاً.

أي: يُرسِلُ ملَكاً بالوحي إليه؛ كما أرسَلَ جبريلُ عليه السلام إلى محمد ﷺ.

﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾: أي: فيُبَلِّغَ بإذن الله ما يشاء.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: أي: قاهرٌ فلا يُمانَعُ، مُصيبٌ في أقواله وأفعاله فلا يُعارَضُ.

***

(٥٢) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: أي: كما أوحينا إلى سائر الأنبياء أوحينا إليك قرآناً هو حياةٌ مِن موتِ الجَهْل.

وقيل: أي: أنزلنا إليكَ جبريلَ، وهو الرُّوحُ الأمينُ.

وقولُه تعالى: ﴿مِّنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: بأمرنا.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾: هو كقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [القصص: ٨٦].

﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾: بذلك بالكتاب[١]، وإذا كان لا يعلَمُ[٢] أنَّ الكتابَ ينزِلُ عليه لم يكن عالِماً أنه يلزمُه الإيمانُ بذلك الكتاب.

وقيل: ﴿وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾: أي: شرائعُ الدِّين على التفصيل الذي لا يُدرَكُ إلا بالسمع.

---

(١) في (ر): «أي: بأمرنا بالكتاب»، وفي (ف): «بالكتاب»، بدل: «بذلك الكتاب».

(٢) في (ف): «وإذا لم يعلم».

وقيل: ولا الدعاءُ إلى الإيمان.

قال الضحاك: يعني: معالمَ الدِّين(١).

قال أبو العالية: يعني: الدَّعوةَ إلى الإيمان(٢).

وقيل: ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾: لِمَن يكون مِن عَشيرته.

وقال الحُسين بن الفضل: كان يُقَدِّرُ أنَّ أبا طالب يُؤمنُ به لبِرِّه به، وأنَّ العباس لا يُؤمنُ لمُنابذته إياه، فكان على القَلْب(٣)، ونزلَ عليه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال ﷺ: «أَرَدْنا إسلامَ أبي طالب وأراد اللهُ إسلامَ العباس، فكان ما أرادَه اللهُ دون ما أردنا»(٤).

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾: أي: جعَلْنا الوحيَ، وقيل: أي: الكتابَ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٢٦) من غير نسبة.

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٢٦).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٢٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٦١)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ٨٨) بلفظ: يعني: أهل الإيمان، من يؤمن ومن لا يؤمن.

ونقل القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ٥١٥ نحو هذا، وزاد: أي: من الذي يؤمن؟ أبو طالب أو العباس أو غيرهما.

وروى ابن أبي حاتم فيما عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٤٢٨) أن قتادة قال في قوله تعالى: ﴿لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾: يعني: أبا طالب، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾: العباس.

وقوله: على القلب، أي: أن العباس قد أسلم وبقي أبو طالب على غير ذلك، خلاف ما كان يقدره النبي ﷺ.

(٤) لم أقف عليه.

وقيل: سبَقَ ذِكْرُ الكتابِ والإيمانِ، ولكنْ أمرُهما واحدٌ، فجازَ التوحيدُ في الكناية وتسميتُهما جميعاً باسم واحد، وهو النُّور؛ كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: أي: نُعطِيه صِفةَ الاهتداء.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: تُرشِدُ إلى دين الإسلام، وهو الطريق المستقيم المُفضِي بسالكه إلى مرضاة الله تعالى.

* * *

(٥٣) ـ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بدَلٌ وترجمةٌ عن الصراط الأول.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾: أي: ترجِعُ إليه في الدنيا والآخرة.

والحمدُ لله رب العالمين

* * *

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باسم اللهِ الذي سخَّرَ لنا الفُلْكَ والأنعامَ، الرَّحمنِ الذي قسَمَ المعيشة بين الأنام، الرَّحيمِ الذي أمَرَ بالصَّفْح والسَّلام.

روى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ الزُّخْرُف كان ممَّنْ يُقالُ له يوم القيامة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨]»(١).

وهذه السورة مكِّيَّةٌ.

وهي ثمان وثمانون آيةً، وقيل: تسعٌ وثمانون آيةً، الاختلافُ في قوله: ﴿هو مهين﴾.

وكلماتُها: ثمان مئة وثلاثون.

وحروفُها: ثلاثة آلاف وخمس مئة وعشرون.

وانتظامُ أوَّلِ هذه السورة بآخر تلك السورة: أنَّ خَتْمَ تلك السورة بذِكْرِ وَحْيِ القرآن، وأنَّ اللهَ يهدي به، والرَّسولَ يدعو إليه، وأولَّ هذه السورة في صفة القرآن

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٢٧)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٦٣)، وهو قطعة من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه الموضوع، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٨٥).

والقَسَمِ به، وذِكْرِ أُمِّ الكتاب الذي كان القرآن مكتوباً فيه.

وانتظامُ السورتين: أنَّهما في مُخاطبات المشركين ومُحاجَّتهم وترغيبِهم وترهيبِهم، وتسليةِ الرسول الأمين، وتثبيت المؤمنين.

* * *

(١ ـ ٤) ـ ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾: مرَّ تفسيرُه.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾: أي: أنزَلْناه بلُغَتِكم معاشرَ العربِ.

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾: لِتَعقلوه وتفهَموه وتنتفعوا به.

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي: اللَّوحِ المحفوظِ الذي ننسَخُ منه الكتبَ، فهو كالأصل لها.

وقولُه تعالى: ﴿لَدَيۡنَا﴾: أي: محفوظٌ عندنا.

﴿لَعَلِيٌّ﴾: أي: عالي القَدْرِ، رفيعُ الشَّأنِ.

﴿حَكِيمٌ﴾: أي: مُحْكَمٌ لا اختلافَ فيه، ولا تناقُضَ، ولا ناسِخَ له، ولا مُعارِضَ.

* * *

(٥) ـ ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾: أي: أَنُمْسِكُ عنكم إنزالَ القرآن، والتَّذكيرَ بالوعد والوعيد ﴿صَفۡحًا﴾؛ أي: إعراضاً عن تنبيهكم؟! وهو كأنه مصدرُ قولِه: ﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾ مِن خِلاف لفظِه ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾: بأنْ كنتُم قوماً

مُفْرِطين في الجهالة، مُجاوِزين الحدَّ في الضلالة؟! استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ أي: لا نفعلُ كذلك.

وقيل: ﴿صَفْحًا﴾: أي: جانباً، وصفحةُ الوجهِ جانبُه.

وقيل: هو استعارة، فإنَّ مَن أرادَ صَرْفَ مَرْكَبِه عن جِهَتِه ضرَبَ صفحَتَه بسَوطه، فحوَّلَه عن وجهه.

و﴿الذِّكْرَ﴾: قيل: هو القرآن.

وقيل: هو التَّذْكير.

وقيل: هو أنْ يُذَكَّروا بالعقوبة؛ أي: يُعاقَبوا.

وقيل: ضَرْبُ الذِّكْرِ صَفْحاً هو رَفْعُ القرآنِ مِن بين أظهرهم بعد إنزاله فيهم.

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: أي: أفنقطَعُ عنكم خِطابَنا وتعريفَنا بإسرافكم في خلافكم؟! أي: لا نقطَعُ الكلامَ عنكم وإنْ أسرَفْتم، والإشارةُ فيه أنه لا يَقْطَعُ خطابَه اليوم عمَّن تمادى في عِصْيانه، وأسرَفَ في طُغْيانه، نرجو[1] أنَّ مَن لم يُقَصِّرْ في إيمانه ـ وإنْ تلَطَّخَ بعِصْيانه ـ ولم يدخُلْ خلَلٌ في عِرْفانه، أنْ لا يَمنَعَ عنه لطائفَ غُفْرانِه، وعوارفَ إحسانِه[2].

***

(٦ ـ ٧) ـ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

---

(١) في «لطائف الإشارات»: (فأحرى).

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٦١).

وقولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾: أي: وما كان يأتيهم مِن نبيٍّ.

﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: كقومِكَ يا محمَّدُ، ولمْ يمنَعْنا ذلك مِن مُتابعة الرسل إليهم تأكيداً للإعذار، وحَسْماً للاعتذار[1].

* * *

(٨) ـ ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾: أي: أهلَكْنا مَن كان أقوى مِن هؤلاء المشركين في أبدانهم، وأكثرَ منهم في أتباعهم وأنصارهم.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي: خبرُ ما نزَلَ بالأولين مِن وقائعِ اللهِ تعالى.

أي: فليس هؤلاء إلا كأولئك في استحقاق العِقاب.

وقيل: صار عذابُ الأوَّلين عِظَةً للآخِرين.

وقيل: مضتْ سُنَّةُ الأولين.

* * *

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾: أي: هؤلاء المُشركين المُسرفين: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: اللهُ المَنيعُ بسُلْطانه[2] فلا يُغالَبُ، العليمُ بكل شيء.

---

(١) في (ف): «للأعذار».

(٢) في)ر): «سلطانه».

وقولُه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾: صفةُ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

﴿مَهْدًا﴾[1]: أي: موضِعَ قرارٍ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرو[2]: ﴿مِهاداً﴾؛ أي: بِساطاً، وقيل: هو جَمْعُ مَهْد.

وقرأ الباقون: ﴿مَهْدًا﴾[3]: أي: مَوْضِعاً مُمَهَّداً كمَهْد الصَّبِيِّ.

وقيل: هما واحدٌ؛ كالفِراشِ والفَرْش.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾: أي: طُرُقاً ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: مِن بلد إلى بلد.

وقيل: تستدِلُّون بها، فتهتدون إلى الرُّشْد والإسلام.

* * *

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفةٌ له ﴿مَآءً﴾: أي: المطر.

﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: على قَدْرِ حاجةِ الخَلْق إليه.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: أي: فأحْيَينا به بلدةً ميتاً، رُجوعٌ عن المُغايبة إلى الإخبار عن نفْسِه، وهو مِن تلوين الكلام، وذلك مِن أقسام البلاغة.

﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾: أي: يابسةً مُقْفِرةً مِن النبات.

---

(١) في (ر) و(ف): «مهاداً».

(٢) وهي قراءة ابن عامر أيضاً.

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٤١٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٥١).

وقولُه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾: مِن قُبوركم حين تُعادُون أحياءً بعد موتكم.

وقولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾: صفةٌ له أيضاً.

و﴿ ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾: يحتملُ أنه أراد به أصنافَ النبات؛ كما قال: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٧]، و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٧]، ويحتملُ أنه أراد به أصنافَ كلِّ الأشياء؛ كما قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ ﴾: أي: السُّفُن ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ أي: الإبلِ وغيرِها ﴿مَا تَرْكَبُونَ ﴾ في الأسفارِ، والضَّرْبِ في الأمصار؛ لِقضاء الأَوْطار.

* * *

(١٣) ـ ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾.

﴿ لِتَسْتَوُۥا ﴾: أي: لِتَركبوا مُسْتَوِين ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾: ولم يقُلْ: (ظُهُورِها)؛ ذهاباً إلى الجنس، ولم يقُلْ: (ظَهْرِها)؛ ذهاباً إلى الجَمْع.

قال الأخفش: إنما قال: ﴿ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾؛ لأن الذي سبَقَ ذِكْرُه هو قولُه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ ﴾، وهو كقولك: عندي مِن النساء ما يسُرُّكَ ويُوافِقُكَ[1].

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ ﴾: بقُلوبكم.

﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾: أي: على ما سبَقَ ذِكْرُه.

﴿ وَتَقُولُوا ﴾: أي: بألسنتكم:

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للأخفش (٢/ ٥١٣).

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾: أي: ذلَّلَهُ وليَّنَه لنا.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾: أي: مُطيقِين[1].

وقيل: ضابِطين؛ يعني: لِكِبَرِ أجسامِها، وصُعوبةِ أخلاقِها، وأَمْرُ السُّفُنِ أعجبُ منه وأهيبُ، والله تعالى يقول: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٣]، ويقول: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى: ٣٤].

* * *

(١٤) ـ ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾: أي: لَراجعون إلى جزائه؛ يعني: لم يُسَخِّرْ لنا هذه المراكبَ إلا لِيَسْتَأْدِيَ شُكْرَنا عليها وعلى سائر نِعَمِه، ويُحاسِبَنا على ذلك يومَ القيامةِ، ويجزيَنا على وَفْقِ أعمالِنا.

ثمَّ الكلامُ إلى هذا الموضع يتَّصِلُ بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ صفةً له، وليس هو على معنى حكايةِ لفظ الكفار المسؤولين عمَّن خلَقَهم؛ لأن قوله: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لا يَليقُ بذلك، وإنما قولُهم إذا سُئِلوا عن هذا: مَن خلَقَ السموات والأرض؟ قالوا: اللهُ، فيكون هذا اعترافاً منهم لله تعالى بالخَلْق، وفي ذلك ما يَكفي لِتَبْيينِ جَهْلِهم في الإشراك به ما لا يَقْدِرُ على شيء.

ثم لَمَّا كان الله تعالى موصوفاً بهذه الصفات المذكورة في الآيات[2] أتبَعَ ذِكْرَ اعترافِهم بهذه الصفات؛ كأنه قال تعالى: ولئن سألْتَهم عن ذلك لَأضافوا ذلك إلى الله الذي هو موصوف بهذه الصفات.

---

(١) في (ف): «مطيعين».

(٢) في (ر) و(ف): «في القرآن والآيات».

(١٥) ـ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾: أي: ومِن جَهْلِهم أنَّهم مع اعترافِهم أنَّه خالقُ السماوات والأرض يجعلون له مِن خَلْقِه ولَداً؛ لأنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالد.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾: أي: إنَّ الكافرَ بالله الجاهلَ به كفورٌ نِعَمَه، ظاهِرُ الكُفْران، مُجاهِرٌ بالشرك.

وقال الإمام أبو منصور رحمه الله: قالت الثَّنَوِيَّةُ: إنَّ الله تعالى خالِقُ الخَيْراتِ، وخالِقُ الشُّرورِ غيرُه، فيَحتَمِلُ أنْ يكون المرادُ أنَّهم جعلوا لله جُزْءاً مِن الخَلْق لا كُلَّه، وكذلك مُشْرِكو العرب كانوا يجعلون مِن الحَرْث والأنعام لله جُزْءاً، ولآلهتهم جُزْءاً[(١)].

وقيل: معنى قوله: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾؛ أي: مِثْلاً وشَبَهاً، ومجازُه: أنَّهم عبَدوا عِبادَه كما عبَدوه.

***

(١٦) ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾: استفهامٌ بمعنى الإنكار والتَّوْبيخ.

و﴿ أَمِ ﴾: يُعطَفُ بها على ألف الاستفهام، وتقديرُه: أتقولون أنَّ الله ولَدَ ولَداً أم اتَّخَذَ مِن خَلْقِه بناتٍ؟!

وقولُه تعالى: ﴿وَأَصْفَىٰكُم ﴾: أي: خَصَّكم ﴿بِٱلْبَنِينَ ﴾: وهو كقوله: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١]، وقوله: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩] الآيات، وقد فسَّرْناها هناك.

---

(١) انظر: «تأويلات أهل السنة» للماتريدي (٩/ ١٥٤).

يقول: جمَعْتُم في هذا الوصف نوعين مِن الجَهالة:

أحدُهما: وصفُ اللهِ جل جلاله باتِّخاذِ الأولاد.

والثاني: وصفُه باتِّخاذِ وَضْعِ الجنسين، ولو أنَّ الواحدَ منكم فعَلَ هذا لَنسبتموه إلى سوء الاختيار.

***

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾: أي: بقِيَ في كلِّ يومه مُتَغَيِّرَ اللَّونِ، ظاهِراً عليه أثَرُ المُساءَةِ والكآبة.

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾: أي: مَمْلوءٌ غَمًّا وغَيْظاً.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفصٍ بضم الياء وتشديد الشين؛ أي: يُرَبَّى، وقرأ الباقون بفتح الياء وتخفيف الشين؛ أي: يَتَرَبَّى[١].

يُقال: أَنْشَأَه اللهُ ونَشَّأَه فنَشَأَ؛ كما يُقال: أَنْبَتَه اللهُ ونبَّتَه فنبَتَ، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ [الواقعة: ٣٥]، وأصلُ الكلمةِ مِن الظُّهور والطُّلوع؛ يُقال: نشَأَتِ السَّحابةُ؛ إذا ظهَرَتْ وطلَعَتْ.

وقولُه تعالى: ﴿فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾؛ أي: في الزِّينة؛ أي: يُنَفَّقُ مما يُحَلَّى به مِن الذهب والفضة واللُّؤْلُؤ.

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٦).

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾: أي: المُخاصَمة.

وقيل: هو جَمْع (خَصْمٍ)؛ أي: بين الخُصوم.

﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾: أي: للكلام على وَجْهٍ تقومُ به حُجَّتُه.

والمُرادُ به: البنتُ، وإنما لم يُؤَنِّثِ الفِعْلَ والكِنايةَ؛ لأنه بدأَ بكلمة (مَن)، وبنى الفعلَ والكنايةَ عليه.

وقيل: أرادَ به الصَّنَمَ؛ لأنهم كانوا يُحَلُّون الأصنامَ.

وفي أول هذه الآية مُضْمَرٌ، وتقديرُه: ويَنسبون إليه مَن يُنَشَّأُ، أو يُشركون به مَن يُنَشَّأُ.

* * *

(١٩) - ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿عند الرحمن﴾ بالنون، مِن قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وهو بيانُ قُرْبِ المنزلةِ والكرامة.

وقرأ الباقون: ﴿عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ بالباء والألف، وهو جمع: (عَبْد)، وهو كقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦][(١)].

يقول: ومِن جَهْلِهم أيضاً أنهم جعلوا الملائكةَ شُركاءَ لنا آلهةً معنا، وسمَّوْهم إناثاً.

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

قولـه تعالـى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾: قـرأ نافـع: ﴿أَأُشْـهِدُوا﴾؛ كمـا فـي قولـه: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وقرأ الباقون: ﴿أَشَهِدُواْ﴾؛ كما في قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠][1].

وهو استفهامٌ بمعنى النَّفْيِ، أبطَلَ مقالتَهم بكل الوجوه.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾؛ أي: أقالوا هذا عن مُشاهدة أنهم شاهَدوا خَلْقَ اللهِ إياهم إناثاً؟! ولا مُشاهدةَ لهم على هذا، ولو ادَّعَوا ذلكَ لكابروا.

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾: أي: على الملائكة بالزُّورِ ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾: عنها، فلا يَجدون مَخْرَجاً عنها، فيُعاقَبون.

وقيل: ستُكْتَبُ دَعْواهم أنهم شهِدوا خَلْقَهم.

* * *

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾: أي: مِن قَبْل قولِهم هذا.

وقيل: أي: مِن قَبْل القرآن، فقد سبَقَ ذِكْرُه: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾.

﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾: أي: أم قالوا ذلك بحُجَّةِ سَمْعٍ أتاهم مِن عند الله مِن كتابٍ أنزلَه اللهُ؟! وليس لهم ذلك، وإذا لم يكن لهم سَمْعٌ ولا عَقْلٌ ولا مُشاهدةٌ بطَلَ قولُهم.

---

(١) انظر المصدرين السابقين.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾: ادَّعَوا أنَّ اللهَ أمرَهم بعبادة الملائكة، وقالوا: لو شاء ألَّا نعبُدَها لنهانا عنها، فإذْ لم يَنْهَنا عنها فقد أمَرَنا بها.

وقيل: معناه: لو شاء الله ألَّا نعبُدَهم لمنَعَنا عن عبادتها مَنْعَ قَهْرٍ واضطرارٍ، وإذا لم يفعلْ ذلك فقد أباحَ لنا.

وقولُه تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: أي: يَكْذِبون؛ أي: هذا القولُ منهم ليس لهم عليه حُجَّةٌ، وهو جَهْلٌ منهم وكَذِبٌ.

وقيل: إنهم قالوا هذا القولَ استهزاءً بقول أهل الحق: إنَّ الكائناتِ كلَّها بمشيئة الله تعالى؛ لا اعتقاداً منهم ذلك، فأكذبَهم اللهُ فيه وجهَّلَهم حيث لم يقولوه عن اعتقاد؛ كما قال مُخْبِراً عنهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، وهذا حقٌّ في الأصل، ولكنْ قالوا ذلك استهزاءً، فأكذَبَهم اللهُ بقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]، وكذلك قوله: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ لأنهم لم يقولوه اعتقاداً.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾: فسَّرْناه؛ لأنه مُتَّصِلٌ بالأول ومُقَدَّمٌ في المعنى، وإنْ كان مُؤَخَّراً في النَّظْم.

❊ ❊ ❊

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: أي: طريقةٍ. وقيل: مِلَّةٍ. وقيل: دِينٍ.

يعني: لم يقولوا هذا القولَ عن مُشاهدةٍ، ولا حُجَّةٍ عقليَّةٍ، ولا حُجَّةٍ سمعيَّةٍ، بل تقليداً لآبائهم الضالين، وقالوا: ﴿وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾؛ أي: أمرٍ مُجتَمَعٍ عليه ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾: راشدون.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾: أي: في بَلْدةٍ مِن رسول.

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾: أي: جبابرتُها ومُتَنعِّمُوها مِثْلَ[1] هذا القول.

﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾: أي: مُتَّبِعون؛ أي: التَّقليدُ لأهل الجهل أمرٌ مُتقادِمٌ.

* * *

(٢٤) - ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾: أي: قل يا محمد لهؤلاء المُقَلِّدين: أرأيتم لو جئتُكم بما هو أرشدُ وأقومُ طريقةً مما وجدتُم عليه آباءَكم، وبانَ لكم ذلك، أتُقِيمون على تقليدكم أم تترُكُونه بهذا الاهتداء؟

فإنْ كانوا عُقلاء قالوا: نترُكُ التقليدَ، فإذا قالوا ذلك فقل لهم: هلُمُّوا أُرِكُمْ[2] آيةً أهدى، فإنِ امتنعوا فقد حادوا[3] ولم يُنْصِفوا، وإنْ أجابوا صاروا إلى النَّظَر، فحينئذٍ يبطُلُ التَّقْليد لوضوح حُجَجِ الله.

وقرأ عاصمٌ في رواية حفصٍ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾[4]، ومعناه: قال كلُّ نذيرٍ ذلك لقومه.

---

(١) «مثل» ليس من (أ).

(٢) في (أ): «فهلموا أريكم» بدل من «فقل لهم: هلموا أركم».

(٣) في (ر) و(ف): «جادلوا».

(٤) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٥)، وهي قراءة ابن عامر أيضاً.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾: هذا تمامُ كلامِ الكفار، ويتَّصِلُ بقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾، ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، ولما اعترَضَ كلامٌ آخرُ زِيدَ: ﴿قَالُوٓاْ﴾.

* * *

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾.

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾: عاقَبْناهم بما استحقُّوه على إصرارهم.

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وأنذِرْ قومَكَ مِثْلَه لِيَرْتَدعوا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلَتِ الآياتُ في أبي جهلٍ والوليدِ وعُتْبةَ وشَيْبةَ لعنَهم الله[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ﴾: أي: واذكُرْ إذ قال ﴿إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾؛ أي: بَريءٌ مِن أصنامكم، مصدرٌ أُقيمَ مقام النَّعْت، ويَستوي فيه الواحدُ والتَّثْنيةُ والجَمْعُ والذَّكَر والأنثى؛ كالعدل والرضا.

أخبَرَ أنَّ إبراهيم كان على الإسلام والإخلاص، ووَرَّثَ ذلك عَقِبَه، وهُمْ هؤلاء، لكنَّهم خالفوه، وقومُ إبراهيمَ عليه السلام أجابوه أيضاً بمِثْل جواب هؤلاء المُقلِّدين لكَ[2]: ﴿قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنبياء: ٥٣ ـ ٥٤].

* * *

---

(١) هو قول مقاتل، كما في «تفسيره» (٣/ ٧٩٢)، ونقله عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٢١)، ولم أقف عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (ر): «ذلك».

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾: قيل: كان في قومه مَن يعبُدُ اللهَ ويعبُدُ معه غيرَه، فصَحَّ الاستثناءُ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ مِن قوله: ﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ لذلك.

وقيل: الاستثناءُ مُنقَطِعٌ بمعنى (لكنْ)، و﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ مُقْتَصِرٌ على الأصنام، ومعناه: لكنِ الذي خلَقَني أعبُدُه.

﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾: أي: سيُثَبِّتُني على الرُّشْد.

وقولُـه تعالـى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾: أي: جعَلَ إبراهيمُ كلمةَ التوحيدِ باقيـةً فـي ولَـدِه وولَـدِ ولَـدِه، فتوارثـوا البـراءةَ عـن الأصنـام، والتَّديُّنَ بالإسـلام، وتواصَـوا به.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: أي: لِيَرجِعَ المشركون مِن قومهم إلى طاعة ربهم مِن كفرهم وشركهم.

وقيل: أي: جعلَها اللهُ باقيةً في عقِبِ إبراهيمَ؛ أي: شرَعها فيهم لِيَرْجِعَ إليها كلُّ مَن كان على غيرها مِن عقِبِه؛ إذ علِموا أنَّ الله تعالى ألزمَهمُ التَّدَيُّنَ بها.

وقال قتادة: هي التوحيدُ والإخلاصُ، لا يزالُ في ذُرِّيَّته ونَسْله مَن يُوحِّدُ اللهَ ويعبدُه[1].

***

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٦١)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٧٧)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٠٩).

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾: ﴿ بَلْ ﴾: لِرَدِّ ما قبلَه؛ يعني: ليس شركُ هؤلاء ولا شركُ آبائِهم لِقُصور البيان مِن جهة الرسل، بل أمهلتُ هؤلاء وآباءَهم، وأَخَّرْتُ العذابَ عنهم، فاغترُّوا بذلك، وظَنُّوا أنهم على حقٍّ، فقلَّدوا الآباءَ حتى جاءهم رسولُ محمَّدٍ[1] بالحقِّ، وهو الإسلامُ والتوحيدُ الذي هو دينُ إبراهيمَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ ﴾: أي: ولَمَّا جاءَهم القرآنُ قالوا باهِتين: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ ﴾، وقالوا مُعانِدين ومُكابِرين: ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

* * *

(٣١) ـ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾: مُتَحَكِّمين بالباطل: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾: أي: على رجلٍ عظيمِ الرِّياسة بالمال والأتباع مِن هاتين البلْدتينِ: مكَّةَ والطَّائفِ.

أي: كيف خُصَّ محمَّدٌ بهذه الفضيلة التي تُوجِبُ انقيادَ العُظماءِ له مع فَقْره وضَعْفِ حاله في أسباب الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يَعْنون بالعظيم مِن القريتين: الوليدُ بنُ المغيرة القُرَشِيُّ، وحبيبُ بنُ عمرو بنِ عُمَيرٍ الثَّقَفِيُّ[2].

---

(١) كذا في جميع النسخ، ولعل الصواب: رسولنا محمد.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٨٠)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٣٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٢٣).

وقال مجاهد: عُتْبةُ بن ربيعةَ مِن أهل مكة، وابنُ عبدِ يَاليلَ مِن أهل الطائف[(١)].

وقال قتادة: الوليدُ بن المُغيرة مِن أهل مكة، وعُرْوةُ بن مسعود الثَّقَفِيُّ مِن أهل الطائف[(٢)]، وهو جَدُّ المختارِ.

وقال السُّدِّي: مِن الطائف كِنانةُ بن عبدِ بن عمرٍو[(٣)].

***

(٣٢) - ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فعرَّفَهم اللهُ تعالى جهلَهم في هذا، فقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾: أي: النُّبُوَّةَ، استفهامٌ بمعنى الإنكار والتوبيخ.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾: أي: نحن قسَمْنا أرزاقَهم فيما بينهم وهو أدنى مِن الرسالة، فلم أترُكِ اختيارَها إليهم، فكيف يكون لهم اختيارُ ما هو أفضلُ وأعظم من ذلك، وهو الرسالة؟!

وقولُه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾: فجعَلْنا منهم مالِكاً ومملوكاً، ورئيساً ومَرْؤوساً، وصاحِبَ صَنْعَةٍ رئيسةٍ رفيعةٍ وصاحِبَ صنعةٍ[(٤)] خَسيسةٍ.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾: أي: لِينتفِعَ كلُّ طبَقةٍ منهم بالطَّبَقة الأخرى بأنْ

---

(١) المصادر السابقة.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٦٢)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٨١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٨٢)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٣٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٢٣).

(٤) في (أ): «مهنة».

يستعملَه فيما يَحتاجُ إليه بما يتعلَّقُ بصنعته، وينتفِعَ العاملُ بما يأخذُه مِن أجره، فيتعيَّشَ كلُّ واحدٍ منهما بصاحبه.

وفي «ديوان الأدب»: ﴿سُخْرِيًّا﴾: ما كان مِن السُّخْرة فهو مضموم، وما كان مِن الهُزْء فهو مكسور[١].

وقولُه تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾: أي: النبوةُ خيرٌ مِن الأموال المجموعة، وإذا كانت قِسْمةُ هؤلاء إلى الله تعالى دون خَلْقِه، فالأوَّلُ أولى بذلك.

وقيل: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: النبوةُ يا محمد[٢] ﴿خَيْرٌ مِّمَّا﴾ كانوا[٣] ﴿يَجْمَعُونَ﴾ مِن الأموال التي هي لهؤلاء، فليس لهم فضيلةٌ عليه، بل له عليهم.

وقيل: ورحمةُ اللهِ عبادَه بالإسلام خيرٌ مما يجمعون مِن الأموال، فلا ينبغي لهم أنْ يتعظَّموا بها، بل يلزَمُهم الانقيادُ لِمَن خصَّه الله بالنبوةِ، والإيمانُ به لِيَنالوا رحمةَ اللهِ.

* * *

(٣٣) ـ ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾.

ثم ذكَرَ قِلَّةَ خطَرِ الأموال، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي: ولولا أنْ يرغَبَ الناسُ في الكفر إذا رأوا الكفار في سَعَةٍ.

وقال الحسن رحمه الله: لولا أنْ يتتابعُوا في الكفر[٤].

---

(١) انظر: «ديوان الأدب» للفارابي (١/ ١٧٦).

(٢) في (أ): «بمحمد»، وفي (ر): «لمحمد» بدل: «يا محمد».

(٣) «كانوا» ليست في (أ).

(٤) ذكره عنه بهذا اللفظ السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٥٧). ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٨٧)

﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: أي: يكفرُ بنا ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾: قال الزَّجَّاج: يجوزُ أنْ يكون تَكرارُ اللام على البدل، وتقديرُه: لَجعَلْنا لبيوت مَن يكفرُ بالرحمن.

ويصلُحُ أنْ تكون اللام الثانية بمعنى (على)؛ أي: لَجعَلْنا لِمَن يكفرُ على بيوتهم(١).

﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: ﴿سَقْفاً﴾ بفتح السين وتسكين القاف، وهو سماءُ البيتِ، وهو واحد بمعنى الجَمْع، أو على إرادة أنْ يكون لكلِّ بيتٍ سَقْفٌ؛ كما في قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] على الوجهين، وقرأ الباقون: ﴿سُقُفًا﴾ بالضم(٢)، وهو جَمْعٌ؛ كالرَّهْن والرُّهُن. قاله قُطْرُب(٣).

وقيل: هو جَمْعُ (سَقيفة).

وقيل: هو جَمْعُ الجَمْعِ: سَقْفٌ وسُقُوفٌ وسُقُفٌ؛ كقولهم: رَهْنٌ ورُهُونٌ ورُهُنٌ، لأنها مُضافةٌ إلى الجَمْع، وهي البيوت.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾: أي: مَراقِيَ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾: أي: يَعْلُونَ على السُّقوف؛ كما قال: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧].

* * *

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

بلفظ: لولا أن يكون الناس كفاراً أجمعون يميلون إلى الدنيا لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال.

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤١٢).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٦).

(٣) ذكره الأخفش في «معاني القرآن» (١/ ٢٠٦) عن أبي عمرو بن العلاء، وهو قول الزجاج كما في «معاني القرآن» (٤/ ٤١٠)، وأبي عبيدة في «مجاز القرآن» (٢/ ٢٠٣) وغيرهما.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾: أي: وجعَلْنا لبيوتهم أبواباً مِن فضة ﴿وَسُرُرًا﴾: مِن فضة ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾.

﴿وَزُخْرُفًا﴾: قيل: ذهباً، وقيل: زينةً. أي: وجعَلَ لهم تَزْيِيناتٍ تُزَيِّنُ بها البيوتُ مِن الذهب والفضة.

وقيل: هي[1] الأواني.

وقيل: أي: ثِياباً وفُرُشاً تُزَيِّنُ بها البيوتُ[2].

وقيل: ذهباً مِن الدَّنانير ونحوِها يحصُلُ له بها الغِنى.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: قرأ عاصمٌ وحمزةُ وابنُ عامرٍ: ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى (إلَّا)؛ أي: وما كلُّ ذلك إلَّا متاعُ الحياة الدنيا.

وقرأ الباقون بالتخفيف[3]، و(ما) صِلةٌ زائدةٌ، وتقديرُه: وإنْ كلُّ ذلك لَمتاعُ الحياةِ الدنيا، وله وجهان:

أحدُهما: أنَّ (إنْ) للتَّأكيد، واللامَ كذلك.

والثاني: أنَّ (إنْ) للنَّفْي، واللامَ بمعنى (إلَّا)، فيَصيرُ كقراءة التشديد.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾: وهو ترغيبٌ في العُقْبى، وترهيبٌ في الدنيا.

* * *

---

(١) في (ف): «من».

(٢) «تزين بها البيوت» ليس في (ف).

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٦)، ورواية هشام عن ابن عامر موافقة لقراءة البقية، ورواه عنه ابن ذكوان بالتخفيف.

(٣٦) ـ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: يتَّصِلُ بقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾.

قال قتادة والسُّدِّي: أي: يُعْرِضْ عن القرآن(١).

وقال أبو عُبيدة: ومَن يُظْلِمْ بصرُه(٢)، يُقال: عَشَوْتُ بالليل في الظُّلْمة إلى نارٍ مِن بعيد، قال الشاعر:

متى تأتِه تَعْشو إلى ضوء نارِه ... تجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ(٣)

فإذا كان قولك: (عَشَوْتُ إليه) نظَراً إليه، كان قولُك: (عَشَوْتُ عنه) صَرْفاً للنَّظَر عنه.

وقولُه تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾: أي: نُهَيِّئْ.

وقيل: أي: نُسَلِّطْ.

وقيل: أي: نُقَدِّرْ شيطاناً يُزِلُّه ويُضِلُّه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: نُسَلِّطْه عليه ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾: فهو معه في الدنيا والآخرة(٤).

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٥٩٦)، وذكره عن قتادة الماورديُّ في «النكت والعيون» (٥/ ٢٢٥)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٠٢)، وقال الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٤٣): هو قول قتادة، وروي ذلك عن ابن عباس، وهو اختيار الفراء وأبي إسحاق.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٤)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٣٩٧).

(٣) البيت للحُطيئة جرول بن أوس. انظر: «ديوانه» (ص: ٧٠)، و«العين» للخليل (٢/ ١٨٧)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٤)، و«إصلاح المنطق» لابن السكيت (ص: ١٤٨).

(٤) انظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٥٨)، و«تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٣٥)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٢١٣).

وقال مُقاتلٌ: أي: نضُمُّ إليه شيطانَه إذا بعَثناه(١).

وقال أبو سعيد الخُدْريُّ رضي الله عنه: إذا بُعِثَ الكافرُ زُوِّجَ بقَرينه مِن الشياطين، فلا يُفارِقُه(٢).

وقال عطاء: في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]؛ أي: قُرِنَتْ نُفوسُ المؤمنين بالحُورِ العِين، ونُفوسُ الكفار بالشياطين(٣).

وقال سفيان بن عُيَيْنة: ما مِن مثَلٍ للعرب إلا وهو في القرآن؛ كقولهم: أعطِ أخاك تمرةً، فإنْ أبى فجَمْرةً، هو في هذه الآية(٤).

* * *

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: وإنَّ الشياطين يَصْرِفون العاشِينَ عن الذِّكْر وعن السبيل المستقيم بالخُدَع.

﴿و﴾ العاشون ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾: جُمِعَ في هذه الآية وهو مُوَحَّدٌ في الآية الأولى؛ لأنه قال: ﴿وَمَن﴾، وهو اسمُ جنسٍ، فكان واحداً بلفظه جَمْعاً بمعناه، وهو دليل على التَّقْييض في الدنيا، ثم في الآخرة لا يُفارِقُه.

---

(١) لم أقف عليه عن مقاتل، وروى معناه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٦٧) عن سعيد الجريري.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٣٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٢٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢١٤).

(٣) ذكره الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢٩)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٧).

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٥٨).

قولُـه تعالـى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾: يـومَ القيامـة هذا العاشـي، وَحَّدَ لأنـه ردَّه إلى أول الكلام.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وعاصمٌ في رواية أبي بكر: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَانَا﴾ على التَّثْنية[1]؛ أي: العاشي وشيطانُه، وأُدْخِلا النارَ.

﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾: أي: قال هذا العاشي: ليتني لم أكنْ صَحِبْتُكَ ولا عرَفْتُكَ، ولا كانت بيني وبينكَ وُصْلَةٌ ولا تقاربٌ، حتى كنا في التَّباعد كأنَّ أحدَنا بالمشرق والآخرَ بالمغرب، لا يلتقيان ولا يتقاربان.

وجعلُهما مَشْرِقَينِ على الازدواج؛ كالقمَرين وسُنَّةِ العُمَرين.

وقيل: هما مَشْرِقُ الشتاء، ومَشْرِقُ الصيف؛ كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧].

وقولُـه تعالـى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾: كنـتَ لـي فـي الدنيـا، أضلَلْتَني عن السـبيل، وأَوْرَدتَنـي ونفسَـكَ عـذابَ الجحيم.

وقيل: أي: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾: أنتَ لي الآنَ.

* * *

(٣٩ ـ ٤٠) ـ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾: أي: إنَّ اشتراككم في العذاب الذي استوجبْتُموه بشِرْكِكم لنْ يُخَفِّفَ عنكم شيئاً، ولا

---

(١) انظـر: «السـبعة» لابـن مجاهـد (ص: ٥٨٦)، و«التيسـير» للدانـي (ص: ١٩٦)، والتثنية قـراءة ابن عامـر أيضا.

يقَعُ به التَّسَلِّي حتى[١]؛ كما يكون في الدنيا يَنْزِلُ بالجُملة فيقعُ به بعضُ[٢] السَّلْوَةُ.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: استفهام بمعنى النَّفْي؛ يعني: إنَّكَ يا محمد لستَ بقادرٍ على أنْ تُسْمِعَ مَن أصمَمْناه، وتُبْصِرَ مَن أعميناه، وتُرْشِدَ مَن أغويناه، آيَسَه عن إيمان قومٍ علِمَ أنهم لا يُؤمنون أبداً.

* * *

(٤١ ـ ٤٢) ـ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

ثم طيَّبَ قلبَه فقال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾: (إما) كلمتان: (إنْ) للشرط، و(ما) للتأكيد، والنونُ للقسَم.

يقول: إنْ ذهَبْنا بكَ عن الدنيا، فإنا ننتقِمُ لكَ ممَّنْ آذاكَ وأساءَ إليكَ وجَفاكَ.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾: عاقَبْناهم في حياتكَ.

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾: قادرون على ذلك وعلى كل شيء.

وقال الإمام القُشَيري: أثبتَه على حدِّ الخوف والرجاء، ووقَفَه على وصف الإبهام والإخفاء؛ لانفرادِه سبحانه بعلم الغيب، وكذلك الواجبُ على كلِّ عبدٍ أنْ يكونَ مِن نظَّارة التَّقدير، ويفعلُ اللهُ ما يُريد[٣].

* * *

(٤٣ ـ ٤٤) ـ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

---

(١) «حتى» من (أ).

(٢) في (ر) و(ف): «فيقع للبعض بالبعض».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٣٦٨).

وقولُه تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾: أي: فتمسَّكْ بالقرآن الذي أُنْزِلَ عليك، والتزِمْ أحكامَه، وادْعُ الناسَ إلى اتِّباعه.

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾: أي: طريقٍ سَوِيٍّ يُفْضي بكَ إلى رضا الله وثوابه.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾: أي: وإنَّ هذا القرآنَ الذي أُوحِيَ إليكَ بيانٌ لكم جميعاً لكلِّ ما تحتاجون إليه، ووَعْظٌ وتنبيهٌ لكم جميعاً.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾: عما أُلْزِمْتُم[1] به أنتَ وقومُكَ، قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وإنه لشَرَفٌ لكَ ولقومكَ[2]؛ إذ هو بلسانهم، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾: عن شكره[3].

* * *

(٤٥) ـ ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾: أي: لستَ تَدْعوهم إلى دينٍ ابتدَعْتَه، بل به أرسَلْنا رسلَنا، فإنْ لم يُصَدِّقوكَ فاستَشْهِدْ بعلماء أمم الأنبياء مِن أهل الكتاب، فإنهم مع مُخالفتِهم إياكَ يَشْهدون لكَ على أنبيائهم بالموافقة في الدعاء إلى عبادة الله وحدَه وخَلْعِ الأنداد، سوى مَن يشهَدُ على ذلك مِن مُؤمنيهم بكَ.

---

(١) في (أ): «التزمتم»، وفي (ر): «ألزمكم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٠٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٩٨)، والطبراني في «الكبير» (١٣٠٣٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٣١).

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٥١) عن الكلبي.

فكان معنى: ﴿وَسْئَلْ﴾؛ أي: استَشْهِدْ، وتقديرُ الآية على هذا: واسأَلْ مَن أرسَلْنا إليهم مِن قبلك رسلاً مِن رسلنا، و﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾: هم المُرْسَل إليهم، وهم أممُ المرسلين مِن أهل الكتاب كاليهود والنصارى، والصِّلَةُ محذوفةٌ؛ كما في قوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، و﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ [الشورى: ٢٣]، ونظيرُه قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣].

وكان استشهادُ النبي ﷺ بهؤلاء حُجَّةً على المشركين؛ لأنهم كانوا يرجِعون إليهم، ويعتمدون على قولهم، فإذا سألهم وقالوا: لم يجعَلِ اللهُ تعالى للخَلْق آلهةً يعبدونهم، لزِمَتْهم الحُجَّةُ.

وقيل: تقديرُه: واسأل أتباعَ مَن أرسلنا، على الإضمار.

وقيل: تقديرُه: واسأَلْ عمَّنْ أرسَلْنا، فحُذِفَ (عن)؛ أي: سَلْ أُمَمَهم عنهم، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ أي: مسؤولاً عنه، فحُذِفَتِ الصِّلَةُ.

ثم السؤالُ يكون لرَفْعِ الإشكال، ولم يكن رسولُ الله ﷺ يشُكُّ في ذلك، وإنما الخِطابُ له والمرادُ غيرُه.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لَمَّا نزلَتْ هذه الآية قال النبي ﷺ: «ما أنا بالذي أشُكُّ، وما أنا بالذي أسألُ»(١).

وللآية وجهٌ آخرُ على ظاهرِها مِن غير إضمار:

---

(١) لم أقف عليه في هذه الآية، وتقدم نحوه عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].

قال سعيد بن جُبير رضي الله عنه: إن النبي ﷺ لَمَّا أُسْرِيَ به إلى بيت المَقْدِس جُمِعَ له الأنبياءُ ببيت المقدس، فقيل له: سَلْ هؤلاءِ[1].

***

(٤٦ ـ ٤٧) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: أرسَلْناه كما أرسلناكَ، فكذَّبوه كما كذَّبوكَ، فجُعِلَتِ العاقبةُ له، وإنا نجعلُها لكَ، وانتقَمْنا له منهم، ونحن ننتقِمُ مِن هؤلاء لكَ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: أي: بالمُعجزات مِن عندنا.

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾: استهزاءً وإيماءً[2] لأتباعهم أنَّ ذلك تمويهٌ.

***

(٤٨) ـ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾: أي: وما أَريناهم؛ أي: وما كنا

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٣٧) عن سعيد بن جبير وابن زيد، وروى نحوه عن الزهري.
ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٠٥) عن ابن زيد، وهو مروي عن ابن عباس كما في «تفسير السمعاني» (٥/ ١٠٥).
وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ١٧٠)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٥٩) من غير نسبة.

(٢) في (أ) و(ر): «إيهاما».

نُريهم مِن معجزةٍ إلَّا هي أعظمُ مِن صاحبَتِها في نَقْضِ العادة، وأكبرُ في الأُعْجُوبة، وأَبْلَغُ في لُزوم الحُجَّة.

والأُخْتُ: استعارةٌ مِن ذلك، ومَجازٌ عن المُشاكلة، وهو كما حُكِيَ: أنَّ بعضَ الشعراء سُئِلَ عن نفْسِه وعن شاعر آخر، فقال: أنا أقول البيتَ وأخاه، وهو يقول البيتَ وابنَ عمِّه[1]، وكان هذا مجازاً عن التَّقارُبِ والتَّباعُدِ في التَّشاكُلِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

ثم ظاهرُ النَّظْم يدلُّ على أنَّ اللاحِقةَ أعظمُ مِن السابقة، وحقيقةُ ذلك: أنَّ الآيتَينِ مُتساويتان في نَقْضِ العادة وإيضاح الحُجَّة، لكنَّ الأُولى يذهَبُ هولُها على مَن رآها، فتزيد الثانيةُ عظَمةً عند الرائي لحُضورها.

وقيل: هو تعظيمُ شأنِهما جميعاً؛ كقولك: هُما أخوان، كلُّ واحدٍ منهما أكرمُ مِن الآخر.

وقيل: كانت آيةُ اليدِ أعظمَ مِن آية العصا؛ لأنَّ السحَرةَ أَمْكَنَهم التَّمْويهُ في العصا، ولم يُمْكِنْهم ذلك في اليد.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: هو ما قال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقولُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ الآية [الأعراف: ١٣٣].

***

(٤٩) ـ ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾.

---

(١) القائل هو عمر بن لَجَأ أحد الشعراء الأمويين. انظر: «البيان والتبيين» للجاحظ (ص: ١٧٩)، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة (ص: ٩٠)، و«الكامل» للمبرد (٢/ ١١٩).

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: يا أَيُّها العالِمُ(١)، والساحرُ عندهم مَن بلَغَ في العِلْم نهايتَه.

وقيل: إنما قالوا ذلك؛ لأنَّ السِّحْرَ عندهم كان عِلْماً جليلاً، فقالوه له على أنَّه مَدْحٌ له.

وقيل: معناه: يا أيها الغالِبُ بآياته السَّحَرَةَ؛ مِن قولهم: ساحَرْتُه فسَحَرْتُه.

وقولُه تعالى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾: أي: سَلْ لنا ربكَ كَشْفَ العذابِ.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: قيل: هو قسَمٌ؛ أي: بحقِّ ما أرسلَكَ به.

وقيل: أي: بما وعدَكَ به مِن إجابة الدَّعْوة.

وقيل: بما عهِدَ أنه يكشِفُ عنا إذا رجَعْنا، فنحن نرجِعُ عمَّا كنا فيه.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: أي: إنْ أُجِيبَ لنا اهتدَيْنا بالإيمان بكَ.

وقيل: إنَّا لَعالِمون أنه لا يكشِفُ عنا العذابَ بدُعائك إلا دِلالةً(٢) على نبوَّتِكَ، فدعا موسى اللهَ فكشَفَ عنهم.

***

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝٥٠ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٨٠) عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وأورده السمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٠٧) عن الكلبي وغيره.
وذكره الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦١٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٣٨) من غير نسبة.

(٢) في (أ): «دالة»، وفي (ر): «دلة».

وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾: أي: ينقُضُون عهدَهم بالإيمان؛ أي: كانوا قالوا له: نؤمنُ بكَ، فلم يُؤمنوا.

قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾: قيل: خطَبَ.

وقيل: نادى في الناس بالاجتماع، فلما اجتمَعوا عنده.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾: استفهامٌ بمعنى التَّقْرير.

أي: إنَّ لي مُلْكُ مصرَ، أملِكُ أهلَها وأُصَرِّفُهم على ما أشاءُ مِن حُكْمي، وهذه الأنهار ـ أي: نيلُ مصرَ وسائرُ الأنهار المُتَشَعِّبَة منه ـ تجري مِن تحتي، فمصرُ على عِظَمِها كالبُسْتان لي، أفلا ترون ما ذكرتُه لكم؟! فكيف تنحرِفون عني إلى موسى وهو لا يملِكُ شيئاً؟!

وقولُه تعالى: ﴿لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾: هي أربعون فَرْسَخاً في أربعين فَرْسَخاً.

وقولُه تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾؛ أي: حولَ قُصوري.

وقيل: أي: تحت يدي.

وقيل: كانت الأنهارُ أربعةً: نهرُ دِمْياطَ، ونهرُ تِنِّيسَ[1]، ونهرُ طُولُونَ، ونهرُ الملكِ.

وقيل: خمسةً: نهرُ الفَيُّومِ، ونهرُ دِمْياطَ، ونهرُ البَرَلُّسِ، ونهرُ رَشيدٍ، ونهر الإِسْكَنْدَرِيَّة.

وهذه الأنهار تنشَقُّ مِن النِّيل، وكان فرعونُ يخرُجُ مِن الفَيُّوم إلى دِمْياطَ مَسِيرةَ خمسةَ عشَرَ يوماً لا تُصيبُه الشَّمسُ مِن التفافِ الشَّجَر.

---

(١) في النسخ الثلاث: «التفليس»، والمثبت موافق لما في «تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٣٩)، و«الكشاف» للزمخشري (٤/ ٢٥٧).

وتِنِّيسُ: جزيرة في بحر مصر قريبة من البر، ما بين الفرما ودمياط. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٥١).

(٥٢) ـ ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾: قيل: أي: بل أنا خيرٌ.

وقيل: تقديرُه: أهذا خيرٌ أم أنا خيرٌ مِن هذا؟!

وقيل: ﴿ أَمْ ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾: أم تُبْصِرون وتعلَمون أني خيرٌ مِن هذا؟! يعني: موسى.

﴿هُوَ مَهِينٌ ﴾ قال قتادة: أي: ضعيفٌ[1].

وقيل: فقيرٌ.

وقيل: يَمْتَهِنُ نفْسَه في حوائجه، ليس له مَن يَكْفِيه.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾: أي: لا يُبِينُ عن نفْسِه ما يُريدُ بكلامه.

وقيل: أرادَ ما كان بلِسانه مِن عُقْدةٍ، وهو ما قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٧].

أي: فكيف يكونُ مِثْلُه رسولاً مِن الله إلى خَلْقِه، ولا مالَ له ولا أَتْباعَ، ولا فَصاحةَ له ولا بَيانَ؟!

قالوا: والعُقْدةُ التي كانت به في الابتداء زالَتْ[2] بدُعائه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾، وكان في غاية البَيان في حال مُخاطبةِ فرعونَ ومَلَئِه، لكنه وصفَه بما كان عرَفَه به في الابتداء؛ تَمْويهاً على الضَّعَفة بما كانوا علِموه منه قبل ذلك.

* * *

(٥٣) ـ ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾: قرأ عاصمٌ في رواية حفصٍ:

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦١٣) عن قتادة والسدي.

(٢) في (أ): «كانت زالت».

﴿أَسْوِرَةٌ﴾، وهي جَمْع: سِوارٍ، وقرأ الباقون: ﴿أساوِرة﴾، وهي جَمْع الجَمْع(١).

أي: فهلَّا أَلْقى إليه ربُّه أساورةً مِن ذهب؛ تنبيهاً على محَلِّه؛ كالملِكِ يُطَوِّقُ مَن يُريدُ إكرامَه بطَوْقٍ ذهبٍ، ويُسَوِّرُه بسِوارِ ذهبٍ.

وقيل: إنَّ زينةَ الملوكِ كان هو التَّحَلِّي بالأَسْوِرة، فكأنه قال: فهلَّا أرسَلَ إلينا ملِكاً مِن الملوك رسولاً.

وقولُه تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾: أو هلَّا ضَمَّ إليه ملائكةً، فيكونون معه مُتَتابعِين؛ كالملِك يضُمُّ إلى رسوله أتباعاً يتكثَّرُ بهم ويتجمَّلُ، ويُصَرِّفُهم في أوامره ونواهيه.

ظنَّ اللَّعِينُ أنَّ ما قاله أهيبُ، وأنَّ رسلَ اللهِ بالجنود يَقْوَون(٢)، ولم يُفَكِّرْ في أنَّ هَيْبةَ موسى بعَصاه كانت أكبرَ منها بجنود الأرض كلِّهم أنْ لو جُمِعوا له، وهذا فوق التَّطْويقِ والتَّسْويرِ بالذهب، ولا يخفى على عاقل أنَّ اثنين إذا التقَيا في مَحْفلٍ، وعلى أحدهما ثيابٌ رَثَّةٌ وله عِلْمٌ وأدَبٌ، والآخر في ملابسَ فاخِرةٍ وبه جهلٌ وسفَهٌ، فالأَوَّلُ أهيبُ في نفوسهم مِن الثاني.

واللَّعينُ قصَدَ بهذا التَّمْوِيهَ على الضَّعَفة، وكان شَبيهَ هذا قولُ مُشْركي قريش في حقِّ النبي ﷺ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

ثم قولُ اللَّعينِ: هلَّا أَلْقَى عليه ربُّه كذا، وهلَّا أرسَلَ معه الملائكةَ، ليس لإقراره بالله وملائكته ورسله، لكنْ بناهُ على قول موسى؛ يعني: إنْ كان الأمرُ على ما يقولُ(٣)، فهلَّا ضمَّ إليه ملائكتَه، وهلَّا أظهَرَ عليه تشريفَه وكرامَتَه.

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٧).

(٢) في (ر): «يقومون».

(٣) في (ر): «إن كان الأمر كما قال موسى».

(٥٤) ـ ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

وقولُـه تعالـى: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾: أي: عمِـلَ هـذا التَّمْوِيـه في قومه فأطاعوه.

والاستخفافُ[1]: الحَمْلُ على الخِفَّة؛ أي: حَمَلَهم بتَمْوِيهِه على أنْ خَفُّوا لأمره غيرَ مُسْتَثْقِلين له.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾؛ أي: في تكذيب موسى ومُخالفته، وجَمْعِ الجُموع لِمُحاربته.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾: خارِجيـن عـن طاعـة الله تعالـى، مُتَمَرِّديـن عليـه مُجاهِريـن بمعاصيـه.

* * *

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾: أي: أغضبونا[2] بهذا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾؛ أي: عاقَبْناهم ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ في البحر.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا ﴾: مُتَقَدِّمين إلى النار: جَمْعُ سالف؛ كالخلَف جَمْعُ خالِف، والخدَم جَمْعُ خادم، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿سُلُفاً﴾ بضم السين واللام[3]، وهو جَمْعُ (سَلِيف)، وهو بمعناه.

---

(١) في (ر): «والتمويه والاستخفاف».

(٢) في (ر) و(ف): «عصونا».

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٧).

وقولُه تعالى: ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾: أي: عِبْرةً؛ لأنه مِثالٌ يُتَمَثَّلُ به، ويثبُتُ به تشابُهُ الجُزْأَين بتشابُه الفِعْلَين، والمَثَلُ: الشَّبَهُ.

وقولُه: ﴿لِّلْآخِرِينَ﴾؛ أي: في السَّلَف والمَثَل جميعاً؛ أي: سلَفاً للآخِرين إذا ماتوا، ومَثَلاً لهم قَبْلَ أنْ يموتوا.

* * *

(٥٧) ـ ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾: لَمَّا نزَلَ قولُه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ قال المشركون: إنَّ النصارى يقولون: إنَّ عيسى إلهٌ يُعبَدُ مع الله، فرَدَّ اللهُ قولَهم عليهم بهذه الآيات: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾[1].

أي: ولَمَّا جُعِلَ عيسى ابنُ مريم شَبَهاً لله تعالى؛ أي: قالت النصارى: إنَّه ابنُ اللهِ وثالثُ ثلاثةٍ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾؛ أي: جعلَ قومُكَ يا محمد ـ وهُمْ قريشٌ ـ منه يصُدُّون؛ أي: مِن أجلِه عن التوحيد يُعْرِضون، وهذا على قراءةِ ضمِّ الصاد، وهي قراءةُ نافعٍ والكسائيِّ، ومَن قرأَ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسرها، وهي قراءةُ الباقين[2]، فمعناه: يضِجُّون سُروراً منهم بوُجود مَن يُوافِقُهم في عبادة غيرِ الله تعالى.

---

(١) روى نحوه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٩١٨)، والطبراني في «الكبير» (١٢٧٤٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٩٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٧٦).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٧)، ووافق ابنُ عامر نافعاً والكسائيَّ في ضم الصاد.

وقال الكسائي: هما لُغتان في الإِعْراض؛ كقولهم: (يَعْرِشُ ويَعْرُش)، و(يَعْكِفُ ويَعْكُفُ)، و(يَعْتِلُ ويَعْتُلُ)[1]، و(يَدِرُّ ويَدُرُّ)[2].

***

(٥٨) ـ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ﴾: أي: الملائكةُ الذين نعبُدهم ﴿أَمۡ هُوَ﴾: يَعْنون عيسى ابنَ مريمَ عليه السلام، وهو استفهامٌ بمعنى التَّقْرير منهم.

أي: الملائكةُ مِن أهل السماء، وعيسى أَرْضِيٌّ، فكان عندهم الملائكةُ خيراً مِن البَشَر، فإذا جازَتْ عبادةُ مَن في الأرض جازَتْ عبادةُ مَن في السماء، ولَمَّا جازَ لهم أنْ يجعلوا الأَرْضِيَّ ولَداً لله تعالى، جازَ لنا أنْ نجعلَ أهلَ السماءِ بناتٍ لله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾: أي: لم يضرِبوا لكَ هذا المثَلَ إلا إظهاراً للغلَبَة في المُجادلة دون طلَبِ الحقِّ بالمُباحثة، وليسوا بأهل الجدَلِ في هذا وحدَه ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾: مُجادِلون في كل شيء.

***

(٥٩ ـ ٦٠) ـ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾: أي: ما عيسى إلَّا عبدٌ أكرَمْناه بالنُّبُوَّةِ.

---

(١) في (أ): «ويقتل ويقتل». وعتَله يعتِله ويعتُله: جره عنيفاً. انظر: «القاموس» (مادة: عتل).

(٢) ذكره النحاس في «معاني القرآن» (٤٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢١٨)، وابن عطية في «تفسيره» (٥/ ٦٠).

﴿وَجَعَلْنَهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أي: عِبْـرَةً وآيـةً يُتَمَثَّـلُ بها في الاسـتدلال على قُـدْرة الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾: له وجوه:

أحدُها: ولو نشاءُ لجعَلْنا مِن الإنس ملائكةً بأنْ نخلُقَهم على صُورة الإنس ـ وإنْ كان خِلافَ العادة؛ كخَلْقِ عيسى مِن غير أبٍ خِلافَ العادةِ ـ في الأرض يَخْلُفُ بعضُهم بعضاً.

والثاني: لو نشاءُ لقَلَبْنا بعضَكم أو جميعَكم ملائكةً يخلُفُونكم في الأرض؛ كما جعَلْنا هؤلاء الملائكةَ الذين تعبدونهم سُكَّانَ السماوات، فليس إِسْكانُهم في السماء يُوجِبُ لهم إِلَهِيَّةً.

والثالثُ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾؛ أي: بدَلَكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾: يخلُفُونكم.

* * *

(٦١ ـ ٦٢) ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: قيل: إنَّ محمداً يُعْلَمُ به قيامُ الساعة؛ لأنه نبيُّ آخرِ الزَّمان.

وقيل: إن عيسى إذا نزل من السماء يعلم[1] به قيامُ الساعةِ.

وقُرِئَ: (لعَلَم) بفتح العين واللام[2]؛ أي: علامةٌ.

---

(١) في (ر) و(ف): «وقيل إن عيسى إنما نزل من السماء ليعلم».

(٢) نسبت لابن عباس وأبي هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك كما في «تفسير الثعلبي» (٨/ ٣٤١)، وعزاها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٣٤) إلى ابن مقسم وابن محيصن وحميد وقتادة.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: أي: لا تَشُكُّنَّ في قيام الساعة.

﴿وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: يعني: الإسلامَ.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: أي: عن الحقِّ بإيراد هذه الشُّبَه.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾: ظاهِرُ العَداوةِ.

* * *

(٦٣ ـ ٦٤) ـ ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ﴾: بني إسرائيلَ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾: قيل: أي: بالمُعْجِزات؛ كما قال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ﴾ الآية [آل عمران: ٤٩].

وقيل: أي: بأحكام الإنجيل.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾: أي: بوَضْعِ الأمور مَواضِعَها ﴿ولأبين لكم﴾: وجئتُكم لأُبيِّنَ لكم ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾:

قيل: كانوا يختلفون في أمور الدنيا والدِّين، فقال: أُبيِّنُ لكم أمورَ الدِّين، وهي بعضُ تلك الأمورِ.

وقيل: ﴿بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾؛ أي: كلَّ الذي؛ كما قال: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، وهذا ترقيقٌ(١) في الكلام.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾: وحِّدُوه وأطيعُوه.

---

(١) في (أ) و(ف): «توفيق».

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾: هكذا[١] كان يقولُ عيسى، فهو الحقُّ، دون ما تقولُ النصارى.

* * *

(٦٥) ـ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾: قيل: (مِن) زائدةٌ، ومعناه: بينهم. وقيل: أي: مِن جُمْلة بني إسرائيلَ، وقد بيَّنَّا ذلك في سورة مريم على الاستقصاء.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: أي: وضَعوا الأمرَ غيرَ مَوْضِعه.

﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾: أي: أليمِ العذابِ؛ كقوله: ﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]؛ أي: عاصِفِ الرِّيحِ.

وقد نزلَتْ هذه الآياتُ حين قرأَ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فعارَضوه بأمر عيسى، وقد بيَّنَّا القصَّةَ في آخر سورة الأنبياء، ونزلت هذه الآياتُ أيضاً[٢].

* * *

(٦٦ ـ ٦٧) ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: أي: ما ينتظِرُ هؤلاء الأحزابُ إلا القيامةَ أنْ تأتيَهم بَغْتَةً؛ أي: فُجاءةً.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: فيَقْضي بينهم فيما اختلَفوا فيه.

---

(١) في (ر): «هذا الذي» بدل من «هكذا».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٩٨)، و«أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٧٦).

وقولُه تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾: أي: أعداءٌ يتبرَّأُ بعضُهم مِن بعض، ويلعَنُ بعضُهم بعضاً، وهم المُتحَزِّبون على الباطل.

﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾: أي: إلا الذين تخالُّوا على تقوى الله، وإظهارِ دين الله.

وقيل: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾: في حقِّ مُشْركي العربِ[1]، ويتَّصِلُ بقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾؛ أي: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾: الذين يتخالُّون على مُخالَفة الرسول، ويتمنَّى بعضُهم لبعض النبوةَ، ويقول: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

* * *

(٦٨ ـ ٧٠) ـ ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾: أي: يقولُ اللهُ تعالى هذا للمتقين.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾: أي: صدَّقوا بالقرآن، وكانوا مُسْتَسْلِمين لله تعالى، مُنْقادِين لله، مُسْلِمين أنفسَهم لحُكْمِه.

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾: لِيَجْتَمِعَ شَمْلُكم ﴿تُحْبَرُونَ ﴾: أي: تُسَرُّون.

وقيل: هذا[2] بالسَّماع[3]؛ كما قال: ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم: ١٥]،

---

(١) في (ف) و(ر): «قريش».

(٢) في (ر) و(ف): «هو».

(٣) روي في هذا أخبار منها ما رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٨٦) عن مَعمَرٍ، عن يحيى بنِ أبي كَثيرٍ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠] قال: قيل: يا رسولَ الله ما الحَبرُ؟ قال: «اللَّذَّةُ والسَّماعُ بما شاء اللهُ مِن ذِكرِه»

وهو للحال؛ كقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ [الانشقاق: ٩]، ولو كان جزاءً لَجُزِمَ وحُذِفَت النون.

ويجوز أنْ يكونَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ابتداءً، ويكونَ في أول هذه الآية مُضْمَرٌ: يُقال لهم: ادخُلوا الجنة.

وقولُه تعالى: ﴿أَنتُمۡ﴾: يصلُحُ أنْ يكون ضميرَ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، و﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ عطفاً عليه، ويجوزُ أنْ يكون: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ ابتداءً، و﴿تُحۡبَرُونَ﴾ خبراً له.

* * *

(٧١) ـ ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾: أي: قِصاعٍ، جَمْعُ: صَحْفَةٍ.

﴿وَأَكۡوَابٖ﴾: أي: أَباريقَ لا عُرًى لها، واحدُها: كُوبٌ، وفي الصِّحافِ الأطعمةُ، وفي الأكوابِ الأشربةُ.

﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ**﴾: قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحفصٌ عن عاصمٍ: ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾، والباقون: ﴿ما تشتهي الأنفس﴾(١).

﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾: أي: وفي الجنة وراءَ هذه الأطعمةِ والأشربةِ مِن أصناف النِّعَم ما تشتهيه النُّفوسُ وتستلِذُّه العُيونُ؛ لإفراط حُسْنِه في المَرائي.

﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: لا تموتون فيها، ولا تُخْرَجون منها.

وقال القُتَبيُّ: جمعَ في قوله: ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ ما لو اجتمعَ

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٨)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٧).

الخَلْقُ كلُّهم على وَصْفِ ما فيها على التَّفْصيل لم يخرُجوا عما تَنْتَظِمُه هاتان اللفظتان[1].

* * *

(٧٢ ـ ٧٦) ـ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾: هذا كلُّه لأولياء الله تعالى.

ثم ذكَرَ حالَ الأعداءِ، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾: أي: المشركين الذين اكتسَبوا سَخَطَ اللهِ تعالى ﴿فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾: أي: لا يُخَفَّفُ عنهم ذلك العذابُ ﴿وَهُمْ فِيهِ ﴾: أي: في العذاب ﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: آيسون.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾: أنفسَهم بإيرادها مَوْرِدَ الهَلاكِ والخَسارِ.

* * *

(٧٧ ـ ٧٨) ـ ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾: أي: ولما أَيِسُوا مِن فُتور العذاب عنهم نادوا مالكاً، وهو خازنُ النارِ، وقالوا: لِيُمِتْنا ربُّكَ.

---

(١) ذكر نحوه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ٨١) من غير نسبة، والكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ١٠٦٧) عن القفال.

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾: أي: إنكم في العذاب أبداً لابِثون، يُجيبُهم بهذا بعد ألف سنةٍ. كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما[١].

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾: قيل: هو من تمامِ قولِ[٢] مالك.

وقيل ـ وهو الأوجهُ ـ: هو ابتداءُ خطابٍ مِن الله تعالى لمُشْركي العرب مِن[٣] قريش.

ومعناه: لقد أورَدْنا عليكم الحُجَجَ، فأخبَرْناكم بما أنتم صائرون إليه يوم القيامة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾: مُسْتَثْقِلون للنَّظَرِ والتأمُّلِ فيها.

هذا وصفُ أكثرِهم، والباقون مُقَلِّدون لهم.

***

(٧٩ ـ ٨٠) ـ ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٧٩٠)، وابن أبي الدنيا في «صفة النار» (٨٥)، والطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٤٩)، والدولابي في «الأسماء والكنى» (٨٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٧٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ورواه الترمذي (٢٥٨٦)، والفسوي في «مشيخته» (١٥١)، ومن طريقه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٤٧) عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعاً، ورواه الطبري في «تفسيره» (١٧/ ١٢٣) عنه موقوفاً.

قال الترمذي: إنما نعرف هذا الحديث عن شمر بن عطية، عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قوله، وليس بمرفوع.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٥٠) عن السدي.

(٢) في (ف): «كلام».

(٣) «العرب من» ليس في (أ) و(ف).

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾: أي: أبرَمَ هؤلاء الذين هُم للحق كارهون أَمْراً يُقَدِّرون به أنهم يَكيدون الحقَّ فيُبْطِلونه بالجدَل، فإنا مُبْرِمون أَمْرَنا في إبطال كيدهم لإظهار الحق، أم أبرَموا تدبيراً في ردِّ ما نريدُ إنزالَه بهم مِن العذاب؟! فإنا مُبْرِمون أمرَنا في إنزاله بهم على وجهٍ لا يُمكنُهم رَدُّه، والإبرامُ: الإِحْكامُ.

وقيل: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ﴾: عطفٌ على قوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، أم هُم عالمون بهذا إلا أنهم أبرَموا أمراً في شركهم يتحرَّزون به مِن عذابنا؟! فإنا مُبْرِمون.

قولُه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾: ﴿سِرَّهُمْ﴾: هو ما أَسَرُّوه في أنفسهم مِن تدبير ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾: وهو ما تشاوروا فيه فيما بينهم مما يُخْفُونه عن غيرهم.

﴿بَلَىٰ﴾: أي: ليس كما يتوهَّمون، بل نسمَعُ كلَّ ذلك ونعلَمُه.

﴿وَرُسُلُنَا﴾: أي: الحفَظَةُ ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾: ما يكون منهم.

* * *

(٨١) ـ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾: يتَّصِلُ بقوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾.

قال الكلبي: معناه: قل: إنْ كان للرحمن ولدٌ على زعمكم، فأنا أول الآنِفين مِن هذا الكلام أنْ يُقال: إنَّ لله ولداً على زعمكم[١].

(١) «على زعمكم» من (ر). وهذا القول ذكره عن الكلبي السمرقنديُّ في «تفسيره» (٣/ ٢٦٥)، وذكره الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ٦٥٦) من غير نسبة، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٦) عن قوم من أهل المعاني، ونقله الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٨١) عن أبي عبيدة والمبرد. وسيأتي عن أبي عبيدة لاحقاً.

وقال أبو عبيدة: أي: أولُ مَن يَعْبَدُ مِن ذلك؛ أي: يجحدُه ويستنكرُه وينتفي منه، قال الفَرَزْدَقُ:

أولئك أَكْفائي[١] فجِيئوا بمِثْلِهم وأعبَدُ أنْ أهجو كُلَيباً بدارِمِ[٢]

والفعل مِن باب: (علِمَ).

وقال القُتَبي: إنْ كان هذا مِن زعمكم ولم تُوحِّدوه، فأنا أوَّلُ الموحِّدين[٣].

وقيل: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾؛ أي: ما كان للرحمن ولدٌ، (إنْ) للنفي، فأنا أوَّلُ الموحِّدين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لَمَّا نزلت هذه الآيةُ فرِحَ المشركون، وظنُّوا أنَّ النبيَّ ﷺ تابعَهم على رأيهم، فقال النَّضْرُ بنُ الحارث: لقد وافقَنا محمد فيما نقولُ، وفطِنَ له عبد الله بن الزِّبعْرَى، فقال: إنه يقول: ما كان للرحمن ولدٌ[٤].

---

(١) في (ر): «آبائي».

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٦).

وصدر البيت في «مجاز القرآن» و«تهذيب اللغة» (٢/ ١٤١)، و«جمهرة الأمثال» للعسكري (١/ ٥١٢)، برواية:

أولئك قوم إن هجوني هجوتهم

وذكره ابن السكيت في «إصلاح المنطق» (ص: ٤٥)، والجوهري في «الصحاح» (٢/ ٥٠٣)، برواية:

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم

وذكره المعافى بن زكريا في «الجليس الصالح الكافي» (ص: ١٨٥)، برواية:

أولئك أكفائي فجئني بمثلهم

(٣) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢١٧).

(٤) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٣٥١)، وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢٦٦) من غير =

(٨٢ ـ ٨٣) ـ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾: أي: تنزيهاً لله تعالى مِن قول هؤلاء.

وقولُه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾: أي: فدَعْهم ـ يا محمد ـ وخَوْضَهم في الباطل، ولَعِبَهم في الدِّين بالجدال بما لا حقيقةَ له، واشتغالَهم بالدنيا التي هي لعِبٌ، حتى يجيئوا يوم القيامة فيَلْقَوا ما يوعدون فيه.

* * *

(٨٤ ـ ٨٥) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾: أي: وهو المُسْتحِقُّ للعِبادة في السماء، لا مُسْتَحِقَّ لها في السماء غيرُه، ولا أحدَ يستحقُّ صفةَ الإلهيَّةِ سواه، فلا ولدَ له في السماء ولا شريكَ، وهو في الأرض إلهٌ، ولا ولدَ له في الأرض ولا شريك له، وهو إبطالُ قولِ القائلين بأنَّ الملائكةَ في السماء بناتُه، والمسيحَ في الأرض ابنُه، وإبطالُ قولِ عبَدَةِ الشمس والقمر والنجوم.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾: في أقواله وأفعاله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن ـ ولا يكونُ ـ أنْ لو كان كيف كان يكون.

= نسبة، وفيهما أن القائل له ذلك الوليد بن المغيرة، وليس عبد الله بن الزبعرى.

وذكر نحوه مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٨٠٥)، ونقله عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٦٥).

وقولُـه تعالـى: ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾: وهـذا ظاهرٌ.

***

(٨٦) ـ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

وقولُـه تعالـى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾: أي: هـؤلاء يعبُـدون الشـياطينَ والجنَّ، ويقولـون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونـس: ١٨]، ولا شـفاعةَ إلا لِمَـن شـهِدَ بالحـق بكلمـة التوحيد.

وقولُه تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾: أي: يعتقدون ذلك عن عِلْمٍ.

و﴿شَهِدَ ﴾: على الواحد؛ للَفْظِ (مَن)، و﴿يَعْلَمُونَ ﴾: على الجَمْع؛ لأنه جنسٌ.

أي: الشفاعةُ تكون ممَّن أقَرَّ واعتقدَ عن عِلْم، لا ممَّن كان كافراً بالله تعالى.

وقيل: أي: الملائكةُ الذين يعبُدونهم هؤلاء لا يشفعون إلا لِمَن شهِدَ بالحقِّ وعَلِمَه؛ أي: للمؤمنين بإذن الله.

***

(٨٧ ـ ٨٩) ـ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

وقولُـه تعالـى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾: أي: ولئـن سـألْتَ هـؤلاء المشـركين: مَـن خلقَهـم؟ لأقـروا أنَّ اللهَ تعالى خلَقَهـم، لا الملائكـةَ ولا الأصنامَ.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾: أي: فكيف ومِن أين يُصْرَفون عن التوحيد مع هذا الإقرار؟!

وقولُه تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾: قرأ حمزةُ وعاصمٌ في رواية حفص: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالخفض، عطفاً على قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، وعنده عِلْمُ قيلِه.

وقرأ الباقون: ﴿وقيلَه﴾ بالنصب[1]، عطفاً على قوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾.

وقيل: على إضمار الفعل؛ أي: وقال الرسولُ قِيلَه: يا رب.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: شكا إلى الله تعالى تَرْكَهم الإيمانَ، فقال اللهُ له:

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾: أي: فأعرِضْ عن مُؤاخذتهم بسُوء أفعالِهم.

﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾: أي: سلامةٌ لكم عن قتالي إلى أنْ أومَرَ به.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾: عاقبةَ أمرِهم.

والحمدُ لله رب العالمين

* * *

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٨٩)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٧)، وقراءة عاصم من روايتيه بالجر، سوى ما رواه المفضل عنه.

سُورَةُ الدُّخَانِ

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باسم اللهِ مُنَزِلِ الكتاب المُبين، الرَّحمنِ مُرسِلِ الرسول الأمين، الرَّحيمِ مُوصِلِ المتقين إلى الجنات والحُور العِين.

وروى أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة ﴿حمٓ﴾ الدُّخان في ليلة جُمُعةٍ غفَرَ اللهُ تعالى له»[1].

---

(١) رواه المستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١١)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٨٥)، وهو قطعة من حديث أبيٍّ في فضائل السور الذي ذكر مقطعاً في هذا الكتاب عند كل سورة، وقد حكم عليه العلماء بالوضع، وتقدم الكلام عليه مراراً لكن ذكر للحديث شواهد مرفوعة ضعيفة وأخرى مرسلة.

فقد رواه الترمذي (٢٨٨٩)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٢١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦٢٣٢)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٧٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٨)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (٨٩٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٤٧) من طريق الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدام يضعف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة.

ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٤٨) من طريق هشام بن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وقال: تفرد به هشام، وهو هكذا ضعيف.

أما المرسل فمنه ما رواه المستغفري في «فضائل القرآن» (٨٩٥) عن رجل من أهل البصرة يكنى أبا الحارث حدثهم يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له». =

وسورةُ الدُّخانِ مكّيَّةٌ.

وهي تسعٌ وخمسون آيةً. وقيل: سبعٌ وخمسون، والاختلافُ في: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾، ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾.

وكلماتُها: ثلاثُ مئةٍ وستٌّ وأربعون.

وحروفُها: ألفٌ وأربعُ مئةٍ وتسعةٌ وثلاثون.

وانتظامُ أوَّلِ هذه السورة بآخر تلك السورة: أنَّ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ، و﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ أيضاً وعيدٌ وتهديدٌ.

وانتظامُ السورتين: أنَّهما في مُحاجَّةِ المشركين ووعيدِهم، ومَدْحِ المؤمنين ومَواعيدهم.

* * *

= ورواه الدارمي في «سننه» (٣٤٦٣) عن عبد الله بن عيسى قال: (أُخبِرتُ أنه مَن قرأ حم الدُّخان ليلةَ الجمعةِ إيمانًا وتصديقًا بها، أصبحَ مغفورًا له).

ورواه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٢٢) عن الحسن، وفي (٢٢٣) عن إسحاق بن عبد الله نفيع بن رافع بن أبي فروة.

ورواه الدارمي في «سننه» (٣٤٢١)، والمروزي في «مختصر قيام الليل» (ص: ١٦٩)، عن أبي رافع قال: (مَن قرأ حم الدخان في ليلة الجمعة، أصبحَ مغفورًا له، وزوج من الحور العين). أبو رافع هو نفيع الصائغ وهو تابعي ثقة يروي عن عمر وعثمان، من رجال «التهذيب».

وروى الطبراني في «الكبير» (٨٠٢٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٨)، وقوام السنة في «الترغيب والترهيب» (٩٤٥) عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: «من قرأ حم الدّخان في ليلة الجمعة ـ أو يومَ الجمعة ـ بنى الله له بيتاً في الجنّة». قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠١٧): فيه فضال بن جبير، وهو ضعيف جداً.

(١ ـ ٣) ـ ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾: مرَّ تفسيرُه مرَّاتٍ.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾: أي: أنزَلْنا هذا الكتابَ ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾: قال قتادة وابن زيد وجماعة: هي ليلةُ القَدْر[١].

والبركةُ: كثرةُ الخيرِ ونماؤُه ودوامُه، وهي أعظم الليالي قَدْراً، وخيرٌ مِن ألف شهر نصًّا، وفيها نزولُ الخيرات والبركات، وتَضاعُفُ أجورِ الطاعات، وقضاءُ الحاجات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾، وهي في شهر رمضان، وقد قال الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ورُوي: أنَّ القرآن أُنزِلَ جُمْلةً إلى السماء الدنيا في هذه الليلة، ثم أُنْزِلَ على رسول الله ﷺ نجوماً بعد ذلك على حسَبِ اتِّفاقِ الأسباب[٢].

وقيل: ابتداءُ إنزالِه في هذه الليلة.

وقيل: هي ليلةُ النِّصْف مِن شعبان، وممَّن قال به عكرمةُ[٣].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥ ـ ٦) عن قتادة وابن زيد، وذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٩).

وهو قول ابن عباس فيما رواه الطبراني في «الكبير» (١٢٠٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٨٨)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٨٧): وهو قول الأكثرين.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٣/ ١٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما والسدي وسعيد بن جبير والشعبي وغيرهم.

(٣) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٩)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٤٤).

=

وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾: أي: مُخَوِّفين بالكتابِ والرسولِ الخَلْقَ بالعذاب؛ رَدْعاً عن الكفر والمعصية، وشَوْقاً إلى الإيمان والطاعة.

* * *

(٤) ـ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.

= وقد رد العلماء هذا القول وأثبتوا أنها ليلة القدر، فقال ابنُ العربيِّ: وجمهورُ العلماءِ على أنَّها ليلةُ القَدْرِ، ومنهم مَن قال: إنَّها ليلةُ النِّصْفِ مِن شَعْبَانَ؛ وهو باطِلٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في كتابه الصَّادِقِ القاطِعِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ فَنَصَّ على أنَّ ميقاتَ نُزُولِهِ رمضانُ، ثُمَّ عَبَّرَ عن زَمَانِيَّةِ الليلِ هاهنا بقولِهِ: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ فَمَن زَعَمَ أنه في غَيْرِه فقد أَعْظَمَ الفِرْيَةَ على الله. انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/ ١١٧).

وقال المُبَارَكْفوري: «اعْلَمْ أنَّ المرادَ مِن ﴿لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ عندَ الجمهورِ هي ليلةُ القَدْرِ، وقيل: هي ليلةُ النِّصفِ مِن شعبانَ، وقولُ الجمهورِ هو الحقُّ، قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ: مَن قال: إنَّها ليلةُ النِّصْفِ مِن شعبانَ، فقد أَبْعَدَ النُّجْعَةَ، فإنَّ نصَّ القُرآنِ أنَّها في رمضان». انظر: «تحفة الأحوذي» (٣/ ٣٦٧). وكلام ابن كثير في «تفسيره» في أول تفسير سورة الدخان.

وقال الملا علي القاري «المرقاة»: «قال جماعةٌ مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ في الآيةِ هي ليلةُ النِّصْفِ مِن شَعْبانَ، إلَّا أنَّ ظاهرَ القرآنِ ـ بل صريحُه ـ يَرُدُّه؛ لإفادَتِهِ في آيةٍ أَنَّهُ نَزَلَ في رمضانَ، وفي أُخْرى أَنَّهُ نَزَلَ ليلةَ القَدْرِ، ولا تَخالُفَ بينَهُما؛ لأنَّ ليلةَ القَدْرِ مِن جُملةِ رمضانَ... وإذا ثَبَتَ أنَّ هذا النُّزولَ ليلةَ القَدْرِ ثَبَتَ أنَّ اللَّيلةَ التي يُفْرَقُ فيها كلُّ أمرٍ حَكيمٍ في الآيةِ هي ليلةُ القَدْرِ، لا ليلةُ النِّصْفِ مِن شعبانَ...». انظر: «مرقاة المفاتيح» (٣/ ٩٧٤).

وللملا علي القاري رسالة في فضل ليلة القدر وليلة النصف من شعبان سماها: «التِّبيانُ في بيانِ فَضْلِ ليلةِ النِّصفِ من شَعبانَ وليلةِ القَدْرِ من رَمَضانَ» وفيها خالف ما قاله في «المرقاة» فجَعَلَ الأوَّلَ قولَ الجُمهور، مُخالِفاً بذلك قولَ أئمَّةِ التَّفسير؛ كابنِ العربيِّ والقُرْطُبيِّ والنَّسَفيِّ وابنِ كَثِير، وهي مطبوعة في (دار اللباب) ضمن «مجموع رسائله» الذي منَّ الله علينا بالمشاركة في تحقيقه، وما نقلناه هنا هو بعض ما قدمنا به لتلك الرسالة. (ماهر).

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ ﴾: أي: في هذه الليلة يُبيَّنُ ويُفَصَّلُ ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: مُحْكَمٍ في قِسْمة الآجال والأرزاق والأحوال المُتَصرِّفة بالخَلْق، وهو كقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ﴾: أي: بيَّنَّاه وفصَّلْناه.

والحكيمُ في معنى المُحْكَم؛ كالبَديع بمعنى المُبْدَع.

وقيل: الأمرُ الحكيم؛ أي: الأمر الصواب، وهو مِن الحكمة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُقضى الأَقْضِيَةُ كلُّها ليلةَ النصف مِن شعبان، وتُسَلَّمُ إلى أربابها ليلةَ السابع والعشرين مِن شهر رمضان(١).

وقال الضحاك وعكرمة: يُرفَعُ فيها أمْرُ السنة الماضية، ويُفَصَّلُ للسنة المُقْبلة(٢).

وقال أبو العالية: يُقضى أمْرُ السنةِ في ليلة القدر مِن خَلْقٍ ورزقٍ وحياةٍ وموتٍ(٣).

وقال محمد بن كعب القُرَظي: يُكْتَبُ الحاجُّ بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يُغادَرُ منهم أحدٌ(٤).

* * *

(٥ ـ ٧) ـ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾: أي: يُفْرَقُ بأمْرٍ منا.

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٢٤٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٧) عن الحسن وأبي مالك، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٩) عن الحسن ومجاهد وقتادة.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «فضائل رمضان» (٧)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٤٩) عن عكرمة.

وقولُـه تعالـى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: قيـل: أي: الملائكـةَ فـي تلـك الليلـة إلـى الأرض[١]؛ للسـلام علـى المؤمنيـن، ولإيصـال الكرامـات إلـى المُسْـتَحِقِّين.

وقيل: أي: الأنبياءَ إلى أُمَمهم في زمانهم.

وقولُه تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: إنما نُرسِلُهم رحمةً منا للخَلْق.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: السَّامعُ أقوالَهم، العالمُ ضمائرَهم وأحوالَهم.

وقولُه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾: صفةٌ لقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ على قراءة الخَفْض، وهي قراءةُ عاصمٍ وحمزةَ والكسائيِّ، وصفةٌ لقوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ على قراءة الرَّفع، وهي قراءة الباقين[٢].

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾: أي: فوحِّدُوه بأنه ربُّ السماوات والأرض، فإنَّ الإيقانَ بذلك يُوجِبُ الإيمانَ.

* * *

(٨ ـ ١٠) ـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: أي: يُحييهم بعد أنْ كانوا أمواتاً، ثم يُميتهم عند[٣] انقضاء آجالهم، وإذا قَدِرَ على هذا قَدِرَ على إحيائهم وبَعْثهم بعد موتهم.

وقولُه تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: المالكُ والمُصرِّفُ والمُدَبِّرُ للكل.

---

(١) «إلى الأرض» زيادة من (أ).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨).

(٣) في (ف): «بعد».

وقولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ﴾: أي: ليسو بمُوقنين، بل هُم مُقَلِّدون شاكُّون.

﴿يَلۡعَبُونَ﴾: في دينهم، يَدينون بما لا دليلَ على صِحَّته، ولا يتأمَّلون في عاقبته؛ كالصَّبيِّ يلعبُ فيفعل ما لا يَدري كيف عاقبتُه، ولعلَّه يُؤَدِّيه إلى مكروه.

وقولُه تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾: أي: فانتظِرْ يا محمد.

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾: قال ابن مسعود رضي الله عنه والضحاك: الدُّخانُ: الظُّلْمةُ التي كانت تغشى أبصارَ المشركين مِن قريش لشدَّةِ الجوع حين دعا عليهم النبي ﷺ، فقال: «اللهم اجعلْ سِنينَ كسِنِي يوسف»[(١)].

أي: انتظرْ بهم[(٢)] نزولَ هذا العذابِ، فإنه كائن.

***

(١١) ـ ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾: أي: يَلْبَسُهم ويَعُمُّهم.

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: أي: قرُبَ منكم هذا العذابُ الوجيعُ؛ كما يُقالُ: هذا الشتاء؛ أي: قرُبَ مجيئُه.

وقالوا: إنَّ يُبْسَ الأرضِ يثورُ منه في الهواء شِبْهُ الدُّخان مِن الغُبار المُتكَدِّر الذي يَشُوبُه ظُلْمَةٌ، والعرب تُسَمِّي سَنَةَ المَجاعةِ غَبَراً، وسمَّوا السَّنَةَ التي كان فيها قَحْطٌ في زمن عمر رضي الله عنه عامَ الرَّمادة.

---

(١) رواه مطولاً البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٠٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٨٩) عن مجاهد وأبي العالية والضحاك وابن السائب ومقاتل.

(٢) في (أ): «انتظرهم».

ومعنى: ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي﴾؛ أي: زمانَ تأتي[1]، فإنه يمتدُّ ولا يقتصِرُ على يوم، وهذا الاسم مُستعمَلٌ في مُطْلَق الوقت.

* * *

(١٢) ـ ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾.

﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾: أي: يقول هؤلاء عند نزول العذاب: يا ربَّنا اكشِفْ عنا.

﴿إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾: أي: نُؤمِنُ إنْ كشَفْتَه عنا.

وقيل: أي: نحن مُصَدِّقون في الحال أنَّكَ القادرُ على كَشْفِه، وعلى كَشْفِ كلِّ شيء، ولا يكشِفُ مِثْلَه إلا أنتَ.

وقيل: إضْمارُ القولِ قَبْلَ قولِه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ أي: المشركون يقولون ذلك، ويَصِلون به قولَهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ﴾.

* * *

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: أي: مِن أين لهم أنْ يتذَكَّروا؟! وكيف يتذَكَّرون ولم يتذَكَّروا بالرسول الذي جاءَهم؟! وهو قولُه:

﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾: أي: محمد.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾: أي: أَعْرَضوا عن تصديقه ومُتابعته.

﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ﴾: علَّمَته الشياطينُ ما يقول أنه قرآنٌ مُنَزَّلٌ مِن الله تعالى؛ كما تعلِّمُ الكَهَنَةَ.

---

(١) بعدها في (ر): «فيه» مستدركة بالهامش.

وقيل: يُعَلِّمُه جَبْرٌ ويَسارٌ أبو فُكَيْهَةَ[1]؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿مَّجْنُونٌ﴾: لا عَقْلَ له، فإذا لم يتَّعِظوا بالقرآن، وبما كان مِن رسول الله تعالى مِن البَيان والبُرْهان، فكيف بالدُّخان؟!

* * *

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾: أي: بعضَ هذا العذابِ نمتَحِنُهم بالشكر والوفاء بالعَهْد، أو: نكشِفُه مدةً قليلةً.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾: أي: تَعودون إلى الكفر الذي كنتم فيه، ثم قال: ﴿نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: وفيه اختصارٌ وتقديمٌ وتأخيرٌ؛ أي: فإذا عُدتُم فإنا مُنْتَقِمون منكم ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾؛ أي: يوم نأخُذُكم الأَخْذَةَ العُظْمى؛ أي: بعذابٍ هو أكبرُ مِن الأول.

* * *

(١٧) ـ ﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: هكذا؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ

---

(١) روى الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٦٧) عن عبد الله بن مسلم الحضرمي: أنه كان لهم عبدان من أهل عير اليمن، وكانا طفلين، وكان يقال لأحدهما يسار، والآخر جبر، فكانا يقرآن التوراة، وكان رسول الله ﷺ ربما جلس إليهما، فقال كفار قريش: إنما يجلس إليهما يتعلم منهما. وانظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، فقالوا لموسى: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: ١٣٥ ـ ١٣٦]، فكذلك كان حالُ قُريشٍ، وكان الانتقامُ منهم بعد ذلك بالقَتْل يومَ بدرٍ، وهو البَطْشَةُ الكبرى، وعلى هذا أكثرُ المفسِّرين.

وقال الضحاك: كان رسول الله ﷺ بمكة، فأصابَ المُشركين دُخانٌ عظيمٌ، ونالَ المؤمنين منه كالزُّكَام، و﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: يوم بدرٍ[1].

وفي الآية قولٌ آخرُ:

قال ابن عباس والحسن وجماعة: هو مِن أشراط الساعة[2]، فيكون في آخر الزمان؛ كالدَّجَّال، والدَّابَّة، وطُلوع الشمس مِن مغربها، و﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: عذابُ النارِ يومَ القيامة.

وقال قتادة: كنا نُحَدَّثُ أنَّ مَثَلَ الأرضِ يومئذ كمَثَلِ بيتٍ أُوقِدَتْ فيه نارٌ، فصار أهلُها كالشيءِ الحَنيذ؛ أي: المَشْوِيِّ[3].

وقال الضحاك: يأخذُ المؤمنَ كالزُّكام، ويدخُلُ في مَسامع الكفار والمنافقين وفي جُلودهم، وإنَّ التوبةَ مقبولةٌ.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: يجيءُ الدُّخانُ، فيأخُذُ المؤمنَ كهيئة الزُّكام، وينفُخُ في الكافر حتى يتَّقِدَ[4].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة وقتادة والحسن.

(٣) ذكر نحوه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٩)، والماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ١٩٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٠) من غير نسبة.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٠٤) عن علي رضي الله عنه، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٨) =

وقال الحسن: الدُّخانُ لم يَمْضِ[١]، وإنما هو[٢] مِن أشراطِ الساعة والبَطْشَةِ الكبرى يوم القيامة.

وعن علي رضي الله عنه قال: لم يَمْضِ الدُّخان، وإنه يكون يوم القيامة يُفَرَّقُ به بين المؤمن والكافر[٣].

وعلى هذا معنى الآيات: فانتظِرْ يا محمد، ودَعْهُم ولَعِبَهم، فإنَّ بين أيديهم يوماً يأتيهم فيه العذابُ فيتوبون فلا تُقْبَلُ توبتُهم، وذلك إذا أتى الدُّخانُ، فيقولون: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، ولا يُقبَلُ إيمانُهم؛ لأنه حالَ بَأْسٍ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣] ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾؛ أي: يزولُ هذا الدُّخانُ، وينكشِفُ عنهم العذابُ مُدَّةً ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلى عذابٍ أكبرَ منه ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾: يومَ القيامة.

وأكثرُ أهلِ العلم على هذا، والأوَّلُ قولُ ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد روى الأَعْمَشُ عن مسلمٍ عن مسروقٍ قال: كان رجلٌ في المسجد يُحَدِّثُ، فقال فيما يقول: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ إذا كان يومُ القيامة يكون دخانٌ يأخذُ[٤] بأسماع المنافقين[٥] وأبصارِهم، ويأخذُ المؤمنين منه كهيئة الزُّكام، قال:

= عن ابن عمر رضي الله عنه.

وعزاه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ١٩٩) إلى علي وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما والحسن.

(١) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٩).

(٢) في (أ): «وإنه».

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ) و(ف): «آخذ».

(٥) في (ر) و(ف): «الكافرين والمنافقين».

فقُمْنا ودخَلْنا على عبد الله بن مسعود وهو في بيته، فأخبَرْناه، وكان مُتَّكِئاً فجلَسَ، ثم قال: أيُّها الناس، مَن علِمَ عِلْماً فليقُلْ به، ومَن لم يَعْلَمْ فليقُلْ: اللهُ أعلمُ، وسأُخبِرُكم عن الدخان: إنَّ قريشاً لَمَّا استعْصَتْ على النبي ﷺ قال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عليهم بسَبْعٍ كسَبْعِ يوسفَ»، فأصابَتْهم سنَةٌ، حتى كانوا يأكُلون الجِيَفَ، حتى إنَّ أحدَهم كان يَرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان مِن الجوع، وكان الرجلُ يُحَدِّثُ الرجلَ، فيسمَعُ كلامَه ولا يراه مِن الدخان، فدَعَوا، فكُشِفَ ذلك عنهم، ثم قال: «أرَأيتُم لو كان هذا يوم القيامة: أكان يُكشَفُ عنهم؟»، فأُخِّرُوا إلى يوم بدر، وهو يوم البَطْشَة الكبرى[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: أي: امتَحَنَّا بالإيمان والطاعة قَبْلَ هؤلاء المشركين قومَ فرعونَ.

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾: على الله، قد اصطفاه لرسالته.

* * *

(١٨ ـ ٢٠) ـ ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾: أي: بأنْ أدُّوا؛ أي: أرسِلوا بني إسرائيل، فإنهم عبادُ اللهِ لا عبادُكم، فلا تستعبِدوهم، ولا تُسَخِّروهم، ولا تَمْتَهِنُوهم[2] في الأعمال الخَسيسة.

وقيل: أدُّوا حقَّ اللهِ يا عبادَ اللهِ، نصبٌ على النداء.

---

(١) رواه البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٠٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٤).

(٢) في (أ): «تمتحنوهم».

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: مُؤتَمَنٌ غيرُ مُتَّهَمٍ في النُّصْح لكم.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾: أي: لا تترفَّعوا عن طاعة الله، وطاعةِ مَن ألزَمَكُم طاعتَه.

﴿إِنِّي ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾: أي: حُجَّةٍ بيِّنةٍ على ما أدَّعِيه.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾: أي: تقتُلوني بالحجارة. قاله قتادة[1]، وكانوا اعتادوا ذلك فيمَن أرادوا إهلاكَه.

وقال ابن عباس وأبو صالح: أي: تشتِموني[2].

* * *

(٢١ ـ ٢٣) ـ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾: أي: إنْ لم تُصَدِّقوني فيما أقولُ ففارِقُوني وكونوا بمَعْزِلٍ مني إلى أنْ يحكُمَ اللهُ بيننا.

وقولُه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾: أي: مُشرِكون مُصِرُّون على الكفر، لم يُرْسِلوا بني إسرائيل، وعلَوا على الله.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾: أي: فدعا ربَّه بالنُّصْرة والنَّجاة، فأجَبْنا دعاءَه، وقلنا له: اذهبْ ببني إسرائيل الذين آمنوا بكَ ليلاً.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾: أي: يتَّبِعُكم فرعونُ وقومُه، فاجعلوا ذلك ليلاً؛ لِيكونَ أَهْوَنَ عليهم، وأشغَلَ عن الاستعداد، وأبطَأَ للَّحاقِ[3].

---

(١) رواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨١٢)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٢).

(٢) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١ ـ ٣٢)، وذكره ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ٧١).

(٣) في (ف): «للحوق».

(٢٤) ـ ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾: قال أبو عُبيدةَ وقُطْرُبٌ: أي: ساكناً[1].

وكان أُمِرَ أنْ يَضْرِبَ البحرَ بعَصاه حتى انفلَقَ طُرُقاً، وقامَ في الهواء، فلما عبرَ خاف أنْ يَدْخُلَه فرعونُ وقومُه، ويعبُروا كما عبرَ هو وبنو إسرائيل، فقال الله تعالى له: امضِ أنتَ واترُكْهُ كذلك، فإنهم يدخلُون لكنْ يَغْرَقون ولا يعبُرون، وذلك قولُه: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

وقيل: الرَّهْوُ: الواسعُ المُنفَرِجُ؛ أي: أُتْرُكْه كذلك.

وقال الكسائيُّ: يُقالُ: جاءت الإبلُ رَهْواً؛ أي: يتبَعُ بعضُها بعضاً[2].

يقول: أُتْرُكِ البحرَ يدخُلْ فيه فرعونُ وقومُه مُتَتابِعين ثم يغرَقون.

والجُندُ جمعٌ بمعناه؛ فلذلك قال: ﴿مُّغْرَقُونَ﴾، وفردٌ بلفظِه؛ فلذلك قال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١].

* * *

(٢٥ ـ ٢٨) ـ ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾: أي: ففعَلَ، ودخلَ البحرَ فرعونُ وقومُه، فأُغرقوا، وترَكوا بساتينَ كثيرةً فيها أشجارٌ مُظِلَّةٌ وعيونٌ نابِعةٌ بالمياه.

---

(١) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٨)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٥٠) عن الكلبي والأخفش وقطرب.

(٢) انظر: «غريب الحديث» للحربي (٢/ ٦٨٠)، و«تهذيب اللغة» للأزهري (٦/ ٢١٣).

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: يعني: محافلَ الاجتماعاتِ للتدبُّرِ في الأمور والتَّشاوُرِ فيها، وهو كقوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم: ٧٣].

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾: أي: تَنَعُّمٍ في عيش كانوا يتقلَّبُون فيه لاعِبين لاهِين.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: كذلك كان أمرُهم.

﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾: هم بنو إسرائيلَ؛ أي: نقَلْناها إليهم بعدَهم نَقْلَ الميراثِ.

فإنْ قيل(١): كيف كانت أموالُهم باقيةً حتى ورِثُوها وقد دعا موسى ربَّه فقال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]؟!

قُلنا: يحتملُ أنْ يكون طَمْساً على ما سوى الجِنان والعُيون والزُّروع والمَقام الكريم، فجرى الإرثُ في ذلك.

* * *

(٢٩) ـ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾: كان الكبيرُ في العرب إذا مات قالوا: بكَتْ له السماءُ والأرضُ، يَعْنون به أنَّ المصيبة به(٢) عمَّتِ الخَلْقَ، فبكى له الكلُّ؛ أي: لو جازَ أنْ يوجدَ مِن السماء والأرض بُكاءٌ على ميِّتٍ لَوُجِدَ منهما عليه.

وأرادَ به: أنَّه لم يظهَرْ بَعْدَهم مِن آثار المُصيبة بهم ما يَظْهَرُ في مَصائبِ ذوي الأَقْدار والأَخْطار؛ أي: ما بكى عليهم أهلُ السماء وأهلُ الأرض، فأُضمِرَ الأهلُ كما أُضْمِرَ في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

---

(١) في (أ): «قالوا».

(٢) في (ف): «قد».

روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: «ما مِن مسلمٍ إلا وله بابانِ في السماء: بابٌ يَصْعَدُ فيه عمَلُه، وبابٌ ينزِلُ منه رزقُه، فإذا مات المؤمنُ بكى عليه باباه»[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا مات المؤمن بكى عليه مُصلَّاه وبابُه الذي يصعَدُ فيه عملُه في السماء[٢].

فعلى هذا لم يكن للكافر[٣] في الأرض مَوْضِعُ عبادةٍ، ولا في السماء مَصْعَدُ طاعةٍ، فلم تبكِ عليه السماءُ والأرضُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾: أي: مُمْهَلِين بعد حُلول وقتِ هلاكِهم.

***

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ﴾: وهو استعبادُ فرعونَ وقومِه إياهم، واستعمالُهم في الأعمال الخَسيسة، وذَبْحُ الأبناءِ، واسترقاقُ البناتِ.

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٥٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤١٣٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٣)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٩٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٢).
قال الترمذي: حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث.

(٢) رواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٢٨)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٠١٨).

(٣) في (أ) و(ف): «لهم».

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾: أي: مُتَغلِّباً[1] قاهراً للعباد.

﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: أي: المُجاوزين حدودَ اللهِ، المُفْرِطين في معاصيه.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾: أي: بني إسرائيلَ.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي: على عِلْمِنا بصلاحهم لذلك، وقيامِهم بشكره.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: على عالَمِي زمانِهم، بأنْ جعَلْنا فيهم الكتابَ والحِكْمةَ[2] والنبوةَ والمُلْكَ.

وقيل: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ أي: على عِلْمٍ آتيناهم وأحوَجْنا إليهم غيرَهم.

وهذا الاختيارُ يجوزُ أنْ يكون خاصًّا لِمَن جعَلَ اللهُ فيه النبوةَ منهم، ويكون كقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويجوزُ أنْ يكون عاماً لبني إسرائيل الذين كانوا مع موسى، اختارَهم بالإِنْجاء وإغراقِ الأعداءِ؛ لعِلْمِه بأنَّ فيهم الأنبياءَ وأتباعَ الأنبياءِ.

* * *

(٣٣ ـ ٣٥) ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾: أي: أعطينا بني إسرائيلَ مِن العلاماتِ

---

(١) في (ر): «متعلياً».

(٢) «والحكمة» ليست في (أ) و(ف).

الدالَّةِ على إنعامي عليهم؛ مِثْلَ فلَقِ البحر، وتَظْليلِ الغَمام، وإنزالِ المنِّ والسَّلْوى ﴿مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾؛ أي: ما يُعْلَمُ به إنعامي عليهم ظاهراً.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: إنَّ هؤلاء المشركين ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: لا موتَ سوى موتتِنا الواحدةِ التي يموتُها[1] الناس.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾: أي: بمبعوثين بعدها.

وذِكْرُ الأولى ليس لإثبات الثانية منهم، بل أرادوا نَفْيَ مَوْتَةٍ أخرى بعدها.

* * *

(٣٦) ـ ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾: أي: ائتوا بآبائنا الذين ماتوا أحياءً ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أنَّ بَعْدَ الموتِ حياةً؛ لِنَعرِفَ ذلك بالمشاهدة، وهذا مبنيٌّ منهم على جهل، فإنَّ اللهَ قادرٌ على إحيائهم بعد الموت في الدنيا كما فعَلَ ذلك بكثير مِن الماضين، لكنَّه لا يفعلُه لغير الوقت الذي حكَمَ بإحيائهم فيه، وقد أقامَ الدِّلالةَ على قُدْرَته على ذلك بما اعترَفوا به مِن قُدْرَته على الابتداء، وهو أعجبُ مِن الإعادة.

ومعنى قولِه: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾: أي: فادْعوا ربَّكم يُحْيِهم.

ورُوِيَ أنَّ أبا جهل ـ لعنةُ اللهِ عليه ـ قال للنبي ﷺ: أَحيِ لنا جدَّكَ قُصَيَّ بن كِلابٍ، فإنه كان صادقاً، فنسألَه عنكَ وعن صِدْقِ ما[2] تقولُ، وعن البعث بعد الموت، فنزلت الآية[3].

---

(١) في (ر) و(ف): «يموت بها».

(٢) في (ف): «وعن صدقك وما» وفي (ر): «وعن ما».

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٥٥)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٢٩).

وقيل ـ وهو قولُ الفراء ـ: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا﴾ خاطَبوا به النبيَّ خاصَّةً(١)؛ أي: ادعُ اللهَ تعالى أنْ يُحيِيَهم لنا.

***

(٣٧) ـ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: ليس قُرَيشٌ بأقوى وأكثرَ عُدَّةً مِن قوم تُبَّعٍ والمُتقدِّمين، وقد أهلَكْناهم بجُرْمِهم، وهؤلاء مُجرمون أيضاً، فنفعلُ بهم كذلك.

وتُبَّعٌ: مَلِكُ اليَمَنِ.

قال الكلبي: إنما ذُكِرَ قومُ تُبَّعٍ؛ لأنهم أقربُ إلى أهل مكة في الهلاك مِن غيرهم، وسُمِّيَ تُبَّعاً لكَثْرة أتباعِه، وتُبَّعٌ ليس باسم المَلِكِ خاصٌّ، بل هو اسمٌ لملِكِ اليمن؛ ككِسْرى لفارسَ، وقَيْصَرَ للرُّوم، والنَّجاشيِّ للحَبَشة، والخاقانَ للتُّرْك(٢).

وقال أبو عُبيدة: كلُّ ملِكٍ لليمن يُسَمَّى تُبَّعاً؛ لأنه يَتْبَعُ صاحبَه، ومَوْضِعُ تُبَّعٍ في الجاهلية كمَوْضِعِ الخليفة في الإسلام(٣).

وقال قُطْرُبٌ: أهلُ اليَمَنِ يفتخرون بهذه الآية؛ إذ جعلَ قومَ تُبَّعٍ خيراً مِن قُرَيشٍ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تُبَّعٌ لقَبٌ كفرعون وهامان، واسمه: أسعدُ بن مَلْكا كَرِب(٤).

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٤٢).

(٢) ذكر نحوه عن الكلبي الواحديُّ في «البسيط» (٢٠/ ١١٥).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٩).

(٤) في (أ): «ملكا كيرب». والخبر ذكره البغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣) عن عكرمة عن ابن =

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ تُبَّعاً كان رجلاً مِن حِمْيَرَ، سارَ بالجنود حتى حَيَّر الحِيرةَ[١]، ثم أتى سَمَرْقَنْدَ فبناها[٢].

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: لا تسبُّوا تُبَّعاً، فإنه كان رجلاً صالحاً[٣]، أسلَمَ، فخالَفوه، فأهلَكَهم الله تعالى.

قال كعب: ذمَّ اللهُ قومَه ولم يَذُمَّه[٤].

وقال سعيد بن جُبير: إنَّ تُبَّعاً كسا الكعبةَ سبعةَ أثوابٍ، وهو أوَّلُ مَن كساها[٥].

= عباس رضي الله عنهما، واسم تبع فيه: أسعد أبو كرب بن مليك. وانظر: «المعارف» لابن قتيبة (ص: ٦٣١)، و«معجم البلدان» (٢/ ١٢٦)، و«تاريخ ابن خلون» (٢/ ٢٩٢)، وفيها: (كليكرب).

(١) أي: بناها ونظم أمرها. انظر: «روح المعاني» (٢٤/ ٤٧٧).

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٩)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٤)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٥٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٨١) وصححه وزاد: (ألا ترى أن الله ذمَّ اللهُ قومَه ولم يَذُمَّه).

وروى الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٨٨٠)، والروياني في «مسنده» (١١١٣)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤)، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يرفعه: «لا تسبوا تبعاً، فإنه كان قد أسلم».

ورواه الطبراني في «الأوسط» (١٤١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الهيثمي عن حديث سهل: فيه عمرو بن جابر، وهو كذاب، وعن حديث ابن عباس: فيه أحمد بن أبي بزة المكي لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٨/ ٧٦).

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨١٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٤٩)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٤). وورد عن عائشة. انظر التعليق السابق.

(٥) روى نحوه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٢٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٠)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٤).

وذكَرَ محمد بن إسحاق له قصةً عجيبةً في هذا، ونحن كتَبْنا تمامَ القصة في بعض تصانيفِنا، وفيها: أنه مِن الخمسة الذين ملكوا الدنيا كلَّها، وأنه خرجَ إلى مكَّةَ في مئةِ ألفٍ وثلاثةٍ وثلاثين ألفاً مِن الفُرْسان، ومئةِ ألفٍ وثلاثةَ عشرَ ألفاً مِن الرَّجَّالة، واجتمَعَ عنده أربعةُ آلافِ رجلٍ مِن الحكماء، وأتى يَثْرِبَ وهي يومئذ بُقْعةٌ فيها عينُ ماءٍ ليس بها بُنْيانٌ، وقعَدَ منهم أربعُ مئةِ حكيمٍ في هذا المكان، وقالوا: إنه مكانُ نبيِّ آخرِ الزمان، وإنه يخرُجُ عن قريب، فلا نبرَحُ منها إلى أنْ يخرُجَ فنلقاه، فبنى الملِكُ لهم أربعَ مئةِ دارٍ لسُكْناهم، وزوَّجَهم، وهيَّأَ أسبابَهم، وكتَبَ كتاباً وختَمَه بالذهب، وأمرَهم أنْ يُبَلِّغوه إلى رسول الله ﷺ إذا خرَجَ، ذُكِرَ فيه: أنه آمنَ به، والتمَسَ فيه شفاعتَه له يوم القيامة، وكان مِن ذلك اليومِ إلى أنْ خرَجَ النبي عليه الصلاة والسلام ألفُ سنةٍ، وبلَّغه كتابَه الأنصارُ، وهم مِن نوافل أولئك، فقال عليه الصلاة والسلام: «مرحباً بالأخ الصالح» ثلاثَ مرَّاتٍ، وكانت دارُ أبي أيوب الأنصاريِّ رضي الله عنه التي نزَلَ بها رسولُ الله ﷺ مِن خِطَّة أولئك[1].

* * *

(٣٨ ـ ٣٩) ـ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾: أي: عابِثين لغير شيء.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: قيل: أي: بأمرٍ هو حَقٌّ.

وقيل: أي: للحقِّ، وهو ما يتصرَّفُ في عباده، فهو حقٌّ.

---

(١) رواه مطولاً الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ١٣٢)، ومن طريقه الخركوشي في «شرف المصطفى» (١/ ٩٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ١٣). وعزاه العيني في «عمدة القاري» (٤/ ١٧٦) لكتاب «المبتدأ» لابن إسحاق.

وقيل: أي: للعِبْرة.

وقيل: أي: للأمر والنهي والترهيب والترغيب.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا ينتفعون بعلومهم.

وقيل: أي: لا يتأمَّلون فيَعْلَموا.

وقيل: أكثرُهم مُقَلِّدون بغير علم، وأقلُّهم عالِمون مُعانِدون.

* * *

(٤٠ ـ ٤٢) ـ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: أي: إنَّ يومَ القيامة وقتُ جَمْعِ كلِّ هؤلاء للحِساب والجَزاء، وهو يومُ التَّمييز بين المُحْسِن والمُسِيء بالثواب والعقاب، ويومُ فَصْلِ القَضاءِ بينهم، ويومُ الفَصْلِ والتَّفْريق بين الوالد والولد[1] والزَّوج والأهل والمُتآلِفين في الدنيا على اختلاف الصِّفات.

وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾: أي: لا ينفَعُ قريباً قريبٌ.

والمولى: ابنُ العمِّ، والمولى: الوليُّ.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: أي: لا يُمْنَعون مِن عذاب الله تعالى.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾: أي: إلَّا المؤمنون الذين رَحِمَهم اللهُ، فإنهم يَشفعون للمُذنبين.

وقيل: إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ، فيُشفِّعُ فيه، و(إلَّا) بمعنى (لكنْ) على هذا القول.

---

(١) في (ف): «والوالدة».

وقيل: هذا[(١)] مُنْقَطِعٌ عن الأول، ومعناه: لكنْ مَن رَحِمَه اللهُ، فإنه لا يَحتاجُ إلى قريب ينفَعُه، ولا إلى ناصر يمنَعُه.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: المنيع[(٢)] فلا يُغالَبُ إذا أَنْزَلَ العذابَ بأعدائه، الرحيمُ فلا يَمْنَعُ رحمتَه مِن أوليائه.

***

(٤٣ ـ ٤٦) ـ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾: أي: الكافرِ المُرْتَكِب للمَآثم.

وقيل: نزلَتْ في أبي جهل لعنَه الله[(٣)].

وقيل: في الوليد بن المُغِيرة[(٤)].

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: هو ما يُذابُ بالنار؛ كالفضة والرَّصاص ونحوِهما، وسُمِّيَ به لأَنَّه يُمْهَلُ في النار حتى يذوبَ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ[(٥)].

---

(١) في (ف): «هو».

(٢) في (ف): «الممتنع».

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٥٥٢، ٢١/ ٥٤) عن السدي وابن زيد، وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٣/ ٨٢٤).

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٣).

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٦٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٣٠٣)، والبغوي في «تفسيره» (٥/ ١٦٨). =

وفي روايةٍ عنه، وهو قولُ ابن مسعود رضي الله عنه: ما أُذِيبَ بالنار كالفضة[١].

وقولُه تعالى: ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ بياء التذكير؛ صَرْفاً له إلى المُهْل، وقرأ الباقون بتاء التأنيث؛ ردًّا إلى الشجرة[٢].

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾: أي: الماءِ الحارِّ الذي انتهى حَرُّه.

أي: الزَّقُّومُ يَغْلي في بطن الكافر غَلَيانَ الماءِ الحارِّ بالنار.

* * *

(٤٧) ـ ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾: أي: يُقال للزَّبانية: خُذوه ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾: قيل: سُوقُوه وادْفَعُوه.

وقال مقاتل: أوقِعوه على وجهه[٣].

وقال القُتَبيُّ: أي: قُودُوه بالعُنْف[٤].

قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ بضم التاء، وقرأ الباقون بكسرها، وهما لُغَتان[٥].

= ودُرْدِيُّ الزيت وغيرِه: ما يبقى في أسفله. انظر: «الصحاح» للجوهري (٢/ ٤٧٠).

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٥٥ ـ ٥٦)، ورواه عن ابن مسعود رضي الله عنه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٦٧)، وذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٣/ ٣٠٣)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٤٦).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨)، وفيهما قراءة الياء لابن كثير وحفص، والباقون ـ ومنهم ابن عامر ـ بالتاء.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٨٢٥)، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٣)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٩٢).

(٤) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، و«زاد المسير» (٤/ ٩٤).

(٥) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٢)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨).

والعَتْلُ: زَعْزَعَةُ البدنِ بالجَفاء والغِلْظة للإهانة.

وقيل: هو الدَّفْعُ.

وقيل: هو الجَرُّ.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: وسَطِها.

* * *

(٤٨ ـ ٤٩) ـ ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾: فالحَميمُ يأخذُ جميعَ خارجِ بدَنِه، والزَّقُّومُ جميعَ باطنِه.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾: يقولون له: ذُقْ هذا العذابَ، فما دفَعَ العذابُ عنكَ عِزُّكَ في نفْسِكَ، وكرَمُكَ على قومكَ.

وقيل: هو على القَلْب؛ أي: إنَّكَ أنتَ الذَّليلُ المُهانُ في الحقيقة، وإنْ كنتَ عزيزاً كريماً عند نفْسِكَ، وهذا كقول قوم شُعَيبٍ لشُعَيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]؛ أي: السَّفِيهُ الغَوِيُّ.

وقيل: معناه: إنَّكَ أنتَ المُتَعَزِّزُ المُتكَرِّمُ.

وقيل: يُقالُ هذا لأبي جهل لعنَه الله، وكان قال في الدنيا: أنا أعَزُّ أهلِ هذا الوادي وأكرَمُهم(١).

* * *

---

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٦).

(٥٠ ـ ٥١) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾: أي: تشُكُّون فيه.

وقيل: أي: تُجادلون في دَفْعه.

وقرأ الكسائيُّ: ﴿ذُقْ أَنَّكَ﴾ بفتح الألف[1]؛ أي: بأَنَّكَ، أو: لِأَنَّكَ، ومعنى الكسرِ: فإنَّكَ.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾: ذكَرَ حالَ المؤمنين بعد ذِكْرِ حالِ الكافرين؛ أي: إنَّ الذين اتَّقَوا الشركَ والمعاصيَ في مقام.

قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ: ﴿في مُقام﴾ بضم الميم؛ أي: مَوْضِعِ إقامةٍ، والباقون بالفتح؛ أي: في مكان[2].

﴿أَمِينٍ﴾: ذي أَمْنٍ يَأمنون فيه الخوفَ والحُزْنَ والآفةَ والعِلَّةَ والمكارهَ.

* * *

(٥٢ ـ ٥٤) ـ ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾: ترجمةٌ عن الأول؛ أي: بساتينِ نُزْهَةٍ، وعُيونٍ جاريةٍ.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: مما رَقَّ مِن الدِّيباج وما غلُظَ منه ظِهارةً وبِطانةً[3]، لُبْساً وافتراشاً.

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨).

(٢) انظر: المصدرين السابقين.

(٣) الظِّهارة: ما علا وظهر ولم يل الجسد، والبِطانة: ما ولي منه الجسد وكان داخلًا. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٦/ ١٣٧).

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: أي: مُتواجِهين في المجالس؛ كما قال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وهو أَتَمُّ للأُنْس.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: كذا يكون أمْرُهم في الجنة.

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾: أي: نَقْرنُهم.

﴿بِحُورٍ﴾: جَمْعُ حَوْراء، وهي الشديدةُ سَوادِ العينِ والشَّديدةُ بياضِها.

﴿عِينٍ﴾: جَمْعُ عَيْناء، وهي الواسعةُ العَين.

* * *

(٥٥ ـ ٥٦) ـ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾: أي: يتحكَّمُون في الجنة.

﴿بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾: ويأمُرون بإِحْضارها.

﴿ءَامِنِينَ﴾: أي: مِن انقطاعها.

وقيل: أي: مِن أنْ ينالَهم بأَكْلِها أذًى أو مكروهٌ.

وقيل: ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كل خَوْفٍ.

وقيل: ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن عذاب أهل النار.

وقولُه تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾: أي: في الجنة ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾: قيل: أي: سِوى المَوْتَةِ التي كانت في الدنيا عند انقضاءِ آجالِهم. قالَه الفراء.

وقال: هو كقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الآية [النساء: ٢٢][١].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٤٤).

وقيل: أي: بعد الموتةِ الأولى في الدنيا.

وقيل: أي: لكنِ الموتةَ الأولى قد ذاقُوها.

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: حَفِظَهم عما فيه أهلُ النار مِن العذاب.

* * *

(٥٧ ـ ٥٩) ـ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾: أي: تَفضُّلاً عليهم مِن غير استحقاقٍ لأحدٍ، فإنَّ العبدَ لا يستحِقُّ على الله شيئاً.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: أي: الظَّفَرُ العظيمُ بكل محبوبٍ، والخَلاصُ العظيمُ مِن كل مكروهٍ.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾: أي: يَسَّرْناهُ على لسانك، فتقرَؤُه مِن غير كتابةٍ ولا نظَرٍ في مكتوبٍ.

وقيل: أي: أنزَلْناهُ مُيَسَّراً بلسانكَ ولسانِ قومكَ، وهو العربيَّةُ.

وقولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: لِيَتَذكَّروا ويَتَّعِظوا به ويفهموا معانِيَه.

و﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾: ترجِعُ الكِنايةُ فيه إلى الكتاب المذكور في أول السورة.

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾: أي: فانتظِرْ ما وعَدْناكَ مِن النَّصرِ والظَّفَرِ والعُلُوِّ في الدنيا والآخرة، فإنهم مُنْتَظِرون ما أَوْعَدْناهم به مِن العذاب في الدنيا والآخرة؛ أي: صائرون إلى ذلك وإنْ لم يعتقِدوه فيَنْتَظِروه.

وقيل: فارتقِبْ ما يُؤتيكَ اللهُ مِن الظَّفَر والنَّصْر، فإنهم يرتقبون بكَ دوائرَ الدَّهرِ، قال تعالى خبراً عنهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

وقيل: فارتقِبْ يومَ الفَصْلِ، فإنَّكَ ستَصِلُ فيه إلى ما وعدتُكَ مِن الفَضْل، إنهم مُرْتَقِبون ذلك لأنفسهم، فيقولون: لو صِرْنا إلى الآخرة لكان لنا ذلك، قال تعالى خبَراً عن ذلك الكافر: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، فسترى كيف يتحقَّقُ أمَلُكَ وتَخِيبُ آمالُهم.

وقيل: نزلَتْ في مُشْركي مكةَ، ومعناه: فانتظِرْ هلاكَهم يومَ بدرٍ، فإنهم مُنْتَظِرون موتَكَ.

وقيل: نُسِخَتِ الآيةُ بآية القتال.

***

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

سُورَةُ الجَاثِيَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باسمِ الله العزيز الحكيم، الرَّحمنِ الذي رزَقَنا طيِّباتِ النَّعيم، الرَّحيمِ الذي بشَّرَنا بالنَّعيم المُقيم.

وروى أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورةَ ﴿حمٓ﴾ الجاثية سكَّنَ اللهُ رَوْعَه، وستَرَ عَوْرَتَه عند الحساب»(1).

وهي مَكِّيَّةٌ، وآياتُها سبعٌ وثلاثون. وقيل: ستٌّ وثلاثون.

وكلماتُها: أربعُ مئةٍ وثمانٍ وثمانون.

وحروفُها: ألفان واثنان وثلاثون.

وانتظامُ افتتاحِ هذه باختتام تلك: أنهما في ذِكْرِ القرآن.

وانتظامُ السورتين: أنهما في ذِكْرِ أهل الكفر وأهل الإيمان.

* * *

(١ ـ ٢) ـ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: ﴿حمٓ﴾: مرَّ تفسيرُه.

و﴿تَنزِيلُ﴾: مُبتدأٌ، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: خبرُه.

---

(1) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٩٤)، وهو قطعة من حديث أبيٍّ الموضوع، وقد تقدم الكلام عليه مراراً. انظر: «الفتح السماوي» للبيضاوي (٣/ ٩٩٠).

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: المنيعِ بجلاله، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: المُصيبِ في أقواله وأفعاله.

ويجوز أنْ يكون تقديرُه: تنزيلُ الكتابِ العزيزِ الحكيمِ مِن الله، فيكونان صِفَتَينِ للكتاب.

ومعنى ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: ما مرَّ في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، و﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: هو المُحْكِمُ، أو الحاكِمُ، أو ذو الحِكْمة.

* * *

(٣ ـ ٥) ـ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

قرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿آياتٍ﴾ بالكسر في الجميع على أنها كلَّها عمِلَتْ فيها كلمةُ ﴿إنَّ﴾، وقرأ الباقون بالرفع في الثاني والثالث[1] على أنه خبرُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَبُثُّ﴾؛ أي: وفيما يبُثُّ؛ أي: يُفَرِّقُ وينشُرُ في الأرض.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي: وفي اختلافِ الليل والنهار.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: أي: وفي تصريف الرياح، وهو تَقْلِيبُها شمالاً وجنوباً وصَباً ودَبُوراً.

ومعنى الآيات: أنَّ مَن تدبَّرَ خَلْقَ السماوات والأرض في عِظَمِ خَلْقِهما وما

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨).

فيهما مِن العَجائب، وتدبَّرَ خَلْقَ نفْسِه وخَلْقَ غيرِه في تعاقُبِ الأحوال[١] المُتضادَّة عليه مِن حين ابتدائِه في بطن أُمِّه إلى انفصالِه منه إلى بلوغه ما بلَغَه[٢]، وتدبَّرَ ما بثَّ في الأرض[٣] مِن أصنافِ الدَّوابِّ في كل الأوقات على اختلافها في هَيْئاتها وتركيباتها، وما في كلِّ واحدٍ منها مِن المضارِّ والمنافع، وتدبَّرَ اختلافَ الليلِ والنهارِ، وتناوُبَهما على المقادير المُتَّفقة في الأزمنة، وما اقترن بهما مِن مصالح المعاش وأسباب الحياة بهما، وتدبَّرَ ما أنزلَ اللهُ مِن السماء مِن المطر الذي جعلَه سبباً لأرزاقِ العِباد، فأحيا به الأرضَ بعد موتها بأنْ أخرَجَ منها أصنافَ النَّباتِ بعد أنْ كانت كالميتةِ الهامِدة لا نباتَ فيها ولا حَراكَ، وتدبَّرَ تصريفَ الرياحِ في الجهات لاقِحاً وعَقيماً، وما يوجدُ فيها مِن رحمةٍ وعذابٍ، علِمَ بعَقْلِه أنها مَرْبُوبَةٌ مُدَبَّرَةٌ مُسَخَّرَةٌ مُصَرَّفةٌ، وأنَّ لها رَبًّا مُدَبِّراً مُسَخِّراً مُصَرِّفاً لا يُشْبِهُها، مُنَزَّهاً عن صفاتها، وما بها مِن سِمات الحدَثِ وعلاماتِ النَّقْصِ والذُّلِّ والفَقْرِ والحاجةِ إلى مَن يُقِيمُها، واحداً لا يجوزُ أنْ يكون له شريكٌ في سُلْطانه، أو نَظيرٌ في أوصافِه يُعارِضُه في الرُّبوبِيَّة، أو يُنازِعُه في الألوهيَّة، وأنَّه عزَّ وجلَّ لم يخلُقْ للخَلْقِ أسبابَ معاشِهم مِن الأَقْوات التي أخرَجَها لهم مِن الأرض بالأمطار التي أنزَلَها، والرِّياحِ التي أَهَبَّها، والشمسِ والقمرِ اللَّذَينِ سخَّرَهما للطُّلوع والغُروب، ولم يجعلْ فيما بثَّ في الأرض مِن الدَّوابِّ مُؤْلِماً ضارًّا أو مُلِذًّا نافعاً إلَّا لِيَسْتَعْمِرَهم في الأرض لِضُروبٍ مِن الحِكْمة التي تفرَّدَ بها، ولِيُمَيِّزوا بين المُلِذِّ والمُؤْلِم، ويتحقَّقوا الوَعْدَ والوَعيدَ، وذلك لا يكونُ إلَّا بالطاعة والمعصية والإحسان والإساءة، على ما حكَمَ به سبحانه

(١) في (أ): «الأفعال».

(٢) في (ر): «مبلغه» بدل: «ما بلغه».

(٣) في (ر): «خلق الله» بدل: «بث في الأرض».

مِن التَّمييز بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ والمُسِيء والمُحْسِن، ولن يكونَ هذا إلَّا مُتَعَلِّقاً بالأمر والنهي، وفي هذا وجوبُ مجيءِ الأنبياءِ، وفي عدمِ تحقيقِ الوَعْدِ والوعيدِ في الدنيا في كثيرٍ مِن الناس ما يَقتضي داراً غيرَ دارِ الأمرِ والنهيِ تَحْقيقاً للوعد والوعيد، فمتى تدبَّرَ العبدُ في ذلك ووفَّاه حَقَّه[1] رقَّاهُ إلى الدرجةِ التي صحَّ له القولُ بالحقِّ، ووضَحَ له بُطْلانُ الشركِ، وبالله المَعونَةُ.

وأبانَ بما قال: ﴿لَآيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، و﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، و﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ هذه الآياتِ إنما تُدْرَكُ بهذه الثلاثة:

فالإيمانُ: هو التَّصديقُ بالغَيبِ الذي معناه راجعٌ إلى ما تقومُ عليه أدلَّةُ العُقولِ.

والإيقانُ: هو زوالُ الشَّكِّ فيما يشهدُ له دلائلُ العقلِ.

والذين يعقلون: هم الذين يستعملون عقولَهم في تدبُّر ما يُدْعَون إليه مِن الحقِّ.

وفيه تنبيهٌ أنَّ الإيمانَ لا يتمُّ إلا بالإيقان، والإيقانَ لا يحصُلُ للعبد إلا بتأمُّلِ دلائل العقل.

***

(٦ ـ ٧) ـ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: أي: هذه الآياتُ هي آياتُ اللهِ ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: نُوحِيها إليكَ.

وقيل: أي: يَتْلوها عليكَ جبريلُ بأمرِنا.

﴿بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾: قرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ

---

(١) في (أ): «وفاه الله حقه».

وعاصمٌ في رواية أبي بكر: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بتاء المُخاطبة[١]، والباقون بياء المُغايبة[٢].

قال مُقاتلٌ: أي: إنْ لم تُؤمنوا بهذا القرآن، فبأيِّ حديثٍ[٣] بعدَ توحيدِ الله تعالى وبعدَ القرآنِ تُصَدِّقون.

وقولُه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: أي: وعيدٌ بشِدَّةِ عذابٍ لكلِّ كذَّابٍ مُرْتكِبٍ للمآثِم.

* * *

(٨) ـ ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾: أي: يسمَعُ القرآنَ يُقْرَأُ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؛ أي: يدومُ على جَهْلِه وضَلالِه مُتَعَظِّماً عن الانقياد لِمَن جاءَ بها؛ بسبَبِ أموالِه وأتباعِه.

﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾: أي: الآياتِ.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: فأَخْبِرْه بأنَّ له عذاباً وَجيعاً في الدنيا والآخرة.

* * *

(٩) ـ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: أي: وإذا سمِعَ مِن آياتِ القرآن شيئاً فعَلِمَه وحَفِظَه سخِرَ منه، وصوَّرَ ذلك عند أتباعه بصُورة الباطل، وهو كفِعْلِ أبي جهل ـ لعنَه اللهُ ـ حيث سمِعَ الوعيدَ بالزَّقُّوم، أمَرَ جاريةً له فقدَّمَتْ رُطَباً وزُبداً، وقال لأصحابه: هذا الذي نعرِفُه زقُّوماً، ويُخَوِّفُنا محمدٌ به، فكُلُوه[٤].

---

(١) في (ر) و(ف): «الخطاب».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨).

(٣) في (أ) و(ر): «كلام».

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٦٥٠) عن قتادة. وانظر ما تقدم عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وكما قال النَّضْرُ بن الحارث حين سمِعَ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]: أنا أكفيكُمُ العشرةَ، فاكْفُوني التِّسعةَ[١].

وقولُه تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: بدأَ بالواحد وختَمَ بالجَمْع؛ لأنه قال: ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، وهي كلمةُ عُمومٍ، وقال: ﴿شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، ولم يقل: اتَّخَذَه؛ لوجوه:

أحدُها: أنَّ ذلك الشيءَ آيةٌ.

والثاني: أنَّ الهُزْءَ بشيء منه هُزْءٌ بالجميع.

والثالثُ: أنَّه كان إذا وجَدَ شُبْهةً في شيء جعلَه وسيلةً إلى الهُزْء بكل الآيات، ويقول: إذا ثبَتَ لكم بُطْلانُ هذا ثبَتَ بُطْلانُ الكلِّ.

وقيل: نزلَتِ الآيةُ في النَّضْر بن الحارث، وكان يُعارِضُ آياتِ القرآن بأحاديثِ مُلوكِ الفُرْسِ[٢].

* * *

(١٠) - ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾: أي: أمامِهم، والاسمُ للخَلْفِ والقُدَّام جميعاً؛ لأنه اسمٌ لِمَا وراءَكَ، وهو يَشْمَلُهما.

---

(١) ذكر مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٤٩٧) أنها نزلت في أبي الأشدين أسيد بن كلدة الجمحي، وهو عند الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٧٤) أبو الأشدين كلدة بن خلف، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٥١٧) عن الوليد بن المغيرة.

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٦)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٣٦)، وهو قول مقاتل، كما في «تفسيره» (٣/ ٨٣٦).

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾: أي: ولا ينفعُهم ما كسَبوا في الدنيا مِن مالٍ وولدٍ.

﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾: أي: ولا ما عبَدوه في الدنيا مِن الأصنام والَوْها ورجَوا نُصْرَتَها مِن دون الله.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: في جهنم.

* * *

(١١) ـ ﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾: أي: هذا القرآنُ إرشادٌ لكم[1] إلى الحقِّ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: أي: جحَدوها.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ وعاصمٌ في رواية حفص: ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع؛ نَعْتاً لقوله: ﴿عَذَابٌ﴾، وقرأ الباقون خَفْضاً؛ نَعْتاً لقوله: ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾[2].

والرِّجزُ: المكروهُ المُؤذِي الشَّاقُّ.

* * *

(١٢ ـ ١٣) ـ ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾: ﴿سَخَّرَ﴾: أي: ذلَّلَ، و﴿الْفُلْكُ﴾: السَّفينةُ، وقد يكون جَمْعاً، ﴿بِأَمْرِهِ﴾؛ أي: بتَسْخِيره، و﴿فَضْلِهِ﴾: رزقه.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: لِتَشكروا؛ أي: يلزَمُكم شُكْرُه.

---

(١) في (أ): «راشد» بدل: «إرشاد لكم».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٤)، و«التيسير» للداني (ص: ١٨٠).

وقولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: مِن الشمس والقمر والنُّجوم والجبال والنبات والبهائم؛ أي: ذلك كلُّه لِمَنافعِكم.

وقولُه تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾: أي: كلُّ ذلك مِن عند الله[1] وبأمره، لا يَقْدِرُ عليه غيرُه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي: لَعلاماتٍ دالَّةٍ على قُدْرَته لِمَن تدبَّرَ فيها.

وحُكِيَ عن عليِّ بن الحُسينِ بن واقدٍ المَرْوَزِيِّ[2] أنَّه حضَرَ مَجْلِسَ الرَّشيد، وكان نصرانيٌّ يحتجُّ بقول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] أنَّ عيسى ولَدُ اللهِ؛ لأنَّ (مِن) دِلالةُ البَعْضِيَّة، فألزمَه عليُّ بن الحُسين بن واقدٍ بهذه الآية، وقال: إنْ كان جَميعُ ما في السماوات وما في الأرض أَبْعاضاً لله بهذه الكلمة صحَّ قولُه: عيسى ولَدُ اللهِ، بهذه الكلمة[3]، وإلَّا فلا، فانقطَعَ[4].

* * *

(١٤) ـ ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ عامرٍ: ﴿لِنَجْزِيَ﴾ بالنون، وقرأ الباقون بالياء[5]؛ أي: لِيَجْزِيَ اللهُ.

---

(١) في (ف): «أي كل ذلك من عنده»، وفي (ر): «أي: كل ذلك منه، أي: من عنده».

(٢) إمام، محدث، صدوق، مولى لفاتح خراسان عبد الله بن عامر بن كريز، ولد في سنة ثلاثين ومئة، وروى عن أبيه وغيره، وحدث عنه ابن راهويه وغيره، كان حسن الحديث، كبير القدر. انظر ترجمته في: «تهذيب الكمال» للمزي (١٠/ ٢١١)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٠/ ٢١٢).

(٣) «بهذه الكلمة» زيادة من (أ).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٣/ ٤١٩).

(٥) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨).

أي: قل يا محمد للمؤمنين يتجاوزوا عن الكفار الذين لا يخافون وقائِعَ اللهِ تعالى بأعدائه.

وقيل: لا يأمُلون نُصْرةَ اللهِ لأوليائه.

وقيل: أي: لا يخافون عذابَ الآخرةِ.

وقيل: لا يأمُلون ثوابَها.

فلا يتعرَّضون لهم، ولا يُجاهِدوهم، ويَكِلُوهم إلى جزاء الله؛ لِيَجْزِيَ قوماً بما كانوا يكسبون؛ وذلك قولُه تعالى:

***

(١٥) - ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾: يعني: فله نَفْعُه ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾: أي: فعليه ضُرُّه[١].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾: أي: إلى جزائه، ونُسِخَ هذا بآية الأمرِ بالقتال.

وقال: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا﴾، ولم يقُلْ: (القومَ)؛ لأنه أرادَ كلَّ قومٍ مِن الفريقين.

وقيل: قد علِمَ أنَّ بعضَ هؤلاء يُسْلِمُ، فكان الوعيدُ لقومٍ بقُوا منهم على الكفر وهم مُنْكِرون.

وقيل: أرادَ به ثوابَ مَن غفَرَ لهم، وذلك بعضُهم.

وقد قال بعضُ المفسِّرين: إنَّ الآيةَ في أمرٍ كان بين عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه وبين المشركين[٢].

---

(١) في (ر): «ضرره».

(٢) وذلك أن عمر بن الخطاب شتمه رجل من كفار مكة، فهمَّ عمر أن يبطش به، فأنزل الله الآية. انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ٧٧٢)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٧) عن مقاتل والكلبي.

وروى الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٥٦) أن يهودياً بالمدينة يقال له فنحاص قال: احتاج رب محمد، =

قال سعيد بن المسيب رحمه الله: كنا بين يدي عمرَ بن الخطاب، فقرأ قارئٌ هذه الآيَةَ، فقال عمرُ: لِيَجْزِيَ عمرَ بما صنَعَ[١].

وقال محمد بن كعب والسُّدِّي: نزلَتِ الآيةُ في ناسٍ مِن أصحاب رسول الله ﷺ مِن أهل مكة، وكانوا في أذًى شديدٍ مِن المشركين قبل أنْ يُؤمَروا بالقتال، فشَكَوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية.

وقالا في معنى قوله: ﴿لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: يعني: لا يخافون العذابَ الذي أنزلَه اللهُ بقوم نوح وعاد وثمود، ثم أذِنَ اللهُ في قتالهم، ونُسِخَتِ الآيةُ[٢].

***

(١٦) ـ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: وهذه تسليةٌ للنبي في تكذيب قومِه إياه مع وُفُورِ البيان، وتمثيلٌ لأمره بما قد كان، يقول: ولقد أعطينا بني إسرائيل التوراةَ والإنجيلَ، و﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اسمُ جنسٍ، فصلَحَ لهما ولكلِّ كتاب أُنْزِلَ على رسولٍ.

أي: أعطينا ذلك أنبياءَهم المبعوثين منهم، وذلك إعطاءٌ لهم.

﴿وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: أي: وأعطيناهم الحُكْمَ على الناس والقضاءَ بينهم والنبوةَ؛ لِمَا جعلنا فيهم مِن الأنبياء مِن حين يوسف إلى عيسى عليهم السلام.

= فلما سمع بذلك عمر بن الخطاب اشتمل على سيفه، وخرج في طلبه، فجاء جبريل إلى النبي ﷺ، ونزلت هذه الآية.

(١) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢٨٨).

(٢) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٦٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٤٢).

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: المَنِّ والسَّلْوى في التِّيهِ، والأقواتِ والأطعمةِ والثِّمارِ التي كانت في بلاد الشام.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: عالَمِي زمانِهم؛ إذ كانوا حُكَّاماً ومُلوكاً عليهم، والرُّجوعُ إليهم في عِلْمِ الأديان.

* * *

(١٧) ـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: أي: شرائعَ واضحاتٍ مِن أمر الدِّين، وأيضاً حُجَجاً لائحةً مما[1] هو مِن أمرنا الذي لا يَقْدِرُ عليه غيرُنا، وهي مُعْجزاتُ موسى وعيسى.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: أي: فلم يختلِفْ بنو إسرائيلَ إلا مِن بعد ما جاءهم البَيانُ التَّامُّ، ولكنهم تباغَوا بينَهم؛ أي: طلَبَ بعضُهم الفَضْلَ على بعضٍ والرِّياسةَ، وأنْ يكونَ كلُّ عالمٍ هو الرئيسَ المتبوعَ حسَداً واتِّباعاً للهوى، فصاروا إلى التَّعادي والتَّحارُبِ وقَتْلِ الأنبياءِ، وكذا المشركون مِن قومك يا محمد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: في الفَصْل بين المُحِقِّ والمُبْطِلِ، فيَفْضَحُ المُبْطِلين، ويُكْرِمُ المُحِقِّين.

* * *

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) في (أ): «بما».

يَعۡلَمُونَ ١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾: أي: على مِنْهاجٍ واضحٍ مِن أمر الدِّين[1] بعد بني إسرائيل.

﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾: أي: هذه الشريعةَ ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أي: المشركين وأهلِ الكتابِ.

﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾: أي: لا ينفعونكَ ولا يَدْفعون عذابَ اللهِ عنكَ.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾: يتوالَون على مُعاداتك، ويتعاونون على الباطل.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾: أي: مُحِبُّ مَن اتَّقى الشركَ والمعاصيَ وناصرُه ومُتولي كفايتِه، وهو أنتَ ومَن اتَّبعكَ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ كفارَ قريشٍ سألوا النبي ﷺ أنْ يرجِعَ إلى دين آبائه، فنزلت هذه الآيةُ[2].

***

(٢٠ ـ ٢١) ـ ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾: أي: هذا القرآنُ دلائلُ للناس في أمور دينهم، يُبْصِرون بها مواضعَ رُشْدِهم.

---

(١) في (ف): «من الأمر الذي».

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ١٤٢) عن الكلبي، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٩٩) عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٣/ ٨٣٨).

﴿وَهُدًى﴾: أي: رُشْدٌ وطريقٌ مُؤَدٍّ إلى الله لِمَن سلَكَه.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: أي: نِعْمةٌ مِن الله عليهم.

﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: للسَّامعين الذين يَنْفُون[1] الشُّكوكَ ووساوسَ الشيطانِ عن أنفسهم.

وقولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: قيل: (أم) كلمةٌ بمعنى ألف الاستفهام؛ أي: أَظَنَّ الذين اكتَسَبوا المعاصي، وارتكَبوا المآثِمَ، وأشركوا بالله، وكذَّبوا أنبياءَ اللهِ، وجحَدوا آياتَ اللهِ ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: الحسناتِ والطاعاتِ.

﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ في روايةِ حفصٍ: ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصْب؛ لِوُقوع الجَعْلِ عليه، ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ رفعٌ بالفعل المدلول في قوله: ﴿سَوَآءً﴾؛ لأنَّ تقديرَه: مُسْتَوِياً، ونظيرُه: رأيتُ رجلاً حسناً وجهُه.

وقرأ الباقون: ﴿سواءٌ﴾ بالرَّفْع على الابتداء، و﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ خبرُه[2]؛ أي: نجعَلَهم يستوي مَحْياهم ومماتُهم.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: بئس الحُكْمُ هذا الحُكْمُ منهم، وهذا استفهامٌ بمعنى النفي؛ كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة: ١٨].

وقيل: هو في ردِّ مَن قال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، ومَن قال: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] الآيات، ونظائرها.

والتَّفْرقةُ بينهم في المَحْيا والممات: أنَّ هؤلاء لهمُ النَّصْرُ، وهؤلاء لهمُ القَهْرُ،

---

(١) في (ر) و(ف): «يتقون».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨).

وهؤلاء في الآخرة لهمُ الثَّوابُ، وهؤلاء لهم العِقابُ، وعند الموت: هؤلاء ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢]، وهؤلاء ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية [النحل: ٢٨].

وقيل في أوَّلِ هذه الآية: إنَّ (أمْ) للعطف على ألف الاستفهام، وتقديرُه ها هنا: والله وليُّ المتقين، أفيعلَمُ المشركون هذا، أم يحسَبون أنَّا نتولَّاهم كما نتولَّى المتقين فنُسَوِّيَ بين الفريقين في المَحْيا والممات، فنُؤْتيَ المُسيءَ في الآخرة مِن نعيمها كما نُؤتيه في الدنيا مِن نعيمها؟!

ولن نفعلَ ذلك، بل نخُصُّ المُحْسِنَ بنعيم الآخرة وإنْ عمَمْنا الفريقين بنعيم الدنيا، وهو كقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

* * *

(٢٢) ـ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: بالأمرِ الحقِّ، وله وُجوهٌ أُخَرُ مرَّ ذِكْرُها مرَّاتٍ.

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: مِن خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

* * *

(٢٣) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثمَّ آيَسَ رسولَ الله ﷺ عن إيمانِ مَن عَلِمَ منهم أنهم لا يؤمنون، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ

﴿غِشَٰوَةً فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: يقول: أفرأيتَ ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين الذين اتخذوا أهواءَهم[1] آلهةً يعبُدونها ويُطيعون أمرَها، ولا يتَّبِعون كتابَ الله، قد أضلَّهم اللهُ وخذلَهم على عِلْم؛ أي: قد علِمَ أنهم يَختارون الضَّلالةَ، وطبَعَ على قلبه، فلا يعتقِدُ حقًّا، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ﴾، فلا يقبَلُ وَعْظاً ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا يُبْصِرُ عِبْرةً.

﴿فَمَن يَهۡدِيهِ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾ قيل: مِن بعد إضلالِ الله.

وقيل: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ﴾: أي: سوى اللهِ.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: بعُقولكم ذلك.

وروى أبو أمامة الباهليُّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما عُبِدَ إلهٌ تحت ظِلِّ السماء أبغضُ إلى الله مِن هوًى»[2].

وقيل في قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾: كانوا في الجاهلية يعبُدون ما يَسْتَحْسِنُونه، فإذا استحسَنوا غيرَه ترَكوا الأولَ وعبَدوا الثاني، فإنما كان يعبُدُ ما يَهْواه.

وعلى هذا يكون الهوى مصدرٌ بمعنى المفعول؛ أي: يجعلُ إلهَه[3] مَهْوِيَّه؛ كقولك: فلانٌ رجائي؛ أي: مَرْجُوِّي، وهذا شَهْوَتي؛ أي: مُشْتَهَاي.

---

(١) في (أ): «هواهم».

(٢) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣)، والخرائطي في «اعتلال القلوب» (٨٧)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١٠٣)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٩٩)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٣/ ١٣٩) وقال: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفيه جماعة ضعاف، والحسن بن دينار والخصيب كذابان عند علماء النقل.

(٣) في (ف): «الآلهة».

وقال الكلبي: نزلَ قولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في عليٍّ وحمزةَ وعُبيدةَ بن الحارث رضي الله عنهم، وفي عُتْبَةَ وشَيْبَةَ والوليدِ بنِ عُتْبَةَ لعنهم الله، وهُمُ ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، قالوا للمؤمنين: ما أنتم على شيء، وإن كان ما تقولون حقًّا لَنُفَضَّلَنَّ عليكم في الآخرة كما فُضِّلْنا عليكم في الدنيا، فنزلت الآيةُ[1].

وقيل: إنَّ أبا لهبٍ لعنه الله قال: لئن كان ما يقولُ ابنُ أخي حقًّا لَأُوتَيَنَّ في الآخرة مالاً وولداً، فأفتدي نفسي بمالي وولدي، فأنزلَ اللهُ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[2]؛ يعني: ولدَه.

وقال السُّدِّي: إنَّ كفارَ بني عبد شمسٍ قالوا لبني هاشم وبني عبد المطلب: إنْ كان الأمر كما تقولون فإنَّا لا نَنْحَطُّ[3] عنكم في الآخرة عند الدرجات، فأنزلَ اللهُ هذه الآيات[4].

* * *

(٢٤) ـ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: أي: قالوا بأهوائهم التي عبَدوها وأطاعوها: ليس ما يقولُه المؤمنون مِن الإحياء بعد الموت حقًّا، وما الحياةُ

(١) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ١٦٥)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٦٤)، والواحدي في «الوسيط» (٢٠/ ١٤٣).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٣٢٥)، والبغوي في «تفسيره» (٨/ ٣٨٢)، والواحدي في «البسيط» (٢٤/ ٤١١)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) في (أ): «نحط».

(٤) ذكر نحوه مقاتل في «تفسيره» (٣/ ٨٣٩).

إلا حياتُنا القُرْبى؛ أي: هذه التي نحن عليها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموتُ بعضُنا ويحيَى بعضُنا، ثم يموتُ أولئك ويحيى آخرون على ما هو موجود في المُشاهدة، لا يتغيَّرُ الأمرُ عن ذلك، ولا تنقضي الدنيا، ولا تَفْنى ولا يحيَى مَن مات.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾: أي: وما يُهْلِكُ الناسَ إِلَّا طولُ العمُرِ وكَرُّ الدَّهْرِ، فذلك هو الذي يُفْنِينا، دون مَن تَذْكُرونه مِن الله الذي يُحيي ويُميت.

وهذا جُحودٌ للصانع، وأهلُ الجاهليَّةِ كانوا أصنافاً: منهم هؤلاء، ومنهم مَن يُثْبِتُ الصَّانِعَ ويُنْكِرُ البعثَ والثَّوابَ والعقابَ، ومنهم مَن يشُكُّ في البعث ولا يقولُ بالإنكار قَطْعاً.

وقيل: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: نموتُ بأنفُسِنا، ونحيى بأخلافنا[1] وآثارنا، فتأخيرُ ذِكرِ الحياة عن ذِكْر الممات لهذا: أنه الحياةُ معنًى بعد الموت حقيقةً ببقاء[2] الذِّكْر، يقولون: لا حياةَ بعد الموتِ إلا هذا.

وقيل: أرادوا نحيى ونموتُ إذا انتهَتْ أعمارُنا، والواوُ للجَمْعِ لا للتَّرْتيب.

وقيل: القائلون بهذا كانوا قائِلين بالتَّناسُخِ، وأرادوا: يموت الرجل منَّا، فتُجْعَلُ روحُه في مَواتٍ فيحيَى.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾: أي: هو قولٌ يقولونه بأهوائهم ظنًّا لا عِلْماً.

* * *

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) في (ر) و(ف): «بأخلاقنا».

(٢) في (ر) و(ف): «لبقاء».

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: أي: وإذا تُقْرَأُ على هؤلاء آياتُ اللهِ[1] التي فيها ذِكْرُ البَعْثِ وإقامةُ الحُجَّةِ عليهم[2].

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أي: لم يكن لهم حُجَّةٌ في دَفْعِها إلا قولُهم: عَجِّلوا لنا هذا البعثَ، وأقيموا الساعةَ الآنَ، وهذا غَيٌّ وجَهْلٌ؛ لِمَا مرَّ في سورة الدُّخان.

وقولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾: أي: في الدنيا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾: عند انتهاء أعمارَكم.

﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: يَبْعَثُكم يومَ القيامة جميعاً، ولا شكَّ فيه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: لا يتأمَّلون في الدَّلائل فيعلَموا.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: فلا يُعْجِزُه شيءٌ مِن البعثِ وغيرِه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: أي: يَهْلِكُ.

وقيل: أي: يَظْهَرُ له ضَياعُ سَعْيِه في عبادةِ غيرِ الله، ويَظْهَرُ له أنَّا لم نُسَوِّ بينهم محياهم ومماتهم.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَتَرَىٰ﴾: يا محمد ﴿كُلَّ أُمَّةٍ﴾: مِن الأُمَم.

﴿جَاثِيَةً﴾: قيل: مُجْتَمِعةً، كلُّ أُمَّةٍ لا تختلِطُ بأُمَّةٍ أخرى.

---

(١) في (ر) و(ف): «القرآن».

(٢) في (أ) و(ف): «عليه».

والجُثْوَةُ: الشَّيءُ المجتمِعُ، وعلى هذا قيل في قوله: ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]؛ أي: مُجْتَمِعين.

وقيل: جاثيةً[1] على الرُّكَبِ للحساب والسؤال؛ كما يكون للخُصوم في الدنيا.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: قيل: إلى الكتابِ المُنزَلِ على نبيِّها: هل عَمِلَ به أو خالفَه؟

والأظهرُ: إلى كتابِ عمَلِه الذي كتبَتْهُ الحفَظةُ؛ كما قال: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: في الدنيا، ويَظْهَرُ مَكْتوباً في كتابكم.

* * *

(٢٩) ـ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾: أي: هذا الكتابُ الذي كُتِبَ عليكم بأمرنا يُبيِّنُ ما عَمِلْتُم.

والنُّطْقُ مَجازٌ؛ كما قال: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

وأضافَ الكتابَ إلى العبد في قوله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ لأنَّه عمَلُه[2]، وأضافَه إلى نفْسِه في قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ لأنه بأمره.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾: أي: نأمُرُ الحفَظَةَ بالنَّسْخِ، وسينُ الاستفعالِ قد تكونُ للطَّلَب والسؤال.

---

(١) في (أ): «جاثين».

(٢) في (أ): «لأنه عليه الآية»، وفي (ف): «لأنه عليه».

وقيل: أي: ننسخ، وهو كقولهم: (عَجِلَ واستعجلَ)، و(نَكِرَ واستنكرَ)؛ أي: تنسَخُ ملائكتُنا بأمرنا، وفِعْلُ المأمورِ يُضافُ إلى الآمرِ.

وقولُه تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: ونَسْخُ ذلك كتابتُه وإثباتُه، وأصلُه وإنْ كان للنَّقْل عن أصلٍ، ولكن قد يُسْتَعمَلُ للابتداء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ألستُمْ قوماً عُرْباً، هل يكون النَّسْخُ إلا مِن كتاب[1]؟! وهو يَحْمِلُ هذا على النَّسخِ مِن اللَّوح المحفوظ.

وفي الخبر: أنَّ الملائكة إذا كتبوا أعمالَ العبادِ وصعِدوا بها إلى السماء، أُمِروا أنْ يَعْرِضوها باللوح المحفوظ، فيوجدُ كذلك، يقول: إنَّ الملائكة كانوا يكتُبون عليكم بأمرنا مِن كتابٍ عندنا كُتِبَ قَبْلَ خَلْقِكم وقَبْلَ عمَلِكم، فلن يخفى علينا شيءٌ منها، ولا يجري على الحفَظَة فيها خطأٌ[2]، وعلى هذا قوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ إشارةٌ إلى اللوح المحفوظ.

وقيل: مِن قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ إلى ها هنا خطابُ الملائكةِ يومئذٍ للعِباد، وثَمَّ مُضْمَرٌ: تقول لهم الملائكة: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، و﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾، و﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾.

* * *

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

---

(١) رواه أبو عبيد في «الناسخ والمنسوخ» (١٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٠٤)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (١٣٧٣)، والبيهقي في «القضاء والقدر» (٢٤٢).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وذكر نحوه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٢٣١)، ومكي بن أبي طالب في «الهداية» (١٠/ ٦٧٩٤).

وقولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾: قيل: أي: في جنَّتِه، سمَّاها رحمةً لأنها تُنالُ برحمته، فأُعِدَّتْ لأهل رحمته.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾: أي: الفلاحُ الظَّاهر.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: أي: فيُقالُ لهم: أفلم تكن آياتي تُتْلى عليكم ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: أي: فتعَظَّمْتُم عن قبولها، والانقيادِ لِمَن أتى بها.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾: أي: مُكْتَسِبين الآثامَ.

وقيل: أي: مُشركين، وقد ذُكِرَ في مُقابلةِ المسلمين في القرآن، فدلَّ على هذا، قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: أي: وكنتم إذا قيل لكم: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: بالبعث والجزاء بالثواب والعقاب.

﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾: أي: القيامةُ لا شكَّ فيها.

قرأ حمزة: ﴿والساعةَ﴾(١) نَصْباً عَطْفاً على قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، وقرأ الباقون رَفْعاً على الابتداء لِتَباعُدِها عن ﴿إنَّ﴾(٢).

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾: أي: لا نعلمُ ما القيامةُ.

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾: أي: ما نظُنُّ ذلك إلا ظنًّا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ بذلك.

---

(١) في (أ): «والكسائي»، وهو تصحيف.

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٥)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٩).

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾: أي: ظهَرَ لهم عند الوقوع[1] في العذاب أنَّ ما عمِلوه مِن الشرك والمعاصي كانت سيئاتٍ.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: نزَلَ بهم، وقيل: أحاطَ بهم.

﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: العذابُ الذي كانوا يُوعَدون به، فلا يُصَدِّقونه، ويستهزؤون بقائله، ويقولون: متى هذا الوعد؟! ويُنْغِضُون إليكَ رؤوسَهم ويقولون: متى هو؟!

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾: أي: تقولُ لهم الملائكة بأمرنا: اليومَ نتركُكم في النار تَرْكَ النَّسْيِ المَنْسِيِّ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾: أي: تركْتُم ذِكْرَه والاستعدادَ له.

﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: أي: مانعين عنكم العذابَ.

* * *

(٣٥) ـ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾: أي: هذا العذابُ بأنكم في الدنيا جعلتُم ما يُتلى عليكم مِن آيات كتاب الله مَحَلَّ الـهُزْءِ الذي لا ينبغي الإقبالُ عليه ولا التَّفَكُّرُ فيه.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾: أي: اغْتَرَرْتُم بها.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾: ليس مُتَّصِلاً بالكلام الأوَّل الذي كان مِن خِطاب الملائكة لهم، بل هو ابتداءُ إخبارٍ مِن الله أنهم لا يُخرجون مِن النار أبداً.

---

(١) في (أ): «الرجوع».

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: يُسْتَرْضَون؛ يعني: لا يُطالَبون بإرضاء الله تعالى بالتوبةِ عن الشرك والمعاصي، والعملِ بالإيمان والطاعة؛ إذ هُم في دار الجزاء الذي لا تُقْبَلُ فيها توبةٌ، ولا تُقالُ فيها عَثْرةٌ.

* * *

(٣٦ ـ ٣٧) ـ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قولُه تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: ختَمَ السورةَ بما علَّمَ عِبادَه مِن الثناء الذي يُخْرِجُ قائِلَها ومُعْتَقِدَها عن الشرك الذي ذُمَّ به أهلُه في هذه السورة، وأُوعِدوا عليه بالنار.

وهو أيضاً إخبارٌ أنَّ المُسْتَحِقَّ للثناء والمدح والشكر على النِّعَم هو اللهُ الذي خلَقَ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، وهو حافظُهما والقائمُ بتدبيرهما، وهو مُدَبِّرُ العالَمين مِن الجن والإنس والملائكة وكُلِّ الحيوانات، ومالِكُها وحافِظُها وناصِرُها[1] ومُصَرِّفُها على ما أراد.

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: العَظَمةُ والجلالُ والقُدْرةُ والكمال.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: المنيعُ بسلطانه وجلاله.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: المُصِيبُ في أقواله وأفعاله.

* * *

---

(١) «وناصرها» ليس من (أ).

سُورَةُ الأَحۡقَافِ

سُورَةُ الأَحْقَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باسمِ اللهِ الذي ما خلَقَ السماواتِ والأرضَ وما بينها إلا بالحق، الرَّحمنِ الذي جعَلَ المسلمين التائبين مِن أصحاب الجنةِ وَعْدَ الصِّدْق، الرَّحيمِ الذي لا يُهْلِكُ إلا أهلَ الفِسْق.

وروى أبيٌّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأَ سورةَ الأحقافِ كتبَ اللهُ له بكل رَمَلٍ في الدنيا عشرَ حسناتٍ»[1].

وهذه السورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ ﴾ الآيتين، فإنهما نزَلَتا بالمدينة.

وآياتُها: خمسٌ وثلاثون. وقيل: ستٌّ[2].

وكلماتُها: ستُّ مئةٍ وثلاثٌ وأربعون.

وحروفُها: ألفان وستُّ مئةٍ وستةَ عشرَ.

وانتظامُ[3] آخرِ تلك السورةِ بأوَّلِ هذه السورة: أنهما جميعاً في ذِكْرِ اسمِ الله تعالى.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٠٢)، وتتمته: «ومحي عنه عشر سيئات، ويرفع له عشر درجات»، وهو قطعة من الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٩١).

(٢) «وقيل: ست» ليس في (أ)، وقد ذكر الداني أن الخلاف في عدد آيات السورة هو بين كونها خمساً وثلاثين آية أو أربعاً وثلاثين. انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ٢٢٧).

(٣) في (أ): «ونظم».

وانتظامُ السورتين: أنهما جميعاً في ذِكْر الكفر والإيمان، والطاعة والعِصْيان، والعُقوبة والغُفْران.

* * *

(١ ـ ٣) ـ ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: مرَّ تفسيرُه.

وقولُه تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾:

قيل: لِلْحَقِّ الذي له على خَلْقه، ولِأَجَلٍ يَنْتَهي إليه، وهو يوم القيامة، وهو مُسَمًّى معلومٌ عنده وإنْ أخفاه على خَلْقه.

وقيل: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: مَقْروناً بالحق، وهو التَّكليفُ بالأمر والنهي، ثم يَجْزِي يومَ القيامة بالثواب والعقاب، ومَقْروناً بأجَلٍ مُسَمًّى، وهو ما بيَّنَّا.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾: أي: وكُفارُ مكةَ عمَّا خُوِّفوا به مُعْرِضون، لا يتفكَّرون فيه ولا يُؤمِنون به.

* * *

(٤) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: ما تعبُدون مِن دون الله؛ أي: مِن الأصنام.

وقال القُتَبيُّ: ﴿ما﴾ ها هنا للجَمْع بمعنى (الذين) بدليل ما بعده[١].

---

(١) انظر: «تفسير السمرقندي» (٣/ ٢٨٤).

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أخبِروني أيَّ شيءٍ خلَقوا مما في الأرض إنْ كانوا آلهةً كالذي خلَقَ اللهُ تعالى؟!

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي: أَلَهم نصيبٌ يَدَّعونه في السماوات؛ أي: في خَلْق السماوات.

﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾: أي: مِن قَبْل القرآن.

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: أي: روايةٍ ترووْنها مِن العلماء والأنبياء.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أنَّ اللهَ أمرَكم بعبادة الأوثان.

قال عكرمة ومُقاتل: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾: أي: رِوايةٍ عن الأنبياء[1]، وقد أثَرَ الحديثَ يأثُرُه، فهو مأثورٌ.

وقال أبو بكر بنُ عياش: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ﴾: أي: بَقِيَّةِ عِلْمٍ[2]، وأثَرُ الشَّيءِ: بقيَّتُه.

وقيل: أرادَ بالأَثارة ما كانت العربُ تعرِفُ بعضَ الأشياء به؛ مِن العِيافة والزَّجْر والخَطِّ والطَّرْق[3]..

(١) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٤٩). وانظر قول مقاتل في «تفسيره» (٤/ ١٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٠٣).

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١١٥)، وذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٦٨١١)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧١).

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٤٩) عن الكلبي، وهو قول الفراء كما في «معاني القرآن» (٣/ ٥٠)، وأبي عبيدة كما في «مجاز القرآن» (٢/ ٢١٢).

(٣) العيافة: زجر الطير، وهو أن يرى طائراً أو غراباً فيتطير، وإن لم ير شيئاً فقال بالحدس كان عيافة أيضاً.

وقريب منه الزَّجْر: وهو التيمن بسنوح الطير وغيرها، والتشاؤم ببروحها. انظر: «تهذيب اللغة» (٣/١٤٧، ١٠/٣١٨).

=

مما كانوا يَأْثُرونه عن أسلافهم، ويَدَّعون وقوعَ العلمِ بها وإن لم يكن لها حقيقةٌ.

يقول: بأيِّ حُجَّةٍ تُشركون بالله الذي تُقِرُّون أنه خالقُكم ورازقُكم غيرَه؟! ثم لن يجوزَ أنْ يُشْرِكَ به في العبادة إلا مَن شاركَه في السَّبَب الذي يستحِقُّ به العبادةَ، فهل خلَقَتِ الأصنامُ شيئاً مِن الأرض أم لهم شِرْكٌ في مُلْكِ السماوات؟! ولن تستطيعوا أنْ تَدَّعوا هذا، فمِن أي وجهٍ[1] استجزتُم إشراكَها بالله تعالى؟! ثم إنِ ادَّعوا لآلهتهم شُركاءَ في الخَلْق فليُثْبِتوا ذلك بخبَرٍ؛ إذ لا مُشاهدة، وهو كتابٌ أو طريقٌ آخرُ يُعْلَمُ به، وإذا عُدِمَ هذا كلُّه فاعلموا أنكم كاذبون؛ إذ الصِّدْقُ لا يثبُتُ إلا ببُرْهان.

* * *

(٥) ـ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: لا أضلَّ ممن يعبُدُ مِن دون الله ويدعو بحاجته شيئاً لو دعاه إلى يوم القيامة لم يستجبْ له دعاءَه، ولا يكون عنده مَعونةٌ.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: المعبودون ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾؛ أي: دُعاءِ العابدين ﴿غَٰفِلُونَ﴾: لا يعلمون به؛ لأنها جمادٌ، جَمَع مع إفرادِ أوَّلِ الكلام؛ لأنَّ (ما) للعُموم معنًى، فإنْ كان هذا في الأصنام، فالجَمْعُ مع الواو[2] والنون لِمَا أنها وُصِفَتْ بصفات العُقلاء،

= وأما الخط: فهو أن يخط بإصبعه في الرمل ويزجر، والطَّرْق: الضرب بالحصى، وهو نوع من التكهن. انظر: «الصحاح» (مادة: خطط وطرق).

(١) في (أ): «شيء».

(٢) في (ر): «بالواو».

وإنْ كان هذا في الملائكة والجن والشياطين، فمعنى ﴿عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾: أَنَّهم لا يَعْلَمون ما فيه هؤلاء المشركون، والملائكةُ مَشْغولون بالعبادة لا يخطُرُ ببالهم غيرُ ذلك، والجنُّ والشياطينُ لا عِلْمَ لهم بما غابَ عنهم.

❊ ❊ ❊

(٦ ـ ٧) ـ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾: أي: بُعثوا يوم القيامة وجُمِعوا.

﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾: أي: كان عبَدَةُ الأصنامِ للأصنام أعداءً؛ لِمَا ظهَرَ لهم مِن العُقوبة بسبب عبادتها، وإنْ كان هذا في عبَدةِ الملائكة، فمعناه: كانت الملائكة ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للعابدين ﴿أَعْدَآءً﴾ يقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية [سبأ: ٤١].

﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾: أي: مُتبرِّئين أنْ يكونوا أمَرُوهم بها أو رضُوا بها، وكذلك الجنُّ والشياطينُ إذا اجتمَعوا في النار يكفُرُ بعضُهم ببعض ويلعَنُ بعضُهم بعضاً.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: أي: آياتُ القرآنِ واضحاتِ المعاني ظاهراتِ الإعجازِ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: وهو تلبيسٌ منهم على الضَّعَفَة، وتنفيرٌ لهم عن السماع والقَبول.

❊ ❊ ❊

(٨) ـ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾: أي: أيقولون هذا أم يقولون: اختلَقَه محمد مِن عند نفْسِه؟!

﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾: فذاك معصيةٌ، واللهُ تعالى قادرٌ على أنْ يُعاقِبَني عليها.

﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾: أي: فلا تَقْدِرون أنتم على دَفْعِ عذابِ اللهِ عنِّي.

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ﴾: أي: بالكلام الذي تخوضون فيه مِن هذا الوجه.

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾: أي: شاهِداً بأنه أرْسَلَني إليكم وأمرَني بتبليغ وَحْيِه إليكم.

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾: لِمَن تابَ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: الحليمُ، فلا يُعاجِلُ بالعقاب.

* * *

(٩) ـ ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: أي: بَديعاً؛ أي: لستُ بأوَّلِ رسولٍ، فقد أرسلَ الله تعالى قَبْلي رسلاً إلى أُمَمهم، وقد كان في الأنبياء مَن يَسْلَمُ مِن المِحَن، ومنهم مَن يُمْتَحَنُ بالهجرة عن الوطن، ومنهم مَن يُبْتلى بأنواع الفِتَن، والأممُ منهم مَن أُهْلِكَ بالخَسْف، ومنهم مَن كان هلاكُه بالقَذْف، وكذا بالمَسْخ والرَّجْف، والرِّيح والصَّيْحة والغَرَق وغيرِ ذلك.

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾: مِن هذه الوجوه.

﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾: أي: ما أَتَّبعُ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾: مُخَوِّفٌ ظاهرٌ، وهذا كان في أمر الدنيا، ثم أوحى إليه بما تكون عاقبةُ أمرِه وأمرِهم، فأمرَه بالهجرة، ووعدَه العِصْمَةَ مِن الناس، وحثَّه على الجهاد، وأخبرَه أنه يُظْهِرُ دينَه على الدِّين كلِّه، ويُسَلِّطُه على عدوه، ويستأصِلُهم بسيفه.

وقال ابن عباس ومُقاتل: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ أي: في الدنيا[١].

(١) كذا ذكر المؤلف عن ابن عباس ومقاتل، ولم أجده عن أي منهما، بل ما نقل عنهما يخالف هذا، وهو أن المراد بالآية الآخرةُ والمعادُ، وأن الله تعالى بيَّن له بعد ذلك عاقبته وأنه في الجنة، ونسخ هذه الآية بقوله تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، هذا ما قاله مقاتل في «تفسيره» (٤/ ١٧). ورواه أبو داود في «ناسخه» من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عَنْهُمَا أنه قال في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾: نسختها هذه الآية التي في الفتح، فخرج إلى النَّاس فبشرهم بالذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر..، الحديث. وروى معناه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢١) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ فأنزل الله بعد هذا: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

وهذا القول بكونها في المعاد وبالنسخ لم يرتضه أكثر العلماء، قال ابن الجوزي: والقول بنسخها لا يصح؛ لأنه إذا خفي عليه علم شيء ثم أعلم به لم يدخل ذلك في ناسخ ولا منسوخ، وقال النحاس: محال أن يقول رسول الله للمشركين: ما أدري ما يفعل بي وبكم في الآخرة، ولم يزل يخبِر أن من مات على الكفر يخلد في النار ومن مات على الإيمان فهو في الجنة، فقد دَرَى ما يفعل به وبهم في الآخرة، والصحيح في معنى الآية قول الحسن: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا. انظر: «نواسخ القرآن» لابن الجوزي (ص: ٢٢٧)، و«الناسخ والمنسوخ» للنحاس (ص: ٦٦٥).

وقال أبو حيان: هذا القول ليس بظاهر، بل قد أعلم الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام من أول الرسالة بحاله وحال المؤمن وحال الكافر في الآخرة.

وقال الإمام الرازي: أكثر المحققين استبعدوا هذا القول واحتجوا بأن النبي لا بد أن يعلم من نفسه كونه نبيا ومتى علم ذلك علم أنه لا يصدر عنه الكبائر وأنه مغفور وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكاً في أنه هل هو مغفور له أم لا، وبأنه لا شك أن الأنبياء أرفع حالاً من الأولياء، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] فكيف يعتقد بقاء الرسول وهو رئيس الأنبياء وقدوة الأولياء شاكاً في أنه هل هو من المغفورين أم لا. انظر: «تفسير الرازي» (٢٨/ ١٠)، و«روح المعاني» (٢٥/ ٦٥).

وسيأتي مزيد كلام فيه لاحقاً.

وقال الحسن: في المعاد[1].

وقال أنس رضي الله عنه: لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ فرِحَ المشركون فرَحاً شديداً،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢١) عن عكرمة والحسن مثل حديث ابن عباس الذي رواه أبو داود في «ناسخه» وذكرناه في التعليق السابق.
لكن روي عن الحسن خلافه، وهو أن المراد بالآية: في الدنيا، رواه مطولاً ومختصراً الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٦٦٥) واستحسنه كما تقدم وسيأتي، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٢)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٥٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٢٩٨).

وهذا القول هو المرجح عن أكثر العلماء، وقد ذكرنا بعض ذلك في السابق، وهو الذي اختاره الطبري فقال: (وأولى الأقوال في ذلك بالصحة وأشبهها بما دلّ عليه التنزيل، القول الذي قاله الحسن البصري) ثم أفاض في تعليل سبب اختياره لذلك.
وكذلك النحاس استحسنه كما تقدم، ومما قال فيه زيادة على ما ذكرنا: وهذا أصحُّ قولٍ وأحسنُه لا يَدْري ﷺ ما يَلْحقُه وإيَّاهم من مرضٍ وصحةٍ ورُخْصٍ وغلاءٍ وغنًى وفقرٍ، ومثلُه ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].
وفي كون معنى هذه الآية في الدنيا وجوه ذكرها ابن الفرس في «أحكام القرآن» (٣/ ٤٨٧) فقال: (وذهب الحسن بن أبي الحسن وغيره إلى أن معنى الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا من أن أنصر عليكم أو تنصروا علي. وذكر بعضهم عن الحسن أن معناها: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا من غلاء أو رخص أو مرض أو غير ذلك من الأحداث. وقال قوم المعنى: ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما يلزم الشريعة من أغراضها. وقال بعضهم: نزلت الآية في أمر كان النبي ﷺ ينتظره من الله تعالى في غير الثواب والعقاب. وروي عن ابن عباس أنه لما تأخر خروج رسول الله ﷺ من مكة حين رأى في النوم أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وسبخة قلق المسلمون لتأخره فنزلت الآية. فالآية في هذه الأقوال كلها إنما هي في أمور الدنيا. ولا خلاف على ذلك بأن الآية محكمة). وما ذكره آخراً عن ابن عباس سيأتي قريباً تخريجه.

وقالوا: واللَّاتِ والعُزَّى ما أمرُنا وأمرُ محمَّدٍ عند الله إلا واحدٌ، وما له علينا مِن مزيَّةٍ وفضلٍ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1].

وقال قتادة: قد بيَّنَ له ما يُفْعَلُ به بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[2].

وقال السُّدِّي: لَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ اغتَمَّ لها رسولُ اللهِ ﷺ والمؤمنون، فلما نزلَتْ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالت الصحابة: طوبى لكَ[3] يا رسولَ اللهِ، فقد بيَّنَ اللهُ ما يَفْعَلُ بكَ، وأمرُنا على خطَرٍ، فأنزلَ اللهُ تعالى ما فرَّحَ به قلوبَهم، فقال: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية[4].

وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: ما تُؤمَرون به، وما تُنْهَون عنه[5].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ رسولَ الله ﷺ حين اشتدَّ البلاءُ بأصحابه مِن المشركين رأى رؤيا، فأخبرَ بها أصحابَه، فقال: «رأيتُ أرْضاً أَخْرُجُ إليها مِن مكَّةَ ذاتَ نَخْلٍ لو كانت بأرض شَنُوءَةَ نخيلٌ لقلتُ: إنها هي»، فقالت الصحابة: فمتى يكون ذلك؟ ومتى نخرُجُ مِن هذه الشدة؟ فأنزل الله هذه الآيةَ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٣) عن أنس وقتادة والحسن وعكرمة، ونقله أيضاً ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٠٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية علي بن أبي طلحة.

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٤٤)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢١).

(٣) في (أ): «طوباك».

(٤) لم أقف عليه.

(٥) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٣).

﴿ٱلرُّسُلِ﴾[١]؛ يعني: أَنَّهم تجرَّعوا مِن البلايا والغُصَص ما شاء الله، ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾: في المستقبل أَتُحقَّقُ رُؤْيايَ أم لا؟

* * *

(١٠) ـ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾: أي: قل لهؤلاء المشركين: أرأيتم إنْ كان هذا القرآنُ الذي جئتُكم به كلاماً لله تعالى جاء مِن عنده.

﴿وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾: أنتُم، وقلتُم: ليس هو مِن عند الله، وقلتُم: هو سِحْرٌ مُبينٌ.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: أي: نبيٌّ مِن أنبياء بني إسرائيل، وهو موسى عليه السلام.

﴿عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾: أي: على مِثْل ما قلتُه لكم: أنه مِن عند الله.

﴿فَـَٔامَنَ﴾: به[٢] هذا النبيُّ مع محله.

﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾: أنتم، وجوابُه محذوفٌ ها هنا؛ قال الزجاج: هو: أتؤمنون؟[٣].

وقيل: أفما تَهْلِكون؟!

وقيل: أفلا تكونون ظالمين؟! يدلُّ عليه ما بعده:

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٣)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٨٠)، والقرطبي في «تفسيره» (١٩/ ١٨٦). وهو من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) في (أ): «بي».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٤/ ٤٤٠). ووقع في (ف): «هلا تأمنون» بدل: «هو أتؤمنون».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: ما داموا على ظُلْمهم.

والحَمْلُ على موسى عليه السلام عن مسروق والشَّعبي، وقالا: السورةُ مَكِّيَّةٌ[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والحسن والضحاك وعوف بن مالك الأَشْجَعِيُّ وابن زيد وعامَّةُ المفسرين: هو عبد الله بن سلَامٍ[٢].

وقال الضحاك في رواية: نزولُها في ابن يامين؛ شهِدَ على مِثْلِ شهادةِ عبد الله بن سلَام، وشهِدَ ابنُ سلام على مِثْل شهادةِ ابن يامين[٣].

وقال السُّدِّي: كان عبد الله بن سلَام غائباً بالشام، فقدِمَ مِن غَيْبَتِه ليلاً، فأتى

---

(١) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢٥ ـ ١٢٦)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٦).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٢٧) عن سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن سلام، وابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والحسن، وابن زيد، وعوف بن مالك.

ورواية ابن عباس رضي الله عنهما عزاها السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٤٣٨) إلى الطبري وابن أبي حاتم وابن مردويه.

ورواه عن مجاهد أيضاً ابنُ سعد في «الطبقات الكبرى» (٢/ ٣٥٣).

ورواه عن قتادة أيضاً عبدُ الرزاق في «تفسيره» (٢٨٤٣).

ورواه عن الحسن أيضاً الحارثُ بن أبي أسامة في «مسنده» (١٠٢٧).

ورواه عن الضحاك أيضاً ابنُ شبة في «تاريخ المدينة» (٤/ ١١٨٢)، والحاكم في «المستدرك» (٥٧٥٤).

ورواه عن سعد بن أبي وقاص أيضاً البخاريُّ (٣٨١٢)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٣١)، وغيرهما.

(٣) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٢٤٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٠)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٥٢) من غير نسبة، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٧٣) عن السدي، وهو قول مقاتل في «تفسيره» (٤/ ١٨).

النبيَّ عليه السلام، وتأمَّلَه وتحقَّقَ[١] عنده أنه نبيٌّ، ثم قال له: إذا كان الغدُ فأَخْبِئْني في بيتٍ، وادعُ رؤساءَ اليهودِ وسَلْهم عني، فإنهم يُثْنُون عليَّ ويُحْسِنون فيَّ القولَ، ثم قل لهم: إنْ آمنَ بي عبدُ الله أتؤمنون بي؟ فإنهم يقولون: إنْ أمَرَنا عبدُ الله بالخروج عن أهالينا وأولادِنا خرَجْنا، ثم أَخْرُجُ أنا فأشهَدُ بشاهدة الحق، لعلَّ اللهَ يرزقُهم الإيمانَ، فلما كان مِن الغد اختبَأَ في بيتٍ، ودعاهم رسولُ الله ﷺ، وسألَهم عنه فأحسنوا فيه القولَ، ثم خرَجَ عبدُ الله، وشهِدَ بشهادة الحق، وقال لهم: يا مَعْشَرَ اليهودِ، أتعلمون[٢] أنَّ موسى عليه السلام بشَّرَنا بهذا الرسول، وقال لآبائنا: إنْ أدركتُموه فاقرؤوا عليه سلامي، وقولوا له: طُوبى لكَ[٣]، وطُوبى لأُمَّتكَ؟ فتحيَّرَتِ اليهودُ، وقالت لعبد الله: كنا نَعُدُّكَ لمِثْل هذا اليوم لِتَنْصُرَنا وتنصُرَ دينَ الله، فإذا نحن بكَ وقد صَبَأْتَ، وما نرى ذلك إلا لخَرَفِكَ وهرَمِكَ[٤].

وعلى القول الأول معناه: أنَّ المشركين كانوا يرجعون إلى علماء بني إسرائيل في كثير مِن الأمور، ويعتمدون على قولهم، ولو سألوهم أخبروهم أنَّ في كتابهم ذلك، وأنَّ موسى شهِدَ بذلك، وأخبَرَ به قومَه[٥].

* * *

(١١) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

---

(١) في (ر): «فنظر إلى وجهه وتحقق» بدل: «وتأمله وتحقق».

(٢) في (ف): «ألم تعلموا».

(٣) في (ف): «طوباك».

(٤) لم أقف عليه هكذا، لكن أصل القصة رواها البخاري (٣٣٢٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٥) في (ر): «قومه بذلك» بدل من «به قومه».

وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أي: المشركون ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ أي: لو كان هذا الكتابُ خيراً مما نحن فيه مِن التَّدَيُّنِ بعبادة الأوثان[1] ما سبَقَنا إليه هؤلاء؛ إذ هُم سفلَتُنا.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾: أي: وإذ لم يتدبَّرِ الرُّؤَساءُ هذا القرآنَ استثقالاً منهم للنَّظَر، واستكباراً عن الانقياد للمَرْؤُوسين عندهم، كابَروا فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾؛ أي: كذِبٌ مُتَقادِمٌ، وهو كقولهم: أساطيرُ الأولين.

* * *

(١٢) ـ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾: أي: قَبْلَ القرآنِ كتابُ موسى، وهو التوراةُ، وهو مُصَدِّقٌ له، ومُبَشِّرٌ به وبمحمد الذي يجيءُ به، فكيف يكون إِفْكاً؟!

﴿إِمَامًا﴾: أي: قُدْوةً، نُصِبَ لأنه نكرةٌ نُعِتَ به معرفةٌ، فكان قَطْعاً.

﴿وَرَحْمَةً﴾: لِمَن اتَّبَعه واهتدى به.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾: أي: القرآنُ مُصَدِّقٌ لكتاب موسى.

﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾: أي: هو بلسانٍ عربيٍّ لا يُشْكِلُ على هؤلاء.

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: قرأ ابنُ كثير في روايةٍ: ﴿لِتُنْذِرَ﴾ بتاء المخاطبة للنبيِّ عليه السلام، وقرأ الباقون بياء المُغَايبة؛ أي: القرآنُ[2].

---

(١) في (ف): «الأصنام».

(٢) قرأ نافع وابن عامر والبزي عن ابن كثير بخلف عنه بالتاء، والباقون بالياء. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٨).

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: أشركوا وعصَوا.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾: المؤمنين المُطيعين.

ويجوز في ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ الرَّفعُ عَطْفاً على ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، ويجوز النَّصْبُ عَطْفاً على ﴿لِّيُنذِرَ﴾، وتقديرُه: إنذاراً وتبشيراً، وهو كقولك: جئتُكَ لِأزوركَ وكرامةً لكَ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: ناساً مِن مكة قالوا: نحن أعزُّ وأكرمُ مِن غيرنا، ولو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبَقَنا إليه خَبَّابٌ وصُهَيبٌ وبلالٌ، وعدُّوا جماعةً مِن الفقراء[1].

وروى الكلبيُّ عن أبي صالحٍ عن ابن عباس: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: يعني: أسداً وغَطَفانَ وحَنْظَلَةَ، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: يعني: جُهَيْنَةَ ومُزَيْنَةَ، ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما جاء به محمد ﴿خَيْرًا﴾ ما سبَقَنا إليه رعاءُ الغنمِ ورُذَالُ الناسِ[2]، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ كما اهتدَتْ به جُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾: أي: كذِبٌ قدِمَ العهدُ به وبمِثْله في سالِف الدُّهور.

* * *

(١٣ ـ ١٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا

---

(١) روى نحوه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٣٢)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٨٧) عن قتادة، وابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٢٧٨) من غير نسبة.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٠)، والماوردي في «تفسيره» (٥/ ٢٧٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٦) عن الكلبي.

وذكره الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٥١)، والزجاج في «معاني القرآن» (٤/ ٤٤٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٠٠) من غير نسبة. وجاء في (أ): «ورذالة الناس».

حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾: فسَّرْناه في ﴿حمٓ﴾ السجدة.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾: وهم خِلافُ الطَّبَقةِ الأولى.

وقولُه تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾[١]: قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿إِحْسَٰنًا ﴾، وقرأ الباقون: ﴿حُسْناً﴾[٢].

عرَّفَ اللهُ تعالى بهذه الآية والتي بعدها اختلافَ أحوالِ الناس في التَّمَرُّدِ والعُتُوِّ والإصرارِ على الشرك، وفي الإِصْغاء إلى النَّصيحةِ، وقبولِ الدَّعوةِ إلى الإيمان مِن الأبوين، فإذا[٣] كان كذلك في الوالدين والولدِ لم يَبْعُدْ في النبي عليه السلام وقومِه.

يقول: أمَرْنا الإنسانَ في حقِّ والديه بالإحسان، ثمَّ بيَّنَ السَّبَبَ فقال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرو بفتح الكاف، والباقون بالضم[٤]، وكلاهما لغةٌ، ومعناهما: المَشَقَّةُ.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾: أي: مُدَّةُ حَمْلِه ومُدَّةُ فِطامِه ثلاثون شهراً، وقد قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، فبقِيَ للحَمْلِ ستةُ أشهرٍ، وهي أدنى مُدَّةٍ يُتَصَوَّرُ فيها وَضْعُ الولدِ.

---

(١) في (ر) و(ف): «حسناً»، وهما قراءاتان متواترتان.

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ١٦٣)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٩).

(٣) في (ف): «وإن».

(٤) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٦)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٩).

هذا بيانُ مَشَقَّةِ الأمِّ، والأبُ يلحقُه مَشَقَّةُ النَّفَقَةِ والقيامِ بأسبابِها التي بها يُمْكِنُها ذلك، ومعاونتِها[١] على التربية.

ورُوِيَ أنَّ امرأةً ولَدَتْ لستةِ أشهرٍ، فرُفِعَ ذلك لعُمرَ رضي الله عنه، فهَمَّ برَجْمِها، فبلَغَ ذلك عليًّا رضي الله عنه فقال: لا رَجْمَ عليها، فبلَغَ عمرُ رضي الله عنه قولَ عليٍّ، فأرسلَ إليه فسألَه عن ذلك، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وقال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، فستةُ أشهرٍ وحَوْلان ثلاثون شهراً، قال: فخلَّى سبيلَها[٢].

ورُوِيَ أنَّ رجلاً تزوَّجَ امرأةً، فولَدَتْ لستةِ أشهرٍ، فجيءَ بها إلى عثمان رضي الله عنه، فتشاوَرَ في رَجْمِها، فقال ابن عباس: إنْ خاصَمْتُكم بكتاب الله تعالى خصَمْتُكم، قالوا: كيف؟ قال: إنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فحَمْلُها ستةُ أشهرٍ وفصالُه حولان، فتركَها[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: حتى إذا بلغَ الولدُ ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: كمالَ قُوَّتِه، وهو حالُ البُلوغِ.

---

(١) «ومعاونتها» معطوف على «النفقة»؛ أي: (ومشقة النفقة ومشقة معاونتها...).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٣٤٤٤)، والبيهقي في «الكبرى» (١٥٥٤٩)، وفي «معرفة السنن والآثار» (١٥٣٥٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٧٤٦).

(٣) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٣٤٤٩)، وسعيد بن منصور في «سننه» (٢٠٧٥)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٣/ ٩٧٧ ـ ٩٧٨)، وابن منده في «التوحيد» (١٠١).

قال ابن عبد البر في «الاستذكار» (٧/ ٤٩١) بعد أن ذكر روايات القصة: لا أعلم خلافاً بين أهل العلم فيما قاله علي وابن عباس في أقل الحمل، وهو أصل وإجماع.

وقال الحسن: أي: قِيامَ الحُجَّةِ عليه[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: ثلاثاً وثلاثين سنةً[2].

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: يقولُ: اختلَفَتْ أحوالُ الأولادِ، فمنهم مَن أسلَمَ أبواه ودعواه إلى الإسلام فأسلَمَ، وكان يبرُّهما إلى أنْ ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ شبابَه ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾: كُهولتَه.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾: أي: أَلْهِمْني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾: وهي الإسـلامُ.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾: أي: وأَلْهِمْني أنْ أعملَ أيضاً في المستأنَفِ مِن الأعمال الصالحة[3] ما ترضى به.

﴿وَأَصْلِحْ لِى﴾: أي: أُموري ﴿فِى ذُرِّيَّتِيٓ﴾؛ أي: أولادي حتى يَنْشَؤوا في الصَّلاح.

﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾: مِن كل ذنبٍ أذنَبْتُه.

﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: المُنْقادين لِدينِكَ وأمرِكَ ونهيِكَ.

* * *

(١٦) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

---

(١) ذكره عنه الجصاص في «أحكام القرآن» (٣/ ٥١٧)، وابن فورك في «تفسيره» (١/ ٣٣٥).

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٣٩)، وابن منده في «التوحيد» (١٠٢).

وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٦٠١)، والثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٣٩)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ١٩٦).

(٣) في (أ): «المستأنفة».

وقولُه تعالى: ﴿أولئك الذين يُتَقَبَّلُ عنهم أَحْسنُ ما عَمِلوا ويُتَجاوَزُ عن سَيِّئَاتهم﴾:

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفص بالنون فيهما، والباقون بالياء على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[1]، و﴿أحسنُ﴾ رُفِعَ لأنه اسمُ ما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ أي: يُتَقَبَّلُ عن هؤلاء الأولادِ البرَرَةِ حسناتُهم، ويُتجاوَزُ عن سيئاتهم.

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾: أي: كما هو حُكْمُنا في أصحاب الجنة.

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾: أي: وعَدْناهم بذلك وَعْداً صِدْقاً، وهو إضافةُ الشيءِ إلى نَعْتِه.

﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾: ودلَّتْ صيغةُ الجَمْعِ في آخره أنَّ الآيةَ في كل الأولادِ البرَرَةِ.

* * *

(١٧) - ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾: وهذا في حقِّ الأولادِ العاقِّين الأشرارِ.

﴿أُفّٖ لَّكُمَآ﴾: أي: قَذَراً لكما.

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾: أي: مِن قبري بعد أنْ صِرْتُ رَميماً، وتَدْعُوانِني إلى الإيمان به.

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾: أي: تَفانَوا، فلم يَرْجِعْ أحدٌ منهم إلى الدنيا.

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾: أي: والوالدان يسألان اللهَ لهذا الولدِ السَّوءِ الهُدى، ويقولان لهذا الولد: ﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾: أي: صَدِّقْ بالبعثِ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ أي: إنَّ وَعْدَ اللهِ بالإحياء صِدْقٌ.

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٥٩٧)، و«التيسير» للداني (ص: ١٩٩).

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: أباطيلُ كتبَها الأوَّلون.

* * *

(١٨ ـ ١٩) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾: أي: هؤلاء الأولادِ الأشرارِ الذين وجَبَ عليهم ﴿ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: الوعيدُ ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾؛ أي: مع أُمَمٍ.

﴿خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾: أي: هالِكين.

وقيل: مَغْبُونين بفَوْتِ الثواب، وحُلولِ العقاب.

وقولُه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ﴾: أي: ولِكُلٍّ مِن الأبرارِ والفُجَّارِ.

﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾: مراتبُ[١] في الطاعة والمعصية، والثواب والعقاب.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: فيه مُضْمَرٌ؛ أي: ففعَلْنا ذلك لِنُوَفِّيَهم جزاءَ أعمالِهم.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: بالعُقوبة مِن غير ذنبٍ، ولا نُقْصانِ أجرٍ على طاعة.

وقال السُّدِّي والضحاك: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: نزلَتْ في سعد بن أبي وقَّاص[٢]، وقد بيَّنَّا القِصَّةَ في سورة العنكبوت وفي سورة لقمان[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتلٌ: هو أبو بكر الصديق رضي الله عنهم[٤].

---

(١) في (ف): «مراتب مما عملوا».

(٢) ذكره عنهما الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٢).

(٣) انظر ما تقدم عند تفسير الآية (٨) من سورة العنكبوت، والآية (١٤) من سورة لقمان.

(٤) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٠/ ٣٣٨) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. وقاله مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٢٠). والكلبي ومقاتل متروكان.

وقال محمد بن إسحاق: هو أبو بكر بنُ أبي قُحافةَ، واسمُ أبي قحافة عثمانُ بنُ عمرو، واسمُ أمِّ أبي بكر أمُّ الخير بنتُ صَخْرِ بنِ عمرو بنِ عامر مِن بني تميم[١] بنِ مُرَّة، حمَلَتْه في البطن تسعةَ أشهرٍ، وفصَلَتْه مِن اللَّبَن لأحدٍ وعشرين شهراً، فذلك ثلاثون شهراً، فلما بلَغَ أبو بكر أربعين سنة صدَّقَ النبيَّ ﷺ وقال لربه: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾: هو عبد الرحمن بن أبي بكر، دعاه أبواه إلى الإسلام، فقال لهما: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾ مثلُ عامر بن كعب، وعبد الله بن جُدْعان، ولا أرى أحداً منهم حتى أسألَهم عن صِدْقِ ما تقولون[٣].

وقال مجاهد: هو عبد الله بن أبي بكر[٤]، قال له أبواه: أَسْلِم، فقال: أحيُوا لي مشايخَ قُرَيشٍ حتى أسألَهم عما تقولون.

---

(١) في (ف): «تيم».

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٢).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٥٨)، دون نسبة، وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٤/ ٢١).
وهذا القول مردود لا يصح عن ابن عباس، فإن عبد الرحمن بن أبي بكر قد أسلم وكان من أجلاء الصحابة، وإنما ينزل مثل هذا فيمن مات على كفره كأبي لهب والوليد بن المغيرة، وقد أنكرت عائشة رضي الله عنها هذا القول، وقالت: ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري. رواه البخاري (٤٨٢٧).
وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» عند هذه الآية: ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فقوله ضعيف؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه.

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٤٨) عن ابن عباس والسدي ومجاهد وأبي العالية.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾: أي: هؤلاء الذين أشارَ عليهم عبدُ الرحمن وقال: أَحْيُوهم لي، منهم عامرُ بن كعبٍ وعبد الله ابن جُدْعانَ وذووهما الذين حقَّ عليهم القولُ، فأما عبد الرحمن بن أبي بكر فقد أجابَ اللهُ فيه دُعاءَ أبيه في قوله: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾، فأسلَمَ وحسُنَ إسلامُه[(١)].

وقال محمد بن زياد: كتبَ معاوية رضي الله عنه إلى مروانَ حتى يأخُذَ البيعةَ مِن الناس لِيَزيدَ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتُم بها هِرَقْلِيَّةً، أَتُبايعون لأبنائكم؟ فقال مروان: هذا[(٢)] الذي يقول اللهُ فيه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ﴾، فسمِعَتْ بذلك عائشةُ رضي الله عنها، فغضِبَتْ وقالتْ: واللهِ ما هو به، ولو شئتَ لسَمَّيْتُه، ولكنَّ اللهَ لعَنَ أباكَ وأنتَ في صُلْبِه، وأنتَ فَضَضٌ مِن لَعْنَةِ اللهِ[(٣)]؛ أي: قِطْعةٌ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ﴾.

﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: يُحْضَرون قَبْل أنْ يُلْقَوا فيها، فيُقالُ لهم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾: أَمْضَيْتُم شهواتِكم، واستَوْفَيْتُم نَهماتِكم.

﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾: أي: القُرْبى.

﴿وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا﴾: أي: الملاذِّ.

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٣).

(٢) في (أ): «هو».

(٣) رواه النسائي (١١٤٢٧)، والبزار في «مسنده» (٢٢٧٣)، والحاكم في «المستدرك» (٨٤٨٣)، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

قال الذهبي في «التلخيص» (١١١٥): فيه انقطاع، محمد لم يسمع من عائشة رضي الله عنه.

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾: أي: الذُّلِّ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: تتعظَّمون عن قَبول الحق، والانقياد لِمَن نهاكم عن ذلك.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: مِن غير أنْ يكون لكم استحقاقُ ذلك.

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾: تُجاهِرون بالمعاصي.

* * *

(٢١) ـ ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ﴾: يا محمد ﴿أَخَا عَادٍ﴾: أي: هوداً نَسيبَ عادٍ؛ أي: واذكرْ لقومكَ هذه القصةَ؛ لِيَعْتَبِروا ويخافوا مثلَ حالِهم.

وقيل: أي: واذكرْ في نفْسِكَ؛ لِتَتَسَلَّى بما ينالُكَ مِن أذى قومِكَ.

﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾: أي: بهذه المواضع، كانوا يسكنون الأَحْقافَ.

قال محمد بن إسحاق: هي رِمالٌ فيما بين عُمَانَ إلى حَضْرَمَوْتَ[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وادٍ بين عُمَانَ ومَهَرَةَ[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥١)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٨٢)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٥٨).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٦٢).

والمهَرة: بلاد تنسب إليها الإبل، بينها وبين عمان نحو شهر، وكذلك بينها وبين حضرموت. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢٣٤).

وقال قتادة: هي رمالٌ مُشْرِفةٌ على البحر بالشِّحْر[١] مِن اليمن[٢].

وقال الضحاك: هي جبل بالشام[٣].

وقال الحسن: أرضٌ خلالها رمالٌ[٤].

وقال ابن زيد: الحِقْفُ: الرَّمْلُ كهيئة الجبل[٥].

وقيل: الحِقْفُ: الرَّمْلُ المستطيلُ العظيمُ لا يبلُغُ أنْ يكون جبلاً.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾: وهذا كلامٌ مُعْتَرِضٌ؛ أي: كما جاء هودٌ عاداً نذيراً مضَتِ الرسُلُ نُذُراً لقومهم قَبْلَ هودٍ ومِن بعده.

وقيل: فيه إضمارٌ: وقد خلَتِ النُّذُرُ مِن بين يديه، وأنتَ مِن خَلْفهم.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أي: خاطبَهم هودٌ بهذا: أنْ لا تعبُدوا إلا اللهَ وحدَه ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: إنْ أصرَرْتُم على شرككم.

---

(١) في (أ): «بالسحر». وفي (ف): «بالشجر»، وهي كذلك في المطبوع من «مصنف عبد الرزاق». والشِّحْر: هي منطقة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ما بين عدن وعمان. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٣٢٧).

(٢) رواه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٥٥)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥٢)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٦)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠١).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٨٢) عن الضحاك.

(٤) لم أقف عليه عن الحسن، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٥٤) عن الكلبي، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥٢) عن مجاهد.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٥٣)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٦)، والماوردي في «تفسيره» (٥/ ٢٨٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٦٢).

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾: أي: لِتَصْرِفَنا عن عبادتها؛ أي: فهذا لا نُجيبُكَ إليه، ولا نخافُ ما تُنْذِرُنا به.

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾: مِن العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: في إنذاركَ.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: العِلْمُ بوقتِ نزولِ العذاب عند الله.

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾: وإنما أنا مُبَلِّغٌ، وقد بلَّغْتُ.

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمًا تَجۡهَلُونَ﴾: أي: في ظَنِّكم أنكم تَنْجُون مع[1] تكذيبِكم إيَّايَ.

***

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا﴾: أي: سحاباً ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ وكان المطرُ احتبَسَ عنهم، وبَعَثوا قوماً إلى الكعبة للاستسقاء، وقد مَرَّتْ قصَّتُه في سورة الأعراف، فلما رأوا هذا العارض:

﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمۡطِرُنَا﴾: أي: سحابٌ يأتينا بالمطر، فأظهَروا بذلك فرَحاً، فقال لهم هودٌ:

﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾: مِن العذاب الذي أَنْذَرْتُكُموه.

---

(١) في (ر) و(ف): «من».

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: أي: تُهْلِكُ وتستأصِلُ لِشِدَّة عُصوفِها.

وقيل: هو رَمْيُ شيءٍ على شيء وإهلاكُه به.

وقوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾: للتَّفْخيم، لا على حقيقة التَّعميم.

وقيل: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ أُمِرَتْ بتدميره.

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾: وفيه مُضْمَرٌ: فجاءَتْهم الرِّيحُ فدمَّرَتْهم، فلم يَبْقَ منهم أحدٌ، وصاروا تحت الرِّمال، ﴿فَأَصْبَحُوا﴾؛ أي: صاروا، ﴿لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ لأنها كانت قائمةً.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾: أي: كلَّ مَن أجرَمَ مِثْلَ جُرْمِهم، وهو تخويفٌ لأهل مكَّةَ.

* * *

(٢٦) - ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾: أي: أعطَيْناهم مِن المَكِنَة[1] والمكانة.

﴿فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾: ﴿إِنْ﴾: للنَّفْي؛ أي: فيما لم نُمَكِّنْكُمْ في مِثْلِه، ثم هُم لم يُمْكِنْهمُ التَّحرُّزُ عنه، فكيف أنتم؟!

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾: أي: آلاتٍ وحواسَّ يُمكِنُهم التَّدبُّرُ بها ليعلموا بُطْلانَ الشرك.

---

(١) المَكِنَة: التمكن، تقول العرب: إن بني فلان لذو مَكِنَة من السلطان؛ أي: ذو تمكن. انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ١٦٢).

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ﴾: أي: ما نفعَهم شيءٌ مِن ذلك، ولا رفعَ عنهم العذابَ.

﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم﴾: نزَلَ بهم وأحاطَ بهم.

﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: مِن العذاب، فيقولون: ائتِنا بما تَعِدُنا.

* * *

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ (٢٧) فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم﴾: خِطابٌ للمسلمين.

﴿مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾: كحِجْرِ ثمودَ وقُريَّاتِ لوطٍ، وهي بجوار بلاد الحجاز.

﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: بتكرير ذِكْرِها ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾؛ أي: لعلَّ المشركين ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ عن شركهم.

﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ﴾: أي: فهلَّا مَنَعَ العذابَ عن هؤلاء الذين أهلَكْناهم.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: الأصنامُ التي اتَّخَذوها مِن دون الله ﴿قُرۡبَانًا﴾ يَتقَرَّبون بها، ويقولون: إنما نعبُدهم لِيُقَرِّبونا إلى الله زُلْفى.

﴿ءَالِهَةَۢ﴾: أي: اتَّخَذوها آلهةً لهم يعبُدونها.

﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ﴾: أي: هلكوا فلم يجِدوهم عند حاجتِهم إليهم.

﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ﴾: أي: وذلك جزاءُ إِفْكِهم؛ أي: كَذِبهم في أنها آلهةٌ.

﴿وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾: أي: افتراؤُهم.

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: عَطْفٌ على قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، وهو في تَوْبيخ المشركين؛ أي: إنَّ الجنَّ استمَعوا فقبِلوا وآمنوا بمَرَّةٍ، وأنتم مُصِرُّون على شرككم على طُول الزمان، وهؤلاء هم المذكورون في سورة الجن.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا﴾: يحتَمِلُ أنهم أُلْهِموا المَسِيرَ إلى رسول الله ﷺ، ويحتَمِلُ أنهم أُمِروا بذلك في كُتُبهم، يدلُّ عليه قولُه: ﴿سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقيل: لَمَّا طُرِدوا مِن السماء ورُمُوا بالشُّهُب قالوا: هذا لأمرٍ حادثٍ، فتتبَّعوا ذلك، فأتوا النبيَّ ﷺ.

وقيل: أَتَوْه ببَطْنِ نَخْلَةٍ(١).

وقيل: بالحَجُون(٢).

وقيل: كانوا سبعةَ نفرٍ مِن جنِّ نَصِيبين(٣).

---

(١) رواه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه أن الجن أَتَوْه ﷺ بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر.

النَّخْل: موضع على ليلة من مكة، وهي التي ينسب إليها بطن نخلة، وهما نخلة الشامية، ونخلة اليمانية، كلاهما واديان. انظر: «معجم ما استعجم» للبكري (٤/ ١٣٠٤).

(٢) انظر ما سيأتي عند تفسير سورة الجن. والحَجون: جبل بأعلى مكة بحذاء مسجد البيعة، وفيه مقبرة شهيرة دفن بها كبار الصحابة والتابعين والعلماء. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٢٢٥).

(٣) انظر ما سيأتي عند تفسير سورة الجن. ونَصِيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام، ونصيبين أيضاً مدينة على شاطئ الفرات كبيرة تعرف بنصيبين الروم، وتقع في جنوب تركيا حالياً. انظر: «معجم البلدان» (٥/ ٢٨٨).

وقيل: كانوا سبعين، ووافَقوه في البَطْحَاءِ[١].

وقال السُّدِّي: لَقِيَهم بنَخْلَةٍ وهو مُقْبِلٌ مِن الطائف[٢].

وقال ابن جريج: كانوا تسعةً: حسَا، وبسَا[٣]، وشاصر، وناصر، وأَذَدْ، وأَبْيَن، وأحْقب، وشَبَتْ، وزوبعة[٤].

وقال الزُّبَيرُ بن العَوَّام: أتوه بنَخْلَةَ وهو عليه السلام قائم في صلاة العشاء[٥]، فركِبَ بعضُهم بعضاً مِن شدَّةِ حِرْصِهم على استماع القرآن.

وقال سعيد بن جُبير: لما بُعِثَ النبيُّ ﷺ حُرِسَتِ السماءُ، فقالت الشياطينُ: ما حُرِسَت إلَّا لأمرٍ حدَثَ في الأرض، فبعثَ إبليسُ سراياه في الأرض، فوجدوا النبيَّ عليه السلام بنَخْلَةَ في صلاة الفجر[٦]، وذكَرَ حديثَ عبد الله بن مسعود في كونه مع النبي ﷺ في هذه الليلة[٧].

---

(١) انظر ما سيأتي عند تفسير سورة الجن. والبَطْحاء: أصله المسيل الواسع في دقاق الحصى، ومنه بطحاء مكة، وبطحاء ذي الحليفة. انظر: «معجم البلدان» للحموي (١/ ٤٤٦).

(٢) لم أقف عليه عن السدي.

(٣) في (ف) و(ر): «ونسا».

(٤) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٥٣) عن ابن جريج عن مجاهد.
ورواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٢) عن ابن جريج قال: أخبرني وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائي.

(٥) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٣٥٧)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٤٣٥)، والفاكهي في «أخبار مكة» (٢٩٠٥). ورواية الصحيحين أنهم أتَوْه ﷺ بنخلة وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر. كما تقدم قريباً.

(٦) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٥٧)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٦٤).

(٧) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٥٨)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٦٦) من حديث قتادة. وسيأتي هذا كله في سورة الجن.

وقولُه تعالى: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾: أي: قال ذلك بعضُهم لبعضٍ احتراماً للقرآن، ووُصولاً إلى البَيان.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾: أي: فُرِغَ مِن القراءة ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: أي: فَهِموا وحفِظوا ورجَعوا فأنذروا قومَهم مُخالفةَ القرآنِ.

* * *

(٣٠ ـ ٣١) ـ ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾: أي: القرآنَ ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: التوراةِ ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: يُرْشِدُ ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: إلى الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾: أي: محمداً رسولَ اللهِ ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾: أي: بالله.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: ﴿مِّن﴾: صِلَةٌ زائدةٌ ﴿وَيُجِرْكُم﴾: أي: يُؤَمِّنْكُم ﴿مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: توقَّفَ أبو حنيفةَ رحمه الله في ثواب الجنِّ في الجنة ونعيمِها، وقال: لا استحقاقَ للعبد على الله، وإنما يُنالُ بالوعد، ولا وَعْدَ في حق الجن إلا هذا، وقولُه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: فهذا يُقْطَعُ القولُ به، فأما نعيمُ الجنَّةِ فموقوفٌ على قيام الدليل(١).

* * *

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٣)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٢٧٠)، و«الكشاف» للزمخشري (٤/ ٣١٢).

(٣٢ ـ ٣٣) ـ ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: بفائتٍ أخذَ اللهِ.

﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾: يتولَّون مَعونتَه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: جُمِعَ لِعُموم كلمة ﴿وَمَن﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: يتَّصِلُ بقوله: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ في إلزام حُجَّةِ البَعْث.

﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾: وهو كقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وقد (عَيِيَ) و(أَعْيى): إذا لغَبَ.

﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: الباءُ زائدةٌ، وإنما أُدْخِلَتْ لأنَّ معنى قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾: أَوَليسَ، وذاكَ تدخُلُ فيه الباء، وإذا قَدِرَ على الإنشاء قَدِرَ على الإعادة.

وقولُه تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾: وفي قراءة عبد الله: (قادر على أنْ يُحْيِيَ الموتى) بغير الباء[١].

وقرأ يعقوب: (يَقْدِرُ) بصيغة[٢] الفعل[٣].

وقال مقاتل: نزلت في أُبيِّ بن خلَفٍ الجُمَحِيِّ حين أخذَ العَظْمَ ففتَّه[٤].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٢٤)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٢٧١)، و«الكشاف» للزمخشري (٤/ ٣١٣).

(٢) في (ر) و(ف): «على صيغة».

(٣) انظر: «النشر» لابن الجزري (٢/ ٣٥٥).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٠)، وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٠٢).

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: يعني: هو قادرٌ يومَ العَرْضِ.

﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: تقولُ لهم الملائكةُ ذلك.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: أي: بكُفْرِكم في الدنيا.

﴿فَٱصْبِرْ﴾: أي: على أذى الكفار وتكذيبِهم.

﴿كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: أولو الحَزْم.

وقال الضحاك: أي: أولو الجِدِّ والصَّبْر[1].

وقال محمد بن كعب: أولو الرَّأْيِ الصَّوابِ[2].

وقيل: هُم الذين يَمْضُون على ما أُمِروا[3]، لا يمنعُهم عنه مانعٌ مِن مِحْنَةٍ ونحوِها.

ثمَّ مِن المفسِّرين مَن جعل قوله: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ للتَّبْعِيض، وخَصَّ أولي العَزْمِ منهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هُم أربعةٌ: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى صلوات الله عليهم[4].

---

(١) ذكره عن الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٧١).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٤).

(٣) في (ر) و(ف): «أمر الله» بدل من «ما أمروا».

(٤) رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٥٤)، وذكره الماوردي في «النكت =

وقال أبو العالية: هُم ثلاثةٌ: هودٌ، وصالحٌ، وشُعَيبٌ، ورابعُهم محمد(١).

وقال الضحاك والحسن: هُم: نوحٌ، وهودٌ، وإبراهيمُ(٢).

وقال الكلبيُّ: هُم الذين أُمِروا بالقتال(٣)، وهم خمسةٌ: نوحٌ، وإبراهيمُ، وصالحٌ، وهودٌ، وشعيبٌ.

وقال مقاتل: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ﴾: إبراهيمُ صبرَ على النار، وإسحاقُ على الذَّبْح، ويعقوبُ صبرَ على فَقْدِ يوسفَ، ويوسفُ صبرَ في السِّجْن والجُبِّ، وأيوبُ صبرَ على الضُّرِّ، ونوحٌ على الأذى(٤).

= والعيون» (٥/ ٢٨٨)، وزاد الواحديُّ في «الوسيط» (٤/ ١١٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٧٢) نسبته لقتادة.

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٢٥٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٤/ ٨٩).

وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٤)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٨٨)، وفي جميعها أن الثلاثة هم: إبراهيم وهود ونوح.

(٢) لم أقف عليه عنهما، وهو مروي عن أبي العالية. انظر التعليق السابق.

وذكر الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٦)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٠٤) عن الحسن: هم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى.

وذكر الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٨٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١١٤) عنه: كل من لم تصبه فتنة من الأنبياء فهو من أولي العزم.

(٣) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٨٨) عن السدي والكلبي، وذكره البغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٧٢)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٠٥)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٦٥) عن الكلبي.

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١١٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٧٢).

وقال الحُسين بن الفَضْل: هُم سبعةَ عشرَ[1]، وهُم المذكورون في سورة الإنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ﴾ [الأنعام: ٨٣] الآيات، فإنه قال في آخرها: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال هنا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، والمذكورون في هذه الآيات ثمانيةَ عشرَ، لكنَّ يونسَ خرَجَ مِن بين قومه، فلم يَصْبِر، فلم يكن فيهم.

وقال بعضهم: آدمُ كذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

لكنَّ الصَّحيحَ أنَّ أولي العزم كلُّ الرسل، وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾: للتَّجْنيس لا للتَّبْعيض، ومعنى قولِه: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: أي: قَصْداً إلى الخِلاف، ويونسُ لم يكن خروجُه تَرْكَ صَبْرٍ، لكنْ تَوَقِّياً عن نزول العذاب.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾: أي: ولا تدعُ عليهم بتعجيل العذاب.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾: أي: فهُم إذا رأَوا العذابَ يوم القيامة ظنوا أنهم لم يَلْبَثوا في الدنيا أو في قبورهم إلا ساعةً مِن نهارٍ، وأنَّ العذابَ عُجِّلَ لهم قريباً مِن تكذيبهم.

﴿بَلَٰغٌ﴾: أي: هذا بلاغٌ؛ أي: مَبْلَغُ[2] الكِفايةِ في العِظَة.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: أي: فهل يُهْلَكُ بعد هذا البلاغِ بعذاب الله إلَّا مَن فسَقَ، فأعلَنَ الاستخفافَ بأمر الدِّين، ولم يكن همُّه طلَبَ الحقِّ المبين.

والحمدُ لله ربِّ العالمين

* * *

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٥)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١١٤)، وفيهما أن عددهم ثمانية عشر.

(٢) في (ر) و(ف): «تبليغ».

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

سُورَةُ مُحَمَّدٍ[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

باسمِ اللهِ الذي أذلَّ الكفارَ وأضلَّ أعمالَهم، الرَّحمنِ الذي هدى المؤمنين وأصلَحَ بالَهم، الرَّحيمِ الذي يُدْخِلُهم الجنةَ عرَّفَها لهم.

وروى أبيُّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورة محمد كان حقًّا على الله تعالى أنْ يَسْقِيَه مِن أنهار الجنة»[2].

وهذه السُّورةُ مكِّيَّةٌ، ويُقال: مدنيَّةٌ، وهو الصَّحيحُ.

وهي ثمانٍ وثلاثون آيةً. وقيل: تسعٌ. وقيل: أربعون، الاختلافُ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾.

وهي خمسُ مئةٍ وتسعٌ وثلاثون كلمةً، وألفان وثلاثُ مئةٍ وستةٌ وثمانون حرفاً.

وانتظامُ أوَّلِ هذه السورة بآخر تلك السورة: أنَّ خَتْمَ تلك بالفاسقين، وافتتاحَ هذه السورةِ بالكافرين، وذلك فِسْقُ كُفْرٍ[3].

---

(١) في (أ): «القتال».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٨)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٤)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١١٨)، وهو قطعة من الحديث الموضوع المروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٩٣).

(٣) في (ر): «فسق وكفر».

وانتظامُ السورتين: أنَّهما في التَّمييزِ بين الأولياء والأعداء، والترغيب والترهيب بالجزاء، وفي هذه السورة خُصوصُ الأمرِ بالجهاد، والإنفاقِ في سبيل الله.

* * *

(١) ـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: أي: الذين كفروا بالله، ومنَعوا غيرَهم عن سلوك سبيل رضا الله تعالى ـ وهو الإسلامُ ـ، جعلَ اللهُ تعالى فِعْلَهم ضلالاً عن الرُّشْد.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أبطَلَ حسناتِهم[١]؛ أي: ما كان مِن جِنْسِ ما يكون مِن المؤمنين حسنةً؛ كالإطعام، وصِلَةِ الأرحام، وبِرِّ الأيتام، وقِرَى الأضياف، وتَقْوِيَةِ الضِّعاف؛ لأنَّه لا يُعْتَبَرُ شيءٌ مِن ذلك بغير إسلام.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هُم المُطْعِمون ببدرٍ أهلُ الثَّرْوة منهم والقُوَّةِ والمَيْسَرةِ، وهم: عُتْبَةُ وشَيْبَةُ ابنا ربيعةَ، ونُبَيْهٌ ومُنَبِّهٌ ابنا الحجاج، وأبو جهل والحارثُ ابنا هشام لعنَهم اللهُ، فهؤلاء ستةٌ[٢].

وقال مقاتل: كانوا اثني عشر: هؤلاء الستة، والباقون: عامرُ بن نَوْفَلٍ، وحكيمُ بن حِزامٍ، وزَمْعَةُ بن الأسود، وأبو سفيانَ بن حَرْب، وصَفْوانُ بن أُمَيَّةَ، والعباسُ بن

---

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٢٦٢)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٦) من غير نسبة، والواحدي في «البسيط» (٧/ ٤٢٥) عن الكلبي، وهو عن ابن عباس رضي الله عنه في «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص: ٤٢٧). ولعله من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٦) عن الكلبي، وذكره عن ابن عباس رضي الله عنه مختصراً الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣١٤). ولعله من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

عبد المطلب(١)، أطعَمَ كلُّ واحدٍ منهم يوماً الأحابيشَ والجنودَ، يَسْتَظْهِرون بهم على عداوة النبي ﷺ، وهُم المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٦].

وقال الضحاك: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: أبطَلَ كَيْدَهم ومَكْرَهم بالنبي(٢).

***

(٢) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: أي: والمؤمنون الذين خالَفوا هؤلاء محا اللهُ وستَرَ ذنوبَهم التي كانت قَبْلَ الإيمان.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: حالَهم(٣).

وقال مجاهد: شأنَهم(٤).

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٣٧).

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٧٤).

(٣) رواه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢١٣) عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٦٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٨١)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٩١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠٩) جميعهم عن قتادة.
وروى الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٨١)، وذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٦٨٧٨)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٩١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٠٩) عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فسرها بقوله: أَمْرَهم.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٨١)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٩١)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢١٣).

وقال مقاتل بن حيان: عملَهم ونيَّاتِهم[١].

وقال ابن كيسان: أثبَتَ أعمالَهم، ولم يُبْطِلْها كما أبطلَ أعمالَ الكفار.

* * *

(٣) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: ذلك التَّمييزُ بالجزاء للفريقين ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾: فاستحَقَّ أولئك العقابَ، وهؤلاء الثوابَ.

وقولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾: قيل: أي: كذلك يصِفُ لكلِّ عاملٍ مِن الناس جزاءَ عملِه بما يُماثِلُه، فيُجازي المُحْسِنَ بإحسانه بالحُسْنى، والمُسِيءَ بإساءته بالسُّوأَى[٢].

وقيل: أي: فكذلك يصِفُ اللهُ للناس عواقبَ أمورِهم التي يَصيرون بها أمثالاً لِمَن سِواهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الآيةَ الأولى في كفار مكة، صدُّوا عن المسجد الحرام وعن الدخول في الإسلام، والآيةَ الثانيةَ في المسلمين مِن أهل المدينة، وهُم الأنصارُ، آمَنوا بمحمد لَمَّا جاءهم[٣]، فذكَرَ جزاءَ الفريقين، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ

---

(١) «ونياتهم» ليس من (أ)، وذكره عن مقاتل دون هذه اللفظة السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٦)، وذكره دون قوله: «عملهم» مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٦٨٧٩)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٩١)، عن النقاش.

(٢) قوله: «فيُجازي المُحْسِنَ بإحسانه بالحُسْنى، والمُسِيءَ بإساءته بالسُّوأَى» معناه: فيُجازي المُحْسِنَ بالحُسْنى بسبب إحسانه، والمُسِيءَ بالسُّوأَى بسبب إساءته.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٨٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٠٣) وقال: صحيح =

﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾؛ أي: كذلك يفعَلُ اللهُ تعالى بالناس كلِّهم كما يفعلُ بهؤلاء.

* * *

(٤) ـ ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾: أي: فإذا لَقِيتُم ـ مَعاشِرَ المسلمين ـ هؤلاء الكافرين في مواطن الجهاد.

﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾: أي: فاضرِبوا رِقابَهم، نصبٌ على الإغراء.

وقيل: أي: فافعلوا ضَرْبَ الرِّقابِ[1]، نصبٌ بإضمار الفعل.

والألفُ واللامُ في ﴿ ٱلرِّقَابِ ﴾ بدلٌ عن الإضافة.

وقولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾: وأَصْلُ الإِثْخانِ: الغلَبَةُ، يُقالُ: أثخَنَ الصَّيدَ: إذا غلَبَه؛ أي: أكثَرْتُم القتلَ في البعض، وأعجَزْتُم الباقين عن الفَوات.

﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾: أي: فشُدُّوا وَثاقَهم، والألفُ واللامُ بدلٌ عن الإضافة ها هنا أيضاً.

وقولُه تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ ﴾: أي: فإما أنْ تمُنُّوا بعد ذلك بالإطلاق مَجَّاناً ﴿ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾؛ أي: وإمَّا أنْ تَفْدُوا بعضَهم فتأخُذوا منهم فِداءً وتُطْلِقُوهم.

= الإسناد، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٢٩٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٢٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٧٤).

(١) في (ر): «الأعناق».

وقد ذُكِرَ القتلُ قَبْلَه، فكان الإمامُ مُخَيَّراً في ذلك، يَختارُ ما يرى فيه المصلحةَ على حسَبِ ما يَقتضيه الحالُ.

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: قيل: أي: حتى تنقضِيَ الحربُ.

والأوزارُ: الأسلحةُ، جَمْعُ (وِزْرٍ)، وهو الحِمْلُ والثِّقْلُ في الأصل، والإِثْمُ سُمِّيَ وِزْراً لذلك، وهو استعارةٌ، وتقديرُه: حتى يتفرَّقَ الكفارُ، ويأمَنَ المسلمون فيَضعوا أسلحتَهم، وفيه مُضْمَرٌ: حتى يضَعَ أهلُ الحربِ أوزارَهم.

وقيل: ﴿ٱلْحَرْبُ﴾: المُحارِبون، قال الشاعر:

وكانـوا لنـا سِـلْماً فصاروا لنـا حَرْبـاً[١]

وقال الحسن وقتادة: أي: افعلوا هذا بأعدائكم إلى أنْ تستغنوا عن مُحاربتهم بدخولهم في الإسلام أو قَتْلِهم جميعاً[٢]، ....

---

(١) عجز بيت نسبه ابن بري كما في «اللسان» (مادة: ملح) لأبي عُيَيْنَةَ محمدِ بن أَبي صُفْرة في مطلع قصيدةٍ له، وصدره:

تَجَنَّـى عَلَيْنَـا أَهـلُ مَكتومـةَ الذَّنْبـا

وهو من غير نسبة في «لطائف الإشارات» للقشيري (١/ ٤٣)، وصدره فيه:

أشـاعوا لنـا فـى الحـي أشـنع قصـة

وجاء في «ديوان عمر بن أبي ربيعة» (ص: ٧٧)، بيت برواية:

ورجـا مصالحـة فـكان لكـم   سـلما وكنـت ترينـه حربـا

(٢) رواه عـن الحسـن ابن المنـذر فيما عزاه إليه السـيوطي في «الـدر المنثـور» (٧/ ٤٥٩) بلفظ: حتى يعبد الله ولا يشـرك به.

وعن قتادة رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٧٢)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٨٨) بلفظ: حتى لا يكون شرك.

وذكره عنه السمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٦٩) بلفظ: حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم، وابن عطية =

وهو كقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال النبي ﷺ: «ينزِلُ عيسى ابنُ مريمَ حَكَماً عَدْلاً، يَكْسِرُ الصَّليبَ، ويقتُلُ الخنزيرَ، وتضَعُ الحربُ أوزارَها»(١)؛ أي: ويُسْلِمُ الناسُ حتى لا يبقى في الأرض مشركٌ.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: هذا الذي ذكَرْناه هو حقٌّ.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾: أي: لانتقَمَ منهم بغير قتالٍ منكم.

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾: أي: ولكنْ أمرَكم بالجهاد لِيُظْهِرَ منكم ما علِمَ في الأزَل مِن الائتمارِ بالأمر وتَرْكِه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لِنَخْتَبِرَ المؤمنَ بالمُشْركِ، والمُعافى بالمُبْتلى، والصَّحيحَ بالسَّقيمِ(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: استُشْهِدوا، ومَن قرأ: ﴿قاتَلوا﴾ فمعناه: جاهَدوا(٣).

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: فلن يُضَيِّعَ ولن يُبْطِلَ أعمالهم كما أضلَّ أعمالَ الكفارِ، بل يُثِيبُهم عليها أعظمَ الثوابِ.

= في «المحرر الوجيز» (٥/ ١١١) بلفظ: حتى يسلم الجميع، فتضع الحرب أوزارها.
وذكر نحوه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٢٦٥)، وهو الأقرب لنص المصنف رحمه الله.

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٩٣٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وإسناده صحيح، ورواه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥)، دون قوله: «وتضع الحرب أوزارها».
وورد ضمن حديث طويل رواه ابن ماجه (٤٠٧٧) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٢) لم أقف عليه. وفي (ف): «المؤمن من المشرك والمعافى من المبتلى والصحيح من السقيم».

(٣) قرأ أبو عمرو وحفص: ﴿قُتِلُواْ﴾، والباقون: ﴿قَٰتَلُواْ﴾. انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» (ص: ٢٠٠).

(٥ ـ ٦) ـ ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾.

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾: أي: المُجاهدين، يُثَبِّتُهم على الرُّشْد، وفي حقِّ المقتولين سيَهديهم إلى طريق الجنة في الآخرة.

﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾: أي: شأنَهم، وهو ما[1] بيَّنَّاه.

وقيل: أي: لا يُخْطِرُ ببالهم فيها إلا ما يَفْرَحون به.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾: قيل: طيَّبَها لهم؛ مِن العَرْفِ بالفتح.

وقيل: مِن المعرفة؛ أي: إذا دخَلوها عرَفوا منازلَهم واهتدَوا إليها، على ما رُوِيَ: إنَّ أحدَهم لَأَعْرَفُ بمنازله في الآخرة منه بمَنازله في الدنيا[2].

وقيل: أَعْلَمَها لهم في الدنيا، وعرَّفَهم نعيمَها.

***

(٧ ـ ٨) ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ ﴾: أي: دِينَ الله ﴿يَنصُرْكُمْ ﴾: على أعداءكم في الدنيا ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾: أي: يُشَجِّعْكم، فتَثْبُتوا لهم.

وقيل: ﴿يَنصُرْكُمْ ﴾: في الآخرة، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾: في مَواطِنِ الحساب وعلى الصِّراط؛ كما قال: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

---

(١) في (أ): «وهو لما»، وفي (ر): «وما» بدل: «وهو ما».

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً، ولفظه: «فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا».

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾: أي: سُقوطاً على وجوههم.

وقيل: تقديرُه: فأَتْعَسَهم اللهُ، فقد قال بعدَه:

﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي: أَبْطَلَها.

* * *

(٩ ـ ١٠) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: أي: ذلك التَّعْسُ لهم بسبب أنهم استَثْقَلُوا ما أنزلَ اللهُ في كتابه على نبيِّه مِن الأمر والنهي.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: وكرَّرَ ذِكْرَ إِضْلالِ العملِ وإِحْباط العمل؛ ليكونوا كلَّما ذُكِروا يتَّصِلُ ذِكْرُهم بالذَّمِّ والتَّحْقير والإخبار بسُوء الحال عند الله؛ كالمعهود في ذِكْرِ الأخيار، كلَّما أُعيدَ ذِكْرُهم وُصِلَ به رَحْمَةُ اللهِ، وفي حقِّ الصحابة رضي الله عنهم، وفي حقِّ النبي ﷺ.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: أي: أفلم يَسِرْ هؤلاء المشركون؟! استفهامٌ بمعنى التقرير؛ أي: لقد ساروا في الأرض التي تُجاوِرُ بلادَهم مِن أرض عادٍ وثمودَ وقومِ لوطٍ وقومِ شعيبٍ وغيرهم، فينظروا إلى سُوء عَواقبِ الأُمَم التي كفَرَتْ[1] بالله، وكرِهَتْ ما أنزلَ الله.

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: أهلَكَهم واستأصَلَهم.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾: أي: أمثالُ تلك العُقوبات، وهي غيرُ مَذْكورةٍ، لكنَّها مدلولةٌ بذِكْرِ الدَّمار.

---

(١) في (أ): «كذبت».

(١١ ـ ١٢) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: أي: ذلك المذكور مِن نَصْرِ المؤمنين وسُوء عِقابِ[1] الكافرين إنما هو لأنَّ اللهَ ناصِرُ المؤمنين والذَّابُّ عنهم والمُتَوَلِّي لأمورهم، والكافرون ليس لهم ناصِرٌ يُعينُهم ويمنعُهم ويدفعُ العذابَ عنهم، وكذلك في الآخرة حالُ الفريقين.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: هذا لأحد الفريقين. وأما الفريقُ الآخَرُ، فقد قال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾: بنعيم الدنيا ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾: يَقْضُون الشَّهواتِ، ولا يُفَكِّرون في الآيات، ويختارون الرَّاحات ولا يَتْعَبون بالعبادات، فهُم كالأنعام التي لا عُقولَ لها.

﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾: في الآخرة؛ أي: مُقامٌ بدَلَ الجنةِ للمؤمنين.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾: أي: كم مِن أهل بَلْدَةٍ ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾؛ أي: هُم أقوى ﴿مِّن قَرْيَتِكَ﴾؛ أي: مِن أهل بلدتك مكةَ.

﴿ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾: أي: مكروا بكَ في دار النَّدْوة، وقصدوا أنْ يُثْبِتُوكَ[2] أو يَقْتُلوكَ أو يُخْرِجوك، فاضطُرِرْتَ إلى الخروج منها.

---

(١) في (ر) و(ف): «عواقب».

(٢) في (ر): «يفتنوك».

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: أي: أهلَ تلك القُرى.

﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾: أي: لا مانعَ لهم بدَفْعِ العذاب عنهم، وله وجهان:

أحدُهما: أي: فما كان لهم ناصِرٌ حين نزَلَ بهم العذابُ.

والثاني: فلا ناصِرَ لهم الآن في قبورهم يَدْفَعُ عذابَ القبرِ عنهم.

* * *

(١٤) ـ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: قال عكرمة: أي: على حُجَّةٍ وبَصيرةٍ[١].

وقال مقاتل: أي: على (لا إله إلا الله)[٢].

وقال ابن عباس: أي: على دِينٍ مِن ربه[٣].

وقولُه تعالى: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: ليسا سواءً.

﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾: جُمِعَ وإنْ أُفْرِدَ ﴿زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ لأنَّ (مَن) فَرْدٌ لفظاً، جَمْعٌ معنًى.

قال ابن عباس: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: أبو جهل[٤].

---

(١) لم أقف عليه عن عكرمة، وذكره الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٩٩)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٢٠) من غير نسبة.

(٢) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٣٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل والكلبي بلفظ: على بيان من ربه ويقين من دينه، وهو محمد ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله.

(٣) ذكره الواحدي في «البسيط» (١١/ ٣٧٠) عن الكلبي.

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٠) عن مقاتل والكلبي، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٣٣) عنهما وعن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو من غير نسبة في «تفسير الثعلبي» (٩/ ٣٢)، و«النكت والعيون» للماوردي (٤/ ٤٦٣)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ١٧٣)، و«تفسير البغوي» (٧/ ٢٨٢).

وقال مقاتل: هو أبو جهل وأبو حُذيفة بنُ المُغِيرة ونحوُهما لعنَهم الله[١].

***

(١٥) ـ ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾: أي: فيما يُتْلى عليكم صفةُ الجنةِ.

وقيل: أي: صفةُ الجنةِ التي وُعِدَ المتقون[٢].

﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾: أي: غيرِ مُتَغيِّر الرائحة.

قال قتادة: الآسِنُ: المُنْتِنُ[٣]، والفِعْلُ مِن باب (دخَلَ) و(ضرَبَ) و(عَلِمَ).

أي: لا يتغيَّرُ ماءُ الجنة كما يتغيَّرُ ماءُ الدنيا بطُول المُكْث في منافعها وفي أوانيها.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾: كما يتغيَّرُ في الدنيا، فيَصيرَ حامِضاً وقارِصاً وغيرَ ذلك.

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ﴾: أي: لذيذةٍ. والفِعلُ مِن باب (علِمَ)، والنَّعتُ: (لَذٌّ) و(لذيذٌ)، والهاءُ للتأنيث.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٤٦).

(٢) يعني قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ وخبره هو قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ إلخ، على معنى: مثل الجنة وصفتها مضمون هذا الكلام ولا يحتاج مثل هذا الخبر إلى رابط. وعلى القول الأول ـ وهو قول سيبويه ـ هو مبتدأ خبره محذوف تقديره: فيما يتلى عليكم، أو فيما قصصنا عليك، وهذا قول سيبويه، ويقدر مقدماً، و﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ إلخ على هذا بيان لذلك المثل. وقيل في المقدر غير هذا، وعلى كل هو مبتدأ باتفاق المعربين. انظر: «روح المعاني» (٢٥/ ١٤٥).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٨٧٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٠٠).

وقولُه تعالى: ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: أي: لذيذةِ الطَّعْم، طَيِّبَةِ الشُّرْب، لا يكرَهُها الشَّارِبون كما في الدنيا، ولا يكون فيها مِن الأذى كما يكون في خَمْر الدنيا.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾: لم يخرُجْ مِن بُطونِ النَّحْل مُخْتَلِطاً بالشَّمْع والقَذى، خلَقَه اللهُ مُصفًّى، لا أنْ كان مُخْتَلِطاً فصُفِّيَ.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: للأكل، والأنهارُ للشُّرْب.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾: أي: ولهم مع ذلك عَفْوٌ لِمَا كان منهم مِن الذنوب، وقد نسُوها، فلا يتذكَّرونها؛ لئلا يتنغَّصَ الحالُ عليهم.

وقولُه تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾: وها هنا مُضْمَرٌ؛ أي: أفمَن هو صائِرٌ إلى هذا وهو خالدٌ فيه كمَن هو خالدٌ في النار؟! كما قال في الآية الأولى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية.

وقولُه تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾: أي: ويُسْقَون؛ لأنَّ ما كان في الآخرة فهو كائنٌ لا محالةَ، فأُلْحِقَ بالمُتَحَقِّق، وجُمِعَ مع إفراد قوله: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ بكلمة (مَن) الذي هو فَرْدٌ لفظاً، جَمْعٌ معنًى.

﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾: جَمْعُ (مِعًى).

* * *

(١٦) - ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾: أي: ومِن هؤلاء الذي يتمتَّعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعام، وزُيِّنَ لهم سوءُ أعمالِهم، واتَّبَعوا أهواءَهم: قومٌ يحضُرُ الواحدُ

منهم مَجْلِسَكَ الذي تتلو فيه القرآنَ وتُبيِّنُ معانيه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾: باللهِ وكتابِه ودِينِه مِن أصحابك.

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾: أي: أيُّ شيءٍ قال محمد الآنَ؟

ولهذا الكلام وجهان:

أحدُهما: أنْ يسمعَ الإنسانُ ولا يفهَمَ؛ لِشُغْلِ قلبِه بشيءٍ آخرَ.

والثاني ـ وهو أشبَهُ ـ: أنْ يُقال على سبيل التَّهاوُنِ بما سَمِعَ والاستهزاءِ به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: جُمِعَ هذا مع[1] توحيد أوَّلِ الكلام؛ لِمَا مرَّ أنه ذَكَرَ كلمةَ (مَن).

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: كذلك؛ أي: لا يَخْلُص فَهْمُ القرآن إلى قلوبهم؛ لأنَّ الله تعالى ختَمَ عليها لِعِلْمِه باختيارهم ذلك، ولاتِّباعهم أهواءَهم دون الحق.

ويجوزُ أنْ يكون هذا في المشركين، ويجوزُ أنْ يكون هذا في المنافقين.

* * *

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾.

ثم ذَكَرَ الذين يُخالِفونهم، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾: بالقرآن ﴿زَادَهُمۡ هُدٗى﴾: أي: زادَهم اللهُ تعالى؛ أي: أدامَهم اللهُ تعالى على الهدى.

وقيل: والذين اهتدوا بالإيمان زادَهم القرآنُ رَشَداً وبَصيرةً في دينهم.

---

(١) في (ف): «على».

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾: أي: ألهَمَهم اللهُ تَقْواهم.

وقيل: أي: أعطاهم ثوابَ تقواهم. قالَه سعيد بن جُبير[١].

وقولُه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: أي: ما ينتظرُ هؤلاء بإيمانهم؛ أي: بتـأخيرهم الإيمانَ إلا الساعةَ، فإنْ كانوا ينتظرونها فهي لا تأتيهم إلا فَجْأةً، فإنَّ اللهَ تعالى طَوى عِلْمَها عن الخَلْق، فإذا أَتَتْهم بَغْتةً لم يُغْنِ الإيمانُ حينئذٍ، وإنْ أرادوا الإيمانَ عند دُنُوِّها لِيَنفعَهم فهذا وقتُه.

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾: أي: علاماتُها، فقد عُلِمَ دنوُّها فما ينتظرون؟

قال ابن عباس: ﴿أَشْرَاطُهَا﴾؛ أي: علاماتُها[٢]، انشقاقُ القمرِ والدُّخانُ[٣].

وقال محمد بن كعب: كان رسولُ الله ﷺ مِن أشراط الساعة؛ لأنَّ صِفتَه في الكتب أنَّه آخِرُ الأنبياء[٤].

وقال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين، إنْ كادتْ لَتَسْبِقُني»[٥].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٨٣)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٤١).

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٠٧)، وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٩٩) بلفظ: أوائلها، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٢٤) بلفظ: معالمها.

(٣) هو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٤/ ٤٨)، وذكره عنه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٢٤).

(٤) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٦٧). وذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٤٤) عن الحسن.

وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٢٩٩) عن الضحاك، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١١٦) من غير نسبة.

(٥) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه.

ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٩٤٧) من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه، واللفظ له.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾: أي: فكيف ومِن أين لهم أنْ يتذكَّروا إذا جاءتهم الساعةُ؟! قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

* * *

(١٩) - ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: أي: فاثبُتْ على هذا.

وقال الكِنانيُّ(١): كان يضيقُ صدرُه بأذى الكفار، فقال له: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، لا تُعَلِّقْ قلبَكَ بأقاربكَ، واعلمْ أنه لا كاشِفَ لِما في قلبكَ سوى الله(٢).

ويُقال: قيل له: ﴿فَاعْلَمْ﴾، ولم يقل له: (عَلِمْتُ)، وإبراهيم قيل له: ﴿أَسْلِمْ﴾، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾، وجوابُه مِن وجوه:

منها: أنَّ إبراهيم قال: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، فابتُلِيَ، ومحمد ﷺ لم يقل: (عَلِمْتُ)، فعُوفِيَ.

وقيل: إنَّ إبراهيم سبَقَ، فذُكِرَ جوابُه في الكتاب المُنَزَّل بعده، ولم يَنْزِلْ بعد القرآن كتابٌ آخرُ يذكُرُ فيه جوابَ محمد.

---

(١) في النسخ الثلاث: «الكتاني»، وهو تصحيف، والمثبت موافق للمصادر الآتية.
وهو عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز الكناني المكي، صاحب كتاب «الحيدة»، تفقه للشافعي واشتهر بصحبته، وخرج معه إلى اليمن، قدم بغداد وجرى بينه وبين بشر المريسي مناظرة مشهورة في القرآن. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» للخطيب (١٢/ ٢١٢)، و«تهذيب الكمال» للمزي (١٨/ ٢٢١).

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٤).

وقيل: التَّسليمُ مُتَناهٍ، فيُمكِنُ الإخبارُ عنه، والعِلْمُ لا يتناهى، فلا يُمكنُ الإخبارُ عنه.

وقيل: إنَّ إبراهيم هو قال بنفْسِه: ﴿أَسْلَمْتُ﴾، واللهُ تعالى أخبرَ عن محمد ﷺ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾، وهو إخبارٌ عن عِلْمه وزيادةٌ، وإخبارُ اللهِ تعالى عنه أعلى مِن جوابه بنفْسِه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾: أي: لِتَقْصِيركَ، فلن يخلوَ العبدُ عنه.

وقيل: أي: لِمَا يُتَصَوَّرُ عندك أنه تقصيرٌ، فإنه يُزيلُ عن قلبكَ ما تَسْتَشْعِرُه مِن ذلك، قال النبي ﷺ: «إنه لَيُغانُ على قلبي، فأستغفرُ اللهَ تعالى في اليوم سبعين مرةً»[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: أي: لِأُمَّتِكَ، وهي أرجى آيةٍ في القرآن، فإنه لا شك أنه ائتمَرَ بهذا الأمر، ولا شكَّ أنَّ الله تعالى أجابَه فيه، فإنه لو لم يُرِدْ إجابتَه فيه لَمَا أمرَه به.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: مُتَصَرَّفَكم في الدنيا، ومُقامَكم في الآخرة؛ أي: فلن يَخْفى عليه حالُكم ومآلُكم، وهذا تأويلُ ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وقيل: مُتَقَلَّبَكُم بالنهار، ومثواكم بالليل.

***

(١) رواه البخاري (٦٣٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزني رضي الله عنه.

(٢) رواه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم؛ كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٩٦).
وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٨٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك.

(٢٠) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾: أي: يستعجلُ المؤمنون بنُزول سورة في الجهاد والحثِّ عليه؛ لِحِرْصِهم في نُصْرة الدِّين وقَمْعِ الكافرين.

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾: ناسِخةٌ لِما قَبْلَها مِن الحُكْم.

وقيل: مُؤَكَّدةٌ في الأمر والنهي.

وقيل: مُعْجِزةٌ بنَظْمها ومعناها، يُعْلَمُ أنها مِن الله تعالى.

﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾: أي: فُرِضَ الجهادُ.

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: أي: شكٌّ ونفاقٌ.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: أي: مِن حُضور أسباب الموت مِن آثار الجُبْن والفَزَع؛ مِن تغيُّرِ الوجه وانقلابِ حَلْقَةِ العين ودورانها.

وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: مِن خوف الموت في القتال.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾: أي: فويلٌ لهم؛ كما قال: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤].

* * *

(٢١) ـ ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: أي: كانوا يقولون: مِنَّا طاعةٌ، وهذا قولٌ معروفٌ؛ أي: حسَنٌ في العقل والشَّرع.

وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي: جَدَّ الأمرُ بالقتال، وأتَتِ العَزيمةُ فيه، كرِهوا ذلك، هذا مُضْمَرٌ، وقيل: المُضْمَرُ: لم يُصَدِّقوا اللهَ.

وقولُه تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: كصِدْقِ المؤمنين.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: أي: أَنْفعَ لهم في دِينهم ودنياهم.

* * *

(٢٢) ـ ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾: أي: فهل تريدون إذا تركتم دِينَ محمد أنْ تعودوا إلى مِثْلِ ما كنتم عليه مِن التَّقاتُل والتَّقاطُع.

وقيل: أي: فلعلَّكم إذا أعرضتُم عن القرآن والإيمان رجعتم إلى الإفساد في الأرض وقَطيعةِ الأرحام؛ أي: تظنُّون أنْ تُهمَلوا في ذلك؛ أي: ليس كذلك.

وقيل: أي: إنْ وُلِّيتُم أَمْرَ هذه الأُمَّةِ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قد كان هذا، وهُم بنو أميَّةَ فعَلوا ما ذُكِرَ في الآية(١).

وقيل: إنَّ الآية في المنافقين، تولَّوا عن رسول الله ﷺ، وسعَوا في الأرض بالفساد.

وقيل: هي في الحَرُوريَّة.

---

(١) ذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٢٧٩).

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٨٧) عن المسيب بن شريك والفراء.

قلت: لم أقف عليه في «معاني القرآن» للفراء.

وقال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» (٢٦/ ١١٢): ومنهم من جعلها ـ أي: الآية ـ فيما يحدث بين بني أمية وبني هاشم على عادة أهل التشيع والأهواء من تحميل كتاب الله ما لا يتحمله، ومِن قصرِ عموماته على بعض ما يراد منها.

(٢٣) ـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: أي: هؤلاء الذين يفعلون هذا.

﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾: عن سماع الحقِّ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾: عن رُؤية الحقِّ.

وقيل: ﴿عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾: في الآخرة.

وقيل في قوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أقاويلُ أُخَرُ:

قال الضحاك: أي: فهلَّا طاعةٌ لله، وقولٌ معروفٌ لرسوله[١].

وقال الحسن: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ خيرٌ لهم مِن الكراهة والفَزَع[٢].

وقال مجاهد: أي: قولوا: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ[٣].

وقيل: تقولون: طاعةٌ، أيها المنافقون، وهذا قولٌ معروفٌ منكم لا تعمَلون به.

***

(٢٤ ـ ٢٥) ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: استفهامٌ بمعنى الأمر ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾: أي: بل على قلوبِ طائفةٍ منهم أقفالُها، استعارةٌ عن الخَتْم والطَّبْع.

أي: أقفلَ اللهُ على قلوبهم فلا يفهمون شيئاً، عَلِمَ اللهُ تعالى منهم اختيارَ ذلك، ففعَلَ بهم ذلك.

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره بنحوه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٠١) ولفظه: من أن يجزعوا من فرض الجهاد عليهم.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢١٢).

وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾: قيل: رجَعوا عن طاعة الله تعالى في الجهاد، فهُم هؤلاء المنافقون.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾: أي: حَقِّيَّةُ الإسلامِ.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾: أي: زيَّنَ لهم أعمالَهم.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾: أي: أطالَ لهم الثَّباتَ فيه، وهو كقوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

وقرأ أبو عمرو: ﴿وأُمْلِيَ لهم﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه[١]؛ أي: أمهلَهم اللهُ.

***

(٢٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾: أي: قال المنافقون للمشركين الذين كرِهوا ما نزَّلَ اللهُ، فقد قال في هذه السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ إلى أنْ قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾: أي: في بعض ما تُدبِّرونه على المسلمين مِن المَهالِكِ، والمرادُ بالبعض: السِّرُّ، لا الجَهْرُ.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾: قرأ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفصٍ: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسر الألف، وهو مصدرٌ، والباقون بفتحها[٢]، وهي جَمْعُ: (سِرٍّ).

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠٠)، و«التيسير» للداني (ص: ٢٠١).

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠١)، و«التيسير» للداني (ص: ٢٠١).

(٢٧ ـ ٢٨) ـ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾: أي: فكيف يَدْفعون العذابَ إذا جاءتهم الملائكةُ لِقَبْضِ الأرواح.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾: أي: أمامَهم وخَلْفَهم.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾: أي: ذلك العذابُ.

﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾: مِن مُظاهرَةِ المشركين.

﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾: أي: ما يَرْضاه اللهُ تعالى مِن مُعاونَة المؤمنين.

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾: أي: أبطَلَ ما كان قُرْبَةً عندهم بنِفاقهم.

* * *

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾: أي: أَظَنَّ الذين في قلوبهم نفاقٌ أنْ لن يُظْهِرَ اللهُ أحقادهم على المؤمنين؟! أي: ليس كذلك، بل يُظْهِرُها.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾: أي: عاجلاً ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾: بآثار وجوههم مِن تغيُّرِها.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾: الآنَ قَبلَ تغييرِ صُوَرِهم ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: في مَخارجِ ألفاظِهم في مُخاطباتِهم لكَ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾: مؤمِنكم وكافِركم، ومُخْلِصكم ومُنافِقكم.

(٣١) ـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: ولَنَخْتَبِرَنَّكم بالأمر والنهي؛ أي: أُعامِلُكم مُعاملةَ المُخْتَبِرِ؛ لِيَظْهَرَ منكم ما سبَقَ في عِلْمِي منكم، وذلك قولُه:

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وقيل: أي: حتى أَعْلَمَهم موجودين كما كنتُ عَلِمْتُهم أنهم يوجدون.

وقولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾: أي: وحتى نَكْشِفَها؛ كما قال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، وقد فعَلَ ذلك بما مرَّ في سورة براءة.

وقرأ عاصمٌ في رواية أبي بكر: ﴿ولَيَبْلُوَنَّكم﴾ ﴿ويَبْلوَ أخباركم﴾[1] بياء المغايبة رَدًّا على قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾، وقرأ الباقون بالنون[2] رَدًّا على قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾.

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما خَفِيَ على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أحدٌ مِن المنافقين، وكان يعرِفُهم بسِيماهم، ولقد كُنَّا معه في غزوةٍ وفيها سبعةٌ مِن المنافقين، فشكاهم الناسُ، فناموا ذات ليلة، فأصبحوا وعلى جَبْهةِ كلِّ واحدٍ منهم مكتوبٌ: هذا منافقٌ، فذلك قولُه: ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾[3].

* * *

(٣٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

---

(١) وكذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾.

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠١)، و«التيسير» للداني (ص: ٢٠١).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٧)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٢٧) هكذا من غير إسناد. قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٣/ ٢٩٨): غريب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾: أي: عادَوه وخالَفوه.

﴿بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: أي: لن يضُرُّوا رسولَه والمؤمنين بكَيْدٍ ولا حِيلَةٍ، ولا يُنْقِصُوا مِن مُلْكِ الله تعالى شيئاً.

وقولُه تعالى: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: مرَّ تفسيرُه مرَّاتٍ.

ويجوزُ أنْ يكون في المنافقين، ويجوزُ أنْ يكون في المشركين، وقد قال هؤلاء لهؤلاء: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾، فأخبرَ أنَّ كيد هؤلاء وهؤلاء لا يضُرُّ أولياءَ اللهِ شيئاً.

***

(٣٣) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾: بتَرْكِ طاعةِ الله وطاعةِ رسوله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢].

قال مقاتل: إنَّ أسداً وخُزيمةَ أتوا النبيَّ ﷺ، فأسلَموا، وقالوا: أتيناكَ بأولادنا[(١)]، وترَكْنا أموالَنا وعشائرَنا، فإنَّ العربَ لم يُؤمنوا بكَ إلا مِن بعد ما قاتلوك ولم نُقاتِلْكَ، فلنا عليكَ مِنَّةٌ، فنزلَتْ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ بالمَنِّ[(٢)].

---

(١) في (أ) و(ر): «بالأولاد».

(٢) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٤/ ٥١).

ورواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٥٩٠) عن مقاتل بن حيان.

ورواه النسائي في «الكبرى» (١١٤٥٥)، والبزار في «مسنده» (٥١٤١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره دون عزو الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٩)، جميعهم في نزول قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾ [الحجرات: ١٧]. =

وقال الإمام القُشَيري: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾: بالرِّياء والعُجْب والملاحظة.

وقيل: أي: بالسُّكون إليها.

وقيل: أي: بطلَبِ الأَعْواضِ عليها.

وقيل: أي: بأَنْ تتوهَّموا أنَّه يجب بها شيءٌ بدون فَضْلِ الله(١).

***

(٣٤ ـ ٣٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾: وهو كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال مقاتل: هي في رُؤَساء مكَّةَ الذين قُتِلوا ببدرٍ(٢).

وقولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾: أي: فلا تَضْعُفوا ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: أي: لا تَجْبُنوا عن قتالهم، ولا تَدْعوهم إلى الصُّلح، فأنتم الأَعْلَون قَدْراً ويَداً.

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾: أي: حافظُكم وناصرُكم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾؛ أي: ولن يَنْقُصَكم ﴿أَعْمَـٰلَكُمْ﴾؛ أي: أُجورَ أعمالِكم.

***

= وقد تقدم على أنه سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣].

(١) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٤١٥).

(٢) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٦) عن الكلبي.

وذكر الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٠)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٢٩) من غير نسبة أنها نزلت في أهل القليب ببدر.

(٣٦) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: تَضْمَحِلُّ عن قريبٍ، فلا يحصُلُ الإنسانُ منها إلَّا على ما يحصُلُ مِن اللَّعِب واللَّهْو، فلا يَحْمِلَنَّكم حبُّها على أنْ تبخلوا بأنفسكم وأموالكم عن الجهاد في إحياء الدِّين، والدُّعاءِ إلى الإيمان والتقوى.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾: أي: تَثْبُتوا على الإيمان، وتتَّقوا العِصْيان ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾: وهي أكبرُ مِن الحياة الدنيا وما فيها، فإنَّ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ﴾: أي: اللهُ. وقيل: رسولُ اللهِ ﴿أَمْوَٰلَكُمْ﴾: أي: كلَّها، بل خمسةً مِن مئتين، ونصفَ دينارٍ مِن عشرين ديناراً، وقليلاً من كثير.

وقال سفيان بن عُيَيْنَةَ: غَيْضاً مِن فَيْضٍ، فطِيبوا بها أنفُساً(١).

وقيل: ليستْ أموالَكم، بل هي أموالُ اللهِ.

***

(٣٧ ـ ٣٨) ـ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾: الإِحْفاءُ: هو الإلحاحُ والاستِقْصاءُ.

﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ﴾: أي: اللهُ. وقيل: البُخْلُ.

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩١)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٣).

﴿أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾: جَمْعُ ضِغْنٍ، وهو الحِقْدُ؛ أي: كراهتكم.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: يا هؤلاء ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: إلى أنْ تُنْفِقوا.

﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾: أي: على نفْسِه، فإنَّ ضررَه على نفْسِه، والحِرْمانَ راجعٌ إليه.

وقيل: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾؛ أي: عن بُخْلِ نفْسِه، ولو كان جواداً لم يَبْخَلْ.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾: عن نفقاتكم ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾: إلى ثواب الله[1].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾: عن الإنفاق في سبيل الله ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾: أي: يُهْلِكْكُمُ اللهُ، ويأتِ بقومٍ آخَرين ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾: في البُخْل والإمساك.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن هذه الآية: مَن هؤلاء؟ فأشار إلى سَلْمانَ، وقال: «هذا وقومُه»[2].

---

(١) في (ر) و(ف): «ذلك».

(٢) رواه الترمذي (٣٢٦٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٣٣)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢١٣٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٢٣)، والطبراني في «الأوسط» (٨٨٣٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٠٩)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٣١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٢)، والجوزقاني في «الأباطيل والمناكير» (٦٦١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الترمذي: هذا حديث غريب في إسناده مقال. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وقال الجوزقاني: حديث صحيح، ورجاله ثقات.

ورواه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لكن في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ [الجمعة: ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هُم كِنْدَةُ والنَّخَعُ[١].

وقال عكرمة: هُم فارسُ والرُّومُ[٢].

وقال الحسن: هُم العَجَمُ[٣].

وقال محمد بن كعب: هُم الفُرْسُ[٤].

والحمدُ لله ربِّ العالمين

* * *

(١) ذكره عنه الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٣١)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩١) عن الكلبي.

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٣٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩١)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٣١).

(٣) انظر المصادر السابقة.

(٤) لم أقف عليه عن محمد بن كعب، وقد تقدم الحديث المرفوع المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

سُورَةُ الفَتحِ

سُورَةُ الفَتْحِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باسمِ اللهِ الذي غفَرَ لرسوله ما تقدَّمَ مِن ذَنْبه وما تأخَّر، وأتمَّ نعمتَه عليه، وهداه صراطاً مستقيماً، الرَّحمنِ الذي له مُلْكُ السماوات والأرض، يغفِرُ لمن يشاء ويُعذِّبُ مَن يشاء، وكان الله غفوراً رحيماً، الرَّحيمِ الذي وعَدَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

وروى أبيُّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورةَ الفَتْحِ كان له مِن الأجر كأنما كان مِمَّن بايعَ محمداً تحت الشجرة»(١).

وهذه السورة مدنيَّةٌ، وهي تسعٌ وعشرون آيةً، وخمسُ مئةٍ وستون كلمةً، وألفان وأربعُ مئةٍ وأحدٌ وعشرون حرفاً.

وانتظامُ آخرِ تلك السورة بأوَّل هذه السورة: أنَّه حثَّ في آخر تلك المؤمنين على الجهاد والإنفاق في ذلك، وافتتَحَ هذه السورةَ بذِكْر ما يَتْبَعُه مِن الفُتوح، وما يتَّصِلُ به مِن الكرامات لرسوله والمؤمنين بذلك.

وانتظامُ السورتين: أنَّ تلك في ذِكْر الذين كفروا وصَدُّوا عن سبيل الله، وهذه

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ٣١٨)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٩) بلفظ: «فكأنما شهد مع محمد فتح مكة»، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٥) واللفظ له، وهو قطعة من الحديث الموضوع المروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ٩٩٩).

السورةُ في بيان صَدِّهم رسولَ اللهِ ﷺ والمؤمنين عامَ الحُدَيْبِيَةِ عن المسجد الحرام، وما نزَلَ فيه مِن المواعيد على رسول الله ﷺ.

* * *

(١) ـ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾: ذُكِرَ أنَّ رسول الله ﷺ خرَجَ سنة ستٍّ مِن الهجرة في ذي القَعْدة يُريدُ العمرةَ ولا يُريدُ حَرْباً، وخرَجَ معه المهاجرون والأنصار وكثيرٌ مِن قبائل العرب، وساقَ معه الهَدْيَ، وأحرَمَ مِن ذي الحُلَيْفة[١] لِيُعْلِمَ الناسَ أنه ما خرجَ مُحارباً، وإنما خرَجَ زائراً للبيت ومُعَظِّماً له، فلما انتهى إلى ثَنِيَّةِ مُرَارٍ[٢] التي يُهْبَطُ منها على الحُدَيْبِيَةِ، برَكَتْ ناقةُ رسولِ الله ﷺ، فقال الناس: خَلأَتِ العَضْباءُ[٣]، خلأَتِ العَضْباءُ وبرَكَتْ، فقال: «واللهِ ما خلأَتْ، وما ذلك لها بخُلُقٍ، ولكنْ حبَسَها حابِسُ الفيل عن البيت، واللهِ لا تسألُني قريشٌ خُطَّةً فيها تعظيمُ البيت إلا أجَبْتُهم إليها، فلما قال هذا القولَ انبعثَتِ[٤] العَضْباءُ، ونزَلَ بالحُدَيْبِيَةِ[٥].

---

(١) ذو الحُلَيفة: قرية قرب المدينة، ومنها ميقات أهلها ومن حاذاها، تسمى حالياً بأبيار علي. انظر: «معجم البلدان» (٢/ ٢٩٥).

(٢) كذا ضبطها أبو إسحاق الحربي فيما نقله عنه البكري في «معجم ما استعجم» (٤/ ١٢٠٥).

(٣) الخِلاء في الإبل كالحِران في الدواب، يقال: خلأت الناقة تخلأ؛ إذا بركت ولم تبرح مكانها. انظر: «تهذيب اللغة» (٧/ ٢٣٦).

والعَضْباء: اسم ناقة النبي ﷺ، وهو علم منقول من قولهم: ناقة عَضْباء؛ أي: مشقوقة الأذن. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: عضب).

(٤) في (ر): «انتهضت».

(٥) رواه البخاري مطولًا (٢٧٣١)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٩٦)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

وقيل: لما كان بعُسْفانَ[١] لَقِيَه بشرُ بن سفيانَ الكَعْبِيُّ، فقال: يا رسولَ الله، هذه قريش قد سمِعَتْ بمَسيرِكَ، فخرجوا ومعهم العُوذُ المَطافيلُ[٢]، وقد لبِسوا لك جُلودَ النَّمِر، يُعاهدون اللهَ تعالى لا تدخُلُها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خَيْله قد قدَّموه إلى كُراع الغَميم[٣]، فقال رسول الله ﷺ: «يا وَيْحَ قريشٍ، ماذا عليهم لو ماددتُهم مُدَّةً وخلَّوا بيني وبين سائر العرب، فإنْ هم أصابوني كان ما أرادوا، وإنْ أظهرَني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإنْ لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ، فما تظنُّ قريشٌ؟! فوَ اللهِ لا أزال أُجاهدُهم[٤] على الأمر الذي بعثَني به حتى يُظْهِرَه الله».

ثم قال: «مَن يسلُكُ بنا غير طريقهم؟»، فسَلَكَ بهم رجلٌ مِن أسلَمَ طريقاً وَعِراً أخرجهم على[٥] مَهْبَطِ الحُدَيْبِيَةِ، فنزَلَ بَطْنَ الحُدَيْبِيَة، ثم قال للناس: «انزلوا»، فقيل: يا رسولَ الله، ما بالوادي ماءٌ ينزِلُ عليه الناسُ، فأخرجَ سَهْماً مِن كِنانته، فأعطاه رجلاً مِن أصحابه، فنزلَ في قَليبٍ[٦]..............................

---

(١) عسفان: منهلة يستقى منها الماء ما بين الجحفة ومكة، سميت بذلك لتعسف السيل فيها. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ١٢١).

(٢) جمع المُطْفِل: هي الناقة القريبة العهد بالنتاج معها طفلها، والعُوذ: جمع عائذ، وهي الناقة إذا وضعت، والمقصود: أنهم جاؤوا بأجمعهم كبارهم وصغارهم. انظر: «النهاية» لابن الأثير (مادة: عوذ وطفل).

(٣) موضع بين مكة والمدينة، وقيل: قرب المدينة بين رابغ والجحفة، له ذكر كثير في الحديث والمغازي. انظر: «معجم البلدان» (٤/ ٢١٤).

(٤) في (أ): «أقاتلهم».

(٥) في (ف): «عن».

(٦) القليب: هو البئر التي لم تطو، ويذكر ويؤنث. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٩٨).

مِن تلك القُلَب، فغَرَزَه فيه، فجاشَ(١) بالرِّواء(٢) حتى ضرَبَ الناسُ عليه بعَطَنٍ(٣).

فلما اطمأنَّ رسولُ الله ﷺ أتاه بُدَيْلُ بن الوَرْقاء في رجال مِن خُزاعةَ، وكلَّموه، وسألوه: ما الذي جاء به؟ فقال: «إنما لم نأتِ نريد حَرْباً، وإنما جئنا زائرين لهذا البيت، ثم قال لهم نحواً مما قاله لبِشْر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا لهم: إنكم تَعْجَلون على محمد، إنَّ محمداً لم يأتِ لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت، فنَهْنَهُوهم(٤) وتجهَّموهم(٥)، فقالوا: واللهِ لا يدخُلُ علينا عَنْوةً أبداً، ولا تَحدَّثُ العربُ أنَّا أُخِذْنا ضُغْطَةً(٦)، فبعثوا إليه مِكْرَزَ(٧) بنَ حفصِ بن الأَخْيَفِ، فلما رآه رسول الله ﷺ كلَّمه وقال له نحواً مما كلَّمَ به بُدَيْلاً، فرجعَ إلى قريش فأخبرَهم بما قال، فبعَثوا إليه الحُلَيْسَ بن عَلْقَمة َوكان سيِّدَ الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إنَّ هذا مِن قومٍ يتألَّهون ـ التألُّه: التعبد، يتألَّهون: يتعبدون ويتنسكون ـ فابعثوا الهَدْيَ في وجهه حتى يراه»، فلما رأى الهَدْيَ يَسيلُ عليه مِن عُرْض الوادي(٨) في

---

(١) جاش: الجيم والياء والشين أصل واحد، وهو الثوران والغليان، يقال: جاشت نفسه؛ كأنها غلت. انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (١/ ٤٩٩).

(٢) الرَّواء: الماء الكثير، وقيل: العذب الذي فيه للواردين ري.

(٣) العَطَن: مبرك الإبل حول الماء، وقد عطَنَتْ الإبل على الماء؛ إذا سقيت ثم أنحيت في عطنها لتعود فتشرب. انظر: «تهذيب اللغة» (٢/ ١٠٣).

(٤) في (ر): «فتنهوهم». النَّهْنَهة: الكف، تقول: نهنهتُ فلاناً؛ إذا زجرته ونهيته. انظر: «العين» للخليل (٢/ ٣١٠).

(٥) الذي في المصادر: «فاتهموهم وجبهوهم».

(٦) الضغطة بالضم: الإكراه. انظر: «القاموس» (مادة: ضغط).

(٧) في النسخ الثلاث: «بكر»، والمثبت من المصادر.

(٨) أي: جانبه. انظر: «معجم ديوان الأدب» للفارابي (١/ ١٨٦).

قَلائده، رجَعَ إلى قريش، ولم يَصِلْ إلى رسول الله إعظاماً لِما رأى، وقال: يا مَعْشَرَ قريش، إني قد رأيتُ ما لا يحِلُّ صدُّه: الهَدْيَ في قلائده، قالوا له: اجلسْ، فإنما أنت أعرابيٌّ لا عِلْمَ لكَ.

ثم بعَثوا إلى رسول الله ﷺ عُرْوَةَ بنَ مسعود الثَّقَفيَّ، فقال: يا مَعْشَرَ قريشٍ، إني قد رأيتُ ما لَقِيَ منكم مَن بعثتم إلى محمد مِن التَّعنيف، وأنتم تعلمون نُصْحي لكم، فقالوا: ما أنتَ عندنا بمُتَّهَمٍ، فخرجَ حتى أتى النبي ﷺ، فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد، أَجَمَعْتَ أَوْباشَ الناسِ، ثم جئتَ بهم إلى بيضتكَ[1] لِتَفُضَّها بهم؟! فهل رأيتَ أحداً استأصلَ أهلَه قَبْلَكَ؟! ثم إني أرى أَوْباشاً حولكَ خَليقٌ بهم أنْ يفِرُّوا عنكَ ويدَعوكَ.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو قاعدٌ خَلْفَ رسولِ الله ﷺ: اُمْصُصْ بظرَ اللَّاتِ، أنحن نفِرُّ عنه وندَعُه؟! فقال: مَن هذا يا محمد؟ فقال: هذا ابنُ أبي قُحافة، فقال: أما واللهِ لولا يدٌ كانت لكَ عندي لكافأْتُكَ ولكنْ هذه بهذه، ثم جعلَ يُكَلِّمُ رسولَ الله ﷺ ويتناولُ لِحْيَته.

قال: والمغيرةُ بنُ شُعْبَةَ واقفٌ على رسول الله ﷺ في الحديد، فجعل يَقْرَعُ يدَه إذا تناول لِحْيَةَ رسولِ الله ﷺ، ويقول له: نَحِّ يدَكَ عن وجه رسول الله ﷺ قبلَ أنْ لا تَصِلَ إليكَ، فيقول عُرْوةُ: وَيْحَكَ ما أَفَظَّكَ وما أَغْلَظَكَ! فتبسَّمَ رسول الله ﷺ، فقال له عُرْوة: مَن هذا؟ قال: هذا ابنُ أخيك[2] المغيرةُ بن شعبة، فقال: أيْ غُدَرُ، هل سعيتُ[3]

---

(١) البيضة: أصل القوم ومجمعهم. انظر: «العين» للخليل (٧/ ٦٩).

(٢) في (ف): «أختك».

(٣) في (أ): «سقيت».

في غَدْرَتِكَ إلا بالأمس[1]؟! فكلَّمه رسولُ الله ﷺ بنحو ما كلَّمَ به أصحابَه، وأخبرَه أنه لم يأتِ يُريدُ حَرْباً.

فقام مِن عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنَعُ أصحابُه، لا يتوضَّأُ إلا ابتدَروا وَضوءَه، ولا يبصُقُ بُصاقاً إلا ابتدَروه ودلَكوا به وجوهَهم، ولا سقَطَ مِن شَعْره شيءٌ إلا أخذوه، فرجع إلى قريش، فقال: يا مَعْشَرَ قريشٍ، إني قد جئتُ كسرى في مُلْكه، والنَّجاشيَّ في مُلْكه، وقَيْصَرَ في مُلْكه، وإني واللهِ ما رأيتُ مَلِكاً في قوم قطُّ مِثْلَ محمد في أصحابه، ولقد رأيتُ قوماً لا يُسْلِمونه لشيءٍ أبداً، وقد عرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها منه.

وكانت قريشٌ بعثوا أربعين رجلاً أو خمسين، وأمَرُوهم أنْ يُطِيفوا بعسكر رسول الله ﷺ لعلَّهم يُصيبون مِن أصحابه أحداً، فأُخِذوا وأُتِيَ بهم رسولُ الله ﷺ، فعفى عنهم، وخلَّى سبيلَهم، وقد كانوا رَمَوا في عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنَّبْل.

ثم دعا عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه لِيَبْعثَه إلى مكة، فيُبَلِّغَ عنه أشرافَ قريشٍ ما جاء له، فقال: يا رسولَ الله، إني أخافُ قريشاً على نفْسي، وليس بمكَّةَ أحدٌ مِن بني عَدِيِّ بن كعب يمنعُني منهم، وقد عرَفَتْ قريشٌ عَداوتي لهم وغِلْظَتي عليهم، ولكنْ أدلُّكَ على رجل هو أَعَزُّ بها مني، عثمانَ بن عفان، فدعا رسولُ الله ﷺ عثمانَ، فبعثَه إلى أبي سفيانَ وأشرافِ قريشٍ يُخبِرُهم أنه لم يأتِ لحربٍ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، فخرَجَ عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فلَقِيَه أَبانُ بنُ سعيدِ بن

---

(١) وذلك أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر. انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/ ٣١٠).

العاصِ حين دخَلَ مكةَ أو قَبْلَ أنْ يدخُلَها، فنزلَ عن دابَّته، وحمَلَه بين يديه، ثم رَدِفَه وأجارَه حتى بلَّغَ رسالةَ رسولِ الله ﷺ، فقال لعثمانَ حين فرَغَ مِن رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إنْ شئتَ أنْ تطوفَ بالبيت فطُفْ به، قال: ما كنتُ لِأفعلَ حتى يطوفَ به رسولُ الله ﷺ، واحتبَسَتْه قريشٌ عندها، فبلَغَ رسولَ الله ﷺ والمؤمنين أنَّ عثمانَ قد قُتِلَ، فقال رسول الله ﷺ حين بلَغه ذلك: «لا نبرَحُ حتى نُناجِزَ القومَ»، ودعا الناسَ إلى البَيْعة، فكانت بَيْعةُ الرِّضوان تحت الشجرة.

وكان الناس يقولون: بايعَهم رسولُ الله ﷺ على الموت.

وكان جابر بن عبد الله يقول: إنما بايعَنا على أنْ لا نَفِرَّ.

فبايعَ رسول الله ﷺ [الناس]، ولم يتخلَّفْ عنه أحدٌ مِن المسلمين إلا الجَدَّ بن قيس، ثم بلَغَ رسولَ الله ﷺ أنَّ ما ذُكِرَ له مِن أمرِ عثمانَ باطلٌ، ثم بعثَتْ قريشٌ إلى رسول الله ﷺ سُهيلَ بن عمرو، فقالوا له: ائتِ محمداً فصالِحْه، ولا يكونُ في صُلْحِه إلَّا أنْ يرجِعَ عنا عامَه هذا، فواللهِ لا تَحَدَّثُ العربُ أنه دخلَها علينا عَنْوةً أبداً.

قال: فأقبلَ سُهَيلٌ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: «قد سَهُلَ عليكم أمرُكم، وما أرادَ القومُ إلا صُلْحاً»، فلما انتهى سُهَيلٌ إلى رسول الله ﷺ تكلَّمَ، فأطالَ الكلامَ، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصُّلْحُ، فلما التَأَمَ الأمرُ دعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب رضي الله عنه لِيَكْتُبَ كتابَ الصُّلْحِ[1]، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سُهيلٌ: إنا لا نعرِفُ الرَّحمنَ، فاكتُبْ ما نعرِفُ، اكتُبْ: (باسمكَ اللَّهُمَّ)، فقال رسول الله ﷺ: «اكتُبْ: باسمكَ اللَّهُمَّ»، قال: فكتبتُها، ثم قال: «اكتُبْ هذا ما صالحَ عليه رسولُ اللهِ سُهيلَ بنَ عمرو»، فقال سُهيلٌ: لو عَلِمْنا أنَّكَ رسولُ اللهِ ما صَدَدْناكَ

---

(١) في (ر) و(ف): «الكتاب بالصلح».

عن البيت، ولكن اكتُبِ اسمكَ واسمَ أبيكَ، فقال رسول الله ﷺ: «اكتُبْ هذا ما صالحَ عليه محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ سهيلَ بنَ عمرو على أنَّ الحربَ موضوعةٌ بين الناس عشرَ سنين، يَأْمَنُ فيه الناسُ، ويَكُفُّ بعضُهم عن بعض، على أنَّ مَن أتى رسولَ اللهِ ﷺ مِن قريشٍ ردَّه عليهم، ومَن جاء قريشاً ممَّن مع رسول الله ﷺ لم يَرُدُّوه عليه، وأنَّ بيننا عَيْبةً مَكْفُوفةً[1]، وأنَّه لا إِسْلالَ ولا إِغْلالَ[2]، ومَن أحبَّ أنْ يدخُلَ في عَقْدِ قريشٍ وعَهْدِهم دخَلَ فيه، ومَن أَحَبَّ أنْ يدخُلَ في عَقْد رسولِ الله ﷺ وعَهْدِه دخَلَ فيه، وأَنَّكَ ترجِعُ عنا عامَكَ هذا، فلا تدخُلُ علينا مكةَ، وأنَّه إذا كان العامُ القابلُ خَرَجْنا عنها فدخَلْتَها بأصحابكَ، فأقَمْتَ بها ثلاثاً ومعكَ سلاحُ الرَّاكبِ، والسُّيوفُ في القُرَب، لا تدخلُها بغيرها.

فبينا رسولُ اللهِ ﷺ يكتُبُ الكتابَ وسهيلَ بنَ عمرو إذْ أقبَلَ أبو جَنْدَلِ بن سُهيلِ ابن عمرو يرسُفُ[3] في قيوده، قد انفلَتَ إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه سُهيلٌ قامَ إليه، وضرَبَ وجهَه، وأخذ بِلَبَّتِه، وقال: يا محمد، هذا أَوَّلُ العهدِ، ورسولُ اللهِ ﷺ يقول: «إنا لم نختِمِ الكتابَ بعدُ، فأَجِزْ لي هذا الواحدَ»، فقال: واللهِ لا أفعَلُ، فردَّه رسولُ اللهِ ﷺ، فجعل أبوه يَجُرُّه معه، وجعلَ أبو جَنْدَلٍ يصرَخُ بأعلى صوته: يا مَعْشَرَ المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين يَفْتِنوني عن ديني؟! فقال رسولُ الله ﷺ: «أبا جَنْدَلٍ، احتسِبْ،

---

(١) أي: بينهم صدر نقي من الغل والخداع، مطوي على الوفاء بالصلح، وقيل: أراد أن بينهم موادعة ومكافة عن الحرب، تجريان مجرى المودة التي تكون بين المتصافين الذين يثق بعضهم إلى بعض. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٣٢٧)

(٢) يقال: غلَّ فلان كذا؛ إذا اقتطعه ودسه في متاعه؛ وسلَّ البعيرَ في جوف الليل؛ إذا انتزعه من بين الإبل؛ وهما كناية عن الخيانة والسرقة، وقيل: الإغلال: لبس الدروع، والإسلال: سل السيوف. انظر: «الفائق» للزمخشري (٣/ ٧١).

(٣) الرَّسَفان: مشيُ المقيَّدِ. انظر: «الصحاح» للجوهري (٤/ ١٣٦٤).

فإنَّ اللهَ جاعلٌ لكَ ولِمَن معكَ مِن المُسْتَضْعَفين فرَجاً ومَخْرَجاً، إنَّا قد عقَدْنا بيننا وبين القوم صُلْحاً، وأعطيناهم على ذلك كِتاباً، وأعطَونا عَهْداً، وإنا لا نَغْدِرُ بهم».

ورُوِيَ أنَّ عمر رضي الله عنه قام إلى أبي جَنْدَلٍ وجعل يمشي معه ويقول له: اصبرْ يا أبا جَنْدَلٍ، فإنما هُم المشركون، وإنما دمُ أحدِهم مِثْلُ دمِ الكلب، قال: وجعَلَ يُدْني إليه قائمةَ سيفِه رجاءَ أنْ يأخُذَ منه السَّيفَ، فيَضْرِبَ به أباه، قال: فضَنَّ الرجلُ بأبيه.

فلما قضى الكتابَ، وأشهدَ على الصُّلْح رجالاً مِن المسلمين ورجالاً مِن المشركين، وانصرفَ رسولُ الله ﷺ مُتَوَجِّهاً إلى المدينة بعدما أمرَ الناسَ بأنْ يُحِلُّوا، جاء عمرُ إلى أبي بكر رضي الله عنهما، فقال: أليس رسولَ اللهِ ﷺ؟ قال: بلى، فقال: ألسنا مِن المسلمين؟ قال: بلى، فقال: ألسنا على الحقِّ وهُم على الباطل؟ قال: نعم، فقال: فعلامَ نُعطِي الدَّنِيَّةَ في دِيننا؟ قال أبو بكر: يا عمرُ، إنه رسولُ اللهِ ﷺ، وإنه يفعلُ ما يُؤْمَرُ، فالزَمْ غَرْزَه.

قال: ثم أتى عمرُ رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، ألستَ رسولَ اللهِ؟ قال: «بلى»، قال: ألسنا على الحقِّ وهُم على الباطل؟ قال: بلى، قال: فعلامَ نُعطِي الدَّنيَّةَ في دِيننا؟ فقال: أنا عبدُ اللهِ ورسولُه، وإني أفعلُ ما أومَرُ، ولن يُضَيِّعَني اللهُ، قال: فكان عمرُ يقول: ما زلتُ أصومُ وأتصدَّقُ وأُعْتِقُ وأُصَلِّي مِن الذي صَنَعْتُ يومئذٍ مَخافةَ كلامي الذي تكلَّمْتُ به، وعَلِمْتُ يومئذٍ فَضْلَ عِلْمِ أبي بكر على عِلْمي.

قال: فلما انصرفَ رسولُ الله ﷺ قافلاً نحو المدينة حتى إذا كان بين مكةَ والمدينةِ نزلَتْ سورةُ الفتحِ، فما كان في الإسلام فتحٌ قَبْلَه أعظمَ منه، إنما كان القتالُ

حيث التقى الناسُ، فلما كانت الهُدْنَةُ، ووَضَعَتِ الحربُ أوزارَها، وأمنَ الناسُ، والتقَوا، وتفاوضوا الحديثَ، فلم يُكَلَّمْ أحدٌ بالإسلام يعقِلُ إلا دخَلَ فيه، ودخَلَ في السِّنين في الإسلام مثلُ مَن كان في الإسلام قَبْلَ ذلك أو أكثرُ(١).

وبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ في هذه المدة دُعاةً، فوجَّهَ دِحْيةَ الكلبيَّ إلى هِرَقْلَ وغيرِه، وقرأ رسولُ الله ﷺ بالحُدَيْبِيَةِ على أصحابه هذه السورةَ، وفيها بشارةٌ للنبيِّ ﷺ ثم للمؤمنين، ثم وعيدُ المشركين والمنافقين، ثم وَعْدٌ بالمَغانم والفُتوحِ للمسلمين، وبدخول مكةَ آمِنين، وأنجزَ(٢) اللهُ تعالى ذلك، فدخلوه في العام القابل سنةَ سبعٍ، ثم فُتِحَتْ مكةُ سنةَ ثمانٍ، وحجَّ أبو بكرٍ سنةَ تسعٍ، ثم حجَّ النبيُّ ﷺ سنةَ عشرٍ، ونزلَ يومَ عرفةَ وهو بعرفاتٍ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؛ تحقيقاً لمواعيد هذه السورة.

ولَمَّا قرأَ عليهم هذه السورةَ قالوا: أَفَتْحٌ هو؟ قال: «نعم»، يعني: كان في الظَّاهر صَدًّا عن المسجد الحرام، وانغِلاقاً لِمَا أرادوه، لكنه كان فَتْحاً معنًى؛ لأنه كان سبباً لِتَتابُعِ الفُتوح عليهم، وانفتاحِ الطُّرُق على مَن كان لا يَصِلُ إليه، ووُفودِ رسلِ الملوك مِن أقطار الأرض، ثم تتابعَتِ الفتوحُ بعده على ما وعَدَ، وأثابَهم فتحاً قريباً: فَدَكَ، وخَيْبَرَ، وفتحَ مكَّةَ، وما ذكَرَ في قوله: ﴿سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦] في عصر الصحابة، ثم تتابَعَ فتوح البلاد.

---

(١) ذكر قصة صلح الحديبية الواقدي في «مغازيه» (٢/ ٥٧١)، وابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٣١٠) وعنه نقل المؤلف، والطبري في «تاريخه» (٢/ ٦٢٠)، وفي «تفسيره» (٢١/ ٢٩٦)، وابن حبان في «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» (١/ ٢٨٠).

والحديث بطوله رواه بنحو ما ذكر البخاري (٢٧٣١)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٨٩٢٨)، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٢) في (أ): «وأجر».

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾: قال أنس رضي الله عنه: أي: قضينا لك[(١)]؛ وهو كما قال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾: أي: قضاءً بَيِّناً تَظهرُ آثارُه إذا أمضيناه وأبرزنا مَكْنونَه، وهو ما ألهمناكَ مِن هذا الصُّلْح الذي هو سببٌ لانفتاح أمور يظهرُ به الدِّين، وتكثُرُ بعده الفُتوحُ على المسلمين؛ لِتَقِفَ على إنعامنا، وتشكُرَ لنا، فتستحِقَّ به المغفرةَ وإتمامَ النِّعمة وإدامةَ الهدايةِ والنَّصْرِ والعِزَّةِ، وذلك قولُه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ الآيات.

وقال الكلبي ومقاتل رحمهما الله: أرادَ به فتحَ الحُدَيْبِيَةِ[(٢)].

وقال الشَّعبي: نزلت يومَ الحُدَيْبِيَةِ، وبايعَه المسلمون بها بَيْعَةَ الرِّضْوان، وأُطْعِموا نخيلَ خيبرَ، وظهَرَت الرُّومُ على فارسَ، وفَرِحَ به المسلمون[(٣)].

وقال عَطِيَّة: أراد به فَتْحَ خَيْبَرَ[(٤)].

وقال سعيد بن جُبير: لبِثَ رسولُ الله ﷺ في غزوة الحُدَيْبِيَةِ خمسةً وأربعين يوماً، وفيها كانت بيعةُ الرِّضْوان تحت الشجرة[(٥)].

---

(١) ذكره البغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٦) عن قتادة عن أنس رضي الله عنه.
ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢١٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٣٨) عن قتادة.
وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٤/ ٦٥).

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٣) عن الكلبي، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٧٩) عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر قول مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٦٥).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢١٠)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٤٤).
وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٠٩)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨٠).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٢٧) عن مجاهد وعطية العوفي.

(٥) لم أقف عليه.

وقيل: أي: إنا نفتَحُ، ماضٍ بمعنى المستقبل؛ لأنه كائنٌ، وهو كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾: أي: يأتي.

وقيل: أي: فتَحْنا لكَ أبوابَ العلوم والخيرات.

وقال ابن عباس: الفتحُ المُبين هو فتحٌ مِن غير قتالٍ[1].

***

(٢) - ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾: قيل: اللامُ على ظاهره، واتِّصالُه بالأوَّل بما ذكَرْنا؛ أي: لِتشكرَ اللهَ تعالى على هذا، فيَغْفِرَ اللهُ لكَ بذلك، وتقديرُه: لِيغفِرَ لكَ اللهُ إذا شكَرْتَ هذه النِّعمةَ.

وقال أبو حاتمٍ سَهْلُ بن محمد: اللامُ لامُ القسَمِ، ولكنْ لَمَّا حُذِفَتِ النُّونُ مِن فِعْلِه كُسِرَتْ اللامُ ونُصِبَ فعلُها تشبيهاً لها بلام (كي)، وتقديرُه: لَيَغْفِرَنَّ اللهُ لكَ، وكذا ما بعده[2].

وقال بعضهم: كان وعَدَ اللهُ الفَتْحَ والمغفرةَ، فلما أنجزَ وعدَه بالفتح ذكَرَ له أمرَ المغفرةِ أيضاً باللام، وكان الفتحُ علامةً لها لا عِلَّةً.

---

(١) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية الكلبي.

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٧)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨٠) عن الضحاك.

(٢) ذكره عنه النحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٤٩٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٢)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨٢).

وقال الحسين بن الفَضْل رحمه الله: لا يجوز أنْ يكون الفتحُ عِلَّةً للمغفرة، واللامُ للتعليل، فلم يكن اتِّصالُه لذلك، لكنْ يتَّصِلُ هذا بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ... لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ الآيات(١).

وقال مقاتل: إنَّ الله تعالى أنزلَ عليه وهو بمكة قولَه: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، ففرِحَ بذلك أهلُ مكَّةَ، وقالوا: ما أمرُنا وأمرُه عند إلهه الذي يعبُدُه إلا واحدٌ، ولولا أنَّه ابتدعَ هذا الأمر عن هواه لكان ربُّه يُخبِرُه بما يفعل به، وشَقَّ ذلك على المؤمنين، فلمَّا قدِمَ المدينةَ قال عبد الله بن أُبَيٍّ: كيف تتَّبعون رجلاً لا يدري ما يُفعَلُ به، ولا يدري ما يُفعَلُ بأصحابه، فلما رأى اللهُ فرَحَ المشركين وحُزْنَ المؤمنين، أنزلَ عليه بعدما رجع مِن الحُدَيْبِيَةِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾؛ أي: قبل المَبْعَثِ، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: أي بعد المَبْعَثِ(٢).

فأخبرَ رسولُ الله ﷺ أصحابَه بذلك، وقال: لقد نزلت عليَّ سورةٌ ما يسُرُّني بها حُمْرُ النَّعَم»(٣)، ثم قرأها عليهم فقالوا: طوباكَ يا رسولَ اللهِ، فأنزل الله تعالى الآيةَ التي في الأحزاب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

وقولُه تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾: أي: مِن زلَّتِكَ، ولا نبحثُ عن ذلك

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٧).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٦٥).

وذكره عنه مختصراً السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٠٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٢)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٨١).

(٣) ذكره مقاتل في «تفسيره» (٤/ ٦٦) بلفظ: «لهي أحب إلي مما بين السماء والأرض»، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٢) واللفظ له، ولم يذكرا له إسناداً.

والحديث رواه البخاري (٤١٧٢)، ومسلم (١٧٨٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

بتعيينه؛ لأنه طلَبُ النَّقْصِ فيه، وهو باطلٌ، ويُعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عاتبَه على شيء ثم غفَرَه له، ولا حاجةَ بنا إلى معرفة ذلك بعينه.

وقيل: هو غُفْرانُ عِصْمَةٍ.

وقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾: زلَّةُ آدمَ عليه السلام، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: ذُنوبُ أُمَّتِه. قاله عطاء بن أبي مُسْلم الخُراسانيُّ رحمه الله(١).

وقولُه تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾: قيل: بإظهار الدِّين.

وقيل: بإعطاء الشفاعة.

وقيل: بالقسَمِ بقوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾.

وقيل: بالمعراج.

وقيل: برُؤْيَةِ اللهِ غداً، وحقَّقَ ذلك بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: أي: ويُثَبِّتَكَ على الصواب والسَّداد.

***

(٣) ـ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾: أي: يُعِينَكَ على أعدائك ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾؛ أي: مُعِزًّا يُعِزُّ(٢) ذلك النَّصْرُ مَن آمنَ بكَ.

قالوا: ولَمَّا نزلَتْ هذه الآياتُ قالوا: يا رسولَ اللهِ، طُوباكَ، هذا لكَ، فما لنا؟ فأنزل الله تعالى ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآية [الفتح: ٥].

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٨).

(٢) في (أ): «بعد».

وفي حقِّ النُّصْرَةِ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وفي حقِّ إتمامِ النِّعْمَةِ: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣].

وفي حقِّ الهداية: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

* * *

(٤) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾: أي: الطُّمَأْنينةَ ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾: أي: يقيناً مع يقينهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السَّكينةُ: الطُّمَأْنينةُ في قلوبهم يوم صَدَّ المشركون رسولَ الله ﷺ وأصحابَه عن دخول مكة، فأذهبَ عنهم الحَمِيَّةَ واطمأنُّوا ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: تصديقاً مع تصديقهم(١).

وقال أيضاً: بعَثَ اللهُ تعالى نبيَّه بشهادةِ أنْ لا إله إلا الله، فلمَّا صدَّقوه فيها زادَهم اللهُ تعالى الصلاةَ، فلما صدَّقوه زادَهم اللهُ الزكاةَ، فلما صدَّقوه زادَهم اللهُ الصيامَ، فلما صدَّقوه زادَهم اللهُ الحجَّ، فلما صدَّقوه زادَهم الجهادَ، ثم أكمَلَ لهم دِينَهم، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾(٢).

---

(١) ذكره مختصراً الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٨).

(٢) رواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٥٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٤٥)، والآجري في «الشريعة» (٢/ ٥٥٢)، والطبراني في «١٢/ ٢٥٥)، وابن بطة في «الإبانة» (٨١٥).
وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٢٩٨).

وقولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: لو أرادَ اللهُ إهلاكَ المشركين الصَّادِّين رسولَ اللهِ والمؤمنين عن البيت لم يُعْجِزْه ذلك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾: أي: بما كان، وبما يكون ﴿حَكِيمًا﴾: أي: فيما يفعلُه به وبكم.

* * *

(٥) ـ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: أي: لِيكون ازديادُ تصديقِهم ويقينِهم سبباً لإدخالِهم الجنةَ.

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: عَطْفٌ عليه.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي: في حُكْمِ الله، وقيل: في الآخرة.

﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾: ظفراً بكل مَحبوبٍ، وأَمْناً مِن كل مَرْهوبٍ.

* * *

(٦) ـ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

قولُه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: أي: ولِيُعَذِّبَهم في الدنيا بإيصال الأحزان بهم بعُلُوِّ المؤمنين، وتَسليطِ النَّبيِّ عليهم قَتْلاً وأَسْراً واستِرْقاقاً.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: وهو ما توهَّموه أنَّ اللهَ يَخْذُلُ رسولَه والمؤمنين، وهو ما قال بَعْدَ هذا: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بضَمِّ السين، وهو مصدرٌ، والباقون بالفتح[1]، وهو نَعْتٌ.

والدَّائرةُ: الرَّاجِعةُ بخيرٍ أو بشَرٍّ، وها هنا أُضِيفَ إلى السَّوء، فأُريدَ بها: دائرةُ الأمر السَّوء.

أي: أكذَبَ اللهُ ظنَّهم، وجعلَ دائرةَ السَّوءِ[2] عليهم، فدخلَ النبيُّ العامَ القابلَ مكةَ، وأجلى عنها مَن امتنعَ عن الإسلام، وقهرَ أهلَها على ما أراد منهم مِن الإسلام أو الجَلاء.

وقولُه تعالى: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾: وهذا كلُّه في حقِّ مَن مات منهم أو قُتِلَ على شركه أو نفاقه.

* * *

(٧) ـ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أعاد هذا؛ لأنَّ الأوَّلَ في معنى التَّهديد للمشركين الصَّادِّين رسولَ اللهِ والمؤمنين عن مكة، وهذا في حقِّ كلِّ المنافقين والمشركين.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾: أي: مَنيعاً لا يُرَدُّ بأسُه ﴿حَكِيمًا﴾: يضَعُ الإمهال مَوْضِعَه[3]، وقد بيَّنَ حِكْمةَ ذلك بقوله في هذه السورة: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ الآية.

وقال مقاتل بن حيان: لَمَّا نزل قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾، قال عبد الله بن

---

(١) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» للداني (١١٩).

(٢) في (ر) و(ف): «الشر».

(٣) في (ر): «الأشياء موضعها».

أُبيٍّ: ما نحن وهم ـ يعني: الصَّحابةَ ـ إلا في منزلةٍ واحدةٍ، فأنزل الله: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾[(١)].

* * *

(٨) ـ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾: فسَّرْناه في سورة الأحزاب.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾؛ أي: بعثناكَ إلى أُمَّتِكَ شاهداً بالبلاغ إليهم ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ بالقرآن المؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾[(٢)] بالقرآن الجاحدين بالنار[(٣)].

وقيل: ﴿شَاهِدًا﴾: على الرسل والكتب بالصِّدق ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمُصَدِّق بهم وبها وبكتابك بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾: ومُخَوِّفاً لِمَن جحَدَ ذلك بالنار.

* * *

(٩) ـ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو كلَّه بياء المُغايبة؛ أي: بعثناكَ إليهم ليفعلوا ذلك كلَّه، وقرأ الباقون بتاء المخاطبة للمُرْسَل إليهم[(٤)].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (٤/ ٦٨)، وذكره عنه ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٢٩).

(٢) في (أ): «ومنظراً». وفي (ف): «ومنذراً».

(٣) رواه عنه الطبراني في «الدعاء» (١٦٠٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٥١٣)، وعزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٤) أيضا إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر.

(٤) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠٣)، و«التيسير» للداني (ص: ٢٠١).

وقال أبو حاتم: يجوز أنْ يكون التَّعْزيرُ والتَّوقيرُ لله مع التسبيح(١)، وهو أَوْفَقُ للنَّظْمِ، والتَّعزيرُ هو النَّصْرُ.

وقال الزَّجَّاج: هو النَّصرُ مَرَّةً بعد أخرى، وهو نصرُ دينِ الله ورسوله، والتَّوقيرُ: التَّعظيمُ، والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ له(٢).

وقال أبو حاتم: ويجوزُ أنْ يكون التَّعزيرُ والتَّوقيرُ لرسول الله، وأما التَّسبيحُ فلا يجوز إلا لله.

وفي قراءة عبد الله بن مسعود: (وتُسَبِّحوا اللهَ بُكْرةً وأصيلاً)(٣).

وتعزيرُ الرَّسولِ: المنعُ له، والحمايةُ له، والقتالُ دونه.

وتوقيرُه: تعظيمُه في مُخاطباته، وتعظيمُ أمرِه.

وقال الضحاك: ﴿تعزروه﴾: تُنَصِّروه، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: تُفَخِّموه(٤).

وقال زيد بن أَسْلَمَ: تُشَرِّفوه(٥).

---

(١) ذكره مكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٦٩٤٢)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣١٣)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٢٩) من غير نسبة، واختاره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٣٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢١).

(٣) روى القراءة عنه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٣١٢)، وذكرها الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٥٣) من غير نسبة.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٥١) عن قتادة، وروى عن الضحاك قوله: كل هذا تعظيم وإجلال.

(٥) ذكره الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٩٠) عن مقاتل بن حيان، والنحاس في «إعراب القرآن» (٤/ ١٣١) من غير نسبة.

وقال مقاتل: ﴿تعزروه﴾: تُعِينوه[١].

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: قيل: نهاراً وليلاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بُكْرَةً﴾: صلاة الفجر، ﴿وَأَصِيلًا﴾: سائر الصلوات[٢].

***

(١٠) ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: قال جابر بن عبد الله: بايَعْنا رسولَ اللهِ ﷺ تحت الشَّجرةِ السَّمُرةِ ـ وهي بيعةُ الرِّضْوان ـ على الموت، وعلى أنْ لا نَفِرَّ، فما نكَثَ أحدٌ منا البيعةَ إلا جَدُّ بنِ قيسٍ، وكان مُنافقاً، اختبأَ تحت إِبطِ بعيرِه، ولم يَسِرْ مع القوم[٣].

وقال ابن عباس: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: بالوفاء[٤].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٠).

(٢) ذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٤/ ٤٠٩)، والبغوي في «تفسيره» (٦/ ٣٦٠)، والواحدي في «البسيط» (١٨/ ٢٦٣)، عن الكلبي.

(٣) ذكره هكذا الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٥) من غير إسناد، ورواه بنحوه مسلم (١٨٥٦)، وفيه: أن جابراً رضي الله عنه سئل: كم كانوا يوم الحديبية؟ فقال: كنا أربع عشرة مئة، فبايعناه وعمرُ آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمرة، فبايعناه غيرَ جد بن قيس، اختبأ تحت بطن بعيره.

(٤) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٠)، وهو في «معاني القرآن» للفراء (٥/ ٢٢)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٢)، و«تفسير السمعاني» (٥/ ١٩٤) من غير نسبة.

وقال السُّدِّي: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾: وذلك أنهم كانوا يأخذون بيدِ رسولِ الله ﷺ ويُبايعونه، و﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ عند المُبايعة بالنُّصْرة والتوفيق[١].

وقال الكلبي: اليدُ ها هنا بمعنى النِّعْمة؛ أي: نِعْمةُ اللهِ عليهم فوق ما صنعوا مِن البيعة[٢].

وقيل: أي: قوَّةُ اللهِ في نُصْرة نبيِّه[٣] فوق نُصْرَتِهم إياه.

وقيل: يدُ اللهِ بالمِنَّة في الهداية فوق أيديهم بالطاعة.

وقيل: إنَّ اللهَ أَقْدَرُ على الوفاء منهم، وأملى بما يُرادُ بهذه البيعة مِن الثوابِ لِمَن وفَّى بها، والعقابِ لِمَن نقَضَها؛ لأنَّ مَن وفَّى بها أثابَه اللهُ جناتِ النَّعيم، ومنهم مَن بذَلَ النُّفوسَ والأموال التي هي عطاءُ اللهِ لهم وعواريه عندهم، وهي قليلةٌ فانيةٌ، وما يُعطيه اللهُ تعالى فهو كثيرٌ باقٍ.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: أي: فمَن نقَضَ ذلك فإنما ضرَرُ نَقْضِه راجعٌ إليه.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: وهو ما ذكَرْنا.

وقيل: مُبايعةُ اللهِ تعالى هي ما ذُكِرَ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ الآية [التوبة: ١١١].

* * *

(١) في (ف): «بالنصر والتوفيق»، وفي (أ): «يعني: النصر والتوفيق». والخبر ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٠).

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٠)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٩١).

(٣) في (ف): «نصر دينه».

(١١) ـ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾: قال ابن عباس: هم غِفَارٌ ومُزَيْنَةُ وأَشْجَعُ وجُهَيْنَةُ وأَسْلَمُ والدُّئِلُ[١].

وقال مجاهد: هُم أعرابُ أهلِ المدينة وجُهَيْنةُ ومُزَيْنةُ، استتبَعَهم رسولُ الله ﷺ بالخروج إلى مكة معه، فقال بعضُهم لبعض: نذهبُ معه إلى قوم أخرَجوه؟ فاعتَلُّوا بالشُّغْل[٢].

وقال الكلبي: خرج رسول الله ﷺ إلى الحُدَيْبيَةِ، وتخلَّفَ عنه عامةُ الأعرابِ، وخافوا أنْ يكونَ قتالٌ، فلما رجع رسول الله ﷺ وقد وعدَه اللهُ تعالى خيبرَ، أَتَوْه ليعتذروا إليه، ولِيَغزوا معه خيبرَ رجاءَ الغَنيمةِ[٣].

وقال مقاتل: لَمَّا استنفرَهم رسولُ الله ﷺ معه قالوا: إنَّ محمداً وأصحابَه أَكَلَةُ رَأْسٍ في جَنْبِ أهل مكة ـ يَعْنون: هُم قليلٌ ـ، وقالوا: لا يرجعُ هو وأصحابُه، فأين

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٥)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد.

وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية أبي صالح.

وفي المصادر: «الدِّيل»، قال يونس النحوي فيما نقله ابن الجوزي: الدِّيل في عبد القيس ساكن الياء، والدُّول من حنيفة ساكن الواو، والدُّئل في كنانة رهط أبي الأسود الدؤلي.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٥٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٤).

(٣) لم أقف عليه عن الكلبي، ورواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٤/ ١٦٤) عن مجاهد، وهو تتمة الأثر السابق.

تذهبون؟ انتظِروا ما يكون مِن أمره، فأنزل الله: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾[1].

وقولُه تعالى: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾: أي: المتروكون خَلْفَ الخارجين.

وقولُه تعالى: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾: أي: لم يكن لنا مَن يَخْلُفُنا في أموالنا وأهلينا، فخِفْنا الضَّياعَ عليها وعليهم.

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾: أي: وإنْ كان هذا عُذْراً عند أنفسنا، فإنا نسأُلُكَ أنْ تسأَلَ اللهَ أنْ يغفِرَ لنا تخلُّفَنا عنكَ؛ إذ كنا حِراصاً على الخروج معكَ، وإنما مُنِعْنا عنه بعُذْرٍ.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾: أي: لم يكن تخلُّفُهم لِما يقولون، بل كان في قلوبهم الخوفُ على أنفسهم.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾: تَخلَّفْتُم أو خرَجْتم.

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾: أي: عالِماً.

* * *

(١٢) ـ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: أي: توَهَّمْتم أنهم يُقْتَلون[2] أو يُهْزَمون، فيتبَدَّدون في البلاد النائية، فلا يرجعون إلى المدينة، وقَوِيَ هذا التَّوَهُّمُ في قلوبكم.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: ظَنًّا يسوءُ المؤمنين تحقُّقُه.

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧١).

(٢) في (ر): «يغلبون».

وقيل: يسوؤُكم حيث[١] تُعاقَبون عليه.

وقيل: هو سُوءٌ في نفْسِه؛ لأنَّه علُوُّ الكفرِ وانتشارُ الفسادِ في الأرض.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾: قال قتادة: أي: فاسدين[٢].

وقال مجاهد: هالكين[٣].

وأصلُه مصدرٌ، وإذا نُعِتَ به استوى فيه الذَّكَرُ والأنثى، والواحدُ والتَّثنيةُ والجَمْعُ.

وقال السُّدِّي: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾: أي: غيرَ مُتَّقِين ولا مُحْسِنين[٤].

وقال عكرمة: البُورُ في لغة أهل عُمانَ: الفاسدُ[٥]، وفي كلام العرب: لا شيءَ، تقول العربُ: أصبحت أعمالُهم بوراً؛ أي: مُبْطَلَةً، وأصبحت منازلُهم بوراً؛ أي: خَرِبَةً.

***

---

(١) في (ر): «حين».

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٥٩)، وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ١٦)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣١٤).

(٣) علقه البخاري (٦/ ١٣٤)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٠)، وذكره النحاس في «معاني القرآن» (٥/ ١٤)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣١٤).

(٤) ذكره السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٥٣٢)، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٩٦)، من غير نسبة.

(٥) رواه الطستي فيما عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٢٤٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصة سؤالات نافع بن الأزرق.

ورواه الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية الكلبي عن أبي صالح.

وذكره ابن قتيبة في «غريب القرآن» (١/ ٤١٢)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣١٥)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٢٩٦).

وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٨/ ١٦) عن قتادة.

(١٣ ـ ١٤) ـ ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾: أخبرَ أنَّ هؤلاء كافرون بالله ورسوله، وأنَّ مصيرَهم إلى النار.

وقولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: النبيُّ ﷺ مُسْتَغْنٍ عن هؤلاء المنافقين وعن الاعتضاد بهم، وإنما يأمرُهم بالجهاد وسائر العبادات ابتلاءً، فمَن أطاعَه رَحِمَه، ومَن عصاه عذَّبَه، فذلك قولُه:

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾: وفيه تحريكٌ للمنافقين على التوبة، ووعدٌ مِن الله قَبولَها منهم، وفيه دِلالةٌ على صِحَّةِ نُبُوَّةِ نبيِّنا، حيث أخبرَ أنهم سيقولون كذا، وكان كما أخبرَ، فدلَّ أنه علِمَ ذلك مِن عند الله تعالى.

وفي تسميتهم(١) مُخَلَّفين بتخلُّفهم دليلُ أهلِ السنة والجماعة على خَلْقِ أفعال العِباد، وأنَّ تخلُّفَهم كان بتخليف اللهِ إياهم؛ لمَّا علِمَ منهم في الأزل اختيارَ ذلك.

***

(١٥) ـ ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾: وهُم المذكورون مِن قبلُ، وجعلَ اللهُ مَغانِمَ خيبرَ لأهل الحُدَيْبِيَةِ خاصَّةً؛ مَن غاب منهم ومَن حضَرَ.

---

(١) في (ر): «نسبتهم».

قالوا: ولم يَغِبْ عنها أحدٌ إلا جابرَ بنَ عبدِ الله، فقسَمَ له رسولُ اللهِ ﷺ كَسَهْمِ مَن حضَرَ، وانصرفَ رسول الله ﷺ مِن الحُدَيْبِيَةِ في ذي الحِجَّة، وأقامَ بالمدينة بَقِيَّةَ ذي الحِجَّة وبعضَ المُحَرَّم، ثم خرَجَ في بَقِيَّةِ المُحَرَّم إلى خيبرَ، وخرجَ معه مَن شَهِدَ الحُدَيْبِيَةَ، فلما سمِعَ هؤلاء المنافقون بهذا الوعد قالوا لهم حين قصَدوا خيبر:

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾: فإنا قد أَوْضَحْنا عُذْرَنا في التَّخَلُّف عن الحُدَيْبِيَةِ، فمنعَهم النبيُّ بأمرٍ مِن الله تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾: قرأ حمزةُ: ﴿كَلِمَ اللهِ﴾، وقرأ الباقون: ﴿كَلَامَ اللَّهِ﴾[1]؛ أي: يريدون أنْ يُغَيِّروا كلامَ الله، حيث قال لرسوله: لا تأذَنْ لهم بالخروج إلى غزوةٍ أخرى معكَ.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾: أي: في المَسِير إلى خيبرَ إلَّا مُتَطَوِّعين مِن غير أنْ يكونَ لكم[2] شِرْكةٌ في الغنيمة[3].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾: أنَّهم لا يَتَّبِعونكم، وقيل: أنَّ خيبرَ لكم خاصَّةً.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾: أي: على الغنيمة، فتُريدون أنْ تنفردوا بها.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: ولو فقِهوا لَكَفُّوا عن مَسْأَلَتِكم الإذنَ لهم بعد إخباركم إياهم أنَّ اللهَ قد خصَّكم بغنائمِ[4] خيبرَ.

وقيل: لا يَفْقَهون أنَّ الرسولَ والصحابةَ لا يُحْسَدون، واستثنى القليلَ منهم؛ لِمَا أنَّ بعضَهم أَخْلَصَ بعد ذلك.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» (ص: ٢٠١)، عن حمزة والكسائي.

(٢) في (أ): «من غير أن لهم».

(٣) في (ر): «المغنم».

(٤) في (أ): «مغانم».

(١٦) ـ ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾: وهُم هؤلاء الذين مُنِعوا عن الخروج إلى خيبرَ في حياة النبي ﷺ.

﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: أي: أولي قُوَّةٍ في الحرب؛ أي: بعد وفاة النبي ﷺ.

﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾: وفي مصحف أُبيٍّ: (أو يُسْلِموا)[1]، ومعناه: حتى يُسْلِموا، وحَذَفَ النُّونَ للنَّصْب، وقراءةُ العامَّةِ: ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ على معنى: أو هُم يُسْلِمون.

﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾: أي: تُخْلِصوا في تلك الحرب، وتُطِيعوا الواليَ الذي دعاكم إليه.

﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: الغَنيمةَ في الدنيا بدلَ ما فاتَكم مِن غنائمِ خيبرَ، والثوابَ في الآخرة.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾: عن الإجابة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن إجابة النبي ﷺ يومَ الحُدَيْبيَةِ ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة.

واختُلِفَ في هؤلاء القوم الذين وُصِفوا بالبأس الشديد:

قال أكثرُ أهلِ التفسير: هُم بنو حَنيفةَ، وهُم أهلُ اليَمامة، رأسُهم مُسَيْلِمَةُ الكذَّابُ[2]، قاتلَهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٢٦٩)، و«معاني القرآن» للزجاج (٥/ ٢٤)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٤٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (١٥١٧)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٨) عن الزهري، وهو قول مقاتل كما في «تفسيره» (٤/ ٧٢)، وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٦). وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٣٠٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل، وعزاه الواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٣٨) إلى أكثر المفسرين.

وقال مجاهد رحمه الله: هُم أهلُ فارسَ[1]، قاتلَهم عمرُ رضي الله عنه.

وقال الحسن: هُم فارسُ والرُّومُ[2].

ودلَّتِ الآيةُ على صحَّةِ خِلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، حيث أوجبَ اللهُ تعالى طاعةَ مَن يَدْعو إلى قتال هؤلاء.

وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير وعكرمة: هُم أهلُ حُنَينٍ وثَقيفٌ وهوازنُ[3]، وعلى هذا تكون الدَّعوةُ إليه في حياة النبي ﷺ أيضاً، وكان المُخَلَّفون ممنوعين عن خيبرَ، مَدْعُوِّين إلى قتال أهل حُنينٍ.

* * *

(١٧) ـ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾: لَمَّا نزَلَ

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما وابن أبي ليلى والحسن ومجاهد وابن زيد، وهو أحد قولي مجاهد كما ذكر السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣١٦)، والآخر: أنهم أهل الأوثان.

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٦) عن مجاهد، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعطاء.

(٢) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٦)، وذكره الماتريدي في «تفسيره» (٩/ ٣٠٤)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣١٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٦).

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٦٧) عن سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة، ورواه الطبراني في «مسند الشاميين» (٤/ ٢٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وذكره السمعاني في «تفسيره» (٥/ ١٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما من رواية الضحاك.

وعيدُ المُتَخَلِّفين عن الغزو، اهتَمَّ الزَّمْنى لذلك، فنزَلَ هذا في عُذْرِهم[1] عن التَّخَلُّف عنه لِعَجْزِهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي: في الجهاد وغيرِ ذلك.

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ﴾: أي: عن طاعة الله ورسوله.

﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: في الدنيا والآخرة.

* * *

(١٨) ـ ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾: وهي شجرةُ سَمُرَةٍ بالحُدَيْبِيَةِ.

ورُوِيَ: أنَّها عُمِّيَتْ عليهم مِن قابلٍ، فلم يَدْروا أين ذهبَتْ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أثنى اللهُ على الذين بايعوا رسولَه تحت الشجرة يومَ الحُدَيْبِيَةِ، وهي بيعةُ الرِّضْوان، وكانوا ألفاً وخمسَ مئةِ رجلٍ، وكانت الشجرةُ سمُرَةً، وأوَّلُ مَن بايعه أبو سنان الأسديُّ، بايعوه على ألَّا يفِرُّوا وعلى الموت[2].

---

(١) في (ف): «لعذرهم» بدل من «في عذرهم».

(٢) رواه مختصراً الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٧٧)، وكونهم يومئذ ألفاً وخمس مئة رواه البخاري (٤١٥٣) ومسلم (١٨٥٦/ ٧٢ و٧٣). وروي في الصحيحين أيضاً أنهم كانوا ألفاً وأربع مئة، رواه البخاري (٤١٥٤) ومسلم (١٨٥٦/ ٦٧). وروى مسلم (١٨٥٧) والبخاري تعليقاً (٤١٥٥) من حديث عبد الله بن أبي أو في أنهم كانوا ألفاً وثلاث مئة.

قال الآلوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٢٧٢) بعد أن ذكر ما تقدم من روايات: وعند ابن أبي شيبة من حديث سلمة بن الأكوع أنهم كانوا ألفاً وسبع مئة، وجزم موسى بن عقبة بأنهم كانوا ألفاً وستَّ =

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: قال ابن عباس رضي الله عنهما: مِن صِدْق البَيْعة[١].

وقال مقاتل: مِن كراهية الصُّلْح[٢].

﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾: أي: الطُّمَأْنينةَ على طاعة الرسول.

ورُوِيَ أنهم كانوا يُبايعون رسولَ الله ﷺ على الموت، فقال رسول الله ﷺ: «بل على ما استطعتم»[٣].

وقيل: قال: «بل على أنْ لا تَفِرُّوا»[٤].

وقال سلَمةُ بنُ الأَكْوَع: بينا نحن قائلون، نادى مُنادِي رسولِ الله ﷺ: البيعةَ البيعةَ، نزلَ رُوحُ القُدُسِ، فثُرْنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرةِ سَمُرَةٍ، فبايعناه[٥].

= مئة، وحكى ابن سعد أنهم ألفٌ وخمسُ مئة وخمسة وعشرون.

قال: وجمع بين الروايات بأنها بناء على عد الجميع، أو ترك الأصاغر والأتباع والأوساط أو نحو ذلك، وأما قول ابن إسحاق: إنهم كانوا سبع مئة، فلم يوافقه أحد عليه؛ لأنه قاله استنباطاً من قول جابر: ننحر البدنة عن عشرة، وكانوا نحروا سبعين بدنة، وهذا لا يدل على أنهم ما كانوا نحروا غير البدن، مع أن بعضهم كأبي قتادة لم يكن أحرم أصلاً.

(١) ذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣١٧)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٠٥).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٧٣)، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣١٧)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣١٦)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٠٥)، بلفظ: من الكراهية للبيعة على أن يقاتلوا ولا يفروا في أمر البيعة.

(٣) رواه البخاري (٧٢٠٢)، ومسلم (١٨٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٧٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٠٥) عن بكير بن الأشج.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) رواه عنه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٨٥٢)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٧٣).

وقال عبد الله بن المُغَفَّل: كنتُ قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم، وبِيَدي غُصْنٌ مِن الشَّجرةِ أَذُبُّ عنه وهو يُبايعُ النَّاسَ[1]، وكانوا ألفاً وأربعَ مئةٍ[2].

وقال عطاءُ بن مسلمٍ الخُرَاسانيُّ وقتادةُ: بايعوا النبيَّ عليه السلام يومئذٍ، وكانوا ألفاً وأربعَ مئةٍ[3].

وكان عثمانُ إذ ذاك غائباً بمكة، فقال النبي ﷺ: «إنَّ عثمانَ في حاجةِ الله وحاجةِ رسوله وحاجة المؤمنين»، ووضَعَ النبيُّ ﷺ إحدى يديه على الأخرى، وقال: «هذه بيعةُ عثمانَ، ويدُ اللهِ خيرٌ مِن أيديكم»[4].

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾: قال قتادة وابن أبي ليلى: يعني: خيبرَ[5].

***

---

(١) رواه النسائي (١١٤٤٧). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥٤)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣١٣).

(٢) ذكرنا قريباً الرواية بهذا، والخلاف في عددهم يومئذ، وتأويل ذلك.

(٣) قد ذكر الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٤٨)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٠٥) أن قتادة قال: كانوا خمسة عشر ومائة. ولم أقف عن عطاء على شيء فيه.

(٤) رواه الترمذي (٣٧٠٢)، وابن شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة» (١١٤)، وأبو نعيم في «تثبيت الإمامة» (١٠٣) عن أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب.

وروى نحوه مطولاً الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٧٨٤) من حديث سالم بن عبد الله بن عمر مرسلاً.

(٥) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٧٨).

ورواه عن قتادة: عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٠٥)، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٥٣)، والماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣١٦).

ورواه عن ابن أبي ليلى: يحيى بنُ آدم في «الخراج» (٨٨)، وذكره النحاس في «معاني القرآن» (٦/ ٥٠٦).

(١٩) ـ ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾: قيل: لَمَّا سمِعَ أهلُ القرى المجاورةِ لِخيبرَ ما جرى عليها، صالَحوا رسولَ الله ﷺ على الشَّطْرِ مِن ثِمارهم، وفَدَكُ في جُمْلَتها، فهي مِن المغانم الكثيرة.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾: أي: مَنيعاً لا يُغالَبُ ﴿حَكِيمًا﴾: فيما يَحْكُمُ به، فلا يُعارَضُ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.

قولُه تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾: أي: بعد خيبرَ، وقد فُتِحَ عليه بعد ذلك حُنَينٌ وأَوْطاسٌ وفارسُ والرُّومُ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو كلُّ فتحٍ يكون إلى يوم القيامة[1].

وقولُه تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾: أي: خيبرَ ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾: قيل: أي: حُلفاءِ خيبرَ ـ وهم أسدٌ وغَطَفانُ ـ جاؤوا لِنُصرةِ أهل خيبرَ، فقذفَ اللهُ في قلوبهم الرُّعْبَ فانصرفوا، وكان عليهم مالك بن عوف النَّصْريُّ وعُيَيْنَةُ بنُ حُصْنِ بن بدرٍ الفَزَارِيُّ، هابوا فانصرَفوا.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: لِتكونَ هزيمتُهم مِن غير قتال عِبْرةً للمؤمنين، ودِلالةً على حُسْنِ صُنْعِ الله تعالى بالمسلمين.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: أي: ولِتَسْلُكوا في كلِّ أحوالكم هذه الطريقةَ المستقيمةَ في الثِّقة بالله تعالى على مواعيده.

---

(١) ذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣١٧)، وقال الواحدي في «الوسيط» (٢٠/ ٣٠٦): هو قول الجميع.

(٢١) ـ ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: أي: ووعدَكم أخرى، وهي مكَّةُ، لم تَقْدِروا على دخولها العامَ بصدِّ المشركين.

﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: أي: قد أعدَّها لكم وحبَسَها عليكم، فهي لكم كالشيء قد أُحِيطَ به مِن كل جانبٍ، فهو مَحْصورٌ، لا يُفْلِتُ ولا يمتنعُ عن المُحيطين به، يَحوزونه متى أرادوا، وهذا بلاغةٌ عجيبةٌ.

وقيل: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾: فارسُ والرُّومُ، ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾: أي: قد علِمَ أنها ستكون لكم.

وقيل: هي هوازِنُ وغَطَفانُ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: أي: مِن فَتْحِ هذه القُرى، وإنجازِ هذه المواعيد، وكلِّ شيء.

* * *

(٢٢ ـ ٢٣) ـ ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: يعني: الذين صَدُّوهم عن المسجد الحرام، وهو إيناسٌ لهم عن الوَحْشة التي اعترَتْ بعضَهم بانصرافهم، وتشجيعٌ لقلوبهم على كلِّ جهادٍ.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾: أي: سَنَّ اللهُ تعالى هذه السُّنَّةَ؛ أي: هكذا أجرى الله تعالى العادةَ في الأُمَم الخالية أنَّ الكافرين لا يجدون ولياً ولا نصيراً، فهُم مخذولون وإنْ أُمْهِلوا إلى حينٍ.

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾: أي: ولن تجدَ لهذه السُّنَّةِ تغييراً.

* * *

(٢٤) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾: أي: أيدي أهلِ مكَّة ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم﴾؛ أي: عن أهلِ مكَّة ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم﴾؛ أي: بالحُدَيْبِيَةِ، وقيل: وادي مكة.

﴿بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: أَقْدَرَكم وسَلَّطَكم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾: وهو ما ذَكَرْنا في أول القصة: أنَّ خيلاً طافوا بعَسْكَرِ رسول الله ﷺ لِيُصِيبوا منهم غِرَّةً، فأُخِذوا، وخلَّى عنهم رسولُ الله ﷺ.

وفي حديث سَلَمةَ بن الأكْوع قال: لَمَّا تواعَدوا الصُّلْحَ وتوادَعوا، كان في المسلمين ناسٌ مِن المشركين، وفي المشركين ناسٌ مِن المسلمين، فتنكَّرَ أبو سفيانَ، فإذا الوادي يَسِيلُ بالرجال والسِّلاح، قال سلَمةُ: فجئتُ بستَّةٍ مِن المشركين أَسوقُهم مُتَسَلِّحين، لا يملكون لأنفسهم نَفْعاً ولا ضراً، فأتيتُ بهم النَّبيَّ ﷺ، فعفا عنهم، وشدَدْنا على مَن في أيدي المشركين، فما تركْنا في أيديهم مِنَّا رجلاً إلا استنقَذْناه، وغَلَبْنا على مَن في أيدينا منهم، ونزَلَتْ هذه الآيةُ[1].

وروى الزُّهريُّ عن القاسم بن محمد قال: لَمَّا كُتِبَ في الصُّلْحِ بِرَدِّ مَن جاء إلى رسول الله ﷺ إلى أهل مكَّةَ، وجاء أبو بَصيرٍ وأصحابُه فردَّهم رسولُ الله ﷺ،

---

(١) في (ف): «فنزلت فيه هذه الآية».

رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٨٥١)، وابن زنجويه في «الأموال» (٦٥٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٩٣)، وفي «تاريخه» (٢/ ٦٢٩).

لَحِقَ أبو بَصيرٍ بالسَّاحلِ، واجتمَعَ إليه مَن فرَّ مِن المسلمين، وجعَلوا يَقْطعون الطَّريقَ على كلِّ مَن يَحْمِلُ المِيرةَ[١] إلى مكَّةَ، حتى وقعَ فيهم القَحْطُ، فلما رأى ذلك كُفَّارُ قريشٍ، ركِبَ نفَرٌ منهم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا له: إنَّ هذا الصُّلْحَ لا يُغْني شيئاً، وإنا نُقْتَلُ وتُنْهَبُ أموالُنا، فنسألُكَ بالرَّحِم الذي بيننا وبينك أنْ ترُدَّهم إلى حَضْرَتِكَ، وتكَفَّ عنا أيديَهم[٢]، فقَبِلَ رسول الله ﷺ ذلك، فنزلَتْ هذه الآيةُ[٣].

وقال سعيد بن جُبير رضي الله عنه: لَمَّا خرجَ رسول الله ﷺ إلى الحُدَيْبِيَةِ، فساقَ الهَدْيَ، نزلَ بذي الحُلَيْفَةِ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تأتي قوماً حَرْباً لكَ ليس معك سِلاحٌ ولا كُراعٌ[٤]! فبعثَ إلى المدينة، فأتوه بكل سلاحٍ وكُراعٍ كان فيها، فلما نزلَ رسول الله عليه السلام بمنى أتاه عينُه[٥]، فأخبرَه أنَّ عِكْرِمةَ بن أبي جهل خرجَ إليكَ في خمس مئةِ فارسٍ، فقال عليه السلام لخالد بن الوليد: «هذا ابنُ عمِّكَ أتاك في خمس مئة فارس»، فقال خالد: أنا سيفُ اللهِ وسيفُ رسولِه، فيومئذٍ سُمِّيَ سيفَ اللهِ، فقال: يا رسولَ اللهِ، ارمِ بي حيث شئتَ، فوجَّهَه على خَيْلٍ[٦]، فأتى

---

(١) في حاشية (ر): الميرة ـ بالكسر والفتح ـ: الطعام الذي يأتي من أطراف المصر إليه.

(٢) في (ف): «أذيتهم».

(٣) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٩٢٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٠٣).

وأصل الحديث رواه مطولاً عبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٢٠)، والبخاري (٢٧٣١)، وأبو داود (٢٧٦٥)، والطبري في «تاريخه» (٢/ ٦٣٨) وغيرهم، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٤) الكُراع: اسم يجمع الخيل والسلاح إذا ذكر مع السلاح، والكُراع: الخيل نفسها. انظر: «تهذيب اللغة» (١/ ٢٠٢).

(٥) في (أ): «عتبة»، وفي (ف) و(ر): «عيينة»، والمثبت موافق لمصادر التخريج الآتية.

(٦) في (أ): «جبل».

عِكْرِمةَ بن أبي جهلٍ، فهزَمه حتى أدخلَه مكةَ، ثم عاد فهزمَه حتى أدخلَه جوفَ مكةَ، فنزلت هذه الآيةُ(١).

وقال أنس: اطَّلَعَ قومٌ على النبي ﷺ مِن قِبَلِ التَّنْعيم ليأْخُذوه، فأخذَهم رسولُ الله ﷺ، فخلَّى سبيلَهم، فأنزلَ اللهُ(٢) هذه الآيةَ(٣).

***

(٢٥) ـ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ﴾: أي: وصَدُّوا الهَدْيَ.

﴿مَعْكُوفًا﴾: أي: مَوْقوفاً مَمْنوعاً.

﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾: أي: عن أنْ يبلُغَ المَوْضِعَ الذي يحِلُّ فيه ذَبْحُه، وهو الحَرَمُ.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٩١)، وفي «تاريخه» (٢/ ٦٢٢) عن ابن أبزى.

قال ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٤٣): وروواه ابن أبي حاتم عن ابن أبزى بنحوه، وهذا السياق فيه نظر، فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية؛ لأن خالداً لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ، كما ثبت في الصحيح، ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء؛ لأنهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقيم ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه، ولا حاربوه ولا قاتلوه، فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: لا يجوز أن يكون يوم الفتح؛ لأنه لم يسق عام الفتح هدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عرمرم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شيء، فليتأمل.

(٢) في (ر): «فنزلت».

(٣) رواه عنه الإمام أحمد في «مسنده» (١٢٢٢٧)، ومسلم (١٨٠٨)، وأبو داود (٣/ ٦١)، والترمذي (٣٢٦٤)، والنسائي (٨٦١٤)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٢٩٠).

أي: هُم مع هذه الأفعال القبيحة كانوا مُسْتَحِقِّين القتالَ والقَتْلَ، وإنما أمَرْناكم بالرُّجوع لِحِكْمةٍ، وهي ما ذكَرَ بعده:

﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾: أي: مِن بين[1] أهل مكةَ.

﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾: أي: لم تَعْلَموا أنتم بإيمانهم.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾: أي: لولا أنْ تَطَؤُوهم بِخَيْلِكم إذا دخلتم مكةَ وأنتم لا تَعْلَمون بإيمانهم، وهو كقوله: ﴿أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾: أي: أحسَنَ خَلْقَ كلِّ شيءٍ، على البدَل والترجمة، وهو كقولك: لولا زيدٌ حقُّه وحُرْمَتُه لَفَعَلْتُ كذا؛ أي: لولا حقُّ زيدٍ.

وقيل: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾: بأقدامكم.

وقيل: أنْ تُصيبوهم بسيوفكم، وهو مَجازٌ واستعارةٌ.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم﴾: أي: فتَنالَكُم مِن جهة المَوْطُوئين بغير قصدٍ ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾: قيل: مَساءَةٌ.

وقيل: عَيْبٌ وشَيْنٌ؛ مِن (العُرَّة)[2]، وهي القَذَرُ، ومِن (العُرِّ)، وهو القُروحُ في مَشافِرِ الإبل[3] وقوائمِها، ومعناه: تلزمُكم الدِّيَةُ بقتلهم.

وقيل: يَعِيبُكم الكفارُ بقتلِكم أهلَ دينِكم.

﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾: أي: بإيمانهم.

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾: أي: آمَنَ هؤلاء رجاءَ أنْ يُدْخِلَهم اللهُ جنَّتَه.

﴿مَن يَشَآءُ﴾: هُمُ المؤمنون.

---

(١) في (ف): «من»، وفي (ر): «بين»، بدل: «من بين».

(٢) في (ر): «المعرة».

(٣) المِشْفَر للبعير كالشَّفَة للإنسان. انظر: «المحكم» لابن سيده (٨/ ٤٦).

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾: أي: لو زايلَ هؤلاء المؤمنون الكافرين.

﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾: هو لِتَمييزِ هؤلاء الكفار مِن سائر الكفار؛ كما جاء في آخر هذه السورة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم﴾؛ هو لتمييزهم مِن سائر المؤمنين.

﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾: أي: لَعَذَّبْنا الكفارَ بسيوفكم في الدنيا، وبالنار في الآخرة.

وقولُه تعالى: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ جوابٌ لقوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ﴾، ولقوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ جميعاً.

وبيَّنَ بهذه الآية أنَّ الحِكْمَةَ في صَرْفِ المؤمنين عن دخول مكة كانت لِسَلامةِ هؤلاء المؤمنين المُسْتَضْعَفين المَغْمُورين[1] بمكةَ، وفيه بيانُ قَدْرِ ضُعَفاءِ[2] المؤمنين عند الله.

* * *

(٢٦) - ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾: أي: لَعَذَّبْنا هؤلاء بسيوفكم حين جعل هؤلاء المشركون الصَّادُّون في قلوبهم الحَمِيَّةَ؛ أي: الأَنَفَةَ.

﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾: ترجمةٌ عنه.

والجاهليَّةُ: حالةُ الكفرِ والجهلِ بالله، قالوا: قتَلَ محمَّدٌ آباءَنا وإخوانَنا، ثم أتانا يدخُلُ علينا في منازلنا، واللهِ لا يدخُلُ علينا.

---

(١) في (ر): «المقهورين».

(٢) في (ر): «الضعفاء من».

ومِن هذه الحَمِيَّةِ ما مرَّ في ذِكْرِ الصُّلْح مِن مَنْعِه أنْ يكتُبَ: بسم الله الرحمن الرحيم، ويكتُبَ: صالَحَ محمدٌ رسولُ اللهِ، وشَرْطِ أنْ لا يَرُدُّوا مَن جاءَهم مِن المسلمين، ويَرُدَّ المسلمون مَن جاءهم منهم، ونحو ذلك.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: حتى اطمَأَنُّوا، فلم يضطَرِبوا.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: قال عليُّ بن أبي طالب، وابنُ عباس، وقتادةُ، ومجاهدٌ، وسلَمةُ بن كُهَيلٍ، وعُبيدُ بن عُميرٍ[1]، وعكرمةُ، وطلحةُ بن مُصَرِّف، والسُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بن أنس رضي الله عنهم: هي[2] قولُ: لا إله إلا الله[3]، وهي

---

(١) في (أ): «عمر».

(٢) في (أ): «أي».

(٣) رواه عن علي رضي الله عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٠)، والطبراني في «الدعاء» (١٦٠٧)، والحاكم في «مستدركه» (٣٧١٧) وصححه، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩٧).
ورواه عن ابن عباس رضي الله عنهما الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١١)، والطبراني في «الدعاء» (١٦١١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٩٩).
ورواه عن قتادة عبدُ الرزاق في «تفسيره» (٢٩١٨)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٢).
ورواه عن مجاهد البخاريُّ قبل الحديث (٦٦٨١) معلقاً، والطبريُّ في «تفسيره» (٢١/ ٣١٢)، والطبراني في «الدعاء» (١٦٢٠).
ورواه عن سلمة بن كهيل عن عباية بن ربعي عن علي رضي الله عنه الطبريُّ في «تفسيره» (٢١/ ٣١٠)، وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٣).
ورواه عن عكرمة الترقفيُّ في «حديثه» (١٢١)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٢)، والطبراني في «الدعاء» (١٦٢١)، وابن البنا في «فضل التهليل» (٣٧).
وذكره عن عبيد بن عمير وطلحة بن مصرف والسدي الثعلبيُّ في «تفسيره» (٩/ ٦٣).
وروي مرفوعاً لكن بإسناد ضعيف؛ رواه الترمذي (٣٢٦٥) من حديث أبيٍّ رضي الله عنه وقال: =

أصلُ التَّقْوى، فإنها التَّقْوى مِن الشرك، وبها يُتَوَقَّى أيضاً مِن النار.

وقال الزُّهْري: هي: بسم الله الرحمن الرحيم[١]، هي شِعارُ هذه الأمة، والإلزامُ هو التَّثْبيتُ عليها.

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾: أي: أولى بها مِن غيرهم.

وقيل: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ في عِلْم الله مِن كفار مكةَ.

﴿وَأَهْلَهَا﴾: أي: مُسْتَحِقِّين بها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: بِمَن كان أهلاً للإيمان باختياره ذلك، وبكل شيءٍ.

* * *

(٢٧) ـ ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾: أي: أراهُ ما أراهُ في المنام صِدْقاً لا خُلْفَ فيه، وكان رأى في المنام ما تأويلُه دخولُ مكةَ، فأخبرَ أصحابَه، ولَمَّا صُدُّوا عن المسجد الحرام وأمرَهم رسولُ الله ﷺ بالتَّحَلُّلِ والانصراف، قالوا: ألستَ كنتَ تَعِدُنا أنْ نأتيَ البيتَ فنَطوفَ به، فقال: «هل أخبرتكم أنَّا نأتيه هذا العامَ؟»، فقالوا: لا، فقال: «إنك ستأتيه وتطوفُ به»، قالَه لرجلٍ قال له ذلك[٢].

= غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة. قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.

(١) رواه عنه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٤)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٣)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (٥٥٤).

(٢) روى نحوه مختصراً: الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣١٧) عن ابن زيد. وبينت رواية البخاري =

وقولُه تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾: أي: بتحقيق ما أَراه.

﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾: وهذا قسَمٌ، ورُؤْيا الأنبياءِ وحيٌ[1] لا خَطأَ فيه، وخبَرٌ لا كَذِبَ فيه، والقسَمُ تأكيدٌ لا وَهْنَ[2] فيه.

ثم قال: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾: وهو في كلامِنا يُذْكَرُ فيما يكون ولا يكون، فما معناه مع ما سبق؟ وجوابُه من وجوه:

أحدُها: أنَّ مَلَكَ الرُّؤْيا خاطبَه في الرُّؤْيا بذلك إِطْماعاً، فنزَلَ الكتابُ بذلك إسماعاً.

والثَّاني: أنه تحقيقٌ لا تعليقٌ، وتقديرُه: لَتَدْخُلُنَّه بإدخال الله، وهو بمشيئَتِه وإرادتِه، لا مُعْتَرِضَ عليه، ولا مُنازِعَ له، ولا مانِعَ دونه.

والثَّالثُ: أنَّ اللهَ علِمَ أنَّ بعضَهم يموتُ قَبْلَ ذلك.

والرَّابعُ: أنَّه على قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾، لا على قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، فكان الدُّخولُ مَوْعوداً مُتَحَقِّقاً، وكان الأمانُ عند ذلك مَوْعوداً مُعَلَّقاً.

والخامسُ: أنَّ معناه: إذ شاء اللهُ؛ كما قال: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: إذ كنتم.

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾: أي: تَدْخُلونه مُحْرِمين بالعمرة، ثم تَحْلِقون رؤوسَكم للتَّحلُّل، ويُقَصِّرُ بعضُكم.

والتَّشديدُ للتَّكْثير، وهو تكثيرُ مَحالِّ الحَلْقِ، وهي الرُّؤوسُ، والتَّقْصيرُ: قَطْعُ أطرافِ الشُّعور.

= (٢٧٣١) أن السائل هو عمر رضي الله عنه.

(١) في (أ): «حق».

(٢) في (أ): «وهي».

وقولُه تعالى: ﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾: مِن الحكمة في تأخير الرُّؤيا إلى العام القابل، وهو ما مَرَّ.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾: فَتْحَ خيبرَ.

***

(٢٨) ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾: أي: بالتوحيد ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾؛ أي: بالإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾؛ أي: لِيُعْلِيَه على الأديان كلِّها.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: أي: شاهِداً على صِدْقِ رسولِه بإقامة حُجَجِه[1].

***

(٢٩) ـ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾: مُبتدأٌ وخبرٌ، وهو وقفٌ تامٌّ، وما بعده مُبتدأٌ وخبرٌ أيضاً.

وقال أبو حاتمٍ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾: مبتدأٌ، وما بعده معطوفٌ عليه، وخبرُ الكلِّ: ﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾[2].

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾: أي: مِن الصحابة ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾؛ أي: غِلاظٌ عليهم ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: عاطِفون على أهل الإسلام.

---

(١) في (ف): «الحجة».

(٢) انظر: «القطع والائتناف» للنحاس (ص: ٦٧٢).

ومِن الشِّدَّةِ على الكفار: حِرْصُهم على دخول مكةَ بالسيف، وأَنَفَتُهم مِن إعطاء الدَّنِيَّةِ.

ومِن رحمتِهم بينهم: أنه شَقَّ عليهم قَبولُ الشَّرطِ في رَدِّ مَن أتاهم مُسْلِماً إليهم.

ثم شِدَّتُهم على الكفار في كلِّ مَوْطِنٍ وعَطْفُهم على المسلمين في كلِّ مَوْضعٍ مما لا يَخفى.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: مع جهادهم في سبيل الله كانوا مُجْتَهِدين في العبادة لله تعالى.

﴿يَبْتَغُونَ﴾: بذلك ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾: بتَضْعيفِ الحسنات ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾: بعَفْوِ السيئات.

وقولُه تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾: أي: علامتُهم.

قيل: هي صُفْرَةُ[1] الوُجوهِ بكثرة التَّهَجُّد.

وقيل: هي إشراقُ وجوهِهم مِن أَثَرِ السُّجود، قال ﷺ: «مَن كثُرَتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهُه بالنهار»[2].

وقيل: هي ما يَظْهَرُ عليها مِن النور يوم القيامة.

---

(١) في (أ): «من صفوة» بدل: «هي صفرة».

(٢) رواه ابن ماجه (١٣٣٣)، والمروزي في «مختصر قيام الليل» (ص: ٨٥)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (١/ ١٧٦)، وابن أبي حاتم في «علل الحديث» (٢/ ٣٦)، وغيرهم من طريق ثابت بن موسى، عن شريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر رضي الله عنه يرفعه.

وقد اتفقت آراء المحدثين على أن الحديث بهذا الإسناد موضوع عن غير قصد، وأنه من كلام شريك؛ قال السخاوي: واتفق أئمة الحديث ابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل عليه. انظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص: ٦٦٦).

وانظر تفصيل الكلام عليه في هذا الكتاب عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ [الصف: ١٤].

وقولُـه تعالـى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾: أي: صِفَتُهـم؛ كمـا قـال: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [محمـد: ١٥]، وقـال: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الـروم: ٢٧].

أي: ذُكِروا في التوراة أنهم أَشَدُّ على الكفار... إلى آخره.

وقولُه تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾: هذا على حقيقة المَثَل.

﴿كَزَرۡعٍ﴾: أي: مَثَلُهم في توادِّهم وتراحُمِهم فيما بينهم، وتآلُفِهم على الجهاد في سبيل الله، ونُصْرَةِ دِين الله؛ كزَرْعٍ.

﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾: قال الأخفشُ: أي: فِراخَه[1]. وقيل: قوائمَه. وقيل: سُنْبُلَه.

وقال الفراء: هو أنْ يُنْبِتَ سبعاً وثمانياً وعشراً[2].

قرأ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ بنصب الشين والطاء، والباقون بتسكين الطاء[3]، وهما واحدٌ.

وقولُه تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: أي: قوَّى الشَّطْءُ أَصْلَ الزَّرعِ بالتفافِه عليه وتكاثُفِه.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾: أي: فغلُظَ قَصَبُ الزَّرع.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: جَمْعُ ساق.

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: أي: يروقُ هذا الزَّرْعُ الزَّارِعَ.

تمثيلُ إعجابِ النَّبيِّ عليه السلام بأصحابه، وتوافُقِهم على الطاعة، وتظاهُرِهم

(١) ذكـره عنـه المـاوردي في «النكـت والعيـون» (٥/ ٣٢٣)، وهو قول أبـي عبيدة في «مجـاز القرآن» (٢/ ٢١٨).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٩).

(٣) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠٤)، و«التيسير» للداني (ص: ٢٠٢).

على نُصْرَةِ الدِّين، فيتعجَّبُ الأنبياءُ منهم يومَ القيامة؛ لِمَا يَرَوْنَ مِن فضلِهم على كل الأُمَم، فالزُّرَّاعُ مَثَلُ الأنبياءِ.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾: أي: قد جعَلَهم اللهُ كذلك لِيُكْمِدَ بتآلُفِهم قلوبَ الكفار، وتنقَطِعَ بذلك أطماعُهم في الظُّهور عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال عكرمة: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: أبو بكر كان معه في كلِّ حَضَرٍ وسفَرٍ، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: عمرُ بن الخطاب، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾: عثمانُ بن عفان، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾: عليُّ بن أبي طالب، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾: عامَّةُ الصحابةِ رِضْوان الله عنهم(١).

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾:

---

(١) رواه الداني في «المكتفى» (ص: ٢٠١) عن موسى الكاظم، عن جعفر الصادق عن آبائه.
ورواه ابن مردويه، والقلظي، والقاضي أحمد بن محمد الزهري في «فضائل الخلفاء الأربعة» والشيرازي في «الألقاب» فيما عزاه إليهم السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٤٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٠)، والقشيري في «لطائف الإشارات» (٤/ ٤٣٣)، والكرماني في «غرائب التفسير» (٢/ ١١١٨) من غير نسبة.
وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٢٥) عن الحسن، والسمعاني في «تفسيره» (٥/ ٢١٠) عن جعفر الصادق.
قال ابن المظفر الرازي في «مباحث التفسير» (ص: ٢٨١) بعد أن ضعف هذا القول: فحمله على عامة الصحابة أولى لفظاً ومعنى، وهو أقرب إلى الإنصاف، وترك التعصب والاعتساف، ولا فيه من إعطاء كل واحد من الصحابة حظه من هذه الفضيلة دون الحرمان، فإن كلهم كانوا أعلام الإسلام، وأيمان الإيمان!

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أَثَرُ السَّهرِ[١].

وقال مجاهد: أَثَرُ الخُشوعِ[٢].

وقال أبو العالية: يسجدون على التُّراب لا على الأثواب[٣].

وقال عطاء بن أبي رباحٍ: استنارتْ وجوهُهم مِن طُول ما صَلَّوا[٤].

وقال منصور: سألتُ مُجاهداً عن قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾: أهو الأَثَرُ يكون بين عَيْنَيِ الرجل؟ قال: ربما يكون بين عَيْنَيِ الرجل ذلك الأَثَرُ وهو أقسى قَلْباً مِن الحَجَر، ولكنه نورٌ في وجوههم مِن الخُشوع[٥].

---

(١) انظر: «تنوير المقباس» للفيروزآبادي (ص ٤٣٤).

ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٢٥) عن شمر بن عطية، وكذا ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٥).

ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٤٦٤)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٣٣٤)، عن عكرمة. وذكره الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٢٣)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٢٤)، عن الضحاك، وابن عطية في «تفسيره» (٥/ ١٤١) عن الحسن بن أبي الحسن وشمر بن عطية، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٣٩) عن سعيد بن جبير.

(٢) رواه عنه ابن المبارك في «الزهد» (١٧٣)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩١٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٢٤)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١/ ٢٨٢)، والدينوري في «المجالسة» (١٨٩٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٨٢).

(٣) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٦)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٤١). وجاء في (ف) و(ر): «لا على النبات والأثواب».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٤١)، عن عطاء والربيع بن أنس.

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٢٤)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٥٦٠).

وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٠)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٥)، وابن عطية في «المحرر الوجيز» (٥/ ١٤١).

وقال ابن جُريجٍ: هو الوَقارُ والبَهاءُ(١).

وقال الزُّهْري: يكون ذلك يوم القيامة(٢).

وقال شَهْرُ بن حَوْشَبٍ: تكون مواضِعُ السجود مِن وجوههم كالقمر ليلةَ البدرِ يومَ القيامة(٣).

وقولُه تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾: قيل: هو محمد عليه السلام، ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾: هو أبو بكر، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: هو عمر أعانَه على كفار مكة، ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾: هو عثمان سَوَّاهم وقوَّاهم بنفقته، ﴿عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: هو عليُّ بن أبي طالب قام بنَصْرِ الدِّين وقَهْرِ الكافرين، ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾: جميعَ المؤمنين، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾: جميعَ المشركين.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾: هو لِتَمييز الجنس، لا للتَّبْعيض.

وقيل: أي: مِن هؤلاء الصحابة.

﴿مَّغْفِرَةً﴾: عَفْواً عن السيئات.

﴿وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾: في الجنة بما لا ينقطِعُ مِن الكرامات.

وقال أبو العالية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: أَحَبُّوا أصحابَ رسولِ الله ﷺ، فعُرِضَ هذا القول على الحسن، فاستحسَنه(٤).

والحمدُ لله ربِّ العالمين

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٥).

(٢) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٥)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٦)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٣٩).

(٣) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٥).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٧).

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

باسمِ اللهِ الذي أمرَنا بمُتابعة السُّنَّة والقرآن، الرَّحمنِ الذي كرَّهَ إلينا الكفرَ والفُسوقَ والعِصْيان، الرَّحيمِ الذي مَنَّ علينا أنْ هدانا للإيمان.

وروى أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن قرأ سورةَ الحُجُراتِ أُعْطِيَ عشرَ حسناتٍ بعدَدِ مَن أطاعَ اللهَ وعصاه»(١).

وهذه السُّورةُ مَدَنِيَّةٌ، وهي ثماني عشرةَ آيةً، وثلاثُ مئةٍ وسبعٌ وأربعون كلمةً، وألفٌ وأربعُ مئةٍ وثلاثةٌ وستون حرفاً.

وانتظامُ خَتْمِ تلك السُّورةِ بافتتاح هذه السُّورة: أنَّ خَتْمَ تلك السُّورةِ في ذِكْرِ النبي ﷺ ومُوافِقيه ومُخالِفيه، وافتتاحَ هذه بذلك أيضاً.

وانتظامُ السُّورتين: أنَّ تلك السُّورةَ في أصول الدِّين مِن الإيمان والإيقان والبيعة والجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى، ومُؤازرةِ رسولِ الله ﷺ، وهذه في فروع الدِّين، ومَكارم الأخلاق، وجَلائل الآداب، والمُجاملة في المُعاملة.

* * *

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٦٩)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (١٢١٦)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٤٩)، وهو قطعة من الحديث الطويل الموضوع المروي عن أبي بن كعب رضي الله عنه. انظر: «الفتح السماوي» للمناوي (٣/ ١٠٠٦).

(١) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقولـه تعالـى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: قـرأ الضَّحَّـاكُ ويعقـوبُ الحَضْرَمِـيُّ ـ رحِمَهمـا اللهُ ـ بفتـح التاء والقـاف والدال مِـن التَّقَدُّم، وقرأ العامَّـةُ بضـم التـاء وفتـح القاف وكسـر الـدال مِـن التَّقْدِيم[١].

قال الفراء رحِمَه اللهُ: هما واحدٌ؛ كقولك: علَّقْتُ الشَّيءَ وتَعَلَّقْتُه[٢].

وعلى ظاهر اللُّغة معنى قراءةِ العامَّة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ قولاً ولا فعلاً على قولِ رسول الله ﷺ وفعلِه فيما سبيلُه أنْ يُؤخَذَ عنه مِن أَمْرِ الدِّين، بل انتظروا حُكْمَ رسولِ الله ﷺ فيه، فإنَّ حُكْمَه حُكْمُ اللهِ تعالى؛ لأنه[٣] لا يَقْضي إلا بأمر الله تعالى، وهو معنى ذِكْرِ اللهِ قَبْلَ ذِكْرِ رسولِه عليه الصلاة والسلام، وهو قولُه: ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ إذ التَّقَدُّمُ على رسوله تَقَدُّمٌ عليه تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾، وهذا التأويل يأتي على أكثر أقاويل المفسِّرين فيه.

ومعنى قراءةِ الضَّحَّاكِ ويعقوبَ: لا تقولوا قَبْلَه ولا تفعلوا قَبْلَه شيئاً، بل كونوا تابِعين له قولاً وفعلاً.

و﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾: مجازٌ واستعارةٌ عن مُطْلَقِ التَّقَدُّمِ؛ كما في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

وقيل: التَّقَدُّمُ بين يَدَيِ الله مُخالفَةُ كتابِه، والتَّقَدُّمُ على رسوله مُخالَفَةُ سُنَّتِه.

---

(١) انظر: «المحتسب» لابن جني (٢/ ٢٧٨)، و«تفسير الثعلبي» (٩/ ٦٩). وقراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٧٥).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٣/ ٦٩)، ولفظه: ولو قرأ قارئ: (لا تَقَدَّموا) لكان صواباً، يقال: قدَّمت في كذا وكذا وتقدَّمت.

(٣) «لأنه» ليس من (أ) و(ف).

وقال الحسن البصري: إنَّ قوماً ذبَحوا قبل أنْ يُصَلِّيَ النبيُّ ﷺ يومَ النَّحْرِ صلاةَ العيدِ، فأمرَهم النبيُّ ﷺ أنْ يذبَحوا ذَبْحاً آخرَ، ونزلت الآيةُ[١].

وقال مسروقٌ: كنا عند عائشةَ رضي الله عنها يومَ الشَّكِّ، فأُتِيَ بلَبَنٍ، فقلتُ: إني صائمٌ، فقالت عائشة رضي الله عنها: نهى عن هذا، وتلَتْ هذه الآيةَ، وقالت: هذه في الصوم وغيرِه[٢].

وقال الحسن: أي: لا تعمَلوا بخِلاف الكتاب والسُّنَّة[٣].

وقال مقاتل: نزلت في ثلاثة نفَرٍ، وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ بعَثَ سَرِيَّةً وأمَّرَ عليهم المنذرَ بن عمرو، فخرج بنو عامر بن صَعْصَعَةَ عند بئر مَعُونةَ، فرَصَدُوهم على الطريق وقتلوهم، فرجعَ ثلاثةٌ منهم[٤]، فلما دنوا إلى المدينة خرَجَ رجلان مِن بني سُلَيم صالَحا رسولَ اللهِ ﷺ، وقد كان أعطاهما وكساهما، فقالا: نحن مِن بني عامر؛ لأنَّ بني عامرٍ كانوا أقربَ إلى المدينة، فقتلوهما وأخذوا ثيابَهما، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيةُ[٥].

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٢٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٣٦). وذكره عنه الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٣٢٢)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٠).

(٢) رواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٣٩)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧١٣)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٥٩٧). وذكره الماتريدي في «تأويلات أهل السنة» (٩/ ٣٢٢)، والسمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٢)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٠).

(٣) ذكره عن الحسن السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٢).

ورواه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧١٥)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٣٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في (أ): «ثلاثة نفر».

(٥) انظر: «تفسير مقاتل بن سليمان» (١/ ٤٥٩)، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٢). =

وعن عبد الله بن الزُّبَير قال: قَدِمَ وَفْدَ تميمٍ سبعون رجلاً أو ثمانون رجلاً، فقال أبو بكر الصِّدِّيقُ رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: أَمِّرْ عليهم القَعْقَاعَ بن حكيم، وقال عمر: لا، بل أَمِّرْ عليهم الأَقْرَعَ بن حابِسٍ، فقال أبو بكر: ما أردتَ إلا خِلافي، فقال عمر: ما أردتُ خلافَكَ، فترادَّا وارتفعَتْ أصواتُهما، فنزلت هذه الآيةُ(١).

ورُويَ أنهما كانا لا يُكَلِّمان بعد ذلك رسولَ الله ﷺ إلا كأَخِي سِرارٍ(٢).

وقولُه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أي: في التَّقَدُّم بين يَدَيِ الله ورسوله ﷺ.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لِما تقولونه ﴿عَلِيمٌ﴾: بما تفعلونه.

* * *

(٢) ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾: أي: في مُخاطباتِه.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾: أي: عليه؛ كقولك: سقَطَ لِفِيه؛ أي: على فِيه.

﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾: أي: لا تستعملوا في خِطاب النبيِّ ﷺ التَّصريحَ بالاسم كما يُصَرِّحُ بعضُكم لبعض، فيقول: يا محمَّدُ، يا أبا القاسِم، بل خاطِبوه بالنُّبُوَّةِ والرِّسالة: يا نبيَّ اللهِ، يا رسولَ اللهِ، فإنَّ الأوَّلَ تَرْكٌ للحُرْمَةِ، وتَسْوِيَةٌ بينه وبين الأُمَّةِ.

= ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٣٠) عن مقاتل بن حيان.

(١) رواه البخاري (٤٣٦٧)، والنسائي (٥٩٠٣)، والنحاس في «إعراب القرآن» (٤/ ١٣٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٤).

(٢) رواه البخاري (٧٣٠٢)، والإمام أحمد (١٦١٣٣)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٢٩). قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٢٧٩): والسِّرار: الكلام السر، ومنه: المساررة، وأما قوله: «كأخي سرار»، فقال ابن الأثير: كصاحب السرار.

﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾: أي: لئـلا يَبْطُلَ ثوابُ أعمالِكـم التي هي طاعاتٌ وقُرُباتٌ بالاستخفاف بحـقِّ رسـولِ الله ﷺ، وهـو كقولـه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾: أي: لئلَّا تَضِلُّوا.

قال جابر بن عبد الله: جاءت بنو تميمٍ وهم سبعون أو ثمانون، وفيهم الأَقْرَعُ بنُ حابسٍ، والزِّبْرِقانُ بنُ بدرٍ، وعُطاردُ بنُ حاجبٍ، فنادَوا على الباب: يا محمَّدُ، اخرُجْ علينا، فإنَّ مَدْحَنا زَيْنٌ، وإنَّ ذمَّنا شَيْنٌ، قال: فسَمِعَها رسولُ الله ﷺ، فخرَجَ عليهم وهو يقول: «إنما ذلكم اللهُ الذي مَدْحُه زَيْنٌ وذَمُّه شَيْنٌ»، قالوا: نحن ناسٌ مِن بني تميمٍ جئنا بشاعرِنا وخطيبِنا لِنُشاعِرَكَ ونُفاخِرَكَ، فقال رسول الله ﷺ: «ما بالشِّعْرِ بُعِثْتُ، ولا بالفَخارِ أُمِرْتُ، ولكنْ هاتوا»، فقال الزِّبْرِقانُ بنُ بدرٍ لشابٍّ مِن شُبَّانهم: قُمْ واذكُرْ فَضْلَكَ وفَضْلَ قومِكَ، فقام فقال: الحمدُ لله الذي جعلَنا خيرَ خَلْقِه، وآتانا أموالاً نفعلُ بها ما نشاءُ، فنحن مِن خير أهل الأرض، مِن أكثرِهم عُدَّةً ومالاً وسلاحاً، فمَن أنكرَ علينا قولَنا، فليأتِ بقولٍ أحسنَ مِن قولنا، وبفِعالٍ هو خيرٌ مِن فِعالِنا.

قال: فقال رسول الله ﷺ لثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ، وكان خطيبَ رسولِ الله ﷺ: «قُمْ فأَجِبْهُ»، فقام، فقال: الحمدُ لله أحمَدُه، وأستعينُه وأومِنُ به وأتوكَّلُ عليه، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، دعا المهاجرين مِن بني عمِّه أحسنَ الناسِ وُجوهاً، وأعظمَهم أحلاماً[1]، فأجابوه، الحمدُ لله الذي جعلَنا أنصارَ دينِه ووُزَراءَ رسولِه وعِزًّا لدِينه، فنحن نُقاتِلُ الناسَ حتى يشهدوا أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، فمَن قالَها مُنِعَ مِنَّا مالُه ونفْسُه، ومَن أباها قاتَلْناه، وكان زعمُه في الله هَيِّناً، أقولُ قولي هذا، وأستغفِرُ اللهَ للمؤمنين والمؤمنات.

---

(١) في (ف): «أخلاقاً».

فقال الزِّبْرِقانُ بنُ بدرٍ لشابٍّ مِن شُبَّانِهم: قُمْ يا فلانُ، فقل أبياتاً تذكُرُ فيها فَضْلَكَ وفَضْلَ قومِك، فقام الشابُّ فقال:

نحن الكرامُ فلا حَيٌّ يُعادِلُنا ... فينا الرُّؤوسُ وفينا يُقْسَمُ الرُّبُعُ[1]

ونُطْعِمُ الناسَ عند القَحْطِ كلَّهُمُ ... مِن السَّديفِ إذا لم يُؤْنَسِ القَزَعُ[2]

إنَّا أَبَيْنا ولا يأبى[3] لنا أحدٌ ... إنا كذلك عند الفَخْرِ نَرْتَفِعُ

فأرسلَ رسولُ الله ﷺ إلى حسان بن ثابتٍ، فانطلَقَ إليه الرسولُ، فقال: وما يريدُ مني وكنتُ عنده آنفاً؟ قال: جاءت بنو تميمٍ بشاعرهم وخطيبهم، وأمرَ رسولُ الله ﷺ ثابتاً فأجابه، وتكلَّمَ شاعرُهم، فأرسلَ إليكَ لِتُجِيبَه، وذكَرَ له قولَ شاعرِهم، قال: فجاء حسان، فأمرَه رسولُ الله ﷺ أنْ يُجيبَه، فقال: يا رسولَ اللهِ، فليُسْمِعْني ما قال، فقال رسول الله ﷺ: «أَسْمِعْه ما قلتَ»، فأنشدَ ما قال، فقال حسان رضي الله عنه:

إنَّ الذَّوائِبَ[4] مِن فِهْرٍ وإخوتِهم ... قد شرَّعوا سُنَّةً للناس تُتَّبَعُ

يَرضى بها كلُّ مَن كانت سريرتُه ... تقوى الإلهِ وكلُّ الخيرِ يُصْطَنَعُ

ثم قال حسان:

---

(١) المِرْباع: شيء كانوا في الجاهلية يغزو بعضهم بعضاً، فإذا غنموا أخذ الرئيس ربع الغنيمة، فكان خالصا له دون أصحابه. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٢/ ٢٢٣).

(٢) السَّدِيف: شحم السنام، والقَزَع: السحاب، وقوله: (لم يؤنس القزع) كناية عن القحط وانحسار المطر عن الهطول، أي: إننا نُطعِمُ الشحم عند المَحْل والقحط. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٣٥٥).

(٣) في (أ) و(ر): «إنا أتينا ولا يأتي».

(٤) ذُؤابةُ الرأس أعلاه، وذؤابة العز والشرف أرفعُه، وهو في ذؤابة قومه؛ أي: في أعلاهم، والجمع: ذوائب. انظر: «المحكم» لابن سيده (١٠/ ١٠٢).

نَصَرْنـا رسـولَ اللهِ والدِّيـنَ عَنْـوَةً على رَغْمِ عاتٍ[1] مِن مَعَدٍّ وحاضِرِ
بِـضَرْبٍ كإيزاغ المَخاضِ مُشاشُـه[2] وطَعْـنٍ كأفـواه اللِّقَـاحِ المَصـادِرِ[3]
وسَـلْ أُحُـداً يـوم استقلَّتْ جُموعُهم بِضَرْبٍ لنـا مِثْـلَ اللُّيوثِ الخَـوادِرِ[4]
أَلَسْنا نخوضُ الموتَ في حَوْمَةِ الوَغا إذا طـابَ وِرْدُ المـوتِ بـين العسـاكرِ
ونَـضْرِبُ هـامَ الدَّارِعـين وننتمـي إلى حسَـبٍ مِن جِـذْمِ غسَّـانَ[5] قاهرِ
فلـولا حيـاءُ اللهِ قلنـا تكَرُّمـاً على الناس بالخَيْفَينِ[6]: هل مِن مُنافِرِ؟
فأحياؤُنـا مِـن خـيرِ مَن وطِـئ الحَصا وأمواتُنـا مِـن خـيرِ أهـل المقابـرِ[7]

قال: فقام الأَقْرَعُ بنُ حابسٍ، فقال: إني واللهِ يا محمَّدُ لقد جئتُ لأمرٍ ما جاء له هؤلاء، وإني قد قلتُ شعراً فاسْمَعْه، فقال: «هاتِ»، فقال:

---

(١) في النسخ الثلاث: «غاب»، والمثبت موافق لما في «ديوان حسان» (٢/ ٤٨٧) ولمصادر التخريج الآتية.

(٢) هو قذف الإبل بأبوالها، وذلك إذا كانت حوامل، شبه الضرب به. انظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ٢٧).

(٣) كذا في النسخ الثلاث، والذي في مصادر التخريج: «الصوادر».

(٤) يقال: خدر الأسد في عرينه؛ إذا لم يكد يخرج، فهو خادر مُخْدِر كثير الخدور. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٧/ ١١٩).

(٥) جذم القوم: أصلهم. انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١١/ ١٤).

(٦) في (أ): «بالخيفى». وفي (ف): «بالجفى»، وفي (ر): «بالتحقيق»، وكلها تصحيف، والمثبت من الديوان والمصادر.

والخَيْفُ: ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف بمنى. انظر: «الصحاح» (٤/ ١٣٥٩).

(٧) انظر: «ديوان حسان» (٢/ ٤٨٧).

أتينـاكَ كيمـا يعـرفَ النـاسُ فَضْلَنـا إذا خالَفُونــا عنــد ذِكْــرِ المَــكارمِ
وأنّـا رؤوسُ النـاس فـي كلِّ مَعْشَـرٍ وأنْ ليسَ فـي أرض الحجـازِ كَدَارمِ
وأنَّ لنــا المِرْبــاعَ فــي كل غــارةٍ تكــون بنجـدٍ أو بـأرض التَّهائِـمِ[(١)]

فقال رسول الله ﷺ: «يا حسانُ، قُمْ فأَجِبْه»، فقام حسان فقال:

بنــي دارمٍ لا تَفْخَــروا إنَّ فَخْرَكــم يعــودُ وبــالاً عنــد ذِكْــرِ المــكارمِ
هَبِلْتُــم علينــا[(٢)] تفخَــرون وأنتــمُ لنـا خَـوَلٌ مِـن بيـن ظِئْـرٍ وخـادمِ[(٣)]

فقال رسول الله ﷺ: «لقد كنت غَنِيًّا يا أخا بني دارمٍ أنْ يُذْكَرَ منكَ ما قد ظننتَ أنَّ الناس قد نسُوه»، قال: فكان قولُ رسولِ الله ﷺ أشدَّ عليهم مِن قول حسان، ثم رجَعَ حسان إلى شِعْرِه، فقال:

وأفضـلُ مـا نِلْتُـم مِن المجـد والعُلا رِدافَتُنــا مِــن بعــد ذِكْــرِ الأكارمِ
فــإنْ كنتُــمُ جئتُــمْ لِحَقْــنِ دمائِكــم وأموالِكـم أنْ تُقْسَـموا في المقاسِـمِ

---

(١) عزاها ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦) للزبرقان، وفي روايته اختلاف يسير عما هنا. ودارم من بني تميم. والمرباع أخذ الربع من الغنيمة يريد أنهم رؤساء. انظر: «الإملاء المختصر في شرح غريب السير» (ص: ٤٣٤).

(٢) أصل الهبَل: الثَّكَل، يقال: هبِلته أمه؛ إذا ثكلته، ثم استعير لفقد العقل مما يصيب. انظر: «اللسان» (مادة: هبل).

(٣) ذكرها ابن هشام في «السيرة النبوية» (٢/ ٥٦٦). الوبال: الثقل. وقوله: (هبلتم)؛ أي: فقدتم، وأصل الهبَل: الثَّكل، يقال: هبِلته أمه؛ إذا ثكلته، ثم استعير لفقد العقل مما يصيب. والظئر التي ترضع ولد غيرها، وقد تأخذ على ذلك أجراً، وأصله الناقة تعطف على ولد غيرها. انظر: «الإملاء المختصر في شرح غريب السير» (ص: ٤٣٥)، و«اللسان» (مادة: هبل).

فــلا تجعلــوا للــه نِــدًّا وأَسْــلِموا ولا تَفْخَــروا عنــد النَّبِــيِّ بــدَارمِ
وإلَّا وربِّ البيــتِ مالَــتْ أَكُفُّنــا على هامِكـم بالمُرْهَفَاتِ الصَّوارمِ[(١)]

قال: فقامَ الأَقْرَعُ بنُ حابسٍ، فقال: إنَّ محمداً لَمُؤْتًى له، واللهِ ما أدري ما هذا الأمرُ، تكلَّمَ خطيبُنا، فكان خطيبُهم أرفعَ[(٢)] صوتاً وأحسنَ قولاً، وتكلَّمَ شاعرُنا، فكان شاعرُهم أَشْعَرَ وأحسَنَ قولاً، ثم دنا مِن النبي ﷺ، فقال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنَّكَ رسولُ الله، فقال له رسول الله ﷺ: «لا يَضُرُّكَ ما كان قَبْلَ هذا»، ثم أعطاهم رسولُ الله ﷺ وكساهم، وقد كان تخلَّفَ في رِكابهم عمرو بن الأَهْتَمِ ـ وهو الذي أخذَ شِقَّ شَعَرِ رسولِ الله ﷺ حين حلَقَه في حِجَّة الوَداعِ، وغيرُه مِن الناس قسَموا الشِّقَّ الآخرَ، فأعطاه رسولُ اللهِ مثلَ ما أعطى القومَ[(٣)] ـ وكان قيس بن عاصمٍ يُبْغِضُه لِحَداثةِ سِنِّه، فأزرى به قيسٌ، وقال فيه قيسٌ أبياتَ شعرٍ، وارتفعَتِ الأصواتُ، وكثُرَ اللَّغَطُ عند رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ ﴾ إلى قوله: ﴿أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾[(٤)]: يعني: جزاءً وافراً، وهو الجنة.

* * *

---

(١) جمع الصارم: وهو السيف القاطع. انظر: «الصحاح» (مادة: رهف وصرم).

(٢) في (ر): «أسمع».

(٣) ما بين معترضتين زيادة من (أ)، وهي ليست من ضمن سياق الحادثة.

(٤) روى القصة بطولها وتمامها الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٣)، والحنائي في «فوائده» (٢/ ١١٠٦)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٠)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٢/ ٤٠٨).
وفي إسناده معلى بن عبد الرحمن الواسطي، قال عنه الدارقطني: ضعيف كذاب. انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٢٨/ ٢٨٨).

(٣) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾: أي: يَخْفِضونه احتراماً له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾: أي: اختبرَهم بما تعبَّدَهم به مِن هذه العبادة؛ لِيُظْهِرَ للعباد طاعتَهم له باتِّقائِهم رُكوبَ ما نهاهُمُ اللهُ عنه، فخلَصوا على الاختبار، وظهرَ منهم التقوى، وانتفَتْ عنهم الشُّكوكُ؛ كما يُمْتَحَنُ الذَّهبُ بالنار فيَخْلُصُ.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ يعني: ذهَبَ بالشَّهوات عن قلوبهم(١).

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾: وهذا ثَناءٌ عَجيبٌ وثوابٌ عظيمٌ، وقد كان منهم أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما على ما روَّينا(٢).

وقيل: نزلت(٣) في ثابتِ بن قيسِ بن شَمَّاسٍ، وكان جَهِيرَ الصَّوتِ، ويرفَعُ صوتَه عند رسول الله ﷺ، فلما نزلت هذه الآيةُ جلَسَ يبكي في بيته، ويقول: أخاف أنْ يكون قد حَبِطَ عملي، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فدعاه وبشَّرَه بالجنَّة(٤).

وقال الزُّهريُّ: إنَّ ثابتَ بنَ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ أتى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (١٤٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٦٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٣٣٧).

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٣)، ومكي بن أبي طالب في «الهداية» (١١/ ٦٩٩٢).

(٢) تقدمت قصتهما في أول السورة.

(٣) في (ف): «هي».

(٤) سيأتي تخريجه لاحقاً.

هلَكْتُ، فقال: «بِمَ هلَكْتَ يا ثابتُ؟»، قال: يا رسولَ الله، إنَّ اللهَ نهانا أنْ نرفَعَ أصواتَنا فوق صَوْتِكَ، وأنا امرؤٌ جَهِيرَ الصوت، ونهانا اللهُ عن الخُيَلاء، وإني أُحِبُّ الجَمالَ حتى إني لَأُحِبُّه في شِسْعِ نَعْلِي[1] وجِلازِ[2] سَوْطِي، ونهانا أنْ يُحِبَّ المرءُ أنْ يُحْمَدَ بما لم يفعل، وأنا واللهِ أَجِدُني أُحِبُّ الحَمْدَ، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثابتُ، إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، وليس ذلك بالكِبْرِ، إنما الكِبْرُ أنْ تُسَفِّهَ الحقَّ، وتَغْمِصَ الناسَ في عينيكَ، أفلا ترضى أنْ تعيشَ حَميداً، وتذهَبَ فقيراً، وتُقْتَلَ شهيداً؟»، فقال: بلى، قد رَضِيتُ يا رسولَ الله، فعاشَ حَميداً، وذهَبَ فقيراً، وقُتِلَ شهيداً يومَ مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ لعنَه الله[3].

قال أنس: فكُنَّا ننظرُ إلى رجلٍ مِن أهل الجنة يمشي بين أيدينا، فلما كان يومُ اليَمامة وانهزمَ المسلمون، قال ثابتٌ لسالمٍ مولى أبي حُذيفةَ: ما كنا نقاتلُ أعداءَ الله مع رسول الله مِثْلَ هذا، فثبَتا حتى قُتِلا، وعلى ثابتٍ يومئذ دِرْعٌ، فرآه رجلٌ مِن الصحابة بعد موته في المنام إذ قال له ثابتُ: اعلَمْ أنَّ فلاناً مِن المسلمين نزَعَ دِرْعي فذهب

---

(١) الشِّسْع: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الأصبعين، ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام. انظر: «النهاية» (مادة: شسع).

(٢) الجِلاز: كل عقد عقدته حتى يستدير فقد جلزته، وهو جلز وجلاز. انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (١/ ٤٧١).

(٣) رواه مختصراً الإمام مالك في «الموطأ» (٩٤٦)، وعبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ٢١٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٤١)، وابن حبان في «صحيحه» (٧١٦٧)، والطبراني في «الكبير» (١٣١٠) وغيرهم، وليس فيه قوله: «إن الله جميل يُحِبُّ الجَمالَ، وليس ذلك بالكِبْرِ، إنما الكِبْرُ أنْ تُسَفِّهَ الحقَّ، وتَغْمِصَ الناسَ في عينيكَ». وروي دون هذه الزيادة أيضاً قطعة من حديث بنت ثابت بن قيس، وسيأتي قريباً تخريج حديثها. وهذه الزيادة رواها عن ثابت الرويانيُّ في «مسنده» (١٠٠٣)، وورد نحوها في «صحيح مسلم» (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

بها، وهي في ناحيةٍ مِن العسكر، وعنده فرس يَسْتَنُّ في طِوَلِه[١]، وقد وضَعَ على دِرْعي بُرْمةً، فأتِ خالدَ بن الوليد فأخبره حتى يَسْتَرِدَّ دِرْعي، وائتِ خليفةَ رسول الله ﷺ فقل له: إنَّ عَليَّ دَيناً حتى يَقضيَ دَيني، وفلانٌ مِن رقيقي حُرٌّ، وإياك أنْ تقول: هذا حُلُمٌ، فتُلْغِيَه، فأخبرَ الرجلُ خالدَ بن الوليد، فوجدَ دِرْعَه حيث قال، فاستَرَدَّها، فلما رجَعوا أخبرَ خالدُ بن الوليد أبا بكر بذلك، فأجازَ وصيَّتَه[٢].

قال مالك بن أنسٍ: لا أعلَمُ وصيَّةً أُجيزَتْ بعد موت صاحبِها إلا هذه الوصيةَ[٣].

***

(٤) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾: قرأ أبو جعفرٍ بفتح الجيم[٤]، وهي جَمْعُ جَمْعٍ: (حُجْرَةٌ)، و(حُجَرٌ)، و(حُجَراتٌ)، وهي

---

(١) أي: يمرح بنشاط، والطِّوَل: الحبل الذي تشد به الدابة، ويمسك طرفه، ويرسل في المرعى. انظر: «فتح الباري» (٦/ ٥).

(٢) ذكره عن أنس رضي الله عنه: الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٦)، وبنحوه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١).

ورواه أبو يعلى كما في «المطالب العالية» (٤٠٨٢)، والطبراني في «الكبير» (١٣٢٠)، والحاكم في «مستدركه» (٥٠٣٦)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣)، من حديث بنت ثابت بن قيس. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٢٢): بنت ثابت بن قيس لم أعرفها، وبقية رجاله رجال الصحيح، والظاهر أن بنته صحابية.

(٣) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٢)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (١/ ٢٠٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٦).

(٤) انظر: «النشر» لابن الجزري (٢/ ٣٧٥).

مأخوذةٌ مِن التَّحَجُّر، وهي أنْ يتَّخِذَ المرءُ لنفْسِه مَنْزِلاً يسكُنُه يمنَعُ غيرَه مِن مُشاركتِه فيه، والحَجْرُ: المَنْعُ.

أي: إنَّ الذين يَصيحون بك خارجَ منزلكَ وأنتَ في منزلكَ، ولا ينتظرون خروجَكَ إلى الناس مِن قومٍ الغالبُ عليهم الجَفاءُ والجهلُ لِخُلُوِّهم مِن عِلْم الدِّين، وفيه ذَمٌّ هذه الفِرْقَةِ، وتسخيفٌ لعقولهم بهذه المُعاملة، وتسليةٌ للنبي ﷺ بما لَحِقَه مِن الأَذِيَّة أنَّهم كالمجانين الذين لا عُقولَ لهم، فليَهُونَنَّ عليكَ ذلك.

قال مجاهد: هُم أعرابُ بني تميمٍ(١).

ورُوِيَ: أنَّ الأَقْرَعَ بنَ حابسٍ هو الذي نادى رسولَ الله ﷺ مِن وراء الحُجُرات(٢).

وقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾: ولم يَقُلْ: (كلُّهم)؛ لأنَّ المُناديَ بعضُهم، ولعلَّ فيهم مَن يَعْقِلُ.

* * *

(٥) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾: أي: أنفعَ وأصلحَ في دِينهم ودنياهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: أي: إنْ تابوا غفَرَ لهم ورَحِمَهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعثَ رسولُ الله ﷺ سَرِيَّةً إلى حيٍّ بني العَنْبَرِ، وأمَّرَ عليهم عُيَيْنَةَ بنَ حِصنٍ، فلما عِلموا أنَّه توجَّهَ نحوَهم هرَبوا، فتركوا

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٤٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٢٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مسنده» (٧٠٢)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٥٩٩١)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٨٧٨).

عِيالاتِهم، فسَباهم عُيَيْنَةُ، وقدِمَ بهم على رسول الله ﷺ، فجاء بعد ذلك رجالُهم يَفْدون الذَّراري، فقَدِموا وقتَ الظَّهيرةِ، ووافقوا رسولَ الله ﷺ في أهله قائلاً، فلما رأَتْهم الذَّراري أجهَشوا إلى آبائهم يَبكون، وكان لكلِّ امرأةٍ مِن نساء رسول الله ﷺ بيتٌ وحُجْرَةٌ، فجعلوا يُنادون: يا محمَّدُ، اخْرُجْ إلينا، حتى أيقَظوه مِن نومه، فخرَجَ إليهم، فقال لهم رسولُ اللهِ ﷺ: «أَتَرْضَون أنْ يكونَ بيني وبينكم سَبْرَةُ بنُ عمرو وهو على دينكم؟»، قالوا: نعم، قال سَبْرةُ: أنا لا أحكُمُ بينهم وعمي شاهدٌ، وهو الأعورُ بنُ بَشامةَ بنِ ضِرارٍ، فقال الأعورُ: فأنا أرى أنْ يُفادى نصفُهم ويُعْتَقَ نصفُهم، فقال عليه الصلاة السلام: «مَن كان عليه مُحَرَّرٌ مِن ولد إسماعيل فليُعْتِقْ بعضَهم»، فنزلت هذه الآيةُ[1].

وقال الكلبي: نزلت الآيةُ في بني تميمٍ وفي بني عنبر[2] حين قدِموا، فجاؤوا إلى حُجُراتِ النبي ﷺ، فجعلوا يقولون: اخْرُجْ إلينا، ما لنا نُسْبى وتُسْبى ذرارينا ولم ندَعْ لكَ مِن طاعة؟! فحكَّمَ بينه وبينهم الأعورَ بنَ بَشامةَ.

وقال في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾: فتُطْلِقَهم كلَّهم بلا فِداءٍ كان خيراً لهم[3].

وقال مقاتلٌ: نزلت في تسعةِ نفرٍ من بني تميمٍ: الأقرعِ بنِ حابسٍ، وقيسِ ابنِ عاصمٍ، والزِّبْرقانِ بنِ بدرٍ، وخالدِ بنِ مالكٍ وسُوَيْدِ بنِ هاشمٍ النَّهْشَلِيَّيْنِ،

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٧)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٥).

(٢) في (ر): «عبس».

(٣) لم أقف عليه.

والقَعْقَاعِ بنِ مَعْبَدٍ، وعُطارِدِ بنِ حاجبٍ، ووكيعِ بنِ وكيعٍ الدَّارِميِّ، وعُيَيْنَةَ بنِ حِصْنٍ الفَزارِيِّ[1].

وقال الزُّهْري: ناداه رجلٌ واحدٌ[2].

***

(٦) ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾: قال ابنُ إسحاقَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ بعَثَ الوليدَ بنَ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ إلى بني المُصْطَلِقِ، وكان بينه وبينهم إِحْنَةٌ[3]، فلما سمِعوا به ركِبوا إليه، فلما سمِعَ بهم خافَهم، فرجَعَ إلى رسول الله ﷺ، فأخبرَه أنَّ القومَ قد هَمُّوا بقَتْلِه ومنَعوا صدقاتِهم فأكثَرَ المسلمون في [ذكر] غزوهم حتى همَّ رسولُ الله ﷺ أنْ يغزوَهم، فبينما هُم في ذلك قدِمَ وَفْدُهم على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، سمِعْنا برسولكَ حين بعَثْتَه إلينا، فخَرَجْنا إليه لِنُكْرِمَه ونُؤَدِّيَ إليه ما قبِلْنا مِن الصدقات، فاستمرَّ راجعاً، فبلَغَنا أنه يزعمُ لرسول الله أنا خرَجْنا إليه لِنُقاتِلَه، واللهِ ما جئنا لذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[4].

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٨١).

(٢) ذكره ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» (ص: ١٧٣) عن قتادة.

(٣) الإِحْنة: الحقد في الصدر. انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (١/ ٦٧).

(٤) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٩٦)، وما بين معكوفتين منه. ورواه بنحوه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٥٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وابن أبي ليلى ويزيد بن رومان.

وذكر ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/ ١٥٥٣) إجماع العلماء على أنها نزلت في الوليد بن عقبة.

قرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿فتثبَّتوا﴾ مِن التَّثَبُّتِ[1]، وهو التَّأَنِّي وتَرْكُ التَّسَرُّعِ مِن الثَّباتِ على الشيء، وقرأ الباقون: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مِن التَّبيُّن[2]، وهو النَّظَرُ في الشيء إلى أنْ يتبيَّنَ ويتحقَّقَ ذلك، وهما قريبان.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾: أي: لِئَلَّا تُصيبوا قوماً بقول ذلك الفاسقِ على جهلٍ بحاله[3]، وتقديرُ الآية: إنْ جاءكم فاسقٌ بخبرٍ فتأنَّوا ولا تَعْجَلوا إلى أنْ يتَّضِحَ صِدْقُه؛ لئلَّا تُصيبوا إنْ عجِلْتم القضاءَ به قوماً في نُفوسِهم وذَراريهم وأموالِهم بجهلٍ منكم بحالهم في استحقاق[4] ما تُصيبونهم به.

﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾: وهو دليلٌ على أنَّ شهادةَ الفاسقِ شهادةٌ، فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بالتَّأَنِّي في قَبوله لا بِرَدِّه.

***

(٧) ـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: أي: فاتَّقوا أنْ تقولوا الباطل عنده وتَكذِبوا، فإنه يتثبَّتُ ويكشِفُ اللهُ له الصِّدْقَ[5]، فيَنْهَتِكُ سِتْرُ الكاذبِ[6].

---

(١) في (أ) و(ف): «فتثبتوا من التثبت» بدل من «فثبتوا من التثبيت».

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٢٣٦)، و«التيسير» للداني (ص: ٢٠٢).

(٣) قوله: «بحاله» الضمير يعود على القوم، أي: على جهل بحال أولئك القوم، وإفراد الضمير هنا جائز؛ لأن القوم مفرد لفظاً، ولو قال: (بحالهم) كان أوضح، وهكذا سيأتي قريباً.

(٤) في (ر): «استحقاقهم».

(٥) في (ف): «الستر».

(٦) في (ر): «الفاسق».

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾: لو عَمِلَ بقولكم، وبعَثَ إليهم مَن يُقاتِلُهم.

﴿لَعَنِتُّمْ﴾: أي: لَأَثِمْتُم، وقيل: أي: لَهَلَكْتُم.

وقال أبو سعيدٍ الخُدْريُّ: هذا نبيُّكم وخِيارُ أُمَّتِكم، لو يُطيعُهُم في كثيرٍ مِن الأمر لَعَنِتُوا، فكيف بكم اليومَ[(١)]؟!

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: أي: حسَّنَه.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾: فأنتم لذلك أطَعْتُم رسولَ الله، ولم تُقاتِلوهم، ولم تَعْجَلوا في أمرِهم.

ورُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ وجَّهَ[(٢)] إليهم خالدَ بنَ الوليد، وقال له: «أَخْفِ قُدومَكَ، وادخُلْها ليلاً، وتحسَّسْ، هل ترى أثَرَ الإسلامِ؟»ـ ففعلَ، فسَمِعَ النِّداءَ، ورأى تهجُّدَهم بالليل، وأصبحَ معهم في جَماعتهم، ثم قال لهم: أرسَلَني رسولُ اللهِ في صَدَقاتِكم، فدفَعوها إليه[(٣)].

وهذا لا يُخالِفُ ما رَوَيْنا مِن مجيءِ وَفْدِهم إلى رسول الله ﷺ؛ لأنَّ الجَمْعَ مُمْكِنٌ، وهو أنْ يكونوا بعَثوا وَفْداً، وقَبْلَ وصولِهم بعثَ إليهم رسولُ اللهِ خالدَ بنَ الوليدِ.

ودلَّت الآيةُ على خَلْقِ أفعالِ العبادِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾: فرجَعَ الكلامُ مِن المُخاطَبَة إلى المُغايَبَة لِيَعُمَّ المُخاطَبين وغيرَهم.

---

(١) رواه الترمذي (٣٢٦٩)، والمروزي في «السنة» (١)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٥).

(٢) في (ف): «أرسل».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٢٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٥١) عن قتادة، وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٣٩) من غير نسبة.

أي: الذين حبَّبَ اللهُ إليهم الإيمانَ وكرَّهَ إليهم الكفرَ والفُسوقَ والعِصْيانَ منكم ومِن غيركم هُم المهتدون، وهو كقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]؛ أي: فالمُريدون وَجْهَ اللهِ منكم ومِن غيركم هُم المُضْعِفون، فأريدوا وَجْهَ اللهِ.

***

(٨ ـ ٩) ـ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾: وهذا يُبْطِلُ قولَ القائلين بالأَصْلَحِ، فإنه لو وجبَ ذلك على الله لم يكن ذلك فَضْلاً مِن الله ونِعْمَةً.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: عليمٌ بِمَن يُحِبُّ الإيمانَ ومَن يَكْرَهُه منكم، حكيمٌ في تَدْبير أمورِ خَلْقِه.

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾: ولم يقُلْ: (اقتَتَلَتَا)؛ لأنَّ كلَّ طائفةٍ جَمْعٌ، فهما جَمْعان؛ أي: قاتلَتْ إحداهما الأخرى.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾: ثنَّى على ظاهرِ تَثْنِيَةِ الطائفتين.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾: أي: استطالَتْ طائفةٌ منهما على الطائفة الأخرى.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: أي: تَرْجِعَ إلى الصُّلْحِ، وتَرْكِ البَغْيِ.

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾: أي: اعدِلوا.

ورُوِيَتْ في نزول هذه الآيات رواياتٌ كلُّها مُجْتَمِعَةٌ على أنها نزلت في خلافٍ[١] وقعَ بين نفَرَينِ مِن الأنصار تعصَّبَ لكلِّ واحدٍ منهما قومُه، حتى خرَجوا إلى القتال بالجَريدِ والعِصِيِّ والأيدي والنِّعالِ، ويَحتمِلُ أنْ تكون كلُّها صحيحةً، ونزولُ الآيةِ كانت عَقِيبَ جميعِها.

وانتظامُ هذه الآيةِ بما قبلَها: أنهم أُمِروا بترك التَّقَدُّمِ على رسول الله ﷺ بالقول والفعل وبإجلالِه[٢]، ونُهُو عن إيذائه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مرَّ رسولُ اللهِ ﷺ يوماً على ملَأٍ مِن الأنصار فيهم عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ، ورسولُ اللهِ ﷺ على حِماره، فوقَفَ عليهم يَعِظُهم، فبالَ حِمارُه أو راثَ، فأمسكَ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ـ لعنَه اللهُ ـ بأنفه، وقال: نَحِّ[٣] عنا نَتْنَ حِمارِكَ فقد آذيْتَنا بنَتَنِ حِمارِكَ، فمَن جاءكَ مِنَّا فعِظْهُ، فسَمِعَ ذلك عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ، فقال: أَلِحِمارِ رسولِ اللهِ ﷺ تقول هذا؟! واللهِ إنَّ بولَ حمارِ رسولِ اللهِ أطيبُ مِن رائحتكَ، فمرَّ رسولُ اللهِ ﷺ، وطالَ الكلامُ بين عبد الله بن أُبَيٍّ المنافق وبين عبد الله بن رواحة، حتى استبَّا وتجالَدا، وجاء قومُ عبد الله بن رواحة، وهُم الأَوْسُ، وقومُ عبد الله بن أُبيٍّ، وهُم الخَزْرَجُ، وتجالَدوا بالعِصِيِّ[٤].

---

(١) في (أ) و(ف): «اختلاف».

(٢) في (ر): «وبالإجلال له».

(٣) في (ر): «ول».

(٤) رواه البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه باختلاف يسير.

وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٦٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٣/ ٣٣٥): غريب من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال السُّدِّي: تجالَدوا بالنِّعالِ والأيدي[١].

وقال الضحاك: بالأيدي والنِّعال والسُّعُف، فرجعَ إليهم رسولُ الله ﷺ، وأصلحَ بينهم، ونزلت الآيةُ[٢].

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ الآيةَ نزلَتْ في رجلين كانت بينهما مُخاصَمَةٌ، فقال أحدُهما للآخر: لَآخُذَنَّ حَقِّي منكَ عَنْوَةً؛ لِكَثْرَةِ عَشيرتِه، وأبى الآخرُ ذلك، وحمَلَه على إتيان رسول الله ﷺ لِيَحْكُمَ بينهما، فأبى صاحبُه، فاختصما، فنزلت الآيةُ[٣].

وقال الكلبي: نزلَتْ في حاطِبٍ وسُمَيرٍ، وكان سُمَيرٌ قتَلَ حاطِباً، فجعلوا يقتتلون في الجاهلية إلى أنْ أتاهم النبيُّ ﷺ، فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ[٤].

وعلى الأوَّلِ: إنَّ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ كان مُنافقاً، والآيةُ في طائفتين مِن المؤمنين، لكنْ يرجِعُ ذلك إلى أصحاب عبد الله بن أُبَيٍّ وعَشيرته، ولم يكونوا كلُّهم مُنافقين، فالآيةُ تتناولُ المؤمنين منهم.

وجُمْلةُ ذلك: أنَّ طائفتين مِن المؤمنين إذا تنازَعوا، وأدَّى بهم ذلك إلى التَّقاتُلِ، نظر الإمامُ أو نائبه في ذلك، وحمَلَهما على حُكْمِ الشَّرع، فإنْ عمِلا بذلك وتصالَحا، وإلا منَعَ الباغي منهما مِن ذلك بالكلام والعمل، وحَبَسَ إنْ احتاجَ إلى ذلك، فإنْ كانت الطائفتان مُمْتَنِعَتَين قاتلَ الطائفةَ الباغِيَةَ إلى أنْ ترجِعَ إلى حُكْم الشَّرع.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٦٠)، وذكره السمرقندي في «تفسيره» (٣/ ٣٢٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٠).

(٢) لم أقف عليه عن الضحاك.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ٦٢٣). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٧).

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٩).

وقولُه تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾: أي: اعدلوا في الإصلاح بينهما. ويحتَمِلُ: أَقْسِطوا أيها الناسُ جميعاً، فلا تتمانَعوا الحُقوقَ.

* * *

(١٠) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾: أي: مُتَآخُون على الإسلام بعضُهم أولياءُ بعضٍ، والإيمانُ أشرفُ أنسابِهم، وقد قطَعَ اللهُ الوِلايةَ بينهم وبين مَن خالَفَ دِينَهم مِن عشائرهم.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾: وهو أقلُّ مَن يقَعُ بينهم القتالُ، وإذا أُمِروا بهذا في الأقلِّ، تَنبَّهوا[1] به على الأكثر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: فلا تُمانِعوا الحُقوقَ، فيُؤَدِّيكم ذلك إلى الاقتتال.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: لِتُرْحَموا بذلك.

* * *

(١١) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾: قد بيَّنَّا أنَّ السُّورةَ في الأمر بمَكارم الأخلاق، وكان مُعْتاداً في أكثر العرب في النُّظَراء التَّفاخرُ بالأنساب، والاستهزاءُ والسُّخْرِيَةُ والاستخفافُ، وكان أكثرُ مشركي العرب[2] يترفَّعون على فُقراء المسلمين

(١) في (ر): «نبهوا».

(٢) في (ر): «المشركين».

وضُعَفائهم، فنزلت السُّورةُ نَهْياً لهم عن مَساوئِ الأخلاق، وافتتحَتْ بالواجب مِن ذلك في مَعاشرِ الرُّؤساء، ثم أتبَعَ بالمرؤوسين مِن النُّظَراء والأَكْفاء، وقد كان مِن أفاضل الصَّحابة مَن يَبْدُرُ منهم البادرةُ في هذا الباب.

كما رُوِيَ في سبب نزول هذه الآية: أنَّ خالدَ بنَ الوليد رضي الله عنه ذكَرَ عمَّارَ ابن ياسرٍ فنالَ منه(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلَتْ في ثابتِ بنِ قيسِ بنِ شَمَّاسٍ، وذلك أنَّه كان في أُذُنِه ثِقَلٌ، فكان إذا أتى رسولَ اللهِ ﷺ وقد سبَقوه في المجلس أوسَعوا له، ففاتَتْه ذاتَ يومٍ ركعةٌ مِن الفجر، ثم أتى فجعَلَ يَتَخَطَّى النَّاسَ وهو يقول: تَفَسَّحوا، حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ بينه وبينه رجلٌ، فقال له: تفسَّحْ أو تَنَحَّ، فقال الرجل: أصبتَ مَجْلِساً فاجلِسْ، فجلسَ ثابتٌ خَلْفَ الرجل مُغْضَباً، فلما انجلَتِ الظُّلْمَةُ غمَزَ ثابتٌ الرجلَ، فقال: مَن هذا؟ فقال: أنا فلانٌ، فقال له: ابنُ فُلانةَ، ذكَرَ أُمًّا له كان يُعَيَّرُ بها، فنكَسَ الرجلُ رأسَه، واستحيى، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾: في المَعيشة والخِسَّة، يقول الرجلُ للرجل: أنتَ فقيرٌ، وأنتَ دَنيءٌ(٣).

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٠)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٢)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٨).

(٣) ذكر مقاتل نحوه في «تفسيره» (٤/ ٩٤)، وذكره عنه الواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٥٦)، وبنحوه قال مجاهد، كما في «تفسير الطبري» (٢١/ ٣٦٥).

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾: أي: أوفرَ نصيباً منهم في الآخرة، فقال ثابتٌ بعد نُزول هذه الآية: لا أَفْخَرُ على أحدٍ في النَّسَب[1] بعد هذا أبداً.

وقال مقاتلٌ: نزلت في أبي مالكٍ وعبد الله بن أبي حَدْرَدٍ، وذلك أنَّ عبدَ الله قال لأبي مالكٍ: يا أعرابيُّ، وهو كما يقول الرجلُ مِن أهل البلد: يا رُسْتاقي[2]، فقال له أبو مالكٍ: يا يهوديُّ، فقال النبي ﷺ لهما: «لا تدخُلا عليَّ حتى يُبَيِّنَ اللهُ توبتكما»، فأوثَقا أنفسَهما إلىساريةِ المسجد، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ[3].

وقال الضحاك: فأما الذين استهزَؤوا فقومٌ مِن بني تميمٍ، استهزؤوا مِن بلالٍ وخَبَّابٍ وعمارٍ وصُهَيبٍ وأبي ذرٍّ وسالمٍ مولى أبي حُذيفة[4].

وقال أبو جَبيرةَ: نزلت الآيةُ فينا بني سَلِمَةَ، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدِمَ المدينة ولم يكن منا رجلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثةٌ، فكان الرجل يُدْعى بأحد أسمائه، فيكرَهُه، فأنزل الله تعالى هذه الآيةَ[5].

---

(١) في (ر) و(ف): «الحسب».

(٢) الرُّستاق: فارسي معرب، وهي السواد، ويطلق كذلك على البيوت المجتمعة. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (١٠/ ١١٦).

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٣)، وذكره عنه الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٣٣). ورواه مختصراً ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٧/ ٣٤٣).

(٤) رواه ابن أبي حاتم عن مقاتل فيما عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٥٦٣).

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٧٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٣)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٧٠) عن الضحاك.

(٥) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٨٢٨٨)، وأبو داود (٤٩٦٢)، والترمذي (٣٢٦٨)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٦٨)، والطبراني في «الكبير» (٩٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٧٧٥٥). قال الترمذي: حسن صحيح. =

وقال عطاءٌ الخُراسانيُّ: كان الرجل يُعَيَّرُ بِخَلَّةٍ كانت فيه[1] في الجاهلية وقد رجَعَ عنها وأسلَمَ.

ورُوِيَ: أنَّ أبا ذرٍّ دعا رجلاً مِن أصحاب رسول الله ﷺ بأُمٍّ كانت له في الجاهلية، فقال له النبيُّ ﷺ: «إنَّ فيك لَجاهليَّةً»، فقال: يا نبيَّ اللهِ، أَجاهِلِيَّةُ الإسلامِ أم جاهِلِيَّةُ الكفرِ؟ فقال: «بل جاهليةُ كفرٍ»، ثم قال له: «ما بها أَسْودُ ولا أحمرُ أنتَ خيرٌ منه حتى يرضى عنكَ صاحِبُكَ»، فخرَجَ أبو ذرٍّ رضي الله عنه يبتغي صاحبَه، فبصُرَ به الذي استطالَ عليه، فجاء الرجلُ، فاستغفرَ له رسولُ الله ﷺ، فقال له أبو ذرٍّ: إنما جئتُكَ يا أخي لِأُسَلِّمَ عليك، فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «سبقَكَ الرجلُ يا أبا ذرٍّ»، فقال أبو ذرٍّ: فاستغفِرْ لي يا رسولَ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «يغفِرُ اللهُ لِصاحبِكَ»، فأعادَ عليه: استغفِرْ لي يا رسولَ الله، فاستغفَرَ لصاحبِه ثلاث مرات، ثم استغفَرَ لأبي ذر، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الغضبَ طُغْيانٌ مِن الشيطان، فإنما ينفُخُ فيها في جَمْرةٍ، ألا ترونه تَحْمَارُّ عيناه، وتدِرُّ[2] أوداجُه»[3].

= قلنا: إسناده صحيح إن صحت صحبة أبي جبيرة بن الضحاك، فقد قال السندي كما في حاشية «المسند»: أبو جَبيرة، بفتح أوله: ابن الضَّحَّاك، لا يُعرف اسمه، قيل: له صحبة، وقيل: لا صحبة له، ومال الحافظ في «الإصابة» إلى الأول بحديث: نزلت فينا هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ بناءً على أن هذا الحديث رواه أصحاب السنن عن أبي جبيرة بلا ذكر العمومة في السند، لكن إذا نظرنا إلى ذكر العمومة، كما في «المسند» سقط الاستدلال، كما لا يخفى.

قلت: يشير إلى ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٦٦٤٢) من طريق أبي جبيرة عن عمومة له.

(١) في (ف): «له».

(٢) في (ف): «وتدور».

(٣) رواه إلى قوله: «أنت امرؤ فيك جاهلية» البخاري (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١).

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٩٩) بزيادة يسيرة.

وقوله: ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾: أي: رجالٌ مِن رجال، قال الشاعر:

وما أدري وسوف إخالُ أدري ... أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ(١)

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾: يدلُّ على ما قُلْنا أنَّ القومَ هُم الرجالُ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في امرأتين مِن أزواج النبيِّ ﷺ سخِرَتا مِن أُمِّ سلَمةَ، وذلك أنَّ أُمَّ سلَمةَ ربَطَتْ حَقْوَيْها بسَبِيبةٍ(٢)، وهي ثوبٌ(٣) أبيضُ، وسدَلَتْ طرفَها خَلْفَها، وكانت تجُرُّه، فقالت عائشةُ لِحَفْصَةَ رضي الله عنهما: انظُري ما تجُرُّ خَلْفَها، كأنَّها لسانُ كلبٍ، فكان هذا سُخْرِيَتَهما(٤).

وروى عكرمةُ عن ابن عباس أنَّ صَفِيَّةَ بنتَ حُيَيِّ بنِ أَخْطَبَ أَتَتْ رسولَ الله ﷺ، فقالت: إنَّ عائشة تُعَيِّرُني وتقول: يا يهوديةُ، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «هلَّا

= وروى معمر بن راشد في «جامعه» (٢١٠٢٢) تتمة القصة دون قوله ﷺ: «إن الغضب طغيان» عن زيد بن أسلم، ثم روى هذه الزيادة معمر أيضاً (٢٠٢٨٨) عن زيد أيضاً.

وروى القطعة الأخيرة منه الطيالسي في «مسنده» (٢٢٧٠)، والحميدي في «مسنده» (٧٦٩)، والإمام أحمد في «مسنده» (١٧/ ٢٢٨)، والترمذي (٢١٩١) وحسنه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، كما في «ديوانه» رواية الشنتمري (ص: ١٣٦).

(٢) السَّبيبة: شقة كتان رقيقة. انظر: «الصحاح» (مادة: سبب). والحَقْوان: الخاصرتان. انظر: «العين» للخليل (٣/ ٢٥٤).

(٣) في (أ) و(ف): «بثوب» بدل من «بسبية وهو ثوب».

(٤) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٣) من غير إسناد. وذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٧٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وفيه ما لا يليق نسبته لأمهات المؤمنين.

قلتِ: إنَّ أبي هارونُ، وإنَّ عمي موسى، وإنَّ زوجي محمد»، فنزلت هذه الآيةُ[١].

ورُوِيَ أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تَسْخَرُ مِن زينبَ بنتِ خُزيمةَ الهِلاليَّةِ، وكانت امرأةً قَصيرةً تُسَمَّى أُمَّ المساكين، وكانت تقوم على ضَيْفِ رسول الله ﷺ، فجعلَتْ عائشةُ رضي الله عنها تَسْخَرُ منها لِقِصَرِها، فأنزل اللهُ تعالى هذه[٢] الآيةَ[٣].

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾: أي: عند الله في المَنْزِلة كما قُلْنا في الرجال.

وقيل فيهما: عسى أنْ يكونوا بعد هذا في الدنيا خيراً منهم، وعسى أنْ يكُنَّ بعد هذا في الدنيا خيراً منهن.

يعني: إنْ كانت السُّخْرِيَةُ بفَقْرٍ أو ضَعْفٍ أو عِلَّةٍ، فعسى تزولُ مِن ذلك ويُبْتَلى به السَّاخِرُ، فنبَّهَ اللهُ على أنه قادرٌ على أنْ يُزيلَه مِن ذلك، ويجعلَه في هذا.

وقيل: هذا قد يكون في التَّعيير بذَنْبٍ يكون الإنسان فيه، فنُدِبوا على[٤] أنْ يستُروا على الناس ولا يُعَيِّروهم، ويروا فَضْلَ اللهِ على أنفسهم بالعِصْمَة، ويخافوا أنْ يَصيروا مِثْلَهم.

---

(١) رواه بهذا اللفظ الترمذي (٣٨٩٢)، وقال: حديث غريب، وليس إسناده بذاك، والطبراني في «الكبير» (١٩٦)، والحاكم في «المستدرك» (٦٧٩٠) من حديث صفية رضي الله عنها.
وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨١)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٧٠)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٤٩) عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في (أ): «فنزلت» بدل من «فأنزل الله تعالى هذه».

(٣) ذكره الزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٧٠) في سبب نزول هذه الآية.
ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٥٠٤٩) وغيره مطلقا من غير ذكر أم سلمة، ولا في سبب نزول الآية.

(٤) في (ر): «إلى».

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: هو العَيْبُ والطَّعْنُ مِن باب (دخَلَ) و(ضرَبَ) جميعاً، وقرأ يعقوبُ بضم الميم، والعامَّةُ بالكسر(١).

أي: لا يَعِبْ بعضُكم بعضاً ولا يطعَنُ، وهو كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وقيل: لا تَعيبوا أهلَ دينِكم، فإنَّ المسلمين كنَفْسٍ واحدةٍ.

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾: النَّبْزُ: التَّلْقِيبُ بتسكين(٢) الباء، والنَّبَزُ: اللَّقَبُ بفتحها، والتَّنابُزُ: التَّداعي بها.

وقال الضحاك: هو كلُّ اسمٍ أو صِفَةٍ يكرَه الرجلُ أنْ يُدْعَى به.

وقال قتادة: أي: لا تقُلْ لأخيكَ المسلمِ: يا فاسِقُ، يا مُنافِقُ(٣).

وقال الحسن: كان اليهوديُّ والنَّصْرانيُّ يُسْلِمُ فيُلَقَّبُ، فيقال: يا يهوديُّ، يا نصرانيُّ، فنُهُوا عن ذلك(٤).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: لا تَدْعُ أخاك بما يَكْرَه مِن الأسماء، ولكنِ ادْعُه بما يُحِبُّ، فإنَّ ذلكَ أَعْطَفُ لبعضكم على بعض، وأَحَبُّ إلى الله تعالى(٥).

---

(١) انظر: «النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٧٩ ـ ٢٠).

(٢) في (ر): «بسكون».

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٣٣)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٧٠).

وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨١) عن قتادة وعكرمة، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٥٧) عن عكرمة والحسن ومجاهد وقتادة.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٣٤)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٧٠). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨١)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٣).

(٥) لم أقف عليه.

وعن العلاء بن سفيان عن أبي(١) مريم الغساني أنَّ رجالاً مِن الجُنْدِ خرَجوا يَنْتَضِلون وفيهم سعيدُ بنُ عامرٍ، فبينما هُم كذلك أصابَهم الحَرُّ، فوضَعَ سعيدٌ قَلَنْسُوَتَه عن رأسِه، وكان أَصْلَعَ، فلما رمى سعيدٌ صاحَ به رجلٌ: يا أَصْلَعُ، وهو لا يعرِفُه، فقال له سعيد: قد كنتَ لَغَنِيًّا عن أنْ تلعنَكَ الملائكةُ، فقال رجلٌ منهم: وعن ماذا تلعنُه الملائكةُ؟ فقال: مَن دعا امرأً بغير اسمِه لعنَتْه الملائكةُ(٢).

قولُه تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾: قالوا: كان(٣) اليهوديُّ أو النَّصرانيُّ يُسْلِمُ، فيكون مِن صالِحي المسلمين، فيغضَبُ عليه الرجلُ مِن المسلمين، فيدعوه باسمه الأول، فيُحْتَقَرُ(٤) بذلك، فنهى اللهُ عن ذلك، فقال: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾: قولُه: يا يهوديُّ، بعد إسلامِه.

وقيل: هو تعظيمٌ لهذه الجِناية، يقول: بئس هذا الاسمُ الذي تُسَمِّيه به بعد ما آمنَ.

وقيل: معناه: مَن سَخِرَ به أو لَمَزَه أو لقَّبَه(٥) فقد فسَقَ، وبئس الاسمُ له هذا مع إيمانه.

---

(١) في (أ) و(ر): «العلاء بن شقيق بن أبي»، وفي (ف): «العلاء بن شقيق وأبي»، والمثبت من مصادر التخريج.

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٦٨٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢١/ ١٦٥).
وروى ابن قانع في «معجم الصحابة» (٢/ ٢٣١)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٩٤)، والديلمي في «الفردوس» (٥٧٢٧)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٢٤٨) عن عمير بن سعد عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن دعا رَجُلا بِغَيْرِ اسْمِهِ لَعَنَتْهُ الْمَلائِكَةُ». قال ابن الجوزي: قال النسائي: هذا حديث منكر.

(٣) في (ر): «قال كان هذا في».

(٤) في (ر) و(ف): «ويحتقره».

(٥) في (أ): «من سخرية أو لمزة وعيبة» بدل: «من سخر به أو لمزه أو لقبه».

وقولُه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: أي: ومَن لم يتُبْ عن هذه الأشياء التي نهى اللهُ تعالى عنها، فقد وضَعَ الشيءَ في غير مَوْضِعِه وظلَمَ نفْسَه.

وجمَعَ قولَه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مع[1] توحيد قولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾؛ لأنَّه اسمُ جِنْسٍ، فكان واحداً بلفظه، جَمْعاً بمعناه.

* * *

(١٢) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾: وهو أنْ يَظُنَّ بالمؤمن سوءاً مِن حيث لم يتحقَّقْ عليه، ولم يُوجَدْ منه مِن إعلان المعاصي ما يُخرِجُه مِن حُسْنِ الظَّنِّ به.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾: وهو هذا.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾: أي: ولا يتَّبِعْ بعضُكم عيبَ بعضٍ[2]، ولا يبحَثْ عن سرائره[3].

والتَّجسُّسُ: التَّبحُّثُ، ومنه: جَسُّ الشَّاةِ، وجَسُّ العِرْقِ، وهو التَّبَحُّثُ عن سِمَنِ الشَّاةِ وهُزالِها، وعن قوَّةِ حركةِ العِرْقِ وضَعْفِها، ومنه الجاسوسُ: وهو الذي يبحَثُ عن الأخبار.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: أي: ولا يذكُرْ أحدٌ منكم غيرَه بظَهْرِ الغَيبِ بما لو كان حاضراً فشافهَه به كَرِهَه؛ صِدْقاً كان ذلك أو كَذِباً، وقال النبي ﷺ: «إذا

---

(١) في (ر) و(ف): «بعد».

(٢) في (أ): «لا يتبع بعضكم بعضاً بعيبه».

(٣) في (أ): «سر أمره».

ذَكَـرْتَ أخـاكَ بمـا فيـه فقـد اغتَبْتَـه، فإنْ لـم يكن فيـه فقد بهتَّـه»[١].

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: أي: فإنكـم لا تُحِبُّـون ذلـك، وإذ كنتـم لا تُحِبُّونـه فالغِيبـةُ لـه وهـو حـيٌّ مِثْـلُ أكلِ لحمِـه وهو ميِّـتٌ، فلا تُحِبُّـوه أيضاً.

ولعـلَّ معنـاه: أنَّ الميِّـتَ لا يشـعُرُ بمـا يُـؤكَلُ مِـن لحمِـه، وليـس[٢] بـه انتصارٌ فيدفـعَ عن نفْسِـه، فـأكلُ لحمِه لُـؤْمٌ، فكذلك الغائـبُ لا يشـعُرُ بما يُغْتـابُ به، وليس بـه حينئذٍ انتصـارٌ، فذِكْرُه بالسُّـوء لُـؤْمٌ، والميِّـتُ أيضاً لا يَنـالُ آكلَ لحمِه بسُـوءٍ، فلم يحسُـنْ أنْ يُنـالَ منـه، فكذلك الغائـبُ لا يَنالُ مَـن يغتابُه فـي حين اغتيابه بسُـوءٍ، فلم يَحسُـنْ أنْ ينـالَ منه.

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: أي: فقد كَرِهْتم في طِباعكم وعُقولِكم أكْلَ لحمِ أخيكم ميِّتاً، فاكرَهوا اغتيابَه، فإنه مِثْلُ أكلِ لحمِه.

وقيل: أي: فكَرِهْتُم أنْ تُغتابوا، فلا تَغتابوا غيرَكم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: عطفٌ على ﴿اجْتَنِبُوا﴾، ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، ﴿وَلَا يَغْتَب﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾: يقبَلُ توبةَ مَن تابَ، ويرحمُ مَن أنابَ إليه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في رجلين مِن أصحاب رسول الله ﷺ ظنًّا برَفيقٍ لهما، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ ضمَّ إليهما سلمانَ يخدِمُهما ويخِفُّ لهما في حوائجهما، ويتقدَّمُ إلى المنزل فيُهَيِّئُ لهما ما يُصْلِحُهما[٣] مِن الطعام والشراب،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (أ): «ولا».

(٣) في (أ): «يصلح لهما».

فتقدَّمَهما سلمانُ ذاتَ يومٍ إلى المنزل، فغَلَبَتْه عيناه فلم يُهَيِّئْ لهما شيئاً، فهجَما عليه، وقالا: ما أَصْلَحْتَ لنا شيئاً؟! قال: غلَبَتْني عيناي، فنمتُ عن شأْني، فبعثاه إلى رسول الله ﷺ يبتغي لهما إداماً، فلم يجِدْ عنده شيئاً، وكان أسامةُ بنُ زيدٍ خازنُ رسولِ الله ﷺ على رَحْلِه، فوجَّهَه رسول الله ﷺ إلى أسامةَ، وقال له: «قل له: إنْ كان عنده فَضْلٌ فليُعْطِ»، فأتى سلمانُ أسامةَ، فأخبرَه بذلك، فقال: ما عندي شيءٌ، فرجَعَ إليهما سلمانُ فأخبرَهما، فعند ذلك قالا: لو بعَثْناه إلى بئر سُمَيحةَ[1] لغارَ ماؤُها، فكان هذا غَيْبَتَهما، فلما رجَعا[2] إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «ما لي أرى حُمْرَةَ اللَّحمِ في أفواهكما؟!»، فقالا: ما تناوَلْنا لَحْماً، فقال لهما: «إنكما اغتبتُما» ـ والغِيبةُ: أنْ يذكُرَ الرجلُ مَن خَلْفَه بما يكرَهُه إذا سمِعَه، وهو يعدِلُ أكلَ لحمِه ميتاً ـ فقالا لرسول الله ﷺ: ما عَلِمْنا أنه حرامٌ علينا، ونحن نكرَهُ ذلك أيضاً، فقال عليه الصلاة والسلام: «فكما كرِهْتُما أنْ تأكُلا لحمَ أخيكُما ميتاً، فلا تغتاباه»، ونزلت الآية[3].

وقيل: إنهما كانا[4] يتَجَسَّسان رَحْلَ أُسامةَ، فنزلَت فيهما: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

وهذه الخِلالُ الثلاثُ؛ أي: الظَّنُّ السُّوءُ، والتَّجَسُّسُ، والاغتيابُ، بمرتبةٍ في الفعل، فإنَّ مَن أساءَ الظَّنَّ بأخيه المسلم تجسَّسَ ما ظنَّه، فإذا تحقَّقَ ذلك عنده اغتابَه.

---

(١) سُميحة: موضع، وقيل: بئر بالمدينة، وقيل: بئر بناحية قديد، وقيل: عين معروفة، وقيل: بئر قديمة بالمدينة غزيرة الماء. انظر: «معجم البلدان» (٣/ ٢٥٥).

(٢) في (أ) و(ف): «راحوا».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٢)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٤)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٧٤) من غير إسناد.

ورواه الأصبهاني بنحوه في «الترغيب والترهيب» (٢٢٣١) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

(٤) في (ر) و(ف): «قاما».

يقولُ: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ فإنْ ظننتُم فقد أسأتُم، فلا تجسَّسوا فتزدادوا إثماً، فإنْ تجسَّسْتم فقد أسأتُم، فلا تغتابوا فتزدادوا إثماً.

وروى زيدُ بنُ أَسْلَمَ أنَّ عُمَرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه خرجَ ذاتَ ليلةٍ ومعه عبدُ الرحمن بنُ عوفٍ رضي الله عنهما يعُسَّان، إذ شَبَّ لهما نارٌ، فأَتَيا البابَ فاستَأْذَنا، ففُتِحَ البابُ لهما ودخلا، فإذا رجلٌ وامرأةٌ تُغَنِّي، وعلى يد الرجل قَدَحٌ، فقال عمر رضي الله عنه: وأنتَ بهذا يا فلان؟ فقال: وأنتَ بهذا يا أميرَ المؤمنين؟ فقال له عمر رضي الله عنه: فمَن هذه منكَ؟ قال: امرأتي، قال: وما في القَدَح؟ قال: ماءٌ زُلالٌ، فقال للمرأة: وماذا تُغَنِّين؟ قالت: أقول:

تطاولَ هذا الليلُ واسودَّ جانِبُه ... وأَرَّقَني أَلَّا حبيبٌ أُلاعِبُهْ
فواللهِ لولا خشيةُ اللهِ والتُّقى ... لَزُعْزِعَ مِن هذا السَّريرِ جوانِبُهْ
ولكنَّ عَقْلِيَ والحياءَ يَكُفُّني ... وأُكْرِمُ بَعْلِي أنْ تُنالَ مراكبُهْ

ثم قال الرجلُ: يا أميرَ المؤمنين، ما بهذا أُمِرْنا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، فقال عمر رضي الله عنه: صَدَقْتَ، وانصرفَ[١].

وقيل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: هل لكَ في الوليد بن عُقْبَةَ تقطُرُ لِحْيَتُه خَمْراً؟ فقال عبد الله: إنا قد نُهِينا عن التَّجَسُّس إلَّا أنْ يظهَرَ لنا[٢].

---

(١) ذكره بهذا السياق الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٣).

(٢) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٩٤٥)، وابن أبي شيبة (٢٦٥٦٨)، وأبو داود (٤٨٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٩٧٤١)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٤).

قال النووي في «رياض الصالحين» (ص: ٤٤٦): رواه أبو داود بإسناد على شرط البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «مَن تتبَّعَ عورةَ أخيه المسلمِ تتبَّعَ اللهُ عورتَه، ومَن تتبَّعَ اللهُ عورتَه فضَحَه ولو في جَوْفِ بيته»(١).

وقال الإمام القُشَيريُّ: العارفُ لا يتفرَّغُ مِن شُهود الحقِّ إلى شُهود الخَلْق، فكيف يتفرَّغُ إلى التَّجَسُّسِ؟! ومَن اشتغلَ بالحقِّ لا يتفرَّغُ إلى نفسه، ومَن اشتغلَ بنفْسِه(٢) لا يتفرَّغُ إلى الخَلْق.

وقال: غَيْبَةُ الخَلْقِ لا تكون إلا مِن الغَيْبَةِ عن الحَقِّ(٣).

***

(١٣) ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾: وهذا تأكيدُ جميعِ ما مضى في هذه السُّورة، وإعلامٌ أنَّه لا يصِلُ إلى ذلك كلِّه إلا بالتقوى، فإنَّ مَن سَخِرَ بغيره أو

---

(١) حديث صحيح بطرقه وشواهده، رواه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٧٦٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. قال الترمذي: حسن غريب.
ورواه الطبراني في «الكبير» (١١٤٤٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٩٤): رواه الطبراني، ورجاله ثقات.
ورواه أبو يعلى في «مسنده» (١٦٧٥)، والروياني في «مسنده» (٣٠٥)، وتمام في «فوائده» (٢٤٢٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٦٨٢) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
ورواه الإمام أحمد (١٩٨٠١)، وأبو داود (٤٨٨٠)، والدارقطني في «العلل» (٦/ ٣٠٩)، والخرائطي في «مساوئ الأخلاق» (١٩٠) من حديث أبي برزة رضي الله عنه. وإسناده حسن.
ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٢٤٠٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه. وإسناده حسن.

(٢) في (أ) و(ف): «إلى نفسه».

(٣) انظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٤٤٣).

طعَنَ عليه أو ظَنَّ به سوءاً أو اغتابَه، فذلك راجِعٌ إلى إِزْرائِه به، ولا يُزري بغيره إلا لِفَضْلٍ يُقَدِّرُه لِنفْسِه عليه، فبيَّنَ لهم أنَّهم مُتساوون في الأصل، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: وهذا نداءٌ عامٌّ، ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾: وهما آدمُ وحَوَّاءُ، فكُلُّكم أولادُ أبٍ واحدٍ وأُمٍّ واحدةٍ.

﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا﴾: جَمْعُ شَعْبٍ، ﴿وَقَبَآئِلَ﴾: جَمْعُ قَبيلةٍ.

قال الزُّبَيرُ بن بَكَّارٍ: العربُ على ستِّ طبَقاتٍ: شَعبٌ، وقَبيلةٌ، وعِمارةٌ، وبَطْنٌ، وفَخْذٌ، وفَصيلةٌ، فالشَّعْبُ يجمعُ القبائلَ، والقَبيلةُ تَجْمَعُ العَمائر، والعِمارةُ تجمَعُ البُطونَ، والبطنُ يجمَعُ الأَفْخاذَ، والفَخْذُ يجمَعُ الفصائلَ، فمُضَرُ شَعْبٌ، وربيعةُ شَعْبٌ، ومَذْحِجٌ شَعْبٌ، وحِمْيَرُ شَعْبٌ، وسُمِّيَت شُعوباً لأنَّ القبائلَ انشَعَبَتْ منها، فكِنانةُ قَبيلةٌ، وقُرَيْشٌ عِمارةٌ، وقُصَيٌّ بَطْنٌ، وهاشمٌ فَخْذٌ، والعبَّاسُ فَصيلةٌ[(١)].

﴿لِتَعَارَفُوٓا۟﴾: أي: فعَلْنا كذلك لِتَقَعَ المعرفةُ بذلك، لا لِتُفاخِروا بها، فإنْ أردتُّم ذلك فهو بالتَّقْوى، وهو قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: لا تخفى عليه ظواهرُكم وبواطنُكم.

وقال ابنُ عمرَ رضي الله عنه: قال النبي ﷺ في خُطْبَتِه يومَ الفَتْح: «إنَّ اللهَ تعالى أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ[(٢)] ....

(١) انظر: «المؤتلف والمختلف» للدارقطني (٣/ ١٥٥٤)، و«غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٤٦٠)، و«الأنساب» للسمعاني (١/ ١٨)، و«كشف المشكل» لابن الجوزي (٤/ ٢٠٧)، و«المفهم» لأبي العباس القرطبي (٧/ ٢٨٦).

(٢) يعني: الكبر، وتضم عينها وتكسر، وهي «فُعُّولة» أو «فِعِّيلَة»، فإن كانت الأول فهي من التعبية؛ لأن المتكبر ذو تكلف وتعبية، وإن كانت الثانية، فهي من عُباب الماء، وهو أوله وارتفاعه. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٣/ ١٦٩).

الجاهليَّةِ وتكبُّرَها[١]، إنما الناسُ رجلان: بَرٌّ تقِيٌّ كريمٌ على الله تعالى، وفاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ على الله تعالى»، ثم تلا هذه الآيةَ[٢].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في ثابتِ بنِ قَيسِ بن شَمَّاسٍ حيث قال للرجل الذي لم يتفسَّحْ له: إنه ابنُ فُلانة، فقال النبي ﷺ: «مَن الذاكرُ فُلانة؟»، فقام ثابت فقال: أنا يا رسولَ اللهِ، فقال: «انظُرْ في وجوه القوم»، فنظَرَ في وجوههم فقال: «ما رأيتَ يا ثابتُ؟»، فقال: رأيتُ أبيضَ وأسودَ وأحمرَ، قال: «فإنك لا تَفْضُلُهم في شيءٍ إلَّا في الدِّين والتقوى»، فأنزلَ اللهُ هذه الآيةَ، وأنزل في الذي لم يتفسَّحْ له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ الآية[٣].

وقال مقاتل رحمه الله: لَمَّا كان يومُ فتحِ مكَّةَ، وأمرَ رسولُ الله ﷺ بلالاً حتى أذَّنَ، قال عَتَّابُ بنُ أَسيدِ بنِ أبي العِيْصِ: الحمدُ لله الذي قبَضَ أبي حتى لم يرَ هذا اليوم، وقال الحارثُ بنُ هشامٍ: أوَما وجدَ محمد غيرَ هذا الغُرابِ الأسودِ مُؤَذِّناً؟! وقال سُهَيلُ بنُ عمرو: إنْ يُرِدِ اللهُ شيئاً يُغَيِّرْه، وقال أبو سُفيانَ بنُ حَرْبٍ: إني لا أقول شيئاً أخافُ أنْ يُخْبِرَ به ربُّ السماوات والأرض، فأتى جبريلُ رسولَ الله ﷺ

---

(١) في (ف): «وتكثرها».

(٢) رواه الترمذي (٣٢٧٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٣٨٢٨)، والثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٦٧)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ورواه الإمام أحمد في «مسنده» (٨٧٣٦)، والترمذي (٥٣٩٥٥)، وأبو داود (٥١١٦)، والبيهقي في «الآداب» (٣٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٧)، والواحدي في «البسيط» (٢٠/ ٣٦٣)، وفي «أسباب النزول» (ص: ٣٩٤).

فأخبرَه بما قالوا، فدعاهم رسولُ الله ﷺ وقال لِعَتَّابٍ: «ما الذي قُلْتَ؟»، قال: قلتُ: الحمدُ لله الذي قبَضَ أبي حتى لم يرَ هذا اليوم، قال: «صدَقْتَ»، قال: «فما الذي قلتَ يا حارثُ»، قال: قلتُ: أوَ ما وجدَ محمد غيرَ هذا الغُراب الأسود مُؤَذِّناً؟! قال: «صَدَقْتَ»، قال: «فما قلتَ يا سهيلَ بنَ عمرو؟»، قال: قلتُ: إنْ يُرِدِ اللهُ شيئاً يُغَيِّرْه، قال: «صَدَقْتَ»، قال: «ما الذي قلتَ يا أبا سفيان؟»، قال: قلتُ: إني لا أقولُ شيئاً أخاف أنْ يُخْبِرَ به ربُّ السماوات والأرض، قال: «صَدَقْتَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الآية[١]، فإنْ صَحَّتْ هذه القصةُ فالآيةُ مَكِّيَّةٌ، والسُّورةُ مَدَنِيَّةٌ.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كرَمُ الدنيا الغِنى، وكرَمُ الآخرةِ التقوى[٢].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يُنادي مُنادٍ يومَ القيامة مِن بُطْنانِ العرشِ[٣]: يا أُمَّةَ أحمدَ[٤]، إنَّ اللهَ تعالى يقول: إني وضَعْتُ لكم فيكم نسَباً ولي نسَباً، فرفَعْتُم أنسابَكم

---

(١) انظر: «تفسير مقاتل» (٤/ ٩٧)، وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٦)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٣٩٤).

ورواه ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «الدلائل» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٥٧٨) عن ابن أبي مليكة مختصراً، وكذا رواه عنه الأزرقي في «أخبار مكة» (١/ ٢٧٤).

(٢) رواه الديلمي في «الفردوس» (٤٨٩٣)، والخطيب البغدادي في «تلخيص المتشابه» (١/ ٣٣٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٨)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٨)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٧٥).

(٣) أي: من وسطه، وقيل: من أصله، وقيل: البُطْنان: جمع بطن، وهو الغامض من الأرض، يريد: من دواخل العرش. انظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ١٣٧).

(٤) في (ف): «يا محمد، يا أمة محمد».

ووضَعْتُم نسَبي، فأنا اليومَ أرفعُ نسَبي وأضَعُ أنسابَكم، ألَا فليَقُمِ المُتَّقون[(١)].

وقال الإمام القُشَيري رحمه الله: إذا كانت الأصولُ تُرْبةً ونُطْفةً وعَلَقةً، فالتَّفاخرُ بماذا؟ أَبِتُرْبٍ مَسْنونٍ، أو بنُطْفَةٍ في قَرارٍ مَكينٍ، أو بماءٍ يَنْطوي عليه ظاهرُكَ، أو بأفعالكَ التي هي بالرِّياء مَشُوبةٌ، أو بأحوالكَ التي هي بالإعجاب مَصْحُوبةٌ، أو بمُعاملَتِكَ التي كلُّها خيانةٌ؟!

قولُـه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾: فـ﴿أَتْقَىٰكُمْ﴾[(٢)] أبعدُكم مِن نفْسِه، وذلك أقربُكم مِن ربه[(٣)].

* * *

(١٤) ـ ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾: وهذا مُتَّصِلٌ بما مَرَّ في ذِكْرِ جَفاءِ الأعراب في أخلاقهم وعقائدهم ورُؤْيَتِهم الفَضْلَ بأنسابهم وعشائرهم.

---

(١) رواه المعافى بن عمران في «الزهد» (١٣٣)، والحارث في «مسنده» (٨٥٦)، والطبراني في «الصغير» (٦٤٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٧٢٦)، والثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٥٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٧٥)، والواحدي في «الوسيط (٤/ ١٥٩). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨٤): فيه طلحة بن عمرو، وهو متروك.

ورواه من طريق آخر الحاكم في «المستدرك» (٣٧٢٥)، وقال: هذا حديث عال غريب الإسناد والمتن، ولم يخرجاه. وقال الذهبي: فيه المخزومي بن زبالة: ساقط.

(٢) في (أ): «هم»، وفي (ف): «فأتقاهم».

(٣) في (ف): «وأتقاهم أبعدهم من نفسه فذاك أقربهم من ربه» بدل من «فأتقاكم أبعدكم من نفسه وذلك أقربكم من ربه». وانظر: «لطائف الإشارات» للقشيري (٣/ ٤٤٣).

وقولُه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾: أي: قالت طائفةٌ منهم: ﴿ءَامَنَّا﴾.

واختُلِفَ فيهم، والأظهرُ أنهم كانوا مُنافقين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ لِيُلْحِقَهم رسولُ اللهِ ﷺ بمراتبِ المؤمنين المُخْلِصين، فأَطْلَعَ اللهُ نبيَّه عليهم(١)، فقال:

﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾: أي: لم تُصَدِّقوا بقلوبكم ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: استَسْلَمْتم لِخوفِ القتل، فقولوا: ﴿أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: خَضَعْنا وانْقَدْنا.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾: أي: ولم يدخُلْ، و(ما) صِلَةٌ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت الآيةُ في نفَرٍ مِن بني أَسَدِ بنِ خُزيمةَ، قدِموا على رسول الله ﷺ المدينةَ في سَنَةٍ جَدْبَةٍ، فأَظْهَروا شهادةَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، ولم يكونوا مؤمنين في السِّرِّ، فأفسَدوا طُرُقَ المدينة بالعَذِراتِ، فأَغْلَوا أسعارَهم، وكانوا يَغْدُون ويَرُوحون على رسول الله ﷺ، ويقولون: أَتَتْكَ العربُ بأنفسها على ظُهور رواحِلها، وجئناكَ بالأثقال والذَّراري، فيُريدون الصَّدَقَةَ، ويقولون: أَعْطِنا، ويَمُنُّون على رسول الله ﷺ، فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ(٢).

وقال قتادةُ: واللهِ ما عَمَّتِ الأعرابَ؛ لأنَّ مِن العَرَبِ مَن يؤمِنُ بالله واليوم الآخر، ولكنْ كانوا حيًّا مِن أحياء العرب يَمُنُّونَ بإسلامهم على رسول الله ﷺ، فقالوا: آمنَّا ولم نُقاتِلْكَ كما قاتلَكَ بنو فُلانٍ وبنو فُلانٍ، فأنزل اللهُ هذه الآيةَ(٣).

وقال السُّدِّي: نزلَتْ في الأعراب الذي ذكرَهم اللهُ في سورة الفتحِ، وهُم

---

(١) في (أ): «على غيبتهم»، وفي (ف): «على عيبهم».

(٢) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٤٩)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ١٥٩)، والزمخشري في «الكشاف» (٤/ ٣٧٧).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٤٣)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٥٨٩)، والطبري في «تفسيره» (٢١/ ٣٩١).

أعـرابُ مُزَيْنَـةَ وجُهَيْنَـةَ وأَسْـلَمَ وأَشْـجَعَ وغِفارٍ، كانـوا يقولـون: آمنا بـالله؛ لِيَأْمَنوا على أنفسـهم وأموالهـم، فلما اسـتُنْفِروا إلـى الحُدَيْبِيَـةِ تخلَّفوا(١).

وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾: أي: تُخْلِصوا وتتوبوا مِن النِّفاق.

﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾: أي: لا يَنْقُصْكـم مِـن ثـواب أعمالِكـم شـيئاً، مِـن (لاتَ يَلِيـتُ).

وقال قُطْرُبٌ: ويجوزُ أنْ يكون مِن (وَلَتَ يَلِتُ)، وهو في معناه(٢).

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿ولا يَالِتْكُم﴾ بالألف وتَلْيين الهمزة(٣) كما هو طريقُه في المهموزات(٤)، وهو في معناه أيضاً، وقد (أَلَتَه يَأْلِتُه)؛ أي: نقَصَه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١].

وقال قُطْرُبٌ: يُقال: (أَلَتَه بيمينٍ يَأْلِتُه)؛ أي: غلَّظَ عليه(٥).

ورُوِيَ أنَّ رجلاً قام إلى عمرَ فوعظَه، فقال له رجل: لا تَأْلِتْ يا أميرَ المؤمنين(٦)؛ أي: لا تُغَلِّظْ عليه.

---

(١) ذكره عنه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٨٩)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٣٥٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ١٥٤).

(٢) انظر: «غرائب التفسير» للكرماني (٢/ ١١٢٥)، و«الكتاب الفريد» للمنتجب الهمذاني (٥/ ٦٦٧).

(٣) في (أ): «بالألف وبتبيين الهمز»، وكلاهما ينسب لأبي عمرو، يعني التليين والتبيين، انظر التعليق الآتي.

(٤) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠٦)، و«التيسير» للداني (ص: ٢٠٢). قال الداني: قرأ أبو عَمْرو: ﴿يألتكم﴾ بهمزة ساكنة بعد الياء، وإذا خفف أبدلها ألفًا، والباقون بغير همز ولا ألف.

(٥) انظر: «المحتسب» لابن جني (٢/ ٢٩٠).

(٦) رواه ابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/ ٧٧٣) عن الحسن، وذكره أبو حيان التوحيدي في «البصائر والذخائر» (١/ ١٩).

وقال هارون القارئُ على هذا: (لا يَأْلِتْكم)؛ أي: لا يُغَلِّظْ عليكم، وتحقيقُه: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالأعمال بعد تصحيحِ الاعتقاد بالقلب، والإقرارِ باللِّسان، لا يُغَلِّظْ عليكم شيئاً مِن الأعمال؛ أي: الشَّرائعُ كلُّها سَهْلَةٌ سَمْحَةٌ لا غِلَظَ فيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: يغفِرُ ما كان مِن الذُّنوب قبلَ[1] التوبة والإخلاص.

* * *

(١٥ ـ ١٦) ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أي: صدَّقوا بقلوبهم، وأقرُّوا بألسِنَتِهم.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾: أي: لم يَشُكُّوا.

﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: أعداءَ اللهِ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾: المُحَقِّقون دَعْواهم، المُسْتَكْمِلون معناهم.

ولَمَّا نزلَتْ هذه الآيةُ جاؤوا وحلَفوا أنَّهم مُخْلِصون، فنزلَ قولُه تعالى:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾: التَّعليمُ هو الإعلامُ؛ كالتَّعْظيمِ هو الإعظامُ، استفهامٌ بمعنى التَّوبيخِ والإنكارِ.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾: مِن الإخلاصِ والنِّفاقِ وغيرِ ذلك.

* * *

---

(١) في (ر): «بعد»، والمثبت من باقي النسخ، والمعنى واحد على أن تعلق (بعد) بـ«يغفر»، أو تعلق (قبل) بحال من «الذنوب».

(١٧ ـ ١٨) ـ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قولُه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ﴾: وهو بما حَكَيْنا عنهم.

﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: ليس هذا بتحقيق الإيمان لهم، بل معناه على الشَّرْط المذكور في آخره: ولو كنتُم آمَنْتُم كما ادَّعَيْتُم فصدَّقْتُموني سِرًّا وعَلانِيَةً، لكانت المِنَّةُ لله عليكم بأنْ هداكم.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: قرأ ابنُ كثيرٍ وعاصمٌ في روايةٍ[1] بياء المُغايبة رَدًّا على قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾، وقرأ الباقون بتاء المخاطبة رَدًّا على قوله: ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ﴾[2].

واللهُ تعالى أعلَمُ، وله الحمدُ والمِنَّةُ[3]

* * *

(١) في (ر): «في رواية أبي بكر»، وفي (ف): «في رواية حفص»، ورواية الياء جاءت في رواية حفص عن عاصم ذكرها الهذلي في «الكامل» (ص: ٦٣٩)، لكنها خلاف المشهور عن حفص. انظر التعليق الآتي.

(٢) انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٦٠٧)، و«التيسير» للداني (ص: ٢٠٢)، كلاهما عن ابن كثير وحده.

(٣) في (ف): «والحمد لله رب العالمين» بدل: «واللهُ تعالى أعلَمُ وله الحمدُ والمِنَّةُ».